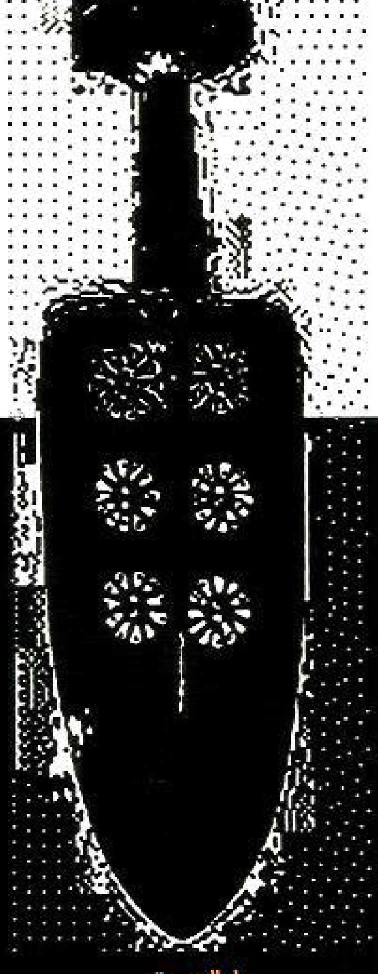
محمد المنسي قنديل

كتيبة سوداء

رواية



دار الشروق

كتيبة سوداء

كتيبة سوداء

محمد المنسي قنديل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٢٦٦٥/ ٢٠١٤
ISBN 978-977-09-3323-7

محمد المنسي قنديل

كتيبة سوداء

رواية

دار الشروق

عام ١٨٦٣م

- ١ -

في البدء كان هناك سلطان وتاجر وتمساح، التاجر «ود الزبير» كان واحدًا من هؤلاء الثلاثة، لا يعرف إن كان للآخرين أسماء أم لا، فالصلة بينهم لم تنشأ إلا في لحظات عابرة، وسط مكان ناء، يبدو من فرط عزلته كأن لا وجود له، غابات من خضرة عميقة، وأشعة من ضوء مقطر كالسراب، ورطوبة خانقة، لا يخترق صمتها إلا ذباب طنان، لا يترك ضحاياه إلا تحت سطوة كوابيس المرض، ويبقى اللقاء بين ثلاثتهم مجرد مصادفة عبثية، وسط أحراش ومستنقعات ممتدة بلا أفق، تدعى «بحر الغزال»، عالم لم ترسم خرائطه بعد ولم يخرج من ظلمة المجهول، ولكن المشكلة أن سلطان «الدنكا» قد أهمل «ود الزبير» لمدة ثلاثة أيام كاملة، رغم أن التاجر يعرف الأصول، أرسل إليه ليعلمه بوصوله، واستأذنه حتى ترسو سفينته على حافة مملكته، لم تكن هناك سابقة للتعاملات بينهما، لكن المقامات محفوظة رغم تباعدها، فالسلطان سلطان حتى ولو كانت قبيلته مخفية في عمق الغابات، والتاجر مجرد «جلاب» مهما ارتفعت ثروته، عليه أن يتحلى بفضيلة الصبر ويلتزم بآداب الانتظار، لا يغادر سفينته، ولا يخطو على شاطئ النهر، يجلس لساعات طويلة واضعا البندقية على ركبتيه، يأكل من طعامه المخزون، ومن فاكهة أصابها العطن، لا يعلن عن بضاعته، ولا يقوم بأي نوع من المقايضة ولو في مقابل إبرة صغيرة من المعدن،

يتشاغل فقط بمراقبة أفراد القبيلة من خلف الأعشاب البرية التي تحيط بالنهر، يأتي الأطفال في البداية، يحدقون فيه بعيون مستديرة كحبات الخرز، يصدرون أصواتا كطيور مفزوعة قبل أن يختفوا، يظهر بعدهم مقاتلو سلطان «الدنكا»، حول أعناقهم عقود من قطع العظام الصغيرة، يلوحون نحو السفينة برماح طويلة، محفور على وجوههم ندوبا غائرة غير ودية، لا تنبئ بالخطر إلا عندما تدهن بالألوان، كأنهم يعبرون بها عما في داخل نفوسهم، لا تظهر النسوة، لا تجرؤ واحدة منهن أن تخطو إلى حافة النهر، لا لجلب الماء ولا لغسل الملابس، وهذا فأل سيئ، فالقبيلة لن تعطيه الأمان إلا إذا ظهر نساؤها، ولكن التمساح يظهر قبل الجميع.

يفاجأ «ود الزبير» بوجوده نائما على الشاطئ في مواجهة السفينة، كأنه جذع شجرة مغطى بالحرافيش، مستلق تحت الشمس جامدا كالموت، لا يظهر على حقيقته إلا عندما ينهض واقفا على قوائمها القصيرة ويلقي بنفسه في المياه، يرتج النهر في رعب، ويهتز القارب تحت أقدامهم، لم يكن تمساحا عاديا، لكنه أضخم من بقية التماسيح، يتقلب في الماء فتظهر بطنه بيضاء ناصعة، ويفتح فمه الواسع عن أنيابه المائة، ستون في الفك الأعلى وأربعون في الأسفل، منظره مخيف، رغم أنه ليس كائن النهر الوحيد، هناك العديد من أفراس النهر التي تسبح بدِعّة، تتجمع في أسراب متتابعة لتبعد التماسيح عنها، تشق الماء وتلتهم كل ما يقابلها من أعشاب، وتتجه دائمًا جنوبا، كأنها في رحيل دائم إلى منبع النهر، ولكن التمساح ليس وديعا، مخلوق خرافي صوره محفورة على جلاميد الصخر، كأنه قُدَّ منها، ودبت فيه حياة غامضة جعلته أشبه بإله شرس، يراقب «ود الزبير» جسده القوي مأخوذ، وهو يغوص بحثا عن سمكة ما، ثم يظهر فجأة وهو يحرك شدقيه، يقبض

حراس السفينة على بنادقهم المحشوة بالطلقات، يقول له معاونه «خميس» في قلق: ربما يصطدم بالسفينة ويخترق جدرانها، فلنطلق عليه النار جميعًا. يرفض «ود الزبير» أن يعطيه الإذن، التمساح ما زال بعيدا، ولا يجب إهدار الطلقات في الماء، وربما تكون أضعف من أن تنفذ داخل حراشيفه، ولكن المهم أن هناك فرصة ما زال التاجر ينتظرها، رغم ما في ذلك من مخاطر، فهو يمكن أن يقلب السفينة بضربة واحدة من ذيله القوي. لا يكف التمساح عن التهام كل ما في القاع من أسماك عمياء، يحول النهر الهادئ إلى مكان للنهم والترقب، لم ير «ود الزبير» مثل هذا المشهد في مستنقعات بحر الغزال من قبل، فالأمواج تكتسب هدوءا وقورا، لا يكف الشريان الرئيسي للنيل الأبيض عن الانقسام والتفرع إلى نهيرات وترع ومستنقعات، تتجمع أحيانا في بحيرات واسعة تتوه فيها السفن إذا لم تكن تعرف طريقها، وتحف بها الأحراش الكثيفة أحيانا أخرى كأنها توشك أن تخنقها.

يهدأ التمساح أخيرًا بعد أن التهم وجبته الكاملة من أسماك النهر، يسبح ببطء، يزحف بقوائمه الصغرى عائدا للشاطئ، والماء يقطر من حراشفه، يجف الماء من على جسده ويعود إلى هيئته الأولى، فرع شجرة جاف ملقى بجوار النهر. يتنهد «ود الزبير» أخيرًا في ارتياح، يزول الخطر مؤقتا، يتركهم يراقبونه ويهبط إلى قاع السفينة، يدخل إلى غرفته الخشبية الموصدة جيدا، حيث يحتفظ بنقوده وبضائعه الثمينة، يتفقدها ويتأكد من وجود كل شيء على حاله، يبدل البندقية بأخرى، ويعود إلى السطح حيث يقفون جميعا. يحمل سلاحا غريبا، بندقية من صلب أسود، مكونة من ماسورتين واسعتين، طويلتين فوق العادة، يتم حشوها بطلقات نحاسية مدببة، تبعث بالرهبة في نفس من يراها وهي تلمع تحت ضوء الشمس. يقول «خميس» مبهورا: هل هذه البندقية

وحدها قادرة على قتله؟ لا يعرف «ود الزبير» ولم يكن ينوي قتله الآن، يقول لخميس: لو ظل ساكنا هكذا فلن أمسه، أريده أن يتحرك حتى يعلن عن وجودنا.

يدرك «ود الزبير» أنه قد أوغل في الإبحار جنوب النهر أكثر مما ينبغي، ترك خلفه زرائب التجار في مشروع الرقيق، والقبائل التي آلف الاتجار معها، وأخذ يسعى إلى أرض لم يطأها جلاب من قبله. طوال إبحاره وهو يراقب سلسلة جبال «مرة» تبدو من خلف الغابات، لا ينقطع دخان النيران الموقدة على هضابها، وتلتقي الأنهر وتفترق عند سفحها كمتاهة لا تكف عن السيولة. تمتلئ الغابات بأقوام معادية، ما إن يروا اقتراب أي سفينة حتى يذبحوا رأسا من الغنم ويلقونها في النهر، تحذير واضح يمنع السفينة من الاقتراب من أرضهم. يظهر أقزام سود ذوي لحية طويلة تلامس الأرض، أشد الصيادين براعة في الغابة، يبنون سدودا من أغصان «اللوتس» الجافة ويقطعون طريق السفن، من الصعب دائمًا التعامل معهم. وهناك قرى أخرى على النهر، الرجال فيها بلا أهمية ولا رأي، النساء هن اللواتي يحكمن، من السهل التعامل معهن لأنهن يهوين الخرز والأصداف ويعشقن مضاجعة الغرباء، مكان جيد للاتجار والمتعة أيضًا. لا يترك «ود الزبير» في نفسه مجالا لإغراءات هذه القبائل، الربح بالنسبة له أكثر إثارة من إشباع رغبته، ولكنه يرخي العنان لرجاله وبحارته، بعض من مزايا الرحيل في رفقته، وحتى يتحملوا طول السفر. لا نهاية للنيل الأبيض ولا مدى لأسرار «بحر الغزال»، حيوانات تزأر وقطعان من الفيلة تسير على حافة الأفق، وفخاخ توقع بالغزلان الرقيقة والجواميس الساذجة، ستة عشر يوما من الرحيل المتواصل، بين أشجار السنط والصمغ والغاب والممبوزيا الباسقة الألوان. تداخلت رطوبة النهر في عروقه، ولم تعد

تخلو بقعة في جلده من لدغ البعوض، وها هو ذا يقف على حافة النهر، ينتظر سلطانا ويراقب تمساحا، ولا يدري ماذا سيفعل بتلك البضائع المتراكمة في قاع سفينته.

هل يستحق الأمر كل هذه المخاطرة؟ هل يعلم السلطان بوجوده حقا؟ حتى الآن لم يتحدث مع أحد من أعوانه، لم يقذفوه حقا بالرماح ولكنهم لم يرحبوا به، كل ما يقدر عليه هو الصياح بالمحاربين الذين يظهرون على الشاطئ، يخبرهم أنه تاجر «جلاب» من «دنقلة»، يريد أن يقدم طاعته لسلطانهم، يقول ذلك بقوة حتى يعرفوا أنه لا يستجدي، لكنهم يختفون سريعا.. هل سمعوه؟ هل فهموا كلماته؟ لا يرد أحد عليه. من أي طينة جُبل هذا السلطان؟ ألم يتحرك فضوله ليرى ماذا يحمل هذا التاجر القادم من عالم آخر ودنيا مختلفة؟ ولكنه كتاجر يكبت دائما رغباته حتى تحين اللحظة التي يستطيع أن يفرض فيها شروطه، ولكن متى؟ لا يدري..

يجلس على مقعد بجانب حافة السفينة، يضع البندقية على فخذه ويخرج منديلا أبيض يغطي به وجهه، يميل برأسه للخلف محاولا التنفس بشكل منتظم. هذه نومته المريحة الآمنة تحت ضوء النهار، الاستكانة لهدوء الليل تعني الخطر، حيوانات تزأر وخفافيش عمياء تجذبها لمعة النهر في الليالي المقمرة. ينتفض واقفا حين يسمع صراخا قادما من الشاطئ، يزيح المنديل عن وجهه فلا يرى سوى الدم، أنياب التمساح تطبق على النصف السفلي لطفل تعس، رأسه الصغيرة ما زالت تصرخ فزعة، والدم يسيل على شدقي التمساح، يقوم بفعل الافتراس المعتاد، ينتظر أن تكف الضحية عن المقاومة حتى يلتهمها. يرفع «ود الزبير» البندقية ويركز بصره على بطنه ثم يضغط على الزناد، تنطلق القذيفتان في وقت واحد، يدوي صوتهما كضربة رعد، يرتج

جسد التمساح في هِزة مفاجئة، ويرددها الصدى كأنه عشرات الطلقات المتتابعة، يتحرك التمساح في وهن وينفرج فكيه قليلا، تسقط البقية من جسد الغلام ملطخة بالدم، تظهر من خلف الغاب الكثيف امرأة ملتاعة، تنكب على بقايا الطفل وتحمله بين أحضانها ثم تعدو مبتعدة. يخفض بندقيته ويهتف تابعه «خميس» منبهرا: بندقية مسحورة.. لقد صرعته بطلقة واحدة، يصحح له في زهو: طلقتان.. ربما لم يمت بعد، التماسيح كالقطط تمتلك العديد من الأرواح..

لا يتحرك التمساح، ولكن صوت طلقته يحرك السكون، برهبة وخطوات مترددة يبدأ أهالي القبيلة بأجسادهم النحيفة في الظهور، يحركهم فضول أقوى من خوفهم، يرمقون السلاح الذي يمسكه في حذر، يتقدمون من التمساح، يضربونه أولا بأغصان الشجر، وعندما لا يستجيب أو يتحرك، يقتربون أكثر، يتفحصون ثقب بطنه الذي ينساب منه الدم، يدوسون على جسده بأقدامهم، ثم تحل عليهم لحظة ذهول، يجثون جميعا على ركبهم، رجالا ونساء، يرفعون أيديهم إلى أعلى في ابتهال، يحنون رءوسهم حتى تلامس الأرض، يتوجهون نحوه بأجسادهم وأبصارهم، هل يشكرونه أم يصلون له؟ كأنه وثن خارق القوة جاء عبر النهر، حتى الأم التي كانت تحمل البقايا الدموية لطفلها، تتقدم وتنحني حتى تلمس الأرض بجبينها وهي لا تكف عن البكاء. يتراجع «ود الزبير» من أمامهم، هذا أكثر مما يطيقه، كان مجرد تاجر، لا يريد أن يؤلهه أحد أو يجعله طرفا في التنافس على أي سلطة، لا يريد أن يغضب السلطان أو يثير حنقه، يهبط سريعا إلى قاع السفينة ويجلس في عتمتها محاولا التغلب على رجفته، هل يسارع بالرحيل عن هذا المكان؟ هل يبحث عن التجارة في مكان آخر؟ ينتظر حتى يسمع أصواتهم وهم ينصرفون، يسود الغابة والنهر صمت مطبق.

يسمع طرقا على الباب، ويطل «خميس» وعلى وجهه ابتسامة غامضة، يقول: أخيرًا.. وافق السلطان على مقابلتك، أرسل حراسه إلينا. ينهض واقفا، يأتي الإذن الذي انتظره طيلة أربعة أيام كاملة، يلف عمامته البيضاء حول رأسه ويزيد من ضخامتها، يضع على كتفه عباءة منسوجة من «وبر الناقة»، ويعلق البندقية، يجهز نفسه للمساومة. لكنه لا يجب أن يذهب خالي اليدين، هدية التعارف مع السلطان حاضرة منذ البداية، عباءة من الحرير فاقعة الألوان، وعقود من الأصداف، يكفي هذا كمقدم، ثم من يعرف ماذا سيتبع ذلك. يخبئ خنجرا بين ثيابه بعناية، لا بد من أخذ الحذر، رغم أنه ما دام هو الذي أرسل إليه فلن يغدر به، الآن على الأقل.

يخرج إلى ظهر السفينة يتبعه «خميس»، ينتظره على الشاطئ، بالقرب من جثة التمساح، اثنان من محاربي القبيلة، عاريان إلا من زنار من لحاء الشجر حول وسطيهما، في يد واحد منهما رمح طويل من غصن شجرة، مربوط بطرفه قطعة من العظم مشطوفة ومستدقة. لم يعرفوا بعد كيفية صهر الحديد كما تعودت قبائل الشمال. يشيران نحوه ليتبعهما، يحمل «خميس» بندقية ويحاول أن يتبعه، لكن واحدا من المحاربين يرفع يده رافضا، ينظر «خميس» إليه مترددا، يومئ له «ود الزبير» برأسه حتى يبقى في مكانه، يقول له محذرا: إذا تأخرت عليكم أكثر من اللازم، حلوا السفينة وارحلوا على الفور، لا تدعهم يأخذون عقدا واحدا من الخرز، واحك لأخي عبد الرحمن عن كل ما حدث..

يقفز للشاطئ ويسير خلف المحاربين، جف الدم الذي يحيط بالتمساح وحط الذباب عليه، وتحوم عشرات الجوارح في السماء، يلصق بعض الأهالي جباههم بالأرض، لا يحاول أن يحدث أحدا أو يدع أحدا منهم يلمسه، يردد في سره آيات القرآن وهو يبتعد عن الشاطئ.

يدخل تحت سماء من فروع الأشجار المتشابكة، ممر طويل يقودهم لمدخل القرية وأكواخها المكونة من أغصان الأشجار والبوص، أكواخ سقوفها مخروطية، مغطاة بطبقة من الطين الجاف، أبوابها ضيقة، لا يستطيع الشخص دخولها إلا وهو محني الرأس. يخرج أهلها ليتأملوه، رجال ونساء أشباه عرايا، صدور النساء نافرة، صلبة، لو أتاح له السلطان الفرصة لتحسسها جميعا، يسارعن بالانحناء أمامه، يظهر واضحا تأثير صوت الرعد الذي أرسلته بندقيته. أبقار كثيرة واقفة على جانب الطريق، تتأمله أيضًا بعيونها الواسعة دون أن تحاول الركوع، يتكاثر المحاربون، يسيرون أمامه وخلفه، إضافة إلى جمع من الأطفال، يجتازون الأكواخ والحظائر، يسيرون إلى ممرات أكثر ظلمة، وسط أشجار وشجيرات وأعشاب وطحالب، عالم الغابة الأزلي الغامض المستقر، تزداد الرطوبة لدرجة خانقة، لا يسمع سوى صوت طيور مفزوعة وحيوانات تخور أو تعوي. يواصلون السير محافظين على نفس المسافة بينه وبينهم، تستدير أقدامهم مع الطرقات الملتوية التي تبدو بلا عودة، تظهر ساحة واسعة، مليئة بالحشائش، تنتصب في منتصفها شجرة وحيدة، هائلة الجذع باسقة الغصون، تبدو مختلفة عن بقية الأشجار، أكثر هرما كأنها وجدت قبل أن توجد الغابة، وكأن سيدنا آدم هو الذي وضع غرستها الأولى، يحيط بها سياج دائري من أغصان جافة، في داخله يجلس أحد الأشخاص متوجها للشجرة، يغطي جسده برداء من جلد «أصلة» ضخمة، مرقشة بحراشيف رمادية. يتوقف المحاربون على مبعدة، يشير أحدهم له حتى يتقدم، يدرك أن السلطان يجلس متعبدا لتلك الشجرة، يعتقد أن أرواح أسلافه مخزونة فيها. شاهد هذا الطقس في أكثر من مكان على طول «بحر الغزال»، كل الأشجار القديمة مكدسة بأرواح لا تريد أن تغادر عالمها الأرضي. يبدو السلطان مستغرقا في الابتهال، ولكن صوت

الطلقة لم يضع، لا بد أنها اخترقت أذنيه. يستدير «ود الزبير» قليلا ويقف أمامه، يتأمل ملامحه، لا يستطيع أن يعرف له عمرا، ولكن جسده يبدو قويا ومتماسكا، وجهه مليء بجروح قطعية طولية، يواصل الابتهال مغمض العينين. لا يحاول «ود الزبير» الجلوس بينه وبين الشجرة، يظل واقفا حتى يفتح عينيه، يرمقه بعينين نفاذتين، كأنه يزن قدره، يومئ له برأسه، يتقدم «ود الزبير» خطوتين فقط ثم يمد يديه مقدما له العباءة الحريرية الفاقعة الألوان، يغمغم: لعلها تليق بمقامك أيها السلطان، لا يتناولها منه، يركز بصره على البندقية المعلقة على كتفه، يدرك بغريزته أنها سبب الرعد المدوي عند النهر. يجلس «ود الزبير» ويضع البندقية على ركبتيه، تحت أنظار السلطان الذي يتحدث إليه أخيرا بصوت بارد: لست أدري لماذا لم آمر بقتلك في اللحظة التي وصلت فيها إلى شاطئنا؟ لقد حذرتني أرواح الأسلاف من قدوم الغرباء، وحرمني صوت الرعد الذي أصدرته من التواصل معها.

بداية جافة، ولكن الكلمات لا ترهب تاجرا مثله، الكلمات هي مادة المساومة، ينتزع ابتسامة ويضعها على شفتيه قائلًا: عفوا أيها السلطان، مكثت على الشاطئ أربعة أيام كاملة دون أن أصدر صوتا، ودون أن أغادر سفينتي ولكن الأمر كان يستحق، أطلقت صوت الرعد فقط لأخلص ناسكَ من شر التمساح.

يشير السلطان للبندقية محاذرا أن يلمسها: هذا الشيء الصغير فعل هذا؟ هل يقدر على الأسود والفيلة؟

كما توقع، يقودهما الحديث لبداية صفقة بأسرع مما توقع، يقول «ود الزبير» في قوة: إنها قادرة على قتل كل أعدائك أيها السلطان، وأن تجعلك السلطان الأوحد في هذه الغابة.

تلمع عينا السلطان دون أن يحاول أن يلمس البندقية، يتأملها بالدرجة نفسها من الحذر، يتلمس لحيته الشبيهة بلحية الماعز ويتذكر في صوت خافت: عندما كنت صغيرا مرت سفينة الباشا الكبير من أمامنا، كانت في طريقها لبحيرات السماء في الجنوب، وكان جنوده يمتلكون مثل هذا الشيء المريع، يطلقونها على أي شيء يتحرك على الشاطئ، قتلوا الأبقار والضواري والنساء اللواتي لم يتمكن من الهرب، نجونا فقط عندما سجدنا من أجل قوتهم الطاغية، وحتى ترفع أرواح الأسلاف اللعنة عنا. لم أنس من يومها هذا الصوت المدوي، و تمنيت أن أمتلكه حتى يسجد الجميع أمامي، ولم أتخيل أنني سأسمعه من جديد حتى جئت أنت.

يرفع «ود الزبير» البندقية ويوجه فوهتها للسماء، ينظر السلطان نحوه في وجل، ويبتعد المحاربون عدة خطوات للوراء، ولكنه لا يطلقها، لا يريد أن يجازف بإثارة رعب السلطان أمام رجاله، يقول في همس كأنه يودعه سرا: إذا امتلكتها لن تكون ملعونة، ستكون كذلك فقط على أعدائك، ستجعل عصارة الحياة تجف في أجسادهم، ويتحولون أمام قوتك إلى أغصان جافة.

يقول السلطان متوجسا: حتى بالنسبة لمحاربي «الشيليك»؟

يدرك «ود الزبير» أن هؤلاء هم أعداؤه الرئيسون، كابوسه الليلي ورعب قبيلته، يرد عليه مؤكدا: سيتساقطون كالطيور المذبوحة، ويحترقون كأوراق الشجر.

كان «ود الزبير» يعرف أن البندقية مؤمنة ضد الانطلاق، يقدمها له بحركة حاسمة، يتناولها الزعيم في رهبة، تستدير أصابعه على مؤخرتها، ويقبض بيده الأخرى على الماسورة، يتأملها في انبهار،

يتحسس نعومتها القاتلة، يعدو جميع المحاربين هربا إلى الغابة الآمنة، يقلب السلطان البندقية حائرا، تعتريه رجفة: من أين جاء هذا الشيء القاتل؟

يقول «ود الزبير»: من بلاد بعيدة تدعى «بروسيا»، متخصصة في صنع الأسلحة الفتاكة، ولا أحد يضاهيها في ذلك، لا الباشا الكبير ولا الفرنجة ولا حتى سلطان الترك.

لا يعرف السلطان شيئا عن هذا، يذكر له «ود الزبير» ذلك فقط ليزيد من إبهاره. يخرج بعض الطلقات النحاسية من جيبه، لامعة كفتات من شمس، قاعدتها مستديرة، وطرفها مدبب، يقربها من وجه السلطان وهو يقول: هذه بذور الموت، أقوى من الرماح والسهام المسمومة بمئات المرات، ولا تخطئ هدفها، تحسسها، إنها آمنة الآن في يديك، ولكنها قاتلة لأعدائك.

يقبض عليها السلطان بأصابعه، يقبض على قوتها الغامضة اللامحدودة، يرتجف في نشوة: أريد أن أسمع صوتها مرة أخرى.

يبتسم، يتحول إلى طفل أمام لعبة أقوى من إدراكه يقول «ود الزبير»: سد أذنيك بأصابعك، سأوجه طلقة للفضاء البعيد، رعد قاتل سيقضي على كل من يقف في طريقه.

يسند البندقية إلى كتفه، ويعيد صمام الأمان للخلف، يضغط على الزناد، يدوي الصوت في سكون الغابة، يفقد السلطان توازنه ويوشك أن يسقط إلى الوراء، تهتز غصون الشجرة الضخمة ويندفع منها سرب هائل من الطيور، طيور مفزوعة كانت هاجعة على أعشاشها منذ آماد بعيدة، ترتجف الغابة ويتردد صدى الدوي. يظل السلطان واضعا كفه على أذنيه وقد طفرت الدموع من عينيه، يرتفع عواء الحيوانات من بعيد،

محتجة أو خائفة، ويراقب السلطان خيط الدخان المتصاعد من البندقية وهو يشهق. يعود «ود الزبير» إلى جلسته الوديعة كأنه لم ينتهك كل هذا السكون. يقول السلطان بعد طول تردد: لماذا أحضرت هذا الشيء الرهيب، حتى الباشا الكبير لم يكن عنده هذا الرعد الصاعق؟

يقول: أنت أكبر سلطان في قبائل بحر الغزال، وإن كان لا بد من قوة الرعد فعليك أن تمتلكها، هذا هو الموت المزدوج، بعد ذلك لن تقدر قبيلة على التعرض لك أو مناوءتك.

يحدق فيه مندهشا: هل تعني أنه من الممكن أن تتخلى عنه؟

يبتسم في وجهه حتى يتخلى عن عبوسه: أنا تاجر، أبيع أي شيء ما دام الثمن مناسبا.

يبتلع ريقه ويفكر في الثمن الذي عليه أن يدفعه، يقول متمهلا: كم واحدة منها لديك؟

يفرد «ود الزبير» يده ويريه أصابعه: خمس، كل واحدة منها أقوى من الأخرى، وأستطيع أن أدربك أنت وأولادك أو من تثق بهم على استخدامها.

يبلع السلطان ريقه مرة أخرى، لعله كان يتصور مقاتلي قبيلة «الشيليك» وهم يعاودون الهجوم عليه، وهو يفاجئهم بهذه الصاعقة الأرضية، ضربة الرعد التي تخطف أرواحهم، يقول: سأعطيك كل ما تريد من سن الفيل وريش النعام وحلقات الذهب.

يظل وجه «ود الزبير» جامدا، لا يبدو أنه قد تأثر بهذا العرض، يقول دون حماس: لو كنت أرغب في أمثال هذه البضائع ما أوغلت في الرحيل جنوبا لهذا الحد، كنت لأتاجر مع أي رئيس لأي قبيلة في

الطريق وسأجد عنده الكثير منها، ما كنت جئت لسلطان «الدنكا»، بأشياء أكثر قيمة مما تعرضه عليّ.

يغضب السلطان فجأة، يرفع ذراعه مهددا: أستطيع أن أسحقك الآن، كما يطأ الفيل الأرنب، وأستولي على كل ما تملك.

يحافظ «ود الزبير» على هدوئه، عليه أن يكون حازما لا غاضبا: مكثت على شاطئك أربعة أيام في سلام كامل، وكان في إمكاني أن أهجم على قبيلتك وأقتل ما أستطيع وآسر ما أريد، ولكني تاجر ولست قاتلا، وحتى لو حصلت على البنادق الخمس فلن تكون قادرا على استخدمها، وعندما تنفد منك الطلقات فلن تجد من يمدك بها.

يصمتان سويا، ويمتلئ الجو بأنفاسهما الثقيلة، كل واحد منهما رابض في مكانه، لم تنته الصفقة بعد. لكن الغابة تستعيد هدوءها، تبدأ الطيور المفزوعة في العودة للشجرة، وتذوب بقايا الشمس وتصبح السماء رمادية وأميل للكآبة، يحدق فيه السلطان بعينيه النفاذتين، يحاول أن يقرأ أفكاره، يهمهم: ماذا تريد في مقابلها، ما هو الثمن؟

يقول: أريد عبيدا، عشرة منهم في مقابل كل بندقية، شريطة ألا يكونوا مرضى ولا مشوهين ولا ناقصي الأعضاء.

يقول السلطان في صوت مكتوم: لا أستطيع أن أشن حربا الآن على أي قبيلة لأحصل على العبيد، قبيلتي أضعف من ذلك.

يقول «ود الزبير»: لكل قبيلة عبيدها، ستصبح الأقوى بعد أن تمتلك قوة الرعد، ستهاجم «الشيليك» في عقر دارهم، وسيفرون أمامك كالوعول المذعورة.

يظل ينظر إليه صامتا، لا طيور في السماء، غيوم من رماد، ينتهي

اليوم الطويل ولا تنتهي المساومة، يقول السلطان: أمهلني يومين، إما أن تتم صفقتنا، أو ترحل عن هنا ولا تعود أبدا.

ينهض «ود الزبير» يعيد تعليق البندقية إلى كتفه، ويبالغ في الانحناء أمامه، يقول: سأنتظر مهما كان الوقت الذي تريده، ولكن سفينتي مشحونة بالبضائع، وقومك يرغبون في الاتجار معي، هل تأذن لي في ذلك؟

يومئ السلطان برأسه في شرود، يبدأ «ود الزبير» في التحرك من أمامه، يعرف أن طلبه كان قاسيا، ولكنه لم يظن أنه على هذه الدرجة من الضعف. يظهر المحاربون في تردد، عيونهم جاحظة من شدة الرعب، يطمئنون حين يشاهدون السلطان جالسا في مكانه سالما، يسيرون خلف «ود الزبير» في صمت، يجتازون الطرقة الملتوية وسط الأشجار. تصبح الغابة المظلمة أكثر رعبا، والأكواخ كتلا سوداء واهية، أمامها جذوات من نار مشتعلة، توشك الغابة أن تلتهمها، تعود قطعان البقر من مراعيها، يتبعها سرب من الخرفان، يقودها محاربون سود يمسكون الرماح، وتتبعهن نساء شبه عاريات، أثداؤهن مشرئبة بسبب برودة المساء، يتطلعن نحوه، هل سيسعين غدا إلى سفينته؟ النساء دائمًا هن أكثر الزبائن تلهفا على البضائع وعلى معاشرة الغرباء. يتراجع المحاربون حين يقترب من الشاطئ، يرتدون إلى القرية، يلمح رجاله وقوفا على حافة السفينة، أيديهم قابضة على البنادق، يقفز «خميس» وهو يسأل في توجس: لقد تأخرت كثيرًا، ماذا حدث مع السلطان؟ يبتسم «ود الزبير» ويقول في غموض: كنت أحاول أن أعقد صفقة.

عليهم أن يبقوا ساهرين على ظهر السفينة طوال الليل، لقد عرف السلطان سر البضاعة، وربما يحاول الحصول عليها بلا مقابل، لا شيء

يوثق به في الأدغال، وعادة ما يمتلئ الليل بالأشباح الهائمة، بشر وحيوانات ضالة. ولكن الصباح يأتي رغم كل المخاوف، تظهر النساء على الشاطئ أخيرًا، يندفعن للسفينة دون أن يستطيع أحد إيقافهن، يقلبن البضائع، عقود الخرز وأصداف البحر، قطع الأقمشة الملونة، أواني القصدير، القباقيب الخشبية، يصرخن في انبهار وشوق، كن على استعداد لجلب ما جمعه رجالهن خلال الأعوام السابقة: سن الفيل، ريش النعام، حلقات الذهب، جلود الحيوانات والأصلات. يذهبن ويجيء رجالهن، يبدون بنفس الدرجة من الدهشة والانبهار، لا أحد يدري ما سر افتتانهم بهذه العقود من الخرز؟ تتساوى في ذلك كل قبائل النهر، حتى أن أقزام الغابة قاموا بزراعتها، وحرصوا على ريها بالماء، وكانوا حزانى لأن كل النباتات حولها قد نمت وترعرعت، بينما ظلت حبات الخرز على الدرجة نفسها من الصلابة. تتحرك الشمس عبر النهر، ويجيء الجميع حتى محاربو السلطان، يتطلعون إليه في استعطاف دون أن يحملوا ما يبادلونه به، يبدو أن السلطان لا يعطيهم نصيبا عادلا من الغنائم، لا يحملون سوى حرابهم. يشير لخميس فيعطيهم بعضا من عقود الأصداف، يضعونها حول أعناقهم ويهزون حرابهم في جذل، رشوة من الضروري تقديمها.

يدرك من واقع خبرته، أنه ما إن يهبط الظلام حتى تأتي النساء وحيدات، لا يحركهن شيء سوى أجسادهن الجائعة ورغباتهن المتقدة، دائمًا ما تحن امرأة للمسة رجل غريب. يصبح الظلام شفافا ويضاء الليل بنيران الرغبة. يسمح «ود الزبير» للرجال بالقيام بهذه المقايضة في حدود المعقول، لا يريد رجالا متذمرين ولا نسوة متلهفات. يجئن كما توقع، يبدأن في النداء بأصوات كبنات آوى، يهبط إليهن بعضا من رجاله، غير مسموح لهن بالصعود إلى السفينة، ولا بالنجاسة. تتصاعد

أصوات التأوهات من بين العشب البري، لا يورط نفسه أبدا، لو ضعف أمام شهوته فلن ينقذ ريالا واحدا من أمواله. في اليوم التالي، لا يملك إلا أن يجلس منتظرا حتى يتلقى أي إشارة. نفذ السلطان شقا من اتفاقه وسمح لقومه بالقدوم، فماذا عن البقية؟ هل لا يزال جالسا أمام الشجرة التي تختزن أرواح أسلافه؟ كان «ود الزبير» قد باع واشترى بما يكفي لهذا اليوم، ولكن الصفقة الرئيسية ما زالت معلقة..

تبدأ الليلة التالية هادئة، زئير متباعد، وطنين لا ينقطع من حشرات الليل، نظرات الرجال هي المختلفة، نفدت البضائع وشبعوا من النساء وملوا الانتظار، يتسلل داخل نفوسهم الحنين إلى منازلهم في الشمال، يودون لو تستدير السفينة وتبدأ رحيلها مع أمواج النهر، متجنبة البرك والمستنقعات، دون حاجة للتوقف، ولكن انتظار «ود الزبير» لم يكن قد انتهى بعد. يتغير سكون الليل فجأة، يتبدد هدوءه الخادع، ترتفع صرخات مفاجئة من القرية، أصوات مختلطة، رجال يتصايحون، ونسوة يصرخن وأطفال يبكون، يمتلئ الليل بأصوات فزعة، ينتبه كل من على ظهر السفينة، يمسكون بنادقهم ويقفون عند الحافة، يسأل «ود الزبير» نفسه: ماذا حل بهم؟ هل تهاجمهم الضواري؟ ترتفع ألسنة اللهب من مكان ما، وتعدو ظلال مجهولة خلف الأحراش، هل تشتعل الأكواخ؟ يقول خميس في خوف: إنهم يتعرضون للغزو من قبيلة معادية، من الأفضل أن نبتعد. لكنه لا يريد الابتعاد دون أن يفهم ماذا يجري، مهما حدث فلن يجازفوا بالاقتراب منهم. لا يصدق أن الصفقة التي عقد عليها آماله قد انتهت بسبب غارة مفاجئة من قبيلة مجهولة. تهب الريح محملة برائحة الحريق والدم، تتواصل أصوات الرعب، تعلو وتخفت، تتكاثف ذرات الليل، لا تريد أن تنجلي. لا يريد أن يرى مياه النيل ملوثة بالدم، ولكنه لا يستطيع الرحيل. ما هو مصير السلطان

الأن؟ هل قتل أم أسر؟ ربما لو كان قد أعطاه بندقية أو أكثر لاستطاع أن يقاوم، ولكن المصائر تبدو كلها محتومة.

تهدأ الأصوات أخيرًا، تنطفئ ألسنة اللهب، يسود صمت لا تقطعه إلا صرخات خافتة، ينبثق الفجر من منحنى النهر الرمادي الرخو، يهمس خميس في أذنه: ما إن يبزغ الضوء قليلا حتى نتلمس طريقنا في النهر ونرحل بعيدا. ولكن الأصوات تبدأ في الارتفاع مرة أخرى، تقترب من الشاطئ، رجال يحتجون ونسوة يبكين، يظهر محاربو السلطان، جلودهم مغطاة بالعرق وسناج الحرائق، ووجوههم مطلية بلون أحمر، علامة على حرب الليل التي عاشتها القبيلة، يشدون حبالا غليظة من الأغصان المجدولة. تتعالى صيحات جديدة من خلف الأحراش، يظهر أشخاصٌ منسحقون، بلا أغطية من ريش، أو طلاء للحرب، على وجوههم آثار من الضرب المبرح، يدفعهم المحاربون رغما عنهم، صف ممتد من الأسرى، حصيلة معركة الليلة الفائتة، أيديهم معقودة خلف ظهورهم، وحبال تلتف حول رقابهم، تضمهم جميعا في صف واحد، طوال ونحاف، آذانهم مشرئبة، وعيونهم جاحظة، ورءوسهم بلا جدائل، رءوس البعض منهم مشجوجة وما زالت تنزف دما. يدفعهم المحاربون المتحفزون، عندما يحتجون أو يتعثرون يغزُّونهم برماحهم، يثقبون جلودهم بجروح نازفة، تؤلمهم وتستنزف قواهم، تصرخ نسوة من بعيد دون أن يجرؤن على الاقتراب. لا يتصور أن السلطان يمتلك محاربين على هذا القدر من الشراسة، يحولون أسرى الظلام إلى كتلة من لحم، يتخيل وقائع ما حدث: قبيلة معادية تنتهز فرصة الظلام، تهاجم قبيلة السلطان، تقتل وتحرق كعادتها، ولكن بعد صدمة الرعب الأولى، بشكل أو بآخر يعد لهم السلطان كمينا محكما ويصطادهم، مصادفة كانت في صالحه، تهيئ الظروف له المقابل الذي لم يكن

يملكه فيصبح فجأة بين يديه، أم أن الأمر غير ذلك؟ يلوح المحاربون بالرماح ويصرخون في وجوه الأسرى، يأمرونهم بالجلوس جميعا على الأرض، خافضي الرءوس. فرصة «ود الزبير» حتى يحصي رءوسهم الحليقة، حوالي أربعين رأسا، يزيدون أو يقلون، صفقة لا بأس بها. يفاجأ بدخول السلطان إلى المشهد، مرتديا عباءته من جلد الأصلة، كأنه ثعبان ضخم وعجوز يتحرك في تؤدة، يوسع المحاربون له الطريق، لا يبالي بالمقعين على الأرض، يعطيهم ظهره ويقف في مواجهة السفينة، تلتقي عينيه بعيني «ود الزبير»، يدركان دون كلمة واحدة أن وقت إتمام الصفقة قد حان. يشير لخميس فيسرع مع بقية الرجال بمد العوارض الخشبية إلى الشاطئ، يخطو السلطان دون تردد فوق الجسر الخشبي، يحني «ود الزبير» رأسه أمامه في احترام، يطلب منه بحفاوة مبالغ فيها أن يتقدمه إلى قمرته الخاصة أسفل السفينة. يهبط السلطان فوق الدرج الخشبي، ويهبط هو خلفه، تحتويهما الغرفة الخشبية التي لا يوجد فيها إلا قمرة مستديرة تطل على الشاطئ، يتلفت السلطان حوله بعينين نافذتين، باحثا عن مكان الأسلحة، كأنه كان يتوقع أن يراها معروضة أمامه، يلتفت نحوه قائلا بصوت حاسم: فلنعقد صفقتنا، أحضرت لك العبيد، أعطني أسلحة الرعد اللعينة.

ينظر إليه حائرا: أنا فعلا راغب في إتمام الصفقة، ولكن العدد غير كاف، عددهم يقارب الأربعين رأسا فقط؟

لكن السلطان ذئب عجوز، لا يحاول أن يخفي أنيابه، يقول في حدة: ستعطيني الأسلحة كلها.

يتغاضى «ود الزبير» عن حدة السلطان ويقول في إصرار: لا بد من عشرة عبيد إضافيين؟

يقرب وجهه منه، يتناثر رذاذه على وجهه: ألم تفهم بعد؟ هؤلاء من رجال قبيلتي، لم يكونوا عبيدا قط، نسوتهم يصرخن هناك، وأقاربهم يكرهونني، إنه ثمن غال من أجل هذه الأسلحة الملعونة.

يفتح «ود الزبير» فمه مذهولا، لم يتوقع أن تتم الصفقة بهذه الطريقة، في كل قبيلة يوجد رجال لا يبكي عليهم أحد، عبيد، أسرى، سجناء، ثمن جاهز، يدفعهم سلطان أي قبيلة في مقابل ما يريده، لا أحد يبيع نفوس قبيلته. يختنق بمشاعر الذنب، هل كان هو السبب وراء حرق البيوت والتياع النساء؟ ينظر إليه السلطان بملامح صلبة، لا يوجد على وجهه دليلا على الندم، يسأله في تردد: كيف فعلت بهم هذا، وماذا عن نسائهم وأطفالهم؟

يهز كتفه بلامبالاة: ستجد النساء رجالا آخرين، دائمًا ما يجدن رجالا، وسينمو الأطفال كالعشب، وأستطيع الآن أن أحارب «الشيليك» واستولي على أبقارهم، كل هذا ليس من شأنك، المهم أن تعبئ هؤلاء الرجال في سفينتك وتعطيني أسلحتي.

يدرك أن هذه هي صفقته الأخيرة في هذا المكان، لن تغفر له نساء القبيلة أنه أخذ رجالهن، وسيكبر الأطفال الذين اقتنص آباءهم وهم يكنون له بغضا بلا نهاية. يقف حائرا مترددا فيزداد غضب السلطان، يصيح به: ألا ترى ما نحن فيه؟! لن يظل الأمر هكذا طويلا، أعطني أسلحتي وارحل من هنا قبل أن أقتلكم جميعا.

لن يظفر من السلطان بأكثر من ذلك، لأنه بالفعل لا يملك ما هو أكثر، الصفقة رابحة على أي حال، وتستحق هذه الرحلة الطويلة، يقول: سأقبل بذلك من أجل خاطرك، الكلمة الأخيرة التي يرددها التجار عندما يرضخون ويريدون أن يفهموا الزبون أنهم خاسرون.

يخرج المفتاح ويفتح الخزانة التي لا يفتحها أحد سواه، يعطيه ظهره محاولا أن يخفي محتوياتها، يجذب من قاعها الصندوق الخشبي الذي يحتوي على البنادق الخمس، يفتحها أمامه فتبدو الأنابيب السوداء والكعوب الخشبية اللامعة، حيوانات رابضة ومترقبة، يسمع صوت السلطان وهو يشهق في انبهار، يدرك أنها تساوي جيشا كاملا، لا قدرة لأحد بمقاومته. يخرج «ود الزبير» أيضًا خمس صناديق أصغر حجما، تحتوي على رصاصات نحاسية مدببة، مشرئبة ومتأهبة للانطلاق، يمد السلطان يده ويتحسسها بأصابع مرتعدة، يقول بصوت كالفحيح: علمني كيف تطلق الرعد وتحصد حياة الآخرين؟

يلقي نظرة سريعة على الخارج، الرجال الأسرى مقعيون على الأرض، تحاول النساء الاقتراب منهم ولكن الحراس يبعدوهن في غلظة، الجو معبأ بالتوتر، وجثة التمساح متعفنة وملقاة أمام الجميع، وعندما تصعد الشمس إلى كبد السماء وتزداد الحرارة فسينفجر كل شيء. يتناول واحدة من البنادق، تلتقي أعينهما في قلق، كانا مرغمين على أن يثق كل واحد منهما بالآخر، في مكان وزمان لا يوحيان بأي ثقة، يجلسان بجانب بعضهما البعض، يحدثه «ود الزبير» بكلمات قليلة، يطلب منه أن يراقب أصابعه أكثر مما يستمع لكلماته. يكسر البندقية ويملؤها بالطلقات، ثم يعيد الماسورة إلى موضعها، يرفع زناد الأمان ويعيده، يتابعه السلطان بعينين جاحظتين، يعطيه البندقية ويحاول أن يجعله يكرر الأمر أمامه، يشير السلطان رافضا، لا جدوى من ضياع المزيد من الوقت، ينهض واقفا وهو يهتف: انقل أسلحتي للشاطئ، إنها ملكي الآن سأتصرف فيها كما أريد..

يسرع السلطان بالخروج من الفتحة ومنها إلى ظهر السفينة، يعبر الجسر الخشبي في شموخ زائف، يتعجل «ود الزبير» الرحيل أيضًا،

يريد أن يفك مراسي سفينته وينجو من هذا الشرك. يشير لرجاله حتى يعيدوا ترتيب الصندوق الخشبي ويحملونه إلى الشاطئ، يقومون بحمله، يضعونه أمام السلطان الذي يرفع قدمه ويضعه عليه، يؤكد للجميع أنه يمتلكه، قوة الموت المطلقة في هذه الغابة الداكنة الخضرة. يشير لمحاربيه ليدفعوا الأسرى في اتجاه السفينة، يقودونهم قسرا، عيونهم جاحظة من الفزع، يدركون أنهم وصلوا للحظة الفراق الحتمية. يجذب المحاربون الحبال في اتجاه السفينة، يعطون طرفها لرجال «ود الزبير» فيواصلون الجذب القاسي، يساعدهم محاربو السلطان بدفع قطيع البشر من الجانب الآخر، تصرخ النساء في مناحة متواصلة، ويبكي الأطفال فزعين، يمتلئ الأفق بالأصداء المفجوعة، تتقدم نسوة شعورهن شعثاء، يتشاجرن مع الصف الأول من المحاربين فيخمشون أثداءهن بأسنة الرماح، يواصل رجاله جذب العبيد من رقابهم حتى حافة السفينة، بعيدا عن الماء المترجرج، تقترب أفراس النهر، تراقب ما يحدث وهي تواصل مضغ ورود النيل. ينصاع الأسرى للسير خوفا من الاختناق أو الانزلاق إلى المياه، و تفر طيور البجع بعيدا. كل ما يريده «ود الزبير» أن ينتهي الأمر سريعا، وأن يرحل بعيدا. في كل لحظة يشعر أن الصفقة على وشك الانهيار، سيسقط الرجال كلهم في الماء، وسيجذب كل واحد منهم الآخر نحو الغرق. يسرع بالهبوط مع الرجال، يدفع الأجساد التي تقاوم، يمنع النساء الصارخات والأطفال الباكين من الوصول إلى جسر السفينة. يفتح بحارته بابا يؤدي إلى فجوة كبيرة في قاع السفينة، لا مجال لوضع سلم خشبي، يدفعون الأجساد لتسقط في الفجوة، فوق بعضها البعض، لا أحد يبالي بتكسير العظام أو حتى الموت، المهم أن يسرعوا هاربين، يلمح آخر عبد في الصف، عبد قوي وطويل بعض الشيء، ينتهز فوضى الصراخ والتدافع، يتخلص

من الأنشوطة التي تحيط برقبته، يزيح المحارب الذي يعترضه، يدفعه للنهر، يحاول العدو متجها للغابة، لكن صوت طلقة رهيبة يدوي، ترتفع ساق العبد في الهواء قليلا، قبل أن يسقط على الأرض، يسود الصمت ويتوقف العويل، وينظر السلطان نحوهم مذعورا، ينزل «خميس» البندقية والدخان يتصاعد من فوهتها، وجهه شاحب وأنفاسه لاهثة، يسأل: هل تريده؟ يقول «ود الزبير» دون أن يدري: إنه جزء من الصفقة، أحضروه إلى السفينة، يدرك خطأه على الفور، لم يكن ينقصه المزيد من الجثث، ولكن رجاله يهبطون، يصوبون بنادقهم للجميع حتى للسلطان، ينتهزون فرصة الذهول والخوف الذي عقد ألسنة النساء، يرفعون العبد النازف من على الأرض، يحملونه من أطرافه ويصعدون به السفينة، يشير لهم «خميس» حتى لا يلقونه في الفتحة، يضعونه في أحد أركان سطح السفينة، ربما حتى يموت..

يعيد البحارة الغطاء الخشبي إلى مكانه، تخفت أصوات العبيد بعد أن اختفت أجسادهم، يبتلعهم جوف السفينة كأن لم يكونوا، لا يبقى ظاهرا للعيان إلا العبد العاصي، قويا وأكثر طولا، ولكنه عاجز، ينساب الدم من فخذه ويتأوه في خفوت. يصيح «ود الزبير» آمرا الرجال حتى يحلوا حبال المرسى، يضطر بعضهم للهبوط للشاطئ مرة أخرى، يحاولون فك الحبال المربوطة بالأوتاد، ولكن النساء تحيط بهم، تجذبهن من ثيابهم وشعورهم، حتى الأطفال يتعلقون بأذرع الرجال. لا يحاول السلطان التدخل، يشير لأتباعه من المحاربين ليحملوا الصناديق الخشبية ويسيروا خلفه، لا يحاول منع صراع النسوة اليائس كأنه ليس طرفا فيه. يطلق خميس بندقيته مرة ثانية ولكن في الهواء، لا يتحمل الأمر مزيدا من القتل، لا تتراجع النسوة، يصيح في بقية الرجال أن يقطعوا الحبال. يحضر أحد الرجال بلطة حادة الحواف، يهوي بها

على الجبال الغليظة، تزأر النسوة غاضبات، تمتلئ وجوه الرجال على الشاطئ بالجروح من أثر أظافر النسوة الهائجات، يضربوهن بالعصي وكعوب البنادق فيقذفن السفينة بالأحجار. تتقطع الحبال الغليظة، تبتعد السفينة فجأة عن الشاطئ، يلقي رجاله بأنفسهم في الماء فتتبعهم النسوة، يتشبث الرجال بحافة السفينة، فتتشبث بهن النسوة حتى يفقدوا سراويلهم. يتقدم الرجل الذي يحمل البلطة الحادة الحواف، يهوي بها في حركة سريعة على ذراع امرأة كانت متعلقة بحافة السفينة، تصرخ المرأة وتنفجر نافورة من الدم، يطير الذراع في ناحية، ويرتد جسد المرأة وسط الماء، يسيطر ذهول مشهد الدم من جديد على المكان. تبتعد النسوة ويتخلين عن سراويل الرجال، يتمكنون أخيرًا من الصعود من الماء، تواصل السفينة إبحارها، يحملها الموج وتدفعها الريح، وتظل فلول النسوة واقفات وسط الماء، لا يتطلعن لذراع المرأة التي تطفو، بقدر ما يراقبن السفينة التي ترحل برجالهن.

تبحر السفينة بعيدا، تدور آلتها البخارية دون توقف، تبتعد عن مكان الدم والخديعة، صفقة رابحة ولكنها ملوثة، مؤذية، فجة. يطاردهم صراخ النسوة والبكاء المفجوع للأطفال، وتنبعث من قاع السفينة رائحة الكتلة البشرية المأسورة، منذ ساعات قليلة كانوا أحرارا، أو كانوا يعتقدون أنهم كذلك. تدفع ريح الشمال سفينته، يتوغلون في مستنقعات بحر الغزال، يمتلكهم صمت الغابة دون سكينتها، يواصلون الابتعاد عن مواطن الخوف والحيوانات الضارية، ولكن الجريح الملقى على السطح يظل يزعجه. يتوقف «ود الزبير» بالقرب منه، وهو يشعر بغصة في حلقة، لم يعقد من قبل صفقة بهذا القدر من الوحشية، سلطان يبيع رجال قبيلته، ذراع امرأة يقطع، ودم يغمر صفحة النهر، وجريح يحتضر لا يقدر على معالجته ولا على إلقائه لتماسيح النهر. لم يقص عليه أبوه شيئا من هذا

القبيل، هو أيضًا كان تاجرا للعبيد، أورثه مهنته وسفينته، لم يفعل هو أكثر من أنه أضاف للسفينة آلة بخارية جديدة، استطاع أن يتوغل بها في شرايين النيل الأبيض. وقد فعل مثله، وهب حياة جديدة لعشرات النفوس الضائعة في الأدغال، أخذهم لعالم آخر أقل رطوبة وخمولا، ولكنه عالم حي، يتصارع فيه الجميع من أجل وجودهم، لا يتركون حياتهم تتسرب من أطراف أصابعهم. يراقب الجريح وهو يستنزف قواه ودماءه، لا يستطيع حتى دفع أسراب الذباب التي تحط عليه، ولا الشحوب الذي يبدأ في التسلل إلى جلده، لماذا سمح بوجوده على سفينته وتحمل ذنبه؟ كان من السهل موته على الشاطئ، لكنه موجود الآن، يستلزم الأمر قاتلا حتى يتخلص منه، شفتاه الغليظتان منفرجتان، خلفهما تبدو أسنانه البيضاء، يلتقط أنفاسه بصعوبة، ربما كانت آخر أنفاس الحياة. يقف «خميس» بجانبه دون أن يشعر باقترابه، يمسك في يده سكينا حادا لامعا، ينظر إليه بوجه صارم، يسأله «ود الزبير» في رهبة: هل تنوي قتله؟ يقول خميس: لا حاجة لذلك، إنه الآن على حافة الموت، أريد فقط أن أخرج رصاصتي التي أدخلتها في جسده. يتأمله في حيرة، لم يعهده حساسا لهذه الدرجة، ولكن يبدو أنه قد استعد جيدا لهذا الأمر. يتقدم اثنان من البحارة يمسكان بعضدي العبد الجريح ويثبتانه للأرض، يفتح العبد الواهن عينيه في ذعر، ينظف «خميس» الدم المتجمع بخرقة مبللة حتى تظهر أمامه فتحة الجرح، الثقب الذي دخلت منه الرصاصة، يغرس السكين تحت جلده في حركة سريعة، يصرخ الرجل بأقصى ما يقدر عليه وينبثق من جسده المزيد من الدماء. يبدو «خميس» مثل جزار يمارس مهنته على ضحية بشرية، يدور بطرف السكين باحثا عن مكان الرصاصة، يعاود العبد الصراخ حتى يشعر «ود الزبير» برجفة جسده، قتله أكثر سهولة، يصرخ «خميس» ظافرا،

يخرج السكين ومعها قطعة من لحم متهرئ وطلقة من رصاص. يفقد العبد وعيه من شدة الألم، يلف «خميس» مزقا من الأقمشة حول الفخذ ليمنع المزيد من النزيف، يقف بجانبه وهو يقول: نحن في حاجة لدواء حتى لا ترتفع حرارته، ربما ينجو والأرجح أنه لن يتمكن من ذلك، يقول له «ود الزبير» في دهشة: لماذا بذلت كل هذا الجهد إذن؟ إنه مجرد عبد عاص، يقول خميس دون تردد: حتى يرضى عني المهدي، لقد أخذت العهد على يديه ألا أقتل أحدا، وحتى الآن لم أقتل سوى الحيوانات، لا أريد أن أبدأ في قتل البشر. تصيب كلماته «ود الزبير» بالدهشة، يسمع بهذا الاسم للمرة الأولى، يسأله: ماذا تقصد، أي مهدي؟

يغمض «خميس» عينيه ويقول فيما يشبه التبتل: مهدي آخر الزمان، الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورا، إنه الآن مجرد درويش يطوف القرى والمدن، يدعو الناس للانضمام إليه، ولكنه سيعلن عن دعوته ويتحدى الجميع بما فيهم الأتراك والمصريين الذين يحكموننا.

كانت هذه الكلمات هي آخر ما يتوقعها منه، كيف يهتم تابع مثله، نخاس صغير، بهذه الأمور؟! يصيح فيه: ما دخلنا نحن بهذه الأمور، نحن تجار ولسنا دراويش، علينا أولا أن نهتم بالعبيد الأحياء. لا بأس من أن نخسر عبدا، خاصة إذا كان عاصيا، شريطة أن نصل بالبقية إلى الخرطوم وهم على قيد الحياة.

تتغير مياه النهر مع كل مسافة تقطعها السفينة، تذوب سمرة المستنقعات وتصفو المياه، تصبح أكثر بياضا، تنحدر الشمس خلف الأشجار، يراقب حافة الأفق في شرود، يعاود «خميس» الاقتراب منه، يلمح على ثيابه بقية من دماء العبد العاصي، يقول: الرجال

يريدون التقاط أنفاسهم.. فرصة لتناول الطعام، يكتشف أن اليوم قد انقضى ولم يتناول أي منهم طعاما، كيف صبروا جميعا رغم هذا اليوم المرهق؟! تنبهه غريزة التاجر أنه على وشك أن يخسر صفقته، يهتف به: وهؤلاء الموجودون في قاع السفينة، هل تريد أن نميتهم جوعا؟! يجب أن نفك الحبال المربوطة على أعناقهم قبل أن يختنقوا ونقدم لهم بعض الطعام.

يقول خميس: سنصنع لهم قصعة من العصيدة، ستسد بطونهم حتى نصل لمشروع الرق.

تخفف السفينة من سرعتها و تتوقف قرب الشاطئ، تصمت الماكينة البخارية. ينقسم الرجال إلى فريقين، فريق يقف ممسكا بالبنادق، يترقبون صمت الغابة، ويقوم الآخر بإعداد الطعام. يلاحظ «خميس» وهو يقفز مسرعا ليختفي بين الأشجار، إلى أين يذهب؟! يخرج البحارة قصعتين كبيرتين، يشعلون نارا على الشاطئ، تضيء الغابة وتبعث فيهم الدفء، يبدءون بطهي عصيدة الأسرى لأنها الأسهل، يذيبون خليطا من دقيق الشعير والقمح والعسل الأسود، ويضيفون عليه بعضا من الدهن، يقلبونها على النار في سرعة، يريدون الانتهاء منها حتى يتفرغوا لإعداد طعامهم المكون من الأرز والسمك الذي اصطادوه من النهر. يجلسون باسترخاء بجانب النار التي تتأجج، يشعرون أن الجزء الصعب من الرحلة قد انتهى، ليس هناك أجمل من إبحار سهل إلى بيوتهم. تتجمد أطراف العصيدة وتصبح كتلة واحدة متداخلة، يتركونها تحت هواء الليل لتبرد قليلا، يحيطونها بسيقان الأعشاب الجافة ويحملونها للسفينة. يرفعون الغطاء الذي كان يغطي الفتحة للمرة الأولى منذ الصباح، تنبعث على الفور روائح كريهة من قاع السفينة، رائحة أجساد العبيد وعرقهم وبولهم وبرازهم، يفرزون

كل ما هو مخزون داخلهم من خوف ورعب. تصل الرائحة إليه وهو جالس في مكانه فيشعر بالغثيان، رائحة اليوم الأول لكل صفقة، يرفع أحد الرجال مصباحا، يلقي بضوئه عليهم وهو يتمتم: إنهم لا يبدون أدميين. ينهض «ود الزبير» يتوقف على حافة الفتحة، يراهم كتلة مكومة متداخلة لا تبدو منهم أي تفاصيل، ساكنين تمامًا، فئران مستسلمة لمصيرها. يشير للرجال حتى ينزلوا على الدرج الخشبي ويفرقونهم عن بعضهم، يهبط الرجل الأول حاملا سلاحا في يد ومصباحا في الأخرى. يتقدم ببطء وحذر، يرى عيونهم وهي تتابعه، تلمع خلال العتمة، حدقات مليئة بالخوف والترقب، تم الغدر بهم أكثر مما ينبغي فلم يعودوا يأمنون لأي واحد يقترب منهم. يقف على مسافة بعيدة ويضع المصباح على الأرض، يتبعه الآخرون في الهبوط حاملين القصعة، يضعونها أمامهم ثم يرتدون للخلف لمراقبتهم.

الرائحة خانقة، لا تخفف منها رائحة عصيدة الذرة والشعير، لا يجرؤ أحد من الكتلة الهامدة على التحرك، عيونهم المستديرة فقط هي التي تتحرك، يقلقه هذا الصمت السائد، والكتلة التي ترفض أن تتحرك، هل بينهم موتى؟ لماذا لا تملأ رائحة الطعام أنوفهم وتبعث فيهم الحياة؟ لا يتمالك نفسه فيصرخ: تحركوا.. كلوا.. يخيل له أنه يسمع صوت رجفة أجسادهم، يظلون جامدين في أماكنهم، لا يتحمل البحارة طول الوقوف، يتقدم واحد منهم، يمد يده في القصعة، يغرف حفنة منها في كفه، يتقدم إلى واحد منهم، يطبق بالعجينة على فمه، يصرخ فيه: كل.. هذا طعام وليس سما.. تلتصق العصيدة بوجه الرجل كقناع أبيض. يظل البحارة واقفين مترقبين، رغم الضوء الشحيح يشاهدون طرف لسان العبد الأحمر الرفيع، يمتد من خارج فمه ليلتقط قطعة من العجينة، يحملها بلسانه ويخفيها بسرعة في فمه، الجوع دائمًا أقوى من الخوف.

يضحك البحارة في صوت أجش، يقتربون ويأخذون في فك الحبل من حول رقابهم، ولكنهم يتركون أيديهم مقيدة خلف ظهورهم. يزحف الرجل الذي على وجهه القناع الأبيض أولا، يمد عنقه إلى قصعة العصيدة، يغوص فيها بنصف وجهه ويحرك فكيه، يتأمله الباقون قليلا، ثم يبدءون في الزحف على الأرض، يتدافعون بالمناكب حتى يغمسوا رءوسهم في القصعة، كل واحد يبحث عن مكان له، تكتسي وجوههم بالقناع الأبيض نفسه. بعد فترة ورغم التدافع تنتظم حركتهم، تميل المجموعة الأولى برءوسها، ثم تبتعد تلقائيا لتفسح المكان للقادمين من الخلف، يتناوبون جميعا على القصعة حتى تفرغ تمامًا، يلحسون البقايا العالقة بجدارها، ثم يرتدون بعد ذلك إلى أماكنهم، يستندون إلى حائط السفينة وهم يلهثون، يحركون ألسنتهم محاولة لاقتناص البقايا العالقة بوجوههم، يقول أحد البحارة ضاحكا: لنتركهم، سيقومون عما قليل بلحس وجوه بعضهم البعض..

يبتسم «ود الزبير» في رضى، ما زال العبيد يرغبون في الحياة، عدة قصعات مثل هذه يمكن أن تنقذهم حتى نصل للخرطوم. يستدير للمكان الذي يرقد فيه العبد العاصي، لدهشته يجد «خميس» جالسا بجانبه، يتفحص جرحه ويغطيه بعجينة من الأوراق الخضراء، لا ينتظر حتى يسأله، يقول في هدوء: إنها أعشاب معالجة جمعتها من الغابة، لم أخترها جيدا بسبب الظلام، غدا، قبل أن نرحل سأجمع المزيد. يبتعد عنه، لا يتصور أن إحساسه بالذنب يصل لهذا الحد، ولا أن يبقى العبد العاصي على قيد الحياة بعد كل ما مر به.

يأتي الصباح بخليط من الرماد والخضرة، يبدأ الرحيل من جديد، يتركون المياه الراكدة ويبحرون في اتجاه الشمال، يتدافع الموج، تزداد سرعة السفينة، تتكاثف رائحة العبيد وتزداد يوما بعد يوم، ويعبق المكان

كله برائحة البراز. لا يستطيعون التوقف قبل الوصول إلى «مشروع الرق»، هناك يمكن أن يعيدوا تنظيف المكان، وأن يعرضوا العبيد لقليل من الشمس والهواء. المشكلة أن مخزون الطعام يبدأ في التناقص، تلك الأفواه الأربعون قلبت الموازين، رغم أنهم لا يأكلون إلا مرة واحدة في اليوم، وهذا جيد حتى يكفوا عن التبرز. ولكن لا مفر من التوقف والإغارة على إحدى القرى القريبة من الشاطئ، عدة طلقات في الهواء تجعل السكان يهجرون أكواخهم ويهرعون إلى عمق الغابة، وبذلك تصبح كل الأقوات الموجودة غنيمة سهلة لهم، لا أحد يجوع في عرض النهر ما دام يملك السلاح المناسب.

تبدو معالم «مشروع الرق» قبل أن يصلوا إليه، ينحني النهر وتبدو الغابة على غير هيئتها، ينتظم صف من الأشجار السامقة يحجب ما خلفه، ويمتد اللسان الطيني الذي ترسو عليه سفن التجار. هذه هي المحطة الرئيسية في الطريق بين بحر الغزال وبحر العرب، حيث تتجمع البحيرات المتناثرة وأفرع الأنهر الصغيرة لتكون جسد النهر الأبيض الذي يمضي ملتويا للشمال، ليمتزج مع النيل الأزرق عند الخرطوم ثم يواصل رحلته المجهدة حتى القاهرة، ويتجمع التجار لتبادل البضائع والضغائن. تتوجه سفينة «ود الزبير» عبر مخاضة من الطين لترسو في مكانها المعتاد، لا يوجد في المرسى إلا ثلاث من السفن متوسطة الحجم، ليست مهيأة للإبحار الطويل ولا لحمل العبيد، يتعرف على اثنين منها، تخصان تاجرين قادمين من صعيد مصر، أما الثالثة فلا يعرفها، يرفرف عليها العلم الفرنسي. تظهر أسوار المشروع، صف ممتد من جذوع الأشجار المتراصة، مغروسة ومتلاصقة وأطرافها مشظوفة كأسنة الرماح، لا يمكن اقتلاعها أو النفاذ بينها، تكون جدارا صلدا يقف حائلا ضد هجوم محاربي القبائل، ويمنع من بداخلها عن الهرب، تهب

من خلفها روائح من العفن وطهي الطعام وعرق البشر مختلطة برطوبة الغابات. تغوص مقدمة السفينة في طين الشاطئ وتلقي مرساتها، يقفز عدد من البحارة ويربطون حبالها الغليظة حول جذوع الأشجار، يراقبهم «ود الزبير» وهو يقف في مقدمة السفينة، يتأمل المكان الذي يجمع الغرباء وسط هذه الأدغال المعزولة. كانت السلطات في مصر قد اختارت هذا المكان لتضع فيه قوة مسلحة بشكل دائم، حتى تقضي على تجارة الرقيق. كان المفروض على جنود الحراسة أن يعارضوا أي سفينة ويصادروا شحنتها، ويقبضوا على قادتها، ولكنهم كانوا معزولين، بعيدين عن أي رقابة، من السهل شراؤهم ومن الأسهل تخويفهم، لم يستطيعوا مقاومة شراهة التجار ولا شراهتهم الشخصية، تسللوا جميعا هاربين من هذا المكان النائي، حملتهم سفن الرقيق جميعا، وأصبح المكان خاليا. وبفضل وجود موقع المشروع ازدهرت التجارة أكثر من ذي قبل، أصبحت لها محطة ثابتة تعقد فيها أغرب أنواع الصفقات، أصبح «ود الزبير» الآن يمتلك جزءا منه، دفع أبوه مقدمة تكلفته وأكمل هو الباقي، فعل الكثير حتى يحافظ على طريقه في النهر سلسا وممكنا. يتنهد في ارتياح، اجتاز الجزء الأصعب من الرحلة، وظفر بكمية من العبيد دون أن يضطر لقتل أحد أو اصطياده، وصل سالما إلى المكان الذي توجد فيه «الزريبة» الخاصة به، ليس في حاجة لأن يستأجر مكانا من التجار الآخرين، فهو يمتلك محاربين من قبيلة «الجور» يحرسون له المكان طوال العام، التجار الأصغر شأنا هم الذين يتوددون إليه. يلتفت إلى «خميس» آمرا: حان الوقت لنخرج العبيد للشمس.. يجب أن نغسلهم، وننظف السفينة من قذارتهم.

يكشف الرجال الغطاء الخشبي، تنبعث من داخله رائحة كريهة كأنها مقبرة، ينظر إلى «خميس» في قلق خوفا من أن يكون هناك موتى،

يقف الرجال مترددين، يشير لهم في حزم حتى يهبطوا إلى القاع. يضع كل واحد منهم لفاعه حول أنفه، يقاوم بها الرائحة الكثيفة، يتحسسون الأجساد الهامدة في تشكك، يدفعونهم للوقوف على أقدامهم، تترنح الأجساد في إعياء، أشباح تنهض من وهن الاحتضار، يدفعونهم فيتحركون ببطء، يتعثرون فوق السلم الخشبي، يجاهدون للصعود، تغيم عيونهم ولا يستطيعون مواجهة الشمس أو تنفس هواء النهر. منذ أيام قليلة كانوا يستمتعون مجانا بكل هذه النعم، هذه هي ولادتهم الثانية، بعثهم الآخرفي عالم مفروض عليهم. يواصل البحارة دفعهم بكعوب البنادق حتى يكتمل عددهم على ظهر السفينة، لم تعد ملامحهم واضحة، أجسادهم ضامرة توشك أن تجف تمامًا، مخفية تحت طبقة من الأوساخ والبراز والعصيدة الجافة. يحس بالقرف من عفونتهم، يتمسكون بأهداب الحياة رغم كل ما مروا به، يعيد البحارة وضع الحبال حول رقابهم، يجذبونهم في صف طويل من السفينة إلى طين الشاطئ، ينصاعون في وهن، لم تعد لديهم طاقة للمقاومة، لا تقوى سيقانهم على البقاء واقفين، تغوص مؤخراتهم في مخاضة الطين على حافة النهر، ويظل البحارة واقفين بالبنادق فوق رءوسهم. يجلب رجال آخرون الدلاء الخشبية من السفينة، يملئونها بالماء ويسكبونها عليهم، ينتفض العبيد عندما يرتطم الماء البارد بأجسادهم، يشهقون، ويسعلون، ويزفرون الماء الذي يدخل أفواههم وأنوفهم، يخلصهم من حالة الجفاف التي يبست أجسادهم، تظل بعض الأوساخ ملتصقة بهم، ولكن «خميس» يصيح مستحثا: القوا عليهم المزيد من المياه، أفرغوا النهر كله على رءوسهم، لا نريد للقمل أن يأكل جلودهم..

تذوب الأوساخ ببطء وتتساقط عن أجسادهم، تظهر جلودهم السوداء، يتكومون مرة أخرى محاولين الاحتماء من الماء المنهمر

عليهم، كأنها وسيلة أخرى لإخضاعهم. يحاول أكثر من واحد منهم الهروب إلى عمق النهر، ولكن الحبال تضيق على أعناقهم فيضطرون للعودة، يأخذ كل واحد منهم نصيبه من الماء العكر. يتوقف البحارة أخيرًا عن سكب المياه، ينتهي طقس الاستحمام، يتركون لهم الفرصة قليلا حتى تجف أجسادهم وتتدفأ بأشعة الشمس، ولكن ليس طويلا، لا يجب أن يتعودوا على هذا العالم الطلق، يجب أن يقودوهم للزريبة، حيث الهواء راكد، والعتمة تغلب الضوء، عالم العبودية الذي عليهم أن يألفوه. يجرهم البحارة بواسطة أنشوطة الحبال، تضيق الحلقات حتى تجحظ عيونهم، يضطرون للنهوض مسرعين، ويسيرون مرغمين، ويمشي «ود الزبير» في مقدمة الجميع، وحولهم بقية الرجال يمسكون بنادقهم، قائد منتصر يعود بغنائمه، اللهم لا حسد.

الطريق إلى الزريبة مزدحم بباعة الفاكهة الاستوائية النيئة والنباتات النادرة وأدوات الصيد والحيوانات الأسيرة، أقفاص كثيرة مصنوعة من أغصان جافة مربوطة بسيور من الجلد، مليئة بأنواع مختلفة من حيوانات الغابة: قرود صغيرة لا تكف عن الصراخ والتقافز، وطيور زاهية الريش، وضواري رضيعة، أسود وفهود تنظر من خلال أقفاصها في حيرة، غزلان صغيرة وحمر وحشية واقفة خارج الأقفاص، أرجلها مقيدة وتمضغ العشب في هدوء. حديقة حيوانات مفتوحة، يتجول بينها عدد من الزبائن، كثير منهم أجانب، من ذوي الشعر الأصفر والعيون الزرق، يمسكون أنوفهم في قرف ولكنهم لا يكفون عن الحركة والتجول. يمر موكب العبيد دون إثارة للاستغراب، بضاعة مثل غيرها من البضائع التي يمتلئ بها المكان.

تظهر الزريبة: مربع مغلق، أسواره من جذوع الأشجار، تقسمها العوارض الخشبية إلى أجزاء منفصلة، وفي جانب منها توجد غرفة

مغلقة خاصة به وحده، يضع فيها أسلحته وبضائعه الثمينة، ليست مريحة كما يجب، لكنها المكان الآمن الوحيد في هذا الخلاء. يدخل رجاله العبيد في جانب محكم من الحظيرة، يغلقون المكان عليهم بالعوارض الخشبية، يفكون قيودهم، لم تعد هناك حبال تخنق رقابهم أو تقيد أياديهم خلف ظهورهم، يهوي العبيد على الأرض ويحركون أطرافهم للتأكد أنها ما زالت تعمل، سواعدهم متقرحة، مليئة بالجروح، والأحبال مشربة بالدم، يسندون ظهورهم إلى الحائط الخشبي. يفرش رجاله الأبسطة في مقابلهم ويضعون البنادق أمامهم، لا يجلس «خميس» معهم، يبدو متوترا فوق العادة، يقول له: سأذهب للبحث عن امرأة من الرعاة.. عشابة.. ينظر إليه غير فاهم، يهتف خميس: من أجل مداواة هذا العبد العاصي. يتذكره فجأة، نسيه الجميع وهم يهبطون، تركوه وحده فريسة لحيوانات الليل وحشراته، يقول: قلت لك إن الأمر لا يستحق، يرد «خميس» في عناد: إنهن يعشن في أكواخ على حافة الغابة، سأحضر واحدة منهن للسفينة..

ينصرف مسرعا دون أن ينتظر موافقته، لا يريد أن يكون قاتلا. ينتاب «ود الزبير» القلق على صفقته، يتأمل أجساد العبيد المكومة، عظامهم بارزة وجلودهم رقيقة ومشدودة، تبدو كأنها على وشك التمزق، ضامرين كأنهم فقدوا نصف وزنهم منذ أن تم دفعهم إلى قاع السفينة، هل في مقدورهم إكمال بقية الرحلة، فقدان أي واحد منهم يعني خسارة جسيمة. يشير لواحد من رجاله، يخرج كيس نقوده ويضع فيه عدة ريالات، يقول له: أحضر طعاما لرجالك، وكذلك وجبة لهؤلاء الحيوانات، يجب أن يأكلوا جيدا قبل أن نواصل الرحيل، أحضر لهم الكثير من الخضروات والفاكهة، ستكون هذه آخر وجبات الغابة التي عاشوا فيها، بعد ذلك افتحوا عينيكم جيدا، النوم ممنوع على الجميع..

ينتابه ملل مؤقت من رؤية العبيد والبحارة على السواء، يسير مبتعدا عن الزريبة إلى الخُن الذي يجتمع فيه التجار، يرى البعض منهم جالسا في دائرة، يتناولون الفاكهة ويدخنون الشيشة، يتحدثون في صخب، يتباهى كل واحد منهم بالغنائم التي اقتنصها من داخل الغابة: الفراء وريش النعام وسن الفيل، ولكن لا شيء يقاس بصفقة العبيد التي حصل عليها. ينهضون واقفين فور أن يروه، من المؤكد أن أخبار موكب العبيد الذي جلبه قد وصلتهم، يدارون حنقهم وحسدهم تحت ابتسامات زائفة وعناق غير حميم. يتقدم «أبو عموري»، بقامته القصيرة وظهره الأحدب، تعرف عليه منذ رحلتين أو ثلاث: تاجر مصري من «نجع حمادي»، أكثر التجار المصريين توغلا في أعالي النيل، البقية لا يجرءون على هذه المجازفة، لن يصلوا أبدا للنقطة التي وصل إليها «ود الزبير»، ومن المستحيل أن يحصل على هذا القدر من العبيد. يسحبه من يده بعيدا عن جمع التجار، يحدق فيه بعينيه النافذتين وهو يتساءل: كيف حصلت على كل هؤلاء العبيد، هل قتلت قبيلة بأكملها؟ يبتسم وهو يرد عليه: أنا أحب أن أعود للمكان للمرة الثانية والثالثة، لذلك لا أحرقه ولا أقتل من فيه، كل ما فعلته أنني عقدت صفقة نظيفة خالية من القتل والخطف..

لا يصدقه، ينظر نحوه في تشكك، لكنَّ عيني «ود الزبير» تذهب بعيدا عنه، تتابع امرأة فارعة الطول تعبر الطريق، آخر ما يخطر على البال أن يجد واحدة مثلها في هذا المكان: امرأة إفرنجية، شعرها أشقر وبشرتها محتقنة وقد لوحتها الشمس، عيناها فارغتان، ترتدي قبعة واسعة، وسروالا «كاكي» مثل الذي يرتديه الرجال من بني جلدتها، وحذاء ضخما لا يتناسب مع دقة جسمها، يسير خلفها ستة من الرجال السود، عبيدها أو حرسها الخاص، في أيديهم بنادق حديثة لم ير مثلها من قبل، تسير ببطء وتمهل، كعادة جميع «الفرنجة»، يتصرفون وكأنهم يمتلكون

الأرض التي يسيرون عليها. تتأمل المرأة البضائع المعروضة. يشعر «ود الزبير» أن هناك وهجا يشع منها، تحيط بها هالة خفية وغامضة، تمد يدها خلال الأقفاص، تصافح القرود، وتتحسس الريش الملون للببغاوات، يسأل «ود الزبير» في دهشة: من هذه المرأة.. وكيف يجيء أمثالها إلى هذا المكان؟

يقول أبو عموري: نحن نسميها السنيورة.. إنها فرنسية، وجاءت هنا لتفعل كل ما تريده، عندها توصية خاصة من الباشا الكبير في مصر، حذار «يا زول» أن تقف في طريقها..

يقول «ود الزبير» ساخرا: ماذا يمكنها أن تفعل بي؟

يكتفي أبو عموري بالقول: فقط ستأكلك وتمصمص عظامك..

يتابعها ببصره وهي تواصل التجول، تتوقف أمام زنجي يحمل «أصلة» رقطاء، يلفها حول صدره، حراشفها لامعة ولا تكف عن التلوي، تبدو مأخوذة بجسدها الانسيابي، تمد أصابعها في جرأة وتتلمسها، يرفع الزنجي الأفعى الضخمة ويضعها على كتفها، لا يبدو عليها خوف أو تردد حتى ورأس الأفعى قريبة من وجهها، لا تبعد وجهها عندما تمد الأفعى لسانها الأسود المشقوق ليلمس خدها، تغمض عينيها مستسلمة لحركة الأفعى فوق جسمها، تسترخي تحت قوة العضلات التي تتلوى، ربما ترى نفسها فيها، تشبهها وهي تتلوى عارية في فراشها. يشير «ود الزبير» للعبيد الأربعة وبنادقهم: هل هؤلاء مجرد عبيد لها فقط؟

يبتسم أبو عموري في مكر ويرد: ستكون محظوظا لو كنت واحدا منهم..

يضحكان معا في تواطؤ، تتوقف المرأة، تدرك بغريزتها أنهما يتحدثان عنها، تسلط أنظارها على «ود الزبير» كأنها تكتشف وجوده

المفاجئ، يشد من قامته أمامها، لا يريدها أن ترى سواه، يكتشف أن عينيها ليستا فارغتين، فيهما شيئا من زرقة النهر والسماء الباهتة، يبدو على وجهها ظل ابتسامة خفيفة، تهز رأسها ببطء كأنها تحييه، تستدير وتواصل جولتها وسط تلافيف السوق الممتد، شيء في داخله يقول إنها تعرفت عليه، من المؤكد أنها رأت سفينته ووصلتها أخبار موكب عبيده. يدعوه «أبو عموري» للجلوس معهم ولكنه يفضل مواصلة السير حتى يطمئن على نظافة السفينة، يشاهد المرأة وهي تبتعد في تمهل دون أن يفكر في اللحاق بها، في مثل هذا المكان الضيق لا بد من تقاطع الطرق وسيكون من السهل التعرف عليها.

يشم رائحة أدخنة عطرية قادمة من السفينة، يعبر السقالة الخشبية، يرى مشهدا لم يعهده، «خميس» يجلس منتبها في جانب من السطح، وجسد العبد العاصي راقدا في مكانه، وبجانبه امرأة عجوز، وجهها مليء بالندوب المصبوغة بالتوتياء، كأن بشرتها قد تحولت إلى قناع يخفي وجهها الحقيقي، وهناك أربع قصعات مليئة بقطع الخشب المشتعل، تحيط الجسد المسجى بدائرة من الدفء. أصبح جلده لامعا ونظيفا وقد دب فيه بعض وهج من حياة، ووسادة من العشب تحت رأسه، تمسك العجوز بقطعة ملساء من العظم، تمررها على جسده المسجى وتهمهم بصوت خافت، ترفع رأسه محاولة أن تسقيه جرعات صغيرة من إناء صغير، مزيجا داكنا مائلا للخضرة. يخطو عدة خطوات حتى يقف بجانب «خميس»، لا يشعر بوجوده، مستغرقا في تأمل العجوز وهي تسقي «العاصي» سائل الحياة قطرة فقطرة، يبدأ جسده في الاستجابة، تختلج عضلاته ويصدر عنه تأوه خافت، تبتسم العجوز وتسجي رأسه، تنتقل إلى فخذه وتبدأ في تنظيف الجرح، تزيل ما حوله من دم جاف، ينتفض متألما، ولكنه لا يفتح عينيه، يرتفع صوت المرأة وهي تردد

تراتيل غريبة، لا يفهمها رغم معرفته بالكثير من لغات الغابة، تتحرك شفتاها وهي تتوجه بعينيها للأشجار العالية على الشاطئ، تستنطق أرواحها، تزود النيران بمزيد من الأعشاب العطرية، تزيد اشتعالها وتدفع ذرات الظلمة التي تتكاثف في المكان. تظل العجوز تحيط به، تأخذ على عاتقها مهمة دفع الموت عنه، تجرعه من سوائلها، وتحيطه بدفئها، وتتلو عليه تعاويذها، ينتفض الجسد الأسود للمرة الأولى ثم يهمد، تمسح المرأة فمه بأوراق الشجر، تضع على جسده زيتا وتبدأ في تدليكه حتى يصبح لامعا تحت وهج النار، تقول لخميس: يجب أن نغطيه جيدا، هذه البقية من حياة لا يجب أن تتبدد من جسده..

تتحدث بلغة الشمال الواضحة، يهرع «خميس» مرعوبا كأنه واقع تحت سحرها، يحضر الأغطية التي تخصه، يمتلئ الجو بالمزيد من الأدخنة التي تطرد الحشرات بعيدا، تلف جسده في الأغطية، لا يظهر غير وجهه وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، تنهض منصرفة وتختفي في ليل الغابة، يقول لخميس مندهشًا، لماذا تتحمل ذنبه إلى هذا الحد؟!.. لن تخسر شيئا.. مجرد عبد جريح. يقول «خميس» وقد زاد توتره: قلت لك سيحاسبني.. مهدي آخر الزمان.

لا يفهم شيئا، لكن هذا ليس وقت النقاش، عليه أن يعود ليأخذ قسطا من الراحة على الأرض الثابتة، ولكنه يشعر بخوف مفاجئ، تصبح ظلمة الغابة أكثر كثافة، لن يسعى للانضمام للسهرة التي يعقدها التجار كل مساء، يشعر أنه متعب وغير قادر على استنشاق دخان «الكيف» الذي يحرقونه. يهبط إلى غرفته المظلمة في قاع السفينة، جسده متعب وجائع، يحتاج إلى رفقة وملامسة، يمر أمامه خيال «السنيورة»، لو أنها تحته الآن تتلون كالحرباء مثل كل نساء الفرنجة لأعطاها كل ما تريد. لم يعد هناك أصوات قادمة من أعلى، هل رحل

الموت أم ما زال جاثما على السطح؟ يظل يتقلب في فراشه، يبزغ النور دون أن يزوره النوم إلا قليلا، يصعد إلى السطح ويراقب الغابة الغارقة في صمت مهيب، تغللها أنفاس الضباب وتحيط بجذوع الأشجار. العبد العاصي نائم، مغطى من رأسه حتى أطراف أصابعه، يعلو صدره وينخفض، النار خابية، «خميس» نائم مستند إلى بندقيته. يراقب ضوء الصباح وهو ينتشر فوق قمم الأشجار، وطيور الماء البيضاء تغمس مناقيرها في النهر الساجي، لحظة سلام قصيرة ستنتهي مع شروق الشمس، حيوانات الغابة تستيقظ مبكرة، غزلان خجولة تقفز، وزرافات مزهوة تتهادى ببطء وتمد أعنقها في الماء، لحظة صفاء لم يكن ليشعر بها لو كانت السفينة ممتلئة بالعبيد. ربما كان نخاسا حقا، يمارس مهنة حقيرة، ولكنها المهنة الوحيدة التي ورثها عن أبيه، سنة الله في أرضه، رقبة تتحكم في رقاب أخرى، هو يتحكم في رقاب هؤلاء السود، والأتراك يتحكمون في رقبته، كل واحد رقيق بشكل أو بآخر، لا يوجد من هو حر على إطلاقه، حتى الله خلق الناس لأنهم عبيده. لم يكن «ود الزبير» ساخطا على مهنته، في الغابة لا توجد مخلوقات حرة ولا حياة حقيقية، لا فروق تذكر بين الحيوانات والناس، العبيد الذين يأخذهم يذهبون إلى عالم آخر، يكتسبون حياة جديدة كأنهم يولدون مرة أخرى، يصبح لهم وجوه ومصائر، مهنته ليست سيئة إلى هذا الحد. ينظر لجسد العاصي كأنه كان يخاطبه دون أن يدري، يرى الغطاء وقد انزاح قليلا من على وجهه، لا يدري كيف فعل ذلك رغم أنه لم يحرك جسده، ربما كانت الريح، ولكنه يكتشف أن العاصي يحدق فيه مباشرة، عيناه واسعتان ومحمرتان، مجهدتان، عائدتان من الموت، يحدق بحنق وغيظ مكبوت، لا يود أقل من قتله، لا يعوقه إلا جسده العاجز عن الحركة. تبعث نظراته بالرهبة في نفسه،

رغم أنه كان شاهدا على بعثه الغريب، عودته المستحيلة إلى الحياة، يجد نفسه ضعيفا بلا حول ولا قوة، يشعر بخوف غريب يدب في أعماقه، ترتفع أصوات أنفاس العبد، كأنه يلتقطها بصعوبة، يحاول النهوض واقفا، ينتاب الرعب «ود الزبير» فيهبط مسرعا إلى غرفته، يجلس على فراشه وهو يرتجف، ماذا عندما يتم شفاؤه؟

يفيق من غفوته و«خميس» يقف أمامه، أول ما يخطر في باله أن «العاصي» قد استعاد قوته وأسرع بالهرب، ولكنه يقول في غموض إن هناك زائرا يريد مقابلته، قبل أن يسأله من هو؟ تظهر «السنيورة» على الباب، هكذا تهبط على درجه وتقتحم غرفته كأنها تملك السفينة، ترتدي الزي الرجالي الذي رآه بها بالأمس، شعرها الذهبي لم يعد مرسلا، لكنه معقود فوق رأسها، يزيدها طولا تبقى واقفة في مكانها حتى يتحرك «خميس» ويصعد على الدرج متلكئا، تقترب منه حتى يشم رائحة عطرها، تقول بعربية متكسرة: بالأمس، رأيتك تنظر نحوي، لم تقدم لي نفسك بالطريقة اللائقة، الآن يجب أن تفعل..

يواصل التحديق فيها مذهولا، بدأت بالهجوم، يقول في جفاف: لم أكن أعرف أن عليّ ذلك..

تخطو إلى الغرفة متمهلة، تتأمل ما حولها وعلى شفتيها ابتسامة غامضة، يبدو وجهها حادا وعيناها نافذتان، تخترقان خزائنه وتكشفان عما تحويه، لا تجلس، تظل واقفة أمامه، بلا نفور ولا تقارب. لا تضع أي نوع من الطلاء على وجهها، ولكنها ملونة بما يكفي، تقول بتمهل: يقولون إنك أمهر تجار أعالي النهر، ربما كانوا يبالغون، ولكني سأعطيك فرصة لتثبت ذلك!

حلقه جاف، هذا القرب المفاجئ منها، بعد ليلة قلقة، ورحلة جوع

طويلة، يرج جسده، يتسرب عطرها إلى أنفه، تواصل الكلام دون أن تبالي بذهوله: أريد رأس خرتيت، أريدها كاملة وليس مجرد قرن.

ينظر إليها مستغربا، تريد حيوانا صعبا، قوته هائلة وحركته مباغتة، وهذا القرن في مقدمة رأسه يقتل بطعنة واحدة، هل تريده من أجل طقس سحري؟! لم يكن طلبا غريبا لهذه الدرجة، هؤلاء الفرنجة، العشرات منهم يملئون الغابة بطلباتهم الغريبة، لا يواصلون حياتهم بعيدا عن طقوس السحر الأسود، رغم أنها لم تبد من هذا النوع من الساحرات الشريرات، ولكن من يدري! يهز رأسه في أسف، يتغلب على جفاف حلقه ويقول: لا ألوث نفسي بدم الغابة، أكتفي بالبيع والمقايضة، لديك رجال سود، بنادقهم حديثة، وخلف هذا المكان تمتد الغابة كمتاهة، دعيهم يقومون بصيد كل حيواناتها من أجلك.

تظهر شفتيها ابتسامة خافتة، تقول: ومن قال إنهم يجيدون التصويب، إنهم يفضلون قذف الرماح وهي لا تجدي مع هذا الحيوان.. لقد أهدروا الطلقات في صمت الغابة وعادوا بلا شيء.

يقترب منها أكثر، لا تتحرك من مكانها، لماذا تكتفي بالرأس بينما يمكنها أن تحصل على الخرتيت بأكمله؟! يشتهيها لكنها تثير خوفه، ولكن الرغبة في صفقة مزدوجة تعلو كل شيء، يتحول الحديث بينهما إلى مساومة، كل واحد يريد أن يظفر بما يريده من الآخر، يصبح الكلام سريعا ومتداخلا، يقول لها: ما دام الأمر كذلك أعطني هذه البنادق التي بلا فائدة وسأعطيك بدلا منها سن العاج وريش النعام وحلقات الذهب، تقول في إصرار: لا أريد سوى رأس الخرتيت، سيختصر هذا إقامتي في هذا المكان الخطر، سأعطيك أي مقابل تريده، يرد عليها بسرعة: البنادق، ثم يشعر بالندم، كان عليه أن يخفي لهفته، ينتظر حتى يسمع

عرضها ثم يساوم، تقول في غموض: أنت تطلب ثمنا باهظا، يقول: وأنت تطلبين رأس أشرس حيوانات الغابة، أريد البنادق كلها، يفكر.. إنها امرأة فاتنة حقا ولكن البنادق التي يحملها رجالها أكثر فتنة، يستطيع أن يعقد بها صفقة أخرى مع أي سلطان على النهر. تقول: أحضر الرأس، سنفكر بعدها كيف يمكن أن نعقد الصفقة بأكملها، يسأل نفسه: ترى هل قبلت؟ عليه إذن أن يحضر الرأس بأي وسيلة، تستدير وتواجهه: الآن.. أعتقد أننا قد تعارفنا بطريقة جيدة. تستدير وتصعد الدرج، يبقى شيء منها بعد أن تنصرف، الأمر يبدو واضحا، هي التي تفتح الباب حتى يقترب منها في دعوة مباشرة وصريحة.

يقبل «خميس» عليه بوجه متسائل، يخبره في حزم أن موعد الرحيل قد تأجل، عليه أن يقسم الرجال إلى فريقين، نصفهم يحرس العبيد، والنصف الآخر يخرج للصيد في عمق الغابة، والمطلوب رأس خرتيت كاملة، لن ترحل السفينة قبل أن تتم الصفقة. تبدو خيبة الأمل على وجه «خميس»، يريد أن يعود سريعا ليقابل ذلك الدرويش الذي يظنه المهدي، يقول له: كلام فارغ، مهدي آخر الزمان لن يعود، رغم أننا في آخر الزمان، لن يجرؤ على ذلك، كيف يفلت من قسوة الولاة، وجشع الباشوات وغدر الانكشارية؟ فلينتظرك المهدي في أم درمان، عليك أولا أن تحضر رأس الخرتيت، وأن تبعد هذا العبد العاصي عن طريقي.

يعرف أن «العاصي» لا يقوى على السير، ولكن على «خميس» أن يتصرف، لن يصعد لسطح السفينة إلا إذا رحل عنها. يظل في الانتظار حتى تغيب الشمس عن النهر، تهبط الظلمة فجأة، لا يوجد خيط فارق بين سطوع النهار وظلمة الليل. يسير على الشاطئ الخالي، بعض النيران مشتعلة داخل الزرائب لطرد الناموس، مصابيح ذات ألسنة رفيعة من اللهب ترتعد أمام الأكواخ، قبل أن يصل إلى زريبة «الفلالي» حيث

يجتمع التجار، يسمع صوت ضحكاتهم وهي ترتفع في صخب، يشم رائحة الدخان المتصاعد مشبعا بـ«الكيف»، معطر وزنخ، وأمام الباب يقف حارسان يمسكان بالبنادق، مذهولان لا يتحركان، لم يتأكدا من شخصيته أو يحاولا منعه. يجلس التجار في حلقة ووهج النار ينعكس على وجوههم، ركية نار مشتعلة تضيء المكان، يضحكون ويتجشئون وتتحشرج أنفاسهم، يضعون قطعة ضخمة من عجينة الكيف على الجمرات الملتهبة، يتركونها تعبق الهواء وتتسرب من أنوفهم إلى داخل أجسادهم. الزريبة عامرة بحيوانات غريبة الشكل، محبوسة في أقفاص أو مقيدة في أوتاد بعيدة، تبدو هي أيضًا تحت تأثير المخدر. «أبو عموري» متكئ على الأرض، يمسح دموعه ويلهث من كثرة الضحك، يجلس بجانبه ويتأمل بقية التجار، أجسادهم الضخمة تجعلهم أشبه بالحيوانات، يتحدثون عن تجاربهم المميتة دون أن يكفوا عن الضحك، عندما تضيع سفنهم وسط بحيرات النهر الواسعة فلا تجد مستقرا ولا مخرجا، وعندما تحاصرها أعشاب النهر وتقيدها في مكانها حتى يموت أصحابها جوعا، وآكلو لحوم بشر عندما يختطفون البحارة ولا يتركون خلفهم إلا عظاما مصفرة عارية، لا توجد رحلة آمنة، والعائدون منها يبدون كالعائدين من الجحيم، كل واحد منهم يحمل في داخله جحيمه الخاص. يميل على «أبو عموري» هامسا: هذه السنيورة.. أين تقيم؟

يحدق فيه «أبو عموري» بنظرة متقدة، يقول: حذرتك من قبل يا زول، الطريق إليها ليس سهلا كما تعتقد، إنها وحيدة حقا، ولكنها سيدة الأدغال، ليلة واحدة في فراشها قد تفقدك سفينتك..

يرد «ود الزبير» بسرعة: لا تكن أحمق، كل ما في الأمر أنني أريد أن أعقد صفقة معها.

يقول أبو عموري: في الليل، في فراشها؟ يضحك بصوت عال وقد أعجبته نكتته، يواصل: في نهاية ممر المشروع، في ظهر السوق، ستجد أكواخا من أغصان الشجر والغاب، حيث يقيم الفرنجة الذين يزورون المكان، ولكن حذار من حراسها، إنهم مسلحون ببنادق حديثة..

يرد في يقين: إنهم لا يجيدون التصويب..

يظل جالسا قليلا حتى يتكاثف الدخان ويغرقون أكثر في بحر الخدر، يتركهم دون وداع، لا يشعر أحد بانصرافه حتى «أبو عموري». يعود للطريق وقد زادت ظلمته، يحيط به صمت لا يشقه إلا رفرفات أجنحة مجهولة، وأصوات جنادب متواصلة، ولكن لا شيء ينذر بالخطر. يعرف المكان الذي يختاره الفرنجة للسكن، يريدون دائمًا أن يكونوا أقرب ما يكون إلى الغابة وأبعد عن التجار. يقترب من الكوخ تقوده غريزته، لا ضوء في الخارج، ولا حرس على الأبواب، ولا هو يدري ماذا يريد، ظلام دامس بلا حياة. يقترب من الباب الخشبي، لم يكن ينوي أن يدق عليه، يدور حوله، يختلس النظر بين فلقات الأخشاب التي تكون الجدار، ضوء خافت في الداخل، مصباح غازي يشع ضوءا شحيحا، يكتم أنفاسه ويديم التحديق: الرجال الست الذين كان من المفروض أن يحرسوا كوخها في الخارج، جميعهم بالداخل، أجسادهم كتلة متداخلة من اللحم الأسود، يتحركون فوق فراش من القش وورق الشجر، متشابكو الأعضاء، ذراع فوق صدر وساق على خصر، أصوات تنفسهم عالية ولا يكفون عن الحركة وفق إيقاع ما، تظهر بينهم لمحة من بياض، كتلة تضيء وسط السواد، لحمها الشاحب لم يعد شاحبا، متوهج ومندس وسطهم، تنام عليهم وتتغطى بالبعض الآخر، أذرعتهم وأفخاذهم تغطيها تقريبا، يلمح وجهها وهو يشهق وفمها يطبق على السواد، محتقن كجمرة نار، تستند برأسها إلى جسد

أحدهم دون حاجة لوسادة، ثم تعاود الاختفاء حين يتحركون، يد تقبض على ثديها وذراع يحيط ببطنها، جسدها مثل عجينة طيعة لا تكف عن التشكل، تتحرك بينهم، تعلوهم ثم تنخفض تحتهم، شعرها الأشقر يتناثر ويتموج كأنه جسد مفعم بحياة أخرى، تتأوه بصوت عال وهم يدمدمون فوق جسدها كالحيوانات. لماذا تقول عليهم إنهم لا يجيدون التصويب؟ أي تصويب كانت تعني؟ يحس بحرقة في أعماقه، لو أنه تسلل واندس بين هذه الأجساد، هل كانت تأبه بجسد زائد؟ هل من الممكن أن ينتزعها من بينهم ويحصل عليها خالصة لنفسه؟ يخترق برد الليل جسده فجأة، يشعر بالجوع والوحدة وعدم الجدوى، يبتعد عن الكوخ، ومنظر عريها ما زال يلهب رأسه، لماذا تريد رأس الخرتيت ولديها كل هؤلاء الحيوانات البرية؟ يتأكد أنهم ليسوا في حاجة لبنادق، لم تستأجرهم للصيد بكل تأكيد. يسير مترنحا وسط الصمت، يلاحقه صوت تأوهاتها مختلطا مع الزئير المتباعد.

لا يرى «السنيورة» مرة ثانية إلا في نهاية اليوم التالي، رغم أن جسدها العاري لم يغادر عينيه. تأتي كالعادة بصحبة رجالها الزنوج، تصعد إلى ظهر السفينة دون استئذان، يلقي «خميس» بالرأس الدامية فتتدحرج تحت قدميها الصغيرتين، تبتعد قليلا في فزع، ثم تستعيد جأشها، تتقدم وتنحني لتتأملها: عينا الخرتيت جاحظتان بارزتان، توشكان على السقوط خارج الحدقتين، ترى انعكاس صورتها على سطحهما اللامع الميت، ووجوه العبيد المفزوعين من خلفها، إله هائل من آلهة الغابة قد قتل، تبددت روحه، ترقد رأسه قربانا عاجزا لإلهة ملونة غريبة. تمد أصابعها وتلمس القرن المدبب الموجود في مقدمة الرأس، تدور بها على الحراشف البارزة، تريد أن تحدد عمر الإله المقتول، لونه حائل الزرقة، فتحتا المنخار مشرئبة وفارغة، هوتان مظلمتان، تغمس أصابعها

في بقايا الدم الموجود في نهاية الرقبة، لم يجف بعد، تفركه بين أصابعها وتشمه بعمق، تبحث عن قوته السحرية، القوة التي تبقي على شبابها وتوقد رغبتها، تبدو لمعة غريبة في عينيها، شيء ما يتسرب في أعماقها. تسير بمهل حول العنق المقطوع، تتأمله من كل الزوايا، تشير لرجالها أن يبتعدوا، ويشير هو أيضًا لرجاله أن يبتعدوا، حانت لحظة المساومة، تنظر إليه مبتسمة وهي تقول: كم تريد؟

يقول: المهم أنني حققت لك رغبتك، ولكن لماذا كانت رأس الخرتيت مهمة لهذه الدرجة؟

تنفك أساريرها قليلا، تقول: في فرنسا يعتقدون أن سر الشباب والفحولة يوجد في هذا القرن.. إذا كنت تفهم ما أعني، ولكني بالطبع لا أريدها لهذا السبب، لست في حاجة إلى أكسير، أريد الرأس كله لأحنطه وأعلقه فوق مدفأتي، أريده أن يذكرني بهذه الرحلة، لم أتصور أن رجالك بهذه المهارة.

يقول: ربما كان لرجالك مهارات أخرى، ولكنهم بالتأكيد لا يحتاجون لهذه البنادق.

تقول: ست بنادق في مقابل رأس خرتيت، هذا كثير، ربما بندقية أو اثنتين على الأكثر، لا أستطيع أن أكون في هذا المكان الخطر دون بنادق.

يدرك أنها تجيد المساومة، يقول محاولا إقناعها: الغابة ليست خطرة، ما دام يوجد ما تقايضين به، سآخذ ثلاثة بنادق مقابل الرأس.. سأعطيك سن الفيل مقابل الثلاثة الأخرى.

تصمت، هل لمعت عيناها، هل أثر فيها؟ تقول متبرمة: العاج هنا ليس من النوع الجيد، عادة ما يكون مشقوقا وداكن الصفرة..

هل تناقشه في تفاصيل الصفقة، هل راقت لها؟ يقول في صوت واثق: يمكنك أن تثقي في مهارتي كتاجر..

يهبط إلى غرفته في القاع، سطح السفينة خال، ورجالها أصبحوا بعيدين، لا تتردد في الهبوط خلفه، تتبعه إلى قمرته الخاصة، لا يبالي أنها تراقبه، ربما يريد إبهارها، يفتح الخزانة ويخرج لها اثنين من أنياب الفيلة، بيضاء ناصعة، شقًّا قمر مضيء، يتألقان في عتمة الغرفة الصغيرة، يسمع صوتها وهي تشهق، تتقدم وتأخذ في تحسسها أيضًا، لا تستطيع أن تحدد موقفها إلا باللمس، يتسرب ملمس النعومة إلى داخلها ويضيء وجهها. كانت عاشقة لكل ما يجيء من الغابة، يقف خلفها تمامًا، يكاد يلمس ظهرها، يشم عطرها مختلطا برائحة عرق الزنوج، يشعر بالإثارة تهز جسده، يتأمل جدائل شعرها الأصفر وهي ملفوفة للخلف مرفوعة إلى أعلى، يرى جزءا من عنقها الأبيض الشاحب، لا تبدو عليه آثار أصابعهم السوداء، الجميع وضعوا أيديهم على هذا الجسد، فما الذي يمنع يده؟ ببطء وتردد يضع أصابعه على كتفها، لا يبدو عليها أنها قد فطنت للمسته، لا يعرف إن كانت راضية، أو مستسلمة، يضغط على كتفها أكثر، ربما تعبت من مضاجعة العبيد وتريد رجلا حقيقيا، لا تتحرك من مكانها، لا يتقلص جسدها، لكنه يسمع صوتها تقول في حدة: ارفع يدك عني أيها النخاس القذر..

يذهله قوة صوتها، لا يتناسب مع رقة جسدها، تستدير نحوه، وجهها محتقن بالحمرة، نقاط النمش في وجنتيها أكثر بروزا، نمرة متحفزة، أبعد ما تكون عن ذلك الجسد الأبيض الذي كان يشهق بين طيات لحم العبيد، تصرخ: كيف تتجرأ وتضع يدك القذرة على جسدي؟

تريد أن تشعره بضآلته، لو رآه رجاله في هذه الحالة لفقد سيطرته

عليهم للأبد، يقول مندفعا: جسدك ليس مقدسا، رأيته بالأمس وهو يتلوى وسط أجساد الزنوج، لا تتظاهري بالعفة معي..

لا تتراجع ولا تخجل، تظل على نفس حدتها: لا أحد يأخذ جسمي رغما عني، أنا أعطيه لمن أشاء..

تثير كلماتها جنونه، يحاصرها بجسده، واثقا أن قربه الذكوري سينبه غريزتها ويجعلها تستسلم، يصرخ غاضبا: إنه أرخص مما تتصورين.. ومتاح للجميع..

ترفع يدها وتهوي بها على وجهه، تهبط أصابعها على خده كلسع النار، ليست قوية ولكن مهينة، يرفع يده ويوشك أن يسحقها ولكنه يتوقف، يفلتها من حصاره، تستدير وتتجه للباب، يسمع صوت أقدامها تدق على السلم الخشبي، تصعد إلى أعلى؛ نساء الفرنجة مختلفات، أجسادهن ضعيفة ولكن إرادتهن قوية. يظل جالسا في مكانه، هل سمع أحد صوت الصفعة؟ ينتفض من رغبته المحبطة وشعوره بالإهانة، يتمالك نفسه أخيرًا ويصعد إلى ظهر السفينة، لا أحد، لا رجاله ولا رجالها ولا الرأس الدامية، الظلمة فقط هي التي تزحف على النهر وتحول زرقته إلى رماد داكن.

يجلس الرجال في انتظاره داخل الزريبة، يتطلعون إليه، هل يرون آثار الصفعة على وجهه، يخفيها الظلام والمصابيح المعتمة، يقول لهم بصوت واضح: هذه ليلتنا الأخيرة هنا، سنرحل مع الصباح. يستدير مبتعدا، كان عليهم أن يرحلوا الآن، لا يحتمل ليلة أخرى في هذا المكان، ولكن الرحيل يتطلب الكثير من الترتيبات، عليهم أن يعيدوا العبيد إلى السفينة مرة أخرى، وأن يزودها بالمؤن والماء، ما زال للرحلة بقية، فرصة للنسيان ومسح الذاكرة. ولكن عندما يجيء

الصباح يجد نفسه أكثر غضبا وإحساسا للإهانة، ويبدو موكب العبيد وهو عائد للسفينة مهزوما؛ تبدد زهو الصفقة، وأحس أن جميع العيون ترى آثار صفعتها ويسمعون دويها على خده. يقف في مقدمة السفينة يتأمل بلا مبالاة نظرات الفزع في عيون العبيد والبحارة يدفعونهم إلى قاع السفينة، حتى «العاصي» نفسه، رغم أن شفاءه لم يكتمل يرغمونه على النزول، يلقي عليه نظرة نارية حانقة، يبدو عازما على قتله ما إن يسترد عافيته، يقاوم الهبوط من خلال الفتحة فيدفعه الرجال بكعوب البنادق. تصعد الشمس وتبدأ المؤن في الورود إلى السفينة، ينتظرون إشارته لرفع المرساة والبدء في الرحيل، لا يجرؤ على ذلك، بصره معلق بالأكواخ الرابضة على حافة الغابة، ثمن رحيله سيكون باهظا، يقترب «خميس»، يقف بجانبه صامتا لبعض الوقت، يقول في خافت: هل سنرحل يا زول؟ يلتفت إليه ويقول: هناك من أهانني وسرق ثمرة عملنا، يهتف على الفور: لا عاش ولا كنا، لن نغادر هذا المكان قبل أن نأخذ حقنا كاملا. ينظر إليه، إلى بقية الرجال، كلهم مزودون بالبنادق، ما قيمة ستة زنوج لا يجيدون التصويب، يقول له: احشوا البنادق بالطلقات واتبعوني جميعا..

يهبطون للشاطئ من جديد، متحفزين ببنادق محشوة، يقتحمون المكان في سرعة، يتوقف الباعة وتصمت الحيوانات وتفر الطيور، لا يذكر لأحد منهم سبب هذه الغارة المفاجئة، يسيرون فقط خلف غريزتهم في إطاعته، وبنفس حس الغريزة يعرفون إلى أين يتجهون. يعبرون السوق فيتراجع التجار مرعوبين، العرف السائد أن هذا مكان للتجارة وليس للقتال، يرى وجه «ابن عموري» مفزوعا، يدرك هو أيضًا إلى أين يتجه «ود الزبير»، لا يحاول أن يمنعه أو يتبعه. يظهر الكوخ الذي تقيم فيه «السنيورة»، أكثر كآبة تحت ضوء النهار، تجلس فوق

مقعد خشبي، بينما يهز أحد العبيد مروحة من ريش النعام، يحركها ببطء فوق رأسها، عاهرة مزهوة، يقف الزنوج الستة يمسكون البنادق، لا يعلم إن كانت محشوة أم لا، ولكنه يواصل التقدم، يصرخ رجاله معا في صوت واحد، الصرخة التي يرددونها عندما يهاجمون القبائل، لا تتحرك السيدة من مكانها، لا تبالي بوجودهم، ولكن رجالها يصابون بالذهول، يلقون البنادق ويتراجعون مفزوعين، تنظر نحوه في حنق، تقول: كيف جرؤت على المجيء إلى هنا؟

لا يهتم حتى بالنظر إليها، يقول لها بوضوح: لم آت للانتقام، ولكن لأتم الصفقة التي بيننا..

يلقي إليها واحد من رجاله بسني الفيل، ثلاثة أنياب ناصعة تسقط بالقرب من قدميها، يريد أن يكون عادلا، يشير لـ«خميس» ليجمع البنادق الست، لا يفكر في رد الصفعة، تتمتم بكلمات ووعيد، يتركونها وينصرفون، يشعر أنه قد استعاد بعضا من كرامته، السفينة في انتظاره، والصفقة قد انتهت.

تبدأ الرحلة من جديد، تعبر السفينة البحيرات المميتة، وفخاخ البوص المتراكم، يصبح ماء النهر فاترا رقيقا ناصع البياض، يأتي نهار شمسه حارة ويهبط ليل نجومه باردة، يتقلب الموج كتقلب الزمان، تتباعد الضفتان وتتراجع الغابات وينفتح الأفق، بالتدريج تبدو الحقول المستوية والبيوت الطينية، يشم روائح «أم درمان» تعبق الهواء، عندما تلتقي مع الخرطوم ويكونان معا شكلا يشبه خرطوم فيل ثابت الالتواء، تبدو ملامح المدينة من بعيد، غائبة خلف غلالة رقيقة من صهد النهار. يتجمع الرجال على ظهر السفينة يملئون صدورهم بهواء العودة، هواء ساخن جاف، تقتحم النهر تيارات بنية فوارة الحركة، أمواج

جديدة قادمة من النيل الأزرق تنحدر من أعلى هضاب الحبشة، محملة بفتات البراكين وشظى النجوم، تندفع عابرة صحاري وسهول ووديان لانهاية لها، حتى يندمج النهران معا، يلتقيان في «المقرن» حيث لا تتوقف الدوامات الصغيرة، وتخرج السفينة عن ثباتها وتتقلب بين أمواج النهرين، تبحث عن مجرى متوازن بينهما. ينتظرون جميعا هزة السفينة عندما تغوص بمقدمتها في الشاطئ الطيني عند «حمد النيل»، تظهر بيوت أم درمان مشبعة بالحنين. في المقدمة توجد علامة المدينة المميزة، قبة الدراويش، خضراء صغيرة، ومن بعيد يتناهى صوت إيقاع الطبول، يبدأ واهنا كوجيب قلب، ثم ينتشر الإيقاع على صفحة النهر، يظهر الدراويش بجلاليبهم البيضاء، ناصعة البياض كطيور النهر، يقفون في الحضرة، صفوفا متتابعة وهم يتمايلون، على إيقاعات «الله.. الله»، يرددون الكلمة المقدسة آلاف المرات دون كلل، يفعم التكرار أجسادهم بحالة من الوجد والنشوة، ينتشر إيقاعهم على سطح النهر، ويحيط بالسفينة وهي تدور حول جزيرة «توني»، وتظهر القلعة التركية وهي تسد الأفق، بجوارها العديد من القباب والمباني الحجرية. ترسو على الشاطئ، وسط العديد من السفن والقوارب الصغيرة، يمتلئ الميناء بالحمالين والصيادين، وترتفع هتافات الحمد لله على السلامة. يطوون الأشرعة ويلقون المرساة، وتبدو لمعة الظفر على وجوه البحارة، لكن «خميس» يقف بجانبه وهو يرتعد من شدة الانفعال، يشير إلى الشاطئ قائلا: لن نخرج البضاعة من قاع السفينة قبل أن نتفاهم مع أولاد «علي بمبه»..

يطوف ببصره حتى يراهم، بضعا من الجنود، ملابسهم بيضاء متسخة قليلا، وفوق رأس كل واحد منهم طربوش لونه أحمر فاقع، ربما كان هذا سبب التسمية، وجوههم الداكنة تنبئ أنهم مصريون، ولكن

قائدهم التركي يقف متربصا، وجهه محتقن وشاربه كث. كلهم أولاد «علي بمبة»، غرباء جاءوا من الشمال، أرسلهم الباشا الكبير الذي يسكن القلعة في مصر، يحملون البنادق ويجرون المدافع الضخمة، مرضى بسعار البحث عن العبيد والشراهة للذهب، ينقلون أمراض الشمال المتعفنة، ويسلبون النساء حليهم وعفتهم. يعرف «ود الزبير» أنه سيدفع لهذا التركي، ولجابي الضرائب ولكل من سيرسلهم «الباشا الحكمدار». يشق الضابط طريقه للسفينة، يصعد إليها ويترك بقية الجنود على اليابسة، يقول: تاجر أغا.. لا بد من تفتيش السفينة حتى لا تكون هناك ممنوعات، يقول «ود الزبير»: لا ممنوعات، مجرد شحنة من العبيد كلفني بها «الباشا الحكمدار»، يقول له ذلك حتى يردعه ويوقفه عند حده، يخرج له بعض الريالات الفضية، ولكن التركي يسارع بالقول: لا أريدها، أريد جارية، شيئا يخفف عني الليل الطويل في هذه البلاد اللزجة، يقول «ود الزبير» ضاحكا: كنت سأعطيها لك مجانا لو كنت أملك واحدة، شحنتي كلها هذه المرة من الرجال، كما قلت لك كلها للحكمدار. يتغير لون التركي، يرفع رأسه وقد استعاد عنجهيته يصيح به: أعطيني إذن قطعة ذهبية أيها الجلاب الحقير وإلا صادرت كل سفينتك. يظل يصرخ محاولا أن يرهبه، لكن «ود الزبير» يعرف ثمنه الحقيقي مهما صرخ، خمس ريالات فضية، لا تزيد واحدا.

يهبط على اليابسة أخيرًا فوق تربتها الحمراء، يجب أن يفرغ حمولته قبل أن يعود لبيته. يقبل جمع من تجار الميناء لتهنئته بسلامة الوصول، يراقبون ماذا يحمل بشيء من الحسد. يأتي «خميس» بوجه متغير، يقول: هناك جثتان، ماتا دون أن يعلم أحد، يتطلع إليه طويلا، خسارة لم يكن يريدها، ولكنها متوقعة، يسأله: هل «العاصي» واحد منهما؟ لا يدري لماذا هذا السؤال على وجه التحديد، ولا لماذا يريد موته، يهز «خميس»

رأسه نافيا: مات اثنان آخران، لا أعرف حتى شكلهما، ضريبة كل رحلة، يقول: أنزلوا بقيتهم بسرعة، وادفنوا الجسدين، هنا في أي مكان، لا يوجد من يبكي عليهما. يظهر بقية العبيد من القاع، ليسوا أقل موتا، وجوههم شاحبة ملوثة عليها طبقات من القذارة والبراز، يجب غسلهم بمياه النهر من جديد؛ «العاصي» ما زال يعرج، عيناه تنظران نحوه بنفس الدرجة من البغض. يفكون الأحبال من على أعناقهم حتى يستخلصوا الجثتين، جلودهما متيبسة كأن كل ما في داخلها من عظام قد تهشمت، يبدو الرعب واضحا على وجوه بقية العبيد، كانوا ينامون مع الموتى دون أن يعرفوا. يتقدم اثنان من رجاله، يحمل كل واحد منهما جثة، يسيران بهما إلى أقرب حفرة على الشاطئ، يهيلون عليهما التراب بلامبالاة، فعلوا ذلك عشرات المرات، يراقبهم بقية العبيد وهم يرتعدون تحت دفقات المياه، سيقدم لهم الليلة كل ما يقدر عليه من طعام، لعله ينقذ البقية الموجودة فيهم من حياة.

يشم رائحة بيته أخيرًا، تراقبه زوجتاه في توجس، «هنومة» الزوجة الأقدم، و«ضي البيت» الزوجة الجديدة التي أصبحت قديمة فجأة، لا واحدة منهن في جمال السنيورة، لا تجرآن على الاقتراب منه دون أن يسمح لهما بذلك. يحيط به أطفاله وهم يصيحون في صخب، عيونهم صغيرة وبراقة، يعرف عددهم بالإجمال، ستة عشر ولدا وبنتا، لا يذكر أسماءهم، ولا لأي أم ينتمون. يعيش معظم حياته عائما فوق النهر، ترك لهن كل شئون بيته رغم أنه كان يغيرهن باستمرار، يقلع الزوجة القديمة من مكانها ويأتي بأخرى مكانها، وكالعادة تدخل الجديدة بمزيد من المشاكل والأولاد. تتكاثر قبيلته داخل البيت، لا يتصور أن يأتي أحد ويعتدي عليها كما يفعل هو مع قبائل الآخرين، لا يتخيل أبدا أن يقتحم أحد جدران بيته ويسوق زوجاته إلى أسواق النخاسة

في الخرطوم، لا يجرؤ الأتراك على ذلك مهما بلغ تعسفهم، رغم أن هذا هو ما يحدث في جنوب النهر مع مطلع كل شمس. يلتفون جميعا حول مائدة الطعام، يجلس الأولاد حوله، وتقف الزوجتان، كل واحدة منهن تؤدي دورها، تحضر الماء أو تحضر الفاكهة أو الحلوى، لا يدري في سرير أي واحدة منهن سيقضي ليلته، لا بد أنهن رتبن هذا الأمر معا، وسيجد نفسه مساقا إلى غرفة واحدة منهن، جسده جائع حقا، ولكن رغبته قليلة في هذه الأجساد السوداء المترهلة. يقول ابنه الأكبر الذي لا يذكر اسمه، كما يحدث في أعقاب كل عودة: نريد أن نرى البضاعة يا أبي! يردد البقية من بعده نفس الطلب في جوقة واحدة، وتبتسم النساء في قلة حيلة.

الزريبة الخشبية المحكمة الإغلاق ملتصقة بالبيت، يمكن الولوج إليها من خلال باب جانبي دون الحاجة للخروج للشارع، يستأجر حارسين جديدين، ويترك الفرصة لرفاق السفر حتى يعودوا إلى بيوتهم، يقفان على باب الحظيرة يحملان البنادق، ويتجول العبيد داخل قفص خشبي، حيواناته المأسورة، أكلوا وشربوا واستعادوا بعضا من شراستهم. يحدق فيهم الأطفال من خلف السياج الخشبي بفضول ورهبة، غدا سينضج واحد منهم ويخلفه في هذه المهنة، جلاب للعبيد من سلسال طويل من الجلابين، ولده الأكبر يحدق ببصره في «العاصي»، لم يتماثل تمامًا للشفاء ولكنه يستطيع أن ينصب طوله الفارع، يبدو جسده ناصع السواد، يظل بقيتهم جالسين، يتأملون أبناءه بعيون زائغة، هل يتذكرون الأطفال الذين أرغموا على تركهم؟ يحس أنه يبالغ في تفكيره قليلا، لا يوجد أطفال تخص أحدا في الغابة، ولا حتى نساء، كل شيء على المشاع، مثل مياه النهر وأشجار الغابة، لماذا إذن كان صراخ النسوة وبكاء الأطفال؟! يرتجف وهو يرى «العاصي»

يخطو نحوه ونحو أبنائه، يسير بخطى عرجاء ثم يتوقف، كأنه يستجمع شحنة الغضب من كل ذاكرته، لو تم شفاؤه وأخذ كفايته من الطعام لاستطاع أن يدمر المكان على من فيه. ينظر «العاصي» للابن الأكبر الذي يشبه أباه، يتقدم ويمسك بالقوائم الخشبية كأنه يريد أن يخلعها من مكانها، يمسك «ود الزبير» بيد أطفاله ويتراجع للوراء، لا يريد أن يبدو خائفا، يتراجع ببطء محافظا على هيبته، بطنه ممتلئة بقطع الضأن والثريد، من الأفضل أن هذا النوع من الطعام لا يصل إلى أفواههم، لو امتلكوا قواهم لحطموا هذه العوارض، عليه أن يسرع ببيعهم قبل أن تأتي هذه اللحظة. يصرخ «العاصي» فجأة، تملأ صرخته الصمت، يتراجع الأطفال في خوف، ويتقدم الحارسان رافعين البنادق، ينظر نحوه بحنق، كأنه سيكسر الحاجز ويصل إليه، يسحب الأولاد مبتعدا، يسمع أحد الحارسين وهو يصيح فيه مهددا: سأطلق النار عليك.. أقسم على ذلك، يواصل التراجع حتى يصبحوا جميعا في الخارج، الهواء بارد والنجوم تملأ السماء، وصوت «العاصي» يصرخ من جديد..

لا يدري إلى أي غرفة دخل، ولا أي زوجة ضاجع، كلهن متشابهات في الظلام، يغمغمن ويتأوهن بالصوت نفسه، و يخبئن تحت وسائدهن كوابيس لا تنتهي، غابات ووحوشا ضارية وعبيدا مفزوعين وفاقدي الأمل، لماذا كانت هذه الرحلة شديدة الوطأة إلى هذا الحد؟ ولماذا لا تغادر أحلامه؟ يتقلب على السرير، لا أحد بجواره، كم يوما نام؟ أشعة من نور النهار تتسلل من النافذة، وصمت مطبق لا يتناسب مع قدوم الصباح، يرفع رأسه ويرتكز على مرفقيه، «ضي البيت» واقفة هناك، ملتصقة بالحائط، ممتقعة الوجه، جامدة مثل صنم، قبل أن يتفوه بكلمة يسمع صوتا خشنا يتحدث، رجل في غرفة نومه، رجل يصيح فيه: انهض.. جلاب خرسيس..

تركي في حجرته أيضًا، من أولاد «علي بمبه»، يرفع بقية جسده من على السرير، جاويش ضخم بملابس مزركشة يسد فراغ الباب، يلمح خلفه زوجته الأخرى وبقية أولاده، مفزوعين لدرجة الموت، يعاود الجاويش الصراخ: انهض يا جلاب، لا يوجد وقت، الباشا في الانتظار. أي باشا؟.. وأي انتظار؟ يفتح فمه ليسأل، يستفهم، يتصاعد غضب الجاويش، يصرخ: أورطة.

يندفع داخل الغرفة أربعة من الجنود، يزيحون زوجته وأبناءه من طريقهم، يحيطون بفراشه، كل واحد يجذبه في اتجاهه، يمزقون ملابس نومه ويوشكون على فصل أعضائه، تصرخ زوجته داخل الغرفة، وزوجته من خارجها، ويبدأ الأطفال في العويل، تمامًا كما حدث في الغابة على حافة النهر، يصرخ محتجا ولكنهم يسقطونه على الأرض، يدفعهم من فوقه ويصرخ: أنا تاجر محترم. يصرخ التركي أيضًا: قل هذا للباشا الحكمدار..

يجذبونه مثل تمساح ميت، يدفعهم عنه يحاول أن يخلص جسده من الأيدي التي تقبض عليه، مهما حدث يجب أن يحافظ على هيبته أمام أهل بيته، يصيح في زوجتيه: العباءة.. فليحضر أحد العباءة، ولكن ما إن يمسكها في يده حتى ينزعوها منه، يشعر بالحصى الخشن وهو يلهب ظهره ويدخل في عظامه، المزيد من أولاد «علي بمبه» في انتظاره، يحيطون ببيته وحظيرته وعبيده، يرفعون الأسلحة إلى أعلى كأنهم على وشك الدخول في حرب، تلاحقه نسوته وأطفاله باكين، يصيح فيهم أن يعودوا للداخل، آخر ما يمتلكه من سلطة، يواصل أولاد «علي بمبه» دفعه وضربه وإهانته وإيلامه، تتقلب بيوت «أم درمان» رأسا على عقب، تنفتح النوافذ والأبواب وتطل منها وجوه غريبة، لا أحد يتعرف عليه، لا يتدخل أحد لإنقاذه، يمتلئ الطريق فجأة بالأحجار الناتئة التي يتعثر

فيها جميعا، يحاول أن يستعيد وقفته المنتصبة، هيئة التاجر المحترم التي يعرفها الناس، في لحظة مفاجئة ينقلب الحال، يعاملونه أسوأ من العبيد الذين يسوقهم، لا وقت ليفكر في جنايته. بدءوا على الفور في عقابه، دون قدرة على الاعتراض، كل ما يحاوله هو تفادي المزيد من الأذى حتى يصل للباشا، إذا أتيحت له فرصة الوصول.

شمس الخرطوم حارة، ولكن قصر «الحكمدارية» معتم ومثير للرعدة، يربض عند بابه مدفع ضخم فوهته واسعة، وبجانبه كرات «القنبر»، حديدية وثقيلة، متأهبة للحشو للانطلاق، تكفي طلقة واحدة لاقتلاع أي بيت في المدينة. يقودونه عبر أروقة حجرية غير مستوية، مركبة ومتداخلة مع بعضها في تلاصق مخيف، كلها تطبق على أنفاسه، يدفعه الحرس بقسوة إلى ممرات ممتدة وخانقة، يعرف أن تحت أقدامه تمتد سراديب تنز صخورها صهدا، قبر متسع، هل يقودونه إلى الدرج الهابط للجحيم السفلي، أم أن هناك فرصة ضئيلة يصعدون به لمجلس الباشا، لعله يستمع إليه، أو يعرف سبب ما يتعرض له الآن، يدفعونه إلى الدرج العلوي، يجهدونه في الصعود ولا يكفون عن ضربه، لكن هذا أفضل قليلا، ولا بد أن الباشا منذ أن جاء من تركيا وسكن القلعة لم يهبط منها أبدا، يصل أخيرًا وقد تقطعت أنفاسه. تبدو بيوت المدينة من أعلى منكمشة على نفسها، يشقها النهر، تربتها الحمراء في زرقة باهتة، ويحلق فوقها طيور مستغربة.

يتوقف أمام باب القاعة الضخمة حيث مجلس الباشا، جاء إلى هذا المكان منذ فترة قصيرة، كان مدعوا، ليس مهانا ولا مضروبا، على الباب يقف حارسان يمسكان البنادق، ليست في جودة البنادق التي أعطاها لسلطان «الدنكا»، يدفعانه أيضًا داخل القاعة، ينكفئ متعثرا في السجادة المفروشة على الأرض، يرفع رأسه ببطء ليرى «موسى باشا

حمدي» جالسا أمامه، جسده ضخم، رابض مثل أسد عجوز، لحيته كثة حمراء كاللهب، تخفي ملامح وجهه، تطل من بينها عينان جاحظتان، لونهما كالرماد، بريقهما زجاجي جامد، وثوبه القاني موشى بخيوط متداخلة من الذهب، على شفتيه ابتسامة متشفية، أكثر من مرة قدم له التحايا والهدايا واعترافه بالولاء، فما هو المبرر لكل هذه القسوة وهذا التشفي؟ ظل يحدق فيه يصيح فيه بلا شفقة: انهض يا جلاب، قف على قدميك في حضرتنا..

لهجته لا تبشر بخير، يتماسك قليلا، يقف بصعوبة، ينصب جسده الدامي المتألم: هذه الإهانات كثيرة يا باشا، كان يمكن أن تدعوني لأحضر، وأقدم احترامي..

يقاطعه الباشا في صوت هادر: أنا لا أدعو لصوصا لمجلسي، أنا فقط أقبض عليهم..

يحاول أن يزن جسده جيدا، وأن يسمع بأذنيه جيدا، تهمة باطلة لا يدري من ألقاها عليه، عليه أن يبدو واثقا وهادئا حتى ينفي كل التهم، يقول: أنا تاجر شريف يا باشا، وحضرتكم أول من يعرف ذلك..

يصيح: الآن تغير ذلك كله.. انكشف اللص الذي بداخلك.. وعندي شاهد عيان يشهد على فعلك الخسيس..

يومئ برأسه إلى ركن القاعة، يكتشف «ود الزبير» أن هناك شاهد عيان آخر على إهانته واتهامه، جالس على مقعد في أحد الأركان، الآن يرى وجهها بوضوح، والابتسامة الجامدة على شفتيها، كيف لم يشم رائحتها عند دخوله؟! توجه «السنيورة» إليه عينيها الفارغتين فيرتج عليه، ماذا تفعل هنا؟ وماذا قالت للباشا؟ وكيف وصل الأمر لهذا الحد؟ يصرخ الباشا: هل تستطيع أن تنكر ما فعلته بها؟

تحدق فيه بثبات دون أن تطرف عيناها، لو أنه نجح في مضاجعتها لكسر هذه النظرة، يقول: لم أفعل بها شيئا، قمنا معا بمقايضة بسيطة.. صفقة..

تقول في برود، بعربيتها المتكسرة المستفزة: أي صفقة، ما فعلته أنك سلبتني كل بنادقي وتركتني بلا حماية وسط الغابة..

يفتح فمه محاولا أن يشرح، لكن الباشا ينهض من مقعده، يصب جام غضبه عليه هادرا: جلاب خسيس، هل تعرف من هي؟ إنها من أشراف الفرنسيس، قريبة «مسيو دليسيبس» صديق أفندينا شخصيا، كيف تجرؤ على أن تسلبها سلاحها، وتمد أصابعك النجسة عليها؟ الشنق هو أهون عقاب لك..

يتحسس «ود الزبير» عنقه، لا جدوى من الكلام، كلمته في مواجهة كلمتها، ما يقوله سيكون هراء لا يسمع، ولكن كلمتها سيف باتر ستقطع عنقه دون أن يأبه أحد بذلك، عليه أن يبادر بالتراجع، يخسر صفقة خيرا من أن يخسر حياته كلها، يقول: الغلط مردود جنابك، سأعيد إليها كل البنادق، ولا أريد أي شيء في مقابلها..

دون أن يقصد، تثير هذه الكلمات غضب الباشا أكثر، يصيح: جاموس حقير، هل كنت تحسب أنني كنت سأنتظر حتى تتعطف علينا، لقد صادرت كل بضاعتك بالفعل..

يشهق في ذعر، هل هاجموا منزله وزرائبه؟! ماذا سلبوا وماذا تركوا؟ تنظر «السنيورة» اللعينة نحوه بوجهها الشاحب وابتسامتها الميتة، لو استطاع أن يصل إلى عنقها الآن لضغط عليه دون رحمة، لو كان يعرف أن جسدها النحيل يمتلك كل هذه القوة، ما رسى بسفينته في «مشروع الرق» أصلا، يبدو الباشا منفوخا وسعيدا ومنتشيا، وهو يقف أمامه،

فريسة منزوعة القوى، لا يملك إلا أن يقول في ضعف: لا يحق لك هذا يا باشا، سأرسل شكوى لولي النعم في مصر..

ينفجر الباشا ضاحكا، يهتز جسده كله وهو يقول: جنابه سيكون أسعد مني بما فعلته بلص مثلك، اذهب إلى النافذة يا جاموس.. انظر منها وقل ماذا ترى؟

هل كان العبيد يشعرون بما يشعر به الآن، انسحاق وعجز عن فعل أي شيء؟ يسير بخطى متثاقلة للنافذة، يطل على الفناء الداخلي للقلعة، سورها ملتف كثعبان أرقط، فناء ترابي حمرته قانية، يقف عبيده في صفين، أجسادهم هزيلة، ملتصقين ببعضهم البعض في رعب، لا يعرف العبيد، كالعادة، ماذا يحل بهم، ولا ماذا يراد منهم، يقف أمامهم عساكر أولاد «علي بمبه» وهم يوجهون البنادق لصدورهم، صفقته الضائعة، حصيلة رحلته المسلوبة، أخذوهم جميعا بما فيهم «العاصي»، يرى قامته الطويلة وهو يتلفت في كل اتجاه، يبحث عن طريقة للهرب، يرتد من النافذة مفزوعا ومحطما، قضي عليه كتاجر، يقول الباشا في هدوء: هل ألقيت عليهم النظرة الأخيرة؟ مولانا ولي النعم يريدهم على وجه السرعة، سينضمون للأورطة الجديدة التي يكونها، لقد جئت بهم في الوقت المناسب.

يسرقونه، يسرقون تعبه وسعيه ورحلته المميتة لأعالي النيل، يقول متوجعا: هذه بضاعتي، لا يمكن أن تأخذوها مني بلا ثمن..

يرد الباشا في غلظة: أيها الجلاب الحقير، لقد أنقذناهم من يديك، بدلا من أن يرعوا الغنم ويحملوا الأوساخ والإهانات، سيصبحون جنودا، ويوما ما سيصبحون أحرارا مثلك، بل وأفضل منك أيضًا..

يصيح الباشا بأعلى صوته مناديا العسكر، يدخلون حاملين بنادقهم،

يحيطون به، يسمع صوت صمام الأمان وهو يُسحب، يستعدون لإطلاق النار، يحس بفوهات البنادق كلها تلتصق بأضلاعه، يرفع يديه لأعلى مستسلما، يغمض عينيه مغمغما بالشهادة، يسمع صوت الباشا يصيح: خذوه.. لا تتركوه إلا بعد أن يكتب صكا بالتنازل عن كل شيء، يكفي أننا سنسقط عنه تهمة السرقة..

يتواصل الكابوس، وتختفي الوجوه، يهبط من أعلى القلعة حتى سافلها، على قدميه وعلى وجهه وظهره، يعلق من قدميه ورأسه إلى الأسفل، يضربونه على مؤخرته العارية ويدخلون فيها العصي، ينتفون شعر عانته ويجلدونه بالسياط، ويطلقون عليه أسماء الإناث، يوقع كل أنواع الصكوك، لا يغادر هذه القلعة السوداء إلا بعد سبعة أيام، دهر كامل من الإذلال والإهانة، يسير حافيا بعد أن فقد صندله، وعاريا بعد أن تمزق ثوبه وتحول إلى أثمال، تظهر عورته كلما تحرك، يحاول عبثا إخفاءها ولكن الأطفال يشيرون إليه، والنساء يشحن بوجوههن، ويبدو بيته بعيدا، كأنه في عالم آخر، القيظ يحيط به والألم يمض جسده، وحين ينظر للسماء يرى الشمس مظلمة.

- ٢ -

«أرجوك.. لا تضعف يا حبيبي، لا تكن هشًّا..

في الحقيقة هي التي توشك على الانهيار، تردد الكلمات نفسها وهي تشهق، لا يكف جسدها عن الارتجاف رغم أن الشتاء كان بعيدا، والشمس تشرق على صفحة بحر الإدرياتيكي، تبدو كحافة سيف متحفز، لا يمكن المجازفة بالإبحار فوقها، تماسكي يا فتاة، تخاطب نفسها بنبرة عالية، لا يوجد أحد من الخدم قريب منها، عيون الشرطة السرية بعيدا خارج الأسوار، رغم ذلك فهم قريبون أكثر مما ينبغي، يرصدون أي حركة، ويحصون عليهم كل نفس، يدونون حتى الهمسات، يُضَمّنونها في تقارير مطولة للإمبراطور الرابض في فيينا، الصهر العزيز، المرتاب دوما، الشكاك أبدا، أين يجد الوقت لقراءة كل التقارير السرية التي تنهال عليه من أرجاء الإمبراطورية، يضحك ماكس دائمًا ويقول ساخرا: إنها تمتعه أكثر من موسيقى الأوبرا. لكن هذا ليس وقت التفكير في الإمبراطور فرانز جوزيف، رغم أنه لا يكف عن التفكير فيهما، تهبط إلى الحديقة، تجتاز أحواض الأزهار التي غرسها «ماكس»، تمسك ذيل ثوبها بيد، وبالأخرى ورقة البرقية التي جاءت في الصباح، برقية غير عادية من إمبراطور فرنسا «نابليون الثالث»، لم ترها إلا بالمصادفة، يتركها «ماكس» فوق مكتبه بإهماله المعهود، لم يأت إليها ويأخذها في أحضانه أو يقبلها وهو يتلو نص البرقية، يتجاهلها

ويتجاهل الكلمات المطبوعة ويهبط إلى غرفته الزجاجية، عالمه المنتزع من وسط أحداث العالم، يخلو من الجميع حتى منها، تدور الممرات تحت قدميها، ينحني الخدم والبستانية ويبتعدون بسرعة عن طريقها، لماذا فعل ذلك؟ هل ينوي رفض عرض نابليون؟ هل ينوي أن يبقي عليهما في هذا السجن الجميل؟ في هذه اللحظة لم تكن ترى شيئا من الجمال، تود أن تدهس هذه الأزهار وتوقف النوافير وتمنع النوارس من التحليق، ربما كانت هي أيضًا تتجسس لحساب للإمبراطور، تلمع الشمس على صفحة البيت الزجاجي، تعرف أنه في داخله، وسيبقى بداخله حتى يتبدد ضوء العالم.

تفتح الباب الزجاجي وتغلقه خلفها بسرعة، سيحس بالافتقاد لو تسربت فراشة واحدة للخارج، تتقدم بين النباتات الغريبة التي يداوم على الاعتناء بها، أحضر بعضها بنفسه من شواطئ نهر «الأمازون» عندما قام بزيارة البرازيل منذ سنوات، زيارة غريبة ومريبة، حتى الآن يرفض الإفصاح عن تفاصيلها، تزدهر النباتات وتورق وتكتسب طابعا وحشيا يذكرها دوما أن هناك جزءا مغلقا في أعماقه يرفض أن يفتحه لها، تسير متحاشية أن تلمس واحدة منها، قال لها ذات مرة.. إن هناك أنواعا منها تلتهم اللحم الآدمي، هل أحضرها إلى هذا المكان، أم انه يخيفها فقط حتى لا تقتحم المكان من خلف ظهره؟ تهتفت منادية باسمه: ماكس..

دائمًا ما يعزل نفسه في هذا البيت الدافئ الذي يغطي البخار حوائطه الزجاجية، المكان الذي يثير رعبها، أي المخلوقات يمكن أن تعيش في هذا الطقس الخانق غير الحيوانات المتوحشة، تناديه مرة أخرى فلا تسمع جوابا، هل يتجاهلها، يتجنبها؟ تلمح جسده وهو يقف بعيدا، تحط الفراشات الملونة آمنة على كتفيه، يتحرك ببطء بالغ حتى لا

يزعجها، مستغرق في تطعيم نبات بآخر، يريد أن ينبت شيئا لم يكن موجودا، إله مغمور للنباتات الصغيرة، يفعل ذلك في استغراق، كشاعر يكتب قصيدة. لا يشعر بقدومها حتى تصبح بجانبه تمامًا، يمتلئ قلبها بالإشفاق عليه وهي تدرك أزمته الحقيقية، يدير ظهره للواقع ويحاول عبثا خلق واقعه الخاص، تقول له برفق: يا أميري.. يتطلع نحوها أخيرًا، يدهش لأنها ليست شجرة صغيرة، يحدق فيها بعينية البالغتي الزرقة، فيمتلئ قلبها بعاطفة لا متناهية، يتساءل عن السبب الذي جعلها تجازف وتدخل هذا البيت الذي تكرهه، لأنه دائمًا ما يختطفه منها ويبقيه داخله، ترفع يدها وتلوح له بالبرقية، لا يندهش، يغمغم: آه.. هذه البرقية.. لم أشأ أن أزعجك..

لا تستطيع أن تخفي دهشتها: كيف تزعجني، نحن ننتظر هذه البرقية من شهور، ألم تقرأ ما فيها؟

لا يتخلى عن هدوئه، ولا تستثيره كلماتها، يقول: أجل.. الإمبراطور نابليون يخبرني أن البرلمان المكسيكي وافق بالإجماع على أن يختارني إمبراطورا للبلاد، أليس هذا ما تعنيه؟

كأنه يحدثه عن مجرد دعوة للعشاء على ساحل «تيرست» بين فقراء الصيادين، يدهشها تعبير وجهه وسكونه، تقول: لماذا يخيل إليّ أنك لست سعيدا بهذا الاختيار، كأنك لا تريده..؟

تكتشف أنها ستصبح عدوانية، يدير ظهره قليلا، يعبث بالتربة ليغرس فيها المزيد من النباتات، كأن هناك عرشا يتم عرضه عليه كل يوم ويقوم برفضه، يقول في هدوء كأنه يحدث طفلة صغيرة: شارلوت يا عزيزتي.. أنت تعرفين بالتأكيد أن هذا المجلس جاء به الجنرال

«فوري» الذي يحتل جنوده من الجيش الفرنسي المكسيك الآن، يعني أن الذي اختارني في الحقيقة هو نابليون ولا أحد غيره..

تكاد تجن، تريد أن تصرخ في وجهه، لا تتصور أنه قد وصل إلى الدرجة التي يمكن أن يرفض فيها العرض، إنه فقط متردد في قبوله، هذا التردد القاسي الذي سيجعلهما يدفعان الثمن غاليا، يحتاج فقط إلى المزيد من الإقناع، عليها أن تنزع رداء الطفلة وترتدي مسوح المعلمة، تقول في هدوء: يا أميري، أنت تعرف أن هذا ليس دقيقا، هذا التاج معروض عليك من قبل أن يعرف الفرنسيون طريقهم للمكسيك وقبل أن تشتعل الحرب، أنت تذكر أن «جواتيرز دي استرادا» جاء إليك منذ أكثر من عامين، ومعه وفد من نبلاء المكسيك حتى تقبل التاج و توقف فوضى الحرب الأهلية هناك، أنت تتذكر هذا بالتأكيد؟

منذ ذلك الوقت لا تتوقف أنهار الدم التي تسيل، يتغير العالم بينما يظلان منعزلين، داخل قصر «ميرامار» المطل على الخليج الإيطالي الساكن، تتذكر هي بالتفصيل اليوم الذي جاء فيه هذا الوزير المكسيكي العجوز، كان منفيا في أوربا بصحبة العديد من المسئولين السوابق، قادم من عالم آخر، شكله مرعب ومثير للريبة، ملامحه قاسية وأنفه كنبات الصبار، وشاربه كث ومنحن إلى أسفل، يلبس ثيابه المحلية المزركشة، ويمسك قبعة عريضة مقوسة الحواف، لا أهمية لها هنا، في بلاد لا ترى الشمس إلا نادرا، يتحدث عن دعاة التحرر وأنصار الجمهورية، كيف أنهم لم يفسدوا المكسيك فقط، ولكن أفسدوا العالم كله! نزعوا ظل الله من الأرض، وتركوها بلا آلهة، كان يبحث عن أمير بلا عرش، يرغب في حكم بلد اهتزت كل عروشها، يكون مستعدا لمطاردة أحلامه في عالم جديد، لم يجد أفضل من زوجها «ماكسمليان فرانز»، شقيق إمبراطور النمسا وقائد بحريتها، جاء ليعرض عليه تولي

عرش ذلك العالم الشاسع والمهيب المسمى المكسيك، حوالي مليون كيلو متر مربعا، تمتد شمالا من صحراء أريزونا، وجنوبا حتى أدغال جواتيمالا، سهول خصبة وغابات مطيرة ومساقط للمياه ومناجم الذهب والفضة، فواكه أستوائية، بن وتبغ وكاكاو، كل أحلام القرون الوسطى عن الجنة الأرضية، تحتاج فقط إلى لمسة من السكينة. يستمعان إليه، هي وماكس، فاغري الأفواه، ترى الرجل من جديد وقد لانت ملامحه القاسية واكتسى وجهه بطابع من وسامة غامضة وامتلأ قلبه بعاطفة من حنين إلى بلده البعيد، لا يشبه أفعى الكتاب المقدس، رغم ما في كلماته من إغواء لدخول الجنة، وربما الجحيم، يريد السنيور المكسيكي فقط أميرا من أسرة «هابسبورج»، يجسد أسطورة الإله الأبيض الخارج من أسطورة عتيقة، شعره أشقر وعيناه زرقاوان، الإله الذي ينتظر هنود العالم الجديد قدومه، وعندما جاء الإسبان لأرضهم للمرة الأولى، وشاهدوا الغازي «هرنان كورتيز» اعتقدوا أنهم قد حصلوا بالفعل على هذا الإله، ولكنه أصلاهم بنيران مدافعه، أحرق بيوتهم ومعابدهم، وهم يتطلعون الآن إلى إله جديد، يحمل الصفات القديمة نفسها ولكن أكثر رحمة، كلمات السنيور العجوز كانت حارة ومقنعة، ولكن «ماكس» ظل مترددا، ينظر نحوها بعينيه الحزينين، ولا يعطي ردا مباشرا..

يأخذها من يدها ويخرجان من البيت الزجاجي، يسيران وسط حرش من زهور الليلك والزنابق، يقفان على حافة الشرفة الأمامية، يمتد أمامهما البحر ساجيا كسراب، يقول بصوت خافت: هل يمكن أن نترك هذا الجمال والسكون من أجل الرحيل إلى أرض غريبة تبعد عنا آلاف الأميال؟!

تحاول أن تخفي حنقها من طريقته في التفكير، كانا يعيشان في عالم غير حقيقي، محاط بسياج غير مرئي، الزمن فيه مثل قارورة رمال

لا تكف عن التسرب، أيام تمضي وليال تضيع، كلها متشابهة متطابقة، حتى أنهما لا يشعران بضياعها، تتوسل إليه: يا حبيبي أنت ما تزال في الواحد والثلاثين من العمر، ماذا ستفعل حتى تبلغ التسعين، أخوك الإمبراطور في صحة جيدة، سيظل جالسا على عرش النمسا ونظل نحن في هذا المنفى الجميل، وأنا ماذا عليّ أن أفعل، أنا في الثالثة والعشرين، لا أجيد صنع أي شيء وليس ورائي أي عمل..

ينفخ صدره ويقول في ثقة: أنا أميرال الأسطول النمساوي..

تقول: حتى هذا المنصب لم يدعك أخوك فيه طويلا، أحالك للتقاعد المبكر..

يحاول أن يهرب من المناقشة: لا أريد أن أغادر هذا المكان..

عليها ألا تنفجر في وجهه، عليها أن تترك دماءها الملكية الزرقاء تسري في عروقها وتهدئها، لا انفعال، لا خضوع للعواطف، تأخذه من يده كما فعل معها، يتبعها دون مقاومة، تدير ظهرها للبحر والحديقة والقصر، يجتازان الفناء المرصوف بالحصباء الملونة، تشير عبر السور الحديدي، حيث يقف الرجلان في مكانهما المعتاد، الأصلع الذي يمضغ التبغ ويخرج من فمه بصاقا أسود، والآخر الذي يتظاهر بقراءة الصحف، تقول له هامسة: هذا هو المكان الذي لا تريد أن تغادره، مراقب دائمًا تحت عيون الشرطة السرية لأخيك جوزيف، لن ينصرف هذان الاثنان إلا بعد أن يأتي من يحل محلهما، ليلا ونهارا، يسجلان كل تحركاتنا، وأسماء من يتجرأ على زيارتنا، هذان فقط هما اللذان نعرفهما، هناك غيرهما داخل القصر، بين الخدم، تحت الشراشف وملاءات الأسرّة، حتى طيور النوارس التي تحلق فوق رءوسنا، لا بد أن بينها التي تكتب بمناقيرها تقارير مطولة وترسلها إليه..

ينظر في عينيها مطولا، ربما يرى فيهما للمرة الأولى توقها وأملها في الخلاص، لم تكن تسعى فقط لأي عرش، في العاشرة من عمرها، عندما كانت صغيرة، كان يمكنها أن تأخذ عرش البرتغال وتلبس تاجها، لكنها لم تحب وجه الملك الأعور، كرهت نظرة عينه الواحدة، والطريقة التي يهشم بها اللغة الإسبانية، لكن «ماكس» ينظر إليها الآن بعينيه، تضحك في جفاف وهي تتساءل: أين يجد أخوك الوقت لقراءة كل هذه التقارير الطويلة عنا؟

يمسك وجهها بين راحتيه، تتخيل أنه سيقبلها، لا يفعل، يقول مزحتهما المعتادة: إنه يفضلها عن الأوبرا..

لا تملك إلا أن تبتسم في وجهه، يستديران في اتجاه القصر، يرتجف جسدها وتتمنى أن تحتمي بجدرانه، ولكنها لا تريد أن تترك هذه اللحظة التي يتقرر فيها مصيرهما تمر سريعا، لا تعرف إن كانت قد نجحت في إقناعه أم لا! ولكنه يظل على هدوئه اللعين، تبطئ من خطواتها، لعله يتكلم قبل أن يحتويها القصر بصمته الثقيل، يقول وهما يصعدان السلم الرخامي: إنها ليست أرضا غريبة فقط، ولكنه بلد غامض، كان يمكن أن أقبل منهم العرش مباشرة، ولكن عليّ اليوم أن أقبله من نابليون الثالث الذي يحسب نفسه شبيها بعمه نابليون الأول، يريد أن يجعلني حاكما تابعا له وأنا أحكم بلدا مساحته ضعف مساحة فرنسا ثلاث مرات..

كان محقا، يتغير الزمن بصورة مثيرة للاستغراب في مدة بالغة القِصر، يصبح «نابليون» العجوز موجودا في قلب الصورة، متحكما في كل المصائر، عندما جاء «جواتيرز دي استرادا» لزيارتنا للمرة الأولى لم تكن المكسيك قد وقعت في قبضة فرنسا بعد، كانت في قبضة ذلك المحامي الهندي اللعين القادم من الجبال «بينتو خوارز»، أي عقول حمقاء انتخبت

هذا الرجل الذي لا أصل له رئيسا للمكسيك، جاء بقوانين متحررة، تصادم مع الكنيسة وصادر كل أراضيها، كان القساوسة والرهبان وحدهم يمتلكون ثلث أجود الأراضي الزراعية، حاول «بينتو» أن يظفر بثروة سريعة تساعده على تنفيذ أفكاره المجنونة، ولكنه تسبب في إثارة حرب أهلية عارمة، بين أنصاره من الجمهوريين وأنصار الكنيسة من المحافظين، لم ينتصر في هذا الصراع الضاري إلا بعد أن أصبحت البلاد مفلسة تمامًا وعاجزة عن سداد ديونها لأوربا. فرصة نادرة جاءت تتهادى أمام الذئب العجوز «نابليون»، تستيقظ في ذهنه أحلام العظمة القديمة، يتقمص صورة عمه، نابليون الأول، يعيد حلمه في أن ينشئ إمبراطورية فرنسية في الشرق، يريد أن يقيم إمبراطورية أخرى في الغرب، وسط أحراش العالم الجديد، يعلن أن المكسيك لم تدفع ديونها، وعليه أن يذهب لرعاية المصالح الفرنسية هناك، يهبط بقواته العسكرية إلى ميناء «فيراكروز» ويتقدم منها إلى قلب البلاد حيث العاصمة نيومكسيكو، ويتحول «بينتو خوارز» من رئيس للبلاد إلى مطارد هارب، يقوم بحرب عصابات ضد الفرنسيين، لم يعد رئيسا ولكنه ما زال موجودا. تعرف هي و«ماكس» مدى صعوبة الوضع الذي تواجهه فرنسا، حالة من الفوضى والعشوائية حتى الآن ولا يتوقف إهدار الدماء، المكسيك ما زالت في حاجة إلى ملك حقيقي تلتف حوله، يمسك زمام الأمور ويعيد لها السكينة، المكسيك في حاجة إلى زوجها..

يغرق «ماكس» في الصمت، هل استطاعت التأثير عليه؟ هل يفكر في الأمر بجدية؟ يقول فجأة: مهما كانت الأخبار التي تصلنا، ومهما كانت نوعية الوفد القادم ليصحبني للمكسيك، لا بد أن أعرف الحقيقة قبل أن أضع قدمي هناك، سأرسل صديقي «سشونبرن» ليرى الوضع على الطبيعة..

لا تملك إلا أن تصرخ معترضة، لا تحب هذا الرجل، فهو ملتصق بزوجها أكثر مما ينبغي، يخرجان معا للصيد، ويجوسان معا المدينة خلال الليل في مغامرات سرية، ويجلسان الساعات الطويلة معا في مغطس الحمام، ويبيتان أياما كاملة في العراء، تشعر أن تأثيره سيئا على «ماكس»، يأخذ منه شيئا ما، شيئا حميما يخصها، تحاول أن تجد حلا، تقترح عليه: سأرسل إلى أبي الملك في بروكسل، سيجد وسيلة عن طريق سفرائه هناك ليوفر لنا كل المعلومات التي تحتاج إليها.

يقول: سنسافر أولا إلى فيينا، يجب أن أعرف رأي أسرتي في هذه الخطوة، لسنا وحدنا في هذا العالم..

يبدأ في الاقتناع، فقط لا تحب زيارة أسرته، تخشى من تأثيرهم عليه، لا يهمها البرود الذي تعاملها به زوجة الإمبراطور، ما تخشاه هو تأثير أمه الملكة صوفيا، الحماة التي تحبها وتخاف منها في الوقت نفسه.

تبدأ الرحلة بعد أيام قليلة، يطوي القطار مدن «لومبارديا» ويواصل الصعود شمالا، يطوي العالم القديم الذي أصبح أكثر ضيقا واختناقا، تحيط بهم وجوه شاحبة، وهما أكثر منهم شحوبا، يسيران تحت شمس قديمة، فقدت الكثير من حرارتها، و لم تعد قادرة على أن تهب الدفء لجسدها، على إعادة الحياة، تتشاغل بالنظر من نافذة القطار، تقول في صوت هامس: سنموت مبكرا لو بقينا في هذه القارة، وربما تتجمد أطرافنا قبل أن نصل إلى فيينا، يتطلع إليها بعينيه الزرقاوين، لو رحلا للعالم الجديد.. هل سيتغير لونهما؟ كانت متأكدة أنهما ستصبحان ذهبيتين، وهذا في حد ذاته سبب كاف يدفعهما للذهاب، تذكر له ذلك فلا يضحك، مهموما أكثر مما ينبغي، البحار الذي استكان لأمان الشاطئ وكف عن المغامرة، كان أصغر عمرا من هذا الشعور بالاستكانة.

يمر القطار بمدن بيضاء، راقدة وسط خضرة الجبال، ولكن حروب الإمبراطورية التي لا تنتهي دمرتها، صبغت سقوف القرميد الأحمر بسواد الحرائق، مشهد مؤسٍ، مقابر لم يدفن موتاها، تركت أرواحها تضيع هائمة وسط الجبال، تراه وهو يتأملها في شرود، تسمعه وهو يقول: قرأت كثيرًا عن هذا البلد الذي يُدعى «المكسيك»، رغم أن الكلمات لا تكفي وحدها لرسم صورة دقيقة عنه، بلاد غريبة، أهلها ليسوا مجرد حيوانات جهلة كما تصورهم صحف فرنسا، وليسوا كذابين ومنقسمين ومثيري فتن كما تقول تقارير الدبلوماسيين، فيهم شيء من الوحشية، هذا صحيح.. ولكن فيهم أيضًا كثيرا من النبل البدائي، وحتى بالنسبة لفرنسا، لم تكن الأمور بهذه السهولة التي ذكرتها البرقية، لقد واجهت جيوش «نابليون» مدينة صغيرة اسمها «بويبلا»، تقع على الطريق من الساحل، وكان على القائد الفرنسي الجنرال «لورانزي» أن يجتازها حتى يصل إلى نيو مكسيكو، كان معه ٦ آلاف من أفضل جنود فرنسا، أنت تعرفين ما يقال إن فرنسا ما زالت تملك أفضل جيش في أوربا، وربما في العالم كله، ولم يكن في هذه المدينة إلا حوالي ٤ آلاف جندي من الجمهوريين، معظمهم من المزارعين، لا يملكون من السلاح إلا بنادق بدائية، وسكاكين «الماشتس» المقوسة التي يستخدمونها في الحصاد، أراد الجنرال الفرنسي أن ينهي معركته سريعا، لم يضع في حسبانه أي تقدير لخصمه الجنرال المكسيكي، لا أذكر اسمه ولكنه لم يكن أكثر من فلاح، لذلك قرر «لوارنزي» أن يهاجم قلب المدينة، أن يشق حاميتها إلى نصفين، كان يملك أفضل الفرسان وأسرع الخيول، وبدت الخطة منطقية وسهلة التنفيذ، وعندما اندفعت فرسانه بعنف، أفسح لها المدافعون الطريق، تركوها تمر مثل سهم منطلق لا سبيل لرده، ولكن الفرسان المندفعين فوجئوا أن خلف المدينة توجد مخاضة هائلة من

الطين، لا يتوقع وجودها في هذا المكان، غاصت الخيول، لم تعد قادرة على التقدم ولا على العودة، اندفع نحوهم مئات من المزارعين يحملون «الماشتس»، أصبح الفرنسيون صيدا سهلا، قبل أن يفكروا كيف ينجون فصلت رءوسهم عن أجسادهم، وشهدت مخاضة الطين مقتلة مروعة.

تحدق فيه مذهولة، لا تعرف من أين أحضر كل هذه الكلمات، من تقارير أبيها أم من مصادره الخاصة؟ ليس هذا حقيقيا بالتأكيد، جنرالات فرنسا ليسوا بهذه السذاجة، ولا يمكن أن يهزموا بهذه السهولة، كما أن الجيش الفرنسي في العاصمة نيو مكسيكو بالفعل، يمهد الطريق لقدومهما، لا يمكن للحلم أن يتحول إلى كابوس، يواصل «ماكس» الكلام كأنه يرد على كل تساؤلاتها التي لم تقلها: بذل نابليون كل ما في وسعه ليخفي هذه الأخبار، يخفيها عني بالذات حتى لا أعرف أن الطريق مسدودة وأتراجع عن قراري، ولكن الأنباء تسللت للصحف الإنجليزية مثلما يحدث دائمًا..

تومئ برأسها موافقة، تعرف أن الإنجليز هم الأكثر مهارة في تبادل النمائم، متأكدة من ذلك من خلال الدماء الإنجليزية التي تشارك فيها عمها دوق أوف كنت وابنة عمها الملكة فيكتوريا.

يتوقف «ماكس» عن الكلام، يدخل القطار نفقا مظلما فلا تستطيع أن ترى وجهه، وعندما يعود الضوء مرة أخرى، كان قد تمالك نفسه وخف انفعاله، كشف عن داخله، كان مهتما بهذه الأرض البعيدة أكثر مما تصورت، يسعى ليعرفها بصورة أفضل، لا يستسلم لأحلام اليقظة التي كانت غارقة فيها، يتركها في أحلامها ويسعى هو لجمع المعلومات الضرورية، ينظر نحوها طويلا ويقول: كيف يمكن أن نحكم هؤلاء الناس؟!

تقول له: سنحكمهم يا حبيبي، في عروقنا ما يكفي من الدماء الملكية، سننقل إليهم كل ما لدينا من نبل..

لا يعارضها، تغمض عينيها وتسند رأسها إلى كتفه، ويظل الحرس يتجولون خارج مقصورة القطار، حرس شرف أم شرطة فرانز جوزيف، لا أحد يدري، والقطار يمضي..

كعادتها تستقبلهم «فيينا» ببرودها، لا شيء خاص في محطة القطار، مجرد عربة تجرها ست جياد تحمل شارة الإمبراطورية، وحمالون يحشرون حقائبهم في عربة أخرى، لا حرس ولا جوقة شرف، لا أحد من العائلة المبجلة، يظلون جميعا داخل قصورهم المذهبة، المبنية على عروق الثلج، يجلسون كالمحنطين، ورثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذين يتعالون على الموت، وعلى الحياة أيضًا، تخب الخيول بهما في شوارع فيينا الساكنة دوما، تبددت أصوات الموسيقى التي كانت تصدح من شوارعها، وخفت الإثارة التي تشع من قصورها الزاهية، أتعس لحظات حياتها ما زالت في الانتظار، داخل قصر «هوفبرج»، تدرك فجأة لماذا لا تحب هذه المدينة، فيها من خضرة الأشجار أكثر مما ينبغي، ومن الأحجار المتراصة أكثر من طاقتها، ولكنها بدون بحر، بدونه تصبح المدن خانقة، تفرض فيينا حصارها عليها، تقتطع شيئا من حرية روحها، قباب خضراء وبيوت مكسوة بقرميد قاتم. تدخل العربة الساحة التي تحيط بكاتدرائية القديس «ستيفنز»، تطل عليها أبراج الكاتدرائية وأجراسها العملاقة، تهتف في السائق أن يتوقف، ينظر ماكس نحوها مندهشا، تقول: أريد أن أصلي، لا يفهم ما تشعر به، لا تريد أن تصل بسرعة إلى قصر المحنطين من آل «هابسبورج»، يقول ببلاهة محببة: يمكننا أن نصلي في كنيسة القصر، تقول في سرعة وهي تفتح باب العربة: لا توجد آلهة تجرؤ على دخول هذا القصر،

تسير وحدها في الممر الطويل الممتد. الكنسية خالية، أيقونات صامتة وشموع مرتعدة، دموعها حقيقية، ليست الدموع الجامدة على وجوه القديسين، مريم العذراء محنية قليلا، تحنو على ابنها في وداعة، ولكن بطنها ما تزال خالية أيتها العذراء، أرض بور، لا تحمل بذورا ولا حياة، يحتل داخلها الفراغ، تهوي على ركبتيها أمام المذبح، حتى لو جاء تاج المكسيك فسوف يكون ناقصا، ولو أقاما أعظم إمبراطورية التاريخ فلن يكتب لها البقاء دون أن ينتفخ بطنها بوريثها، هل يمكن للأرض الجديدة أن تفتح مكامن خصوبتها، تبتهل وتصلي للعذراء التي جربت الحمل والولادة، كانت في حاجة إلى معجزة صغيرة، تلح في الطلب وهي تبكي في حرقة، ربما اليوم كله، والليل بطوله، ولكن «ماكس» يجلس في انتظارها في الخارج، المعجزة الوحيدة التي وهبها لها الرب حتى الآن، تخرج صامتة، تجلس بجانبه منكسة الرأس حتى لا يرى آثار الدموع على وجهها، بكيا كثيرًا في هذه الرحلة، بكاء المعذب العاجز عن اتخاذ قراره.

يدخلان من بوابة القصر الذي يحكم قلب أوربا العجوز، يستقبلهما عدد قليل من الحرس، ويفرش الخدم أمامهما بساطا أحمر يمتد حتى المدخل الرئيسي، أصبحا في قبضة أسرته، ليست طرقات القصر باردة فقط، ولكن أطراف الأصابع التي تصافحها، والشفاة التي لا تكاد تمس الوجنتين وكلمات المجاملة التقليدية، جلسوا منتبهين وفق أصول البروتوكول، الأميرة صوفيا، حماتها وأم زوجها، تجلس مرفوعة الرأس كما يليق بإمبراطورة عجوز، مرت خطوب العالم أمام عينيها دون أن يطرف لها رمش، تستمع إلى ما يقوله «ماكس» بعيون براقة، لا يبدو عليها شدة الاقتناع بكل الأحلام التي يسردها أمامها، بالعالم الذي يستعد لحكمه والذي لا يقل عن الإمبراطورية

التي يحكمها أخوه الآن، لا تؤخذ بحماسه، ربما لا تستمع بعناية لكلماته، تنتهز فقط الفرصة لترمقها بنظرات جانبية مليئة باللوم، موقنة بداخلها أن طموح الزوجة هو الذي يدفع ابنها لهذه القفزة نحو المجهول، كلهم يلومونها في صمت لأنها تحاول أن تصنع مستقبلا بعيدا عن مخالبهم، لا يريدونها إلا صورة طبق الأصل منهم، محنطة تنتظر قدوم سنواتها المائة وهي جامدة، غارقة في الثرثرة النسائية، والرسم ولعب البيانو، حتى عندما جاءت عديلتها زوجة الإمبراطور «إليزابيث»، ألقت عليها أيضًا النظرة اللائمة نفسها، هذه التافهة ماذا تحسب نفسها، تكره نظراتهم، تلتفت للنافذة وتتظاهر بتأمل الزهور، يقولون إن المكسيك مليئة بأنواع نادرة منها، ليست بهذا التنسيق، لكنها وحشية وبدائية ومليئة بالحياة.

على الموائد طعام كثير وبارد، كل أصناف المأكولات تقريبا، والمحنطون الأحياء لا يأكلون إلا أقل القليل، يمررون المناشف على أفواههم عقب كل ملعقة، ويملأ الساقي كأسها بنوع من النبيذ الفرنسي لا تستطع التوقف عن شربه، بعد الكأس الثالثة بدأت تضع يدها على فمها لتمنع نفسها من الضحك، أي شيء يقال أمامها يصبح مثيرا للضحك، يتطلع «ماكس» نحوها متسائلا، وتزداد درجة امتعاض الأم الإمبراطورة، لا يوجد وقت عند «فرانز جوزيف» حتى يستقبلهما، أمور الدولة تشغل كل وقته، لا تترك له فرصة للاشتياق لأخيه، تقضي الليل على سريرها منفردة، لا تتحمل أن يلمسها أحد داخل هذا القصر، تتقلب حتى يبزغ نور الفجر، لا تنهض، لا تريد أن تنضم إليهم على مائدة الإفطار، ولا بد أن «ماكس» قد خرج إلى مكان ما لأنها بقيت وحيدة طوال اليوم، لا تشاهد سوى الخدم، تلف جسدها بكل الأغطية وتظل جالسة بجانب النافذة، إلى متى سيستمر حبسها في هذا المكان؟

لا يحدد لهما الإمبراطور موعدا إلا بعد يومين، تتمنى أن يذهب «ماكس» وحده لمقابلته، في أعماقها كانت تشعر أنها قد أهينت، لا تدري بأي وجه تقابله وقد تعمد هو وحاشيته أن يهملوهما كل هذا القدر، لكن «ماكس» يصر على أن يصحبها معه، من غير الممكن أن تكون في قصره ولا تذهب لتحيته، من أجل خاطر زوجها على الأقل، يسيران معا إلى غرفة مكتبه، يستقبلهما بشكل رسمي إلى حد ما، لم يشتهر عن جوزيف فرانز أبدا أنه كان ودودا، الرسميات هي السياج الذي يحميه من إقامة علاقة حميمة مع الآخرين، ينهض من خلف مكتبه ببطء حين يراهما، يدور حول مكتبه ليصافح أخاه، قليل من الحرارة وبعض من المودة ولكنهما لا يتعانقان، يلتفت نحوها، تحني رأسها وتثني ركبتيها قليلا، للمرة الأخيرة، عندما تصبح إمبراطورة لن تثنيهما لأحد، يمسك يدها حتى تعتدل ثم يمس وجنتيها بشفتيه الباردتين، يعاود الجلوس خلف مكتبه، يقول في صوت حاول أن يجعله مرحا: بماذا يمكن أن أخاطبك، الشقيق العزيز أم جلالة الإمبراطور..؟

يقول ماكس بصوت جاف: لم أقبل بالعرش بعد..

يضحك الإمبراطور بشكل رسمي: المعلومات التي لديّ تؤكد أنه لم تعد هناك مشاكل قانونية، البرلمان المكسيكي وافق على اختيارك بالإجماع، وهناك وفد متجه إلى مقرك في إيطاليا، ولكني أعرف أن موافقتك ليست كافية؟

يكتسي صوته برنة غريبة وهو يقول جملته الأخيرة، ترفع رأسها وتحدق فيه للمرة الأولى منذ أن دخلا، يرفع «ماكس» أيضًا بصره إليه وقد لمس شيئا في لهجته، ينظر إليه متسائلا دون أن يتكلم، يلتفت «فرانز» نحوها ليرى عينيها وهما تحدقان فيه، تقول في نفسها، يا إلهي،

إنه لا يحبني، يقول: عليك أن تأخذ موافقة فرنسا وإنجلترا، سوف تعبر محيطا هائلا، وهاتان هما القوتان البحريتان الأقوى في العالم، نحن لا نملك أساطيل مثلهما..

يقول «ماكس»: فرنسا هي التي رتبت الأمر كله..

يرد: بالطبع، ولكن يجب أن يكون هناك اتفاق مكتوب بينك وبين «نابليون»، يجب أن تجعله يوقع على وثيقة ما، لن تذهب إلى هذا العالم الغريب وحيدا، وكذلك الأمر مع إنجلترا، يجب أن يوقع رئيس الوزراء اللورد «بلمرستون» وثيقة تضمن سلامتك..

يصمت قليلا، يعرفان سويا أنه على وشك أن يقول شيئا أخيرًا، الشيء الذي وافق على مقابلتهما من أجله، يتجاهل عيونهما التي تحدق فيه وينظر بعيدا إلى أقصى الغرفة، تمثال برونزي لامرأة عارية، لا يغطي جسدها إلا من وشاح متنٍ، تثب من فوق موجة ساكنة، «أفروديت» وقد بعثت من فوران البحر وهبطت في المكان الخاطئ، مكتب الإمبراطورية النمساوية المجرية، يقول ببطء وتحفز عليك أيضًا أن توقع وثيقة معي..

ينهض «ماكس» واقفا، وتبقى هي جالسة، يتحرك الإمبراطور إلى ركن في الغرفة، هناك كرة أرضية عليها الكثير من العلامات والخطوط والتضاريس، الغرفة مليئة بتفاصيل غريبة تراها للمرة الأولى منذ أن دخلت، يتحدث «ماكس» بسذاجة، لم يكن ليضاهي دهاء أخيه الإمبراطور: أعرف أن عليّ أن آخذ موافقتك، وقد جئت من أجل ذلك، ولكن هل يحتاج الأمر إلى وثيقة؟

ينظر فرانز نحوها، بالتأكيد لم يكن يريد أن تكون معهما في الغرفة نفسها، أن تكون شاهدة على هذا الحديث الآخذ في التصاعد، يقول:

الأمر أهم من مجرد موافقة، يجب أن ننظم أمورنا هنا قبل أن ترحل، عليك أن تتنازل عن حقوقك الوراثية في عرش آل «هابسبورج»..

كالصاعقة تهبط كلماته عليهما، تنهض «شارلوت» واقفة، تريد أن تعترض أو تصرخ أو حتى تنسحب، ينظر «ماكس» نحوها فتجلس في مكانها صامتة، تنظر إلى الشخص الغريب الذي يقف بينهما، اختفى الصهر وبقي جبروت الإمبراطور، يقول ماكس في صوت بارد: ماذا تعني؟

يقول فرانز: لا يمكنك أن تقبل تاج المكسيك، وتحافظ في نفس الوقت على حقوقك في عرش الإمبراطورية النمساوية المجرية، من غير المعقول أن تكون إمبراطورا على بلدين مختلفين، في قارتين مختلفتين.

يتخلى «ماكس» عن صوته المتذبذب الحائر، ينهض واقفا يرتفع صوته للمرة الأولى: لا تاج المكسيك، ولا أي قوة على الأرض يمكن أن تجعلني أتنازل عن ميراث جدي «شارلمان»، نصيبي من الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ترتعد في مجلسها وهي ترى كل واحد منهما واقفا في مواجهة الآخر، قريبان ومتحفزان كأنهما على وشك الشجار، يظل فرانز محافظا على هدوئه، لا يأبه كثيرًا بانفعال زوجها، يتناول بضع أوراق من على مكتبه يعرضها أمامهما وهو يؤكد: إنه القانون، لا يمكن أن يكون لك الحق في عرشين في وقت واحد؟

ولكن «ماكس» يرد في قوة: أي قانون هذا؟ آل هابسبورج يحكمون في كل مكان في العالم، لماذا لم يتنازل «ليوبولد» عندما ذهب لحكم إمارة «توسكاني».

يرد فرانز في سرعة: لأنه لم يذهب بعيدا، إنها جزء من الإمبراطورية، أمرك مختلف، أنت ذاهب إلى قارة أخرى وجنس آخر ولغة أخرى.

يدور زوجها حائرا، لو كان لها أن تتدخل فلا تدري ماذا تقول، رغم أنهما يفكران في عالم جديد فما زالا عاجزين أن يمحوا من أذهانهما كل أوهام العالم القديم، يدرك «ماكس» في قرارة نفسه أنه لا يفكر إلا في عرش النمسا، لا تعدو «المكسيك» إلا بديلا بائسا للعرش الذي لا يستطيع الوصول إليه، يعبر المحيط ويذهب إلى هناك فقط ليقوم بمقامرة خطرة، لا يوجد فيها ما يضمن مستقبله، لذلك لا يريد أن يقطع جذوره مع أرضه القديمة، ولكن «فرانز» يبدو مصرًّا، يقول وهو يضحك في مرارة: لا أحد يعرف ألاعيب القدر، يمكنني أن أموت في أي وقت، وولي عهدي ما زال طفلا صغيرا، هل يمكن أن تحكم بلدين بينهما محيط بالغ الاتساع؟ عليك أن تثبت ولاءك لأهل المكسيك وأن تتنازل من أجلهم عن كل حقوقك القديمة..

لا مساحة للمرح أو لتطييب الخواطر، صراع السلطة يتم بطرقه المألوفة، لا أحد يتراجع، أو يأبه لصلات الدم، «ماكس» يتطلع نحوه في تصميم، صراع الأشقاء يبدأ منذ الطفولة ولا ينتهي، لا خداع، يقول بصوت باتر: لست في حاجة لأن أثبت أي شيء لأي مخلوق، هم الذين يريدونني ولست أنا، لذا لن أدفع ثمنا لشيء لم أرده ولن أتنازل عن حقوقي..

ذابت نبرة المرح العابرة من صوت «فرانز»، يتراجع لمكتبه، يخيل إليها أنه سيجلس ويهدئ من تصاعد الموقف، ولكنه يدق على المكتب بقبضة يده، تنتفض من على مقعدها في فزع، يصيح: لن أوافق إذن على ذهابك للمكسيك، قل وداعا لهذا العرش.

«ماكس» لا يهتز، يعرف أخاه أفضل من الجميع، يعرف حدود قوته أيضًا، يقول: وأنا سأذهب إلى روما، سأقابل البابا وأخبره بكل ما تحاول أن تفعله معي.

يدير ظهره ويخرج من الغرفة، دون حتى أن يحني رأسه نحوه ولو قليلا، يظل الإمبراطور واقفا في مكانه، حتى عندما تحني رأسها وتثني ركبتيها أمامه لا يلحظ وجودها، تخرج مسرعة من الغرفة قبل أن تفقد وعيها، تعدو في ممرات القصر الطويلة الخالية إلا من الحراس، لا تجد أثرا لزوجها الغاضب..

تستيقظ في اليوم التالي فجأة لتجده جالسا بجانب فراشها، للوهلة الأولى تشعرت بالخجل لأنه يراها هكذا، بملابس النوم، وبغطاء الرأس الذي يحتوي كل شعرها، تتراجع في الفراش وتضم الأغطية حول صدرها، لا تدري لماذا تفعل ذلك كأنه يراها للمرة الأولى، يهمس لها: علينا أن نرحل من هنا..

تنظر إليه، شعره أشعث، وعيناه منتفختان، وثيابه مبللة، تتساءل: أين ذهبت الليلة الماضية، لم أجدك في أي مكان؟

يقول: خرجت إلى شوارع المدينة، لم أكن أستطيع النوم، لم أنم حتى الآن..

تمد يدها وتضم رأسه إلى صدرها، تقول في دفقة من حنان: يا صغيري المسكين..

بدا كطفل، إلا أن رائحة الأطفال لا تفوح منه، ولكن رائحة الروم والتبغ مختلطة بعطور رخيصة غامضة، لا تجرؤ على سؤاله أين كان بالضبط، ولا كيف تداخلت في جسده كل هذه الروائح، تسمعه وهو

يهمس: لا بد أن نرحل من هنا سريعا، الجميع لا يتحدثون إلا عن المشاجرة التي وقعت بالأمس..

تقول مدافعة عن نفسها: لم أتحدث إلى أحد..

يقول: أنا أيضًا لم أحدث أحدا، لكن جدران هذا القصر لا تحفظ سرا، الآذان مشرعة والعيون مفتوحة دائمًا، حتى بدون هذه المشاجرة، كنت أعرف أننا لن نستطيع البقاء هنا طويلا..

تدخل أصابعها في خصلات شعره وتتساءل في خوف: سنذهب إلى روما؟

يقول في سرعة: لا أريد أن أبدأ معركتي مع أخي مبكرا، سنذهب لفرنسا..

تتأمل عينيه، تدرك أنه يريد أن يطرق الحديد وهو ساخن، يخطو أخيرًا خطوة من أجل التاج، يثبت لأخيه أنه ليس وحيدا، تقترح عليه في تردد: فلنذهب لزيارة أبي أولا، لنذهب معا إلى بروكسل..

لا يقاوم طويلا، ربما يحتاج «نابليون» لبعض الوقت حتى يصبح قادرا على استقبالهما، أما في بلجيكا فلا يوجد إلا أحضان أبيها وحكمته البليغة. عليهما أن يديرا ظهريهما لـ«فيينا» لبعض الوقت ويذهبا إلى مسافة أبعد، يعيدان ترتيب حقائبهما بسرعة، ويذهب «ماكس» ليودع والدته، لكنها لا تذهب معه، لا تريد أن تراها مرة أخرى، لا تود أن ترى نظرة اللوم والشماتة في عيني «إليزابيث»، لن تقابلها بعد ذلك إلا وهي إمبراطورة مثلها..

لا يتحدثان كثيرًا والقطار يهتز بهما والسماء تصبح أكثر شحوبا ولا يكف المطر عن التوقف، موجاته تلطم النوافذ الزجاجية فلا تدري أين

يمضيان! القارة العجوز تنسحب من تحت أقدامهما، لا مكان يستقران فيه أو يتوقان إليه، يغرق «ماكس» في صمته، يفكر في المشادة التي تركها خلفه، ليست الأولى، لكنها ستكون الأخيرة، لن ينسى أحدهما أو يغفر للآخر، هل كانت سببا فيها دون أن تدري؟ هل يحمّلها قدْرا من هذا الذنب؟ تشعر بشكل أو بآخر أن الأمور لن تصل إلى مداها الأخير. عند المحطة الأخيرة تنتظرهما العربة الملكية، تأخذهما في الطريق الطويل المؤدي للقصر، تشم رائحة طفولتها البعيدة، ترى تماثيل الطفل الذي يتبول في كل أركان الشوارع، تشير إليها وقد استعادت بعضا من مرحها: انظر يا عزيزي «ماكس» هذا هو الطفل الذي أنقذ «بروكسل» من الحرق، عندما رأى النيران المشتعلة قام فقط بالتبول عليها حتى انطفأت، من يومها لم يتوقف بوله وصار رمزا للمدينة..

لا يضحك، لا بد وأنه سمع هذه القصة الغبية عشرات المرات، لا أحد هنا يمل من ترديدها ومن صنع تمثال الطفل المتبول، تملأ رائحة وسط المدينة أنفها، رائحة الطعام في «الجراند بلاس»، والموسيقى التي تصدح، والورود التي تزدهر، تصل العربة إلى حديقة القصر الشاسعة، تفعل كما كانت تفعل في طفولتها، تأخذ «ماكس» من يده وتعدو به، يطاوعها لاهثا، يعبران أروقة الطفولة البعيدة، يقفان لاهثان أمام التمثال الحجري لملك فرعوني جالس، من البازلت الأسود، يعشق أباها صمت هذا الملك المصري الذي يتواصل على مدى القرون، يبقيه دائمًا بجوار قاعة مكتبه، لو تحرك من مكانه ستحل على القصر لعنة ما، تفعل كما كانت تفعل وهي صغيرة، تجلس على ركبتي التمثال وهي تضحك، لا مكان يتسع لجلوس «ماكس»، يظل واقفا يراقبها دون أن يدرك سر سعادتها، إنه الدفء الذي يشع من التمثال و يتسلل إلى جسدها، مهما كانت برودة القصر يظل هذا التمثال محتفظا بدفء الصحراء التي جاء

منها، تقول: يحب أبي هذا التمثال كثيرًا، قال لي إنه اشتراه من تاجر عاديات، استطاع أن يهربه من مصر بعد أن غطاه بالطين وأخفى معالمه.. توقفت عن الكلام، الآن تستعيد ذكرياتها الحزينة، نبرة من الشجن والافتقاد، كانت جالسة على ركبتي هذا التمثال عندما سمعت بخبر موت أمها، لم تكن قد تجاوزت العاشرة، يقولون إنها كانت تشبهها غاية الشبه، ورثت عنها وجهها المستطيل وعينيها الواسعتين وذلك الشحوب الذي يلازم أسرة «البوربون»، تنزل من على التمثال وتستند إلى كتف «ماكس»، يسيران معا إلى مجلس أبيها.

يجلس أبوها ساكنا ومهيبا، تتوجه نحوه وتدخل في حضنه على الفور، يلف ذراعيه حولها ويمر بيده على شعرها فتشعر بأمان لا تجده في أي مكان آخر، يصافح زوجها ويربت على كتفه في ود، بسرعة تقص عليه كل ما مر بهما، يسرع صوتها ويصبح رفيعا كأنه صوت طفلة، ويظل «ماكس» صامتا، يترك لها كامل الفرصة، تجد نفسها تبكي بحرقة، لم تعد أميرة ولا أرشيدوقه، لكن طفلة صغيرة غادرت هذا القصر لتتزوج فغادرها الدفء والإحساس بالأمان، تقول له: لا أحد ينصحنا حول هذا المكان الذي سنمضي إليه، لقد حضرنا خصيصا من أجل ذلك، هل تشجعنا أم تحذرنا؟

يردد بصره بين وجهها ووجه زوجها، يقرأ أباها كعادته ما في أعماقها، يقول مشفقا: يا ابنتي، أنت تريدين هذا العرش بشدة.

تدافع عن نفسها: ليس العرش، ولكن المعنى، أريد معنى لحياتي يا أبي، لا أريدها أن تضيع بين عزف البيانو وشغل التطريز، الأمر كذلك بالنسبة لماكس، كان أميراليا للبحر، وهو الذي نظم الأسطول النمساوي، لكن الأمر صدر بتقاعده وهو في الثلاثين، أصبحنا على هامش الحياة في سن مبكرة، إلى أي مدى يمكن أن ننتظر؟

يقلب نظره بينهما، يقول في تؤدة: المكسيك بلد غني، طبيعته سخية بلا شك، منذ فترة جاء إلى هنا واحد من أهم تجار الفضة في أوربا، قال لي إن المناجم هناك يمكنها أن توفر احتياجات أوربا لمئات السنين، المشكلة هي في أناس المكسيك، لن يتقبلوا غرباء مثلكم بسهولة..

يقول «ماكس» أخيرًا: هم الذين سعوا إلينا..

يرد أبوها: أعرف، ولكنهم لن يكونوا قادرين على حمايتكم حتى من أنفسهم..

يشعر ماكس بالتردد: سنبقى إذن تحت حماية «نابليون» إلى أجل طويل..

يصر أبوها عليه ويقول: خذ منه تعهدا بذلك، لا يجب أن يسحب قواته سريعا، على الأقل حتى يكون لك جيشك الخاص، أعرف أنه وضع مذر، ولكن عليك أن تتحمله، أنا لا أرتاح لنابليون هذا كثيرًا، عمه الأكبر كان مغامرا، أهوج بعض الشيء، خاض معركته الأخيرة هنا في بلجيكا وأوشك أن يدمر كل شيء، لا أعتقد أن ابن الأخ يختلف عنه كثيرًا..

المرة الأولى التي تسمع أباها يتحدث، واحدة من المرات القلائل التي تسمع هذا العدد الوفير من الكلمات يخرج من فمه، يعترض «ماكس»: لا أستطيع أن أعيش تحت رحمة نابليون طويلا..

يقترح أبوها: هناك طريق آخر يمكن أن يساعدك في مهمتك، هناك حليف لا أحبه، ولا أكن له تقديرا كبيرا، ولكن يمكنه أن يساعدك، الكنيسة، إنها قوة طاغية في بلد مثل المكسيك، تمتلك ثلث أراضيها بما فيها من مناجم وثروات، فرصتك أن تتحالف معهم، يمكنهم أن يوفروا لك الحماية المناسبة..

لا يتحمس «ماكس» للفكرة كثيرًا: عرفت هذا النوع من رجال الدين أثناء زيارتي للبرازيل، لا أحد يستطيع احتمالهم، ولا يمكن أن أطلب منهم الحماية..

يوافقه الملك: وأنا أيضًا، وهم يكرهون كل شيء، ولكن الوضع ملتبس، اذهب لمقابلة البابا في روما، اتفق معه، حتى يعطيك أتباعه الدعم اللازم.

يتوقف الأب عن الكلام، قال أكثر مما ينبغي في جلسة واحدة، كل حل يتضمن مخاطرة، لا تتوافق مع ما يريده «ماكس»، لم يكن متدينا كثيرًا، ولا أبوها أيضًا، ولكنه سيجد نفسه مرغما على التعامل مع الأساقفة والقساوسة الفاسدين، تسير الأمور بأسرع مما يستطيعان المضي فيها، لا يتحدثون كثيرًا على العشاء، يواصل الأب اتصالاته ليحضر لهما ذلك الرجل الذي يتاجر بالفضة ليعطيهما المزيد من المعلومات..

تود أن تبقى قليلا في أرض طفولتها، لا تريد أن تغادر «بروكسل» حتى ترى أباها كل يوم، ولكنه وقت قد انقضى، تودع ذكريات المراهقة القديمة وتدخل عالم البلوغ، هناك عرش في انتظارها، عرش جديد في أرض جديدة، عليها أن تنزع من عالمها كل أوهام الطفولة وتذهب للبحث عنه.

- ٣ -

في الصباح يوقظونهم مبكرا، ويهتف فيهم الأونباشي: يجب أن نجهزكم للرحيل.. سترحلون إلى أرض جديدة وعلينا أن نجهزكم لها..

ليس هنا نهاية للمطاف، هناك دائمًا رحيل جديد، لا مجال للهرب، النخاسون يترصدون بهم في كل مكان، كل ما سيفعلونه هو المجازفة بالهرب من سيد لآخر، يستسلمون حين يضعهم السيد الأول في زريبته، ويزداد استسلامهم حين يهاجمه جنود «الباشا» ويقودونهم إلى مكان آخر، الطعام فيه أكثر قليلا، بلا طعم ولكنه منتظم، لا مجال لأي شيء آخر حتى للموت، يقف على رءوسهم حرس يمسكون البنادق، ويأتي «الأونباشي» ليحدثهم بغلظة وبلغة لا يفهمونها، يدركون أنه يطلب منهم الاستلقاء أرضا فيفعلون، يزحفون فوق الحصى فيطيعون، يتخطون حواجز فيها نار مشتعلة، ويتسلقون جدرانا خشنة، كل فعل يترك أثره على أجسادهم، جروح وتسلخات في المرافق والركب، هناك طبيب غير مبال، وأونباشي لا يكف عن سبابهم، وشيخ معمم يعلمهم الصلاة، ويحاول عبثا أن يجعلهم ينطقون العربية، يذكر أسماء كل الأشياء التي تحيط بهم ويطلب ترديدها خلفه، لغة صعبة ومعقدة، مليئة بصخور ورمال جافة، تبدد من نفوسهم برودة الغابات وخضرتها النضرة، يقولون لهم لقد أصبحتم جنودا، أفضل قليلا من العبيد، لكنهم

ما زالوا عرايا، والبعض الآخر لا يرتدي سوى الأسمال، ولكنهم لا يكفون عن المخاطرة بهم، يلقون بهم في النيل ويطلبون منهم الخروج سالمين، آنى لهم ذلك.

كل شيء قابل للتغير، إلا ألوان الجلود السوداء، لأنهم لا يملكون ألوانا أخرى، لون الطين في قيعان البحار العميقة، وظلمة الكهوف النائية، وعتمة الغابات المطيرة، وعندما يقتحم الصائدون والنخاسون الغابة يصبح كل شيء قابلا للاصطياد، لا فرق بينهم وبين الحيوانات، يقعون في الفخاخ نفسها التي تنصب لهم، وتشل الشباك حركتهم، يباعون كالحيوانات داخل أقفاص مترابطة من أغصان الشجر. ولكن هناك إلها خاصا للحيوانات، أدنى شأنا وأقل هيبة من بقية الآلهة، ولكن مهمته هي الحفاظ على الحيوانات من الانقراض، لا يفرق بين الشرس وواهن القوى، يهب الأسود جبروت الافتراس، يهب الأرانب البرية القدرة على الهرب، يؤجل جوع الفهود الضارية، ويضفي رحمته على الغزلان الرقيقة، لكن مهمته تصبح غاية في الصعوبة في مواجهة أسلحة الإنسان الفاتكة، أما السود فلا آلهة تأبه بهم، تتبادلهم الأيدي بيعا وشراء وانتهاكا واغتصابا، كل سيد يترك وسمه المميزة على جلودهم، يكتب اسمه بطرف سكينه أو يدمغهم بالحديد المحمي، بحيث لا تعد جلودهم تنتمي إليهم، لا يدقق أحد في ملامحهم، أو يقيم وزنا لأحزانهم الخاصة؛ السواد قناع قاس، يخفي البهجة والألم، لا أحد يعلم أو يتصور مرارة الرحلة التي قاموا بها، من الغابة الطليقة إلى قاع سفينة أشبه بمقبرة، يتبولون ويتبرزون على أجسادهم المقيدة العاجزة عن الحراك، والموت الذي يهبط من فتحة السفينة الصغيرة ويختار بعشوائية ونزق، تنزف أرواحهم في كل يوم، والسفينة تقودهم ببطء قاتل إلى مدينة لا يعرفونها، ولغة لا يفهمونها، ومن الصعب أن

يكونوا الشيء الذي كانوا عليه من قبل، تميت الرحلة طلاقة أرواحهم، فيصبحون مستسلمين عاجزين، خائفين من الهرب والضياع في هذه الأرض الغريبة..

تحملهم العربات التي تجرها الخيول بعيدا، خارج المدينة والعمار، تسير بهم يوما كاملا دون توقف، دون طعام أو شراب، يأمرونهم بالنزول وسط صحراء جرداء، يدفعهم الأونباشية دفعا على الرمال، ثم تحول العربات وجهتها وتتحرك عائدة بدونهم، تعدو الخيل طليقة بعد أن تخلصت من أحمالها، لا يفيد الصياح في الخلاء، ويأتي الظلام يصحبه برد الصحراء القارص، يتلفتون حولهم في حيرة، هل قرروا التخلص منهم؟ أخبروهم أنهم سيصيرون جنودا، جزءا من الجيش الذي يتحكم في رقاب الناس، لن يعملوا خدما في البيوت ولا رعاة للغنم ولا عبيدا في الأرض، فلماذا ألقوا بهم في هذا القفر؟

جوعى متعبون، يتلاصقون سويا، ويجلسون في حضن صخرة وتمضي عليهم ليلة سيئة أخرى، يسمعون الذئاب تعوي من بعيد، لا بد أن رائحتهم كانت منفرة إلى حد لم تجرؤ الذئاب على الاقتراب منهم، عليهم أن يقاوموا هذه الظلمة وهذا البرد، يهتف الجندي الذي يطلقون عليه «العاصي»، الذي ذاق تجربة الموت من قبل: فلنشعل نارا، كيف غاب عنهم هذا الأمر، أولى ضروريات التمسك بالحياة هو إشعال النار، ينتشرون حتى يجمعوا الحطب وأشجار الشوك الجافة، يصكون الأحجار في بعضها، تشتبك الشرر المنبعثة منها في الكومة الجافة، يهللون عندما ترتفع ألسنة اللهب، لم يأكلوا أو يشربوا ولكنهم أزاحوا فقط كتلة الظلام وخففوا من شدة البرد، يغذونها بالحطب حتى لا تنطفئ، يقبل عليهم الصباح وهم على حافة الموت، ومع ضوء النهار يكتشفون أنهم قد استسلموا أكثر مما ينبغي، لو مر عليهم يوم آخر فسوف

يموتون. يتجولون في المكان، يبحثون خلف كل صخرة، يعثرون على بئر للمياه، ليس غزيرا، معلق فيه دلو خشبي، ماء لاذع الطعم مليء بالرمل، ولكن لا بد أنه سبب اختيارهم لهذا الموقع، يتركون لهم الرمق الأخير الذي يحافظ على حياتهم وعليهم أن يتدبروا البقية، ثم يأتي بعد ذلك البحث عن الطعام، ينقسمون إلى مجموعات، كل واحدة تبحث عن شيء يمكن أكله، لكن ماذا يمكن أن يجدوه في صحراء بمثل هذا الجفاف المميت؟ عند الظهيرة يسقط ثلاثة جنود: اثنان من شدة الإعياء، والثالث من لدغة عقرب، يرقدونه بجانب النار المشتعلة، ربما كان هناك أمل في النجاة، يبحثون في الفجوات وتحت الصخور، يصنعون رماحا من الأغصان الجافة والأحجار المسنونة، ويعودون عند الغروب بحصيلة الصيد، سحالي وضباع وجراد وثعابين، يضعونها جميعا فوق جذوات النار، ينضج بعضها ويحترق البعض الآخر، الثعابين وحدها كانت مستساغة الطعم، لكنهم أكلوا كل شيء، تركوا النار موقدة حتى لا تهاجمهم الذئاب. يحاولون إطعام الثلاثة الذين أصابهم الإعياء، ولكنهم يلفظون أي طعام، تغمر الحرارة والتشنجات أجسادهم وهم يتأملونهم في عجز، تهاجمهم ذكريات الخطف بضراوة، يقضون الليل بجانب النار وهم يستمعون إلى عواء الذئاب، تصيبهم مياه البئر بعطش متزايد، وفي اليوم التالي لا تبدو أي عربات في الأفق، يوم آخر مليء باحتمالات الموت، ثلاثة من الأجساد قد تيبست، جفت أجسادهم وتضاءلت، تبخر كل ما فيها من عصارات الحياة، تتكوم حول نفسها كأنها لم تكف عن التلوي، يظلون جامدين في أماكنهم، ولكن يجب عليهم النهوض ودفن الموتى، يطوفون بالصحراء في سعار، تتطور مهاراتهم فيصطادون الأرانب البرية والضب والجربوع وطيور الحجل التي لا تطير سريعا، ولا تستطيع الثعابين الفرار طويلا، تحاول الاختباء

في جحورها ولكنهم يهدمون الجحور ويقتنصونها، أما أفضل هدايا السماء فهي ظهور الماعز الجبلي، أفضل لحم يمكن تذوقه، يموت جندي آخر، يدفنون جثة جديدة، ويواصلون البحث عن سبل للنجاة، تمر الأيام فيقل الطعام، تصاب الحيوانات بالذعر فتفر من المكان، عليهم أن يطاردوها من مكان لآخر، لكنهم لا يبتعدون عن المكان الذي تركتهم فيه العربات، وعن البئر الوحيدة، لا نهاية للجحيم، يوم بعد يوم يزداد الإجهاد وتقل قدرتهم على المقاومة، وعندما لا يبقى إلا بقية ضئيلة، تظهر العربات وهي تسير على مهل، بلامبالاة بالوقت، ولا بالحياة التي تتسرب من أجسادهم، يتكومون داخلها وهم أنصاف موتى، يتركون جثة أخرى في العراء بلا دفن، يوم كامل من السير بلا توقف، تجتاز العربات الرمل الأصفر طويلا حتى تظهر الأرض المزروعة، ثم البيوت ثم أخيرًا المعسكر، يلقون بهم على الأرض، يحصي الأومباشي أجسادهم المنهكة ليرى كم فقدوا، يقدمون لهم المياه والملح وبعض الطعام، هذا هو اختبارهم القاسي للدخول من بوابة «الجهادية»، وللاستعداد للرحيل إلى أرض جديدة، يضعونهم جميعا في مغطس المياه، يتركون أجسادهم تتشرب المياه وتتخلص من جفافها، تكتسب جلودهم السوداء صلادة جديدة، يحضرون لهم ثيابا جديدة، بيضاء وسميكة وباعثة على الدفء، حزاما جلديا وجرابندية وطربوشا داكن الحمرة، أخيرًا يصبحون أشبه بالجنود الآخرين، الذين يحرسونهم ويوجهون البنادق لصدورهم، تتواصل دروس الشيخ حتى يفهموا كل الأوامر التي تلقى عليهم، ويتعودون على الطوابير، ولكن من الصعب التعود على مواعيد الصلاة، أرواح الغابة ما زالت تشدهم إليها، يرونها في الأشجار الباسقة والطيور الحرة السابحة، يتعودون على صراخ الأوامر والزحف على البطن وسط الأوساخ، وعلى الخروج

للمدينة وشرب «المريسة» وشعور الانتشاء، يأتي الباشجاويش عبد الله سودان، مثلهم تمامًا، نحيف وطويل كعود الخيزران، يقف أمامهم ويتأملهم، يجيد اللغات كلها ويقلب لسانه بينها، يفهمونه ويتشربون كلماته، يقول لهم للمرة الأولى إنهم جنود وليسوا عبيدا، هكذا يقول لهم، ويواصل: إذا كنتم جيدين ستكونون رجالا أحرارا، يمكنهم أن يقتنصوا حياة جديدة إذا ذهبوا إلى أرض جديدة، القطيعة مع الماضي ستخفف من إحساسهم بالمرارة، يؤكد عليهم: الشيء الذي لا تقدر على محوه عليك أن تقطعه، نبتره جميعا من أرواحنا، حتى هذه اللحظة، ورغم اختبار الجهادية القاسي، كانوا رجالا ما زال ينقصهم الكثير حتى يستووا بشرا كاملين، لا بد من أسماء جديدة، لا يفرق الناس الآخرين كثيرًا بين الملامح السوداء، لذلك لا بد من الأسماء، مثل كل الناس الحقيقين، هي التي ستميز كل واحد منهم وتحدد مصيره، ولكن «العاصي» يختلف معهم، يختلف دائمًا، يقول إن مصيره قد تحدد، هذا الاسم قد ركبه ولن يتركه، ليس غاضبا ولا سعيدا، يحمل الباشجاويش سلة من الأسماء، ويطلب من كل واحد منهم أن يختار الاسم الذي سيلازمه مدى الحياة: كوكو سودان، عبد الخير إدريس، حديد فرحات، مرجان سليمان، سعيد طاووس، مرسال رجب، سلطان عبد الله، فرج وني، الفود محمد، بخيت بتراكي، محجوب حبيب، أسماء كثيرة، البعض منهم تمسك ببقايا الغابة ومزجها بالأسماء الجديدة.

ثم يبدأ جنود آخرون في الانضمام إليهم: رعاة من أنحاء السودان، أفراد من قبائل تعيش على حدود الحبشة، فلاحون من جنوب مصر، لم يتم اختطافهم ولكن سيقوا بالسخرة، وحتى من جوار البحيرات الكبرى، تكاثر الجنود، وتناثرت الخيام خارج المباني العتيقة، أصبح هناك من ينام على الأرض، أصبح لكل واحد منهم سلاحه الخاص، لا ينقطع

دوي طلقات الرصاص وهم يتدربون، لا سكون بعد الآن، والرجة التي تحدثها البندقية لا تغادر أكتافهم، يقفزون الحواجز، ويزحفون تحت الأسلاك الشائكة، ويتخطون موانع النار، ثم يأتي يوم تدب في المعسكر حركة غريبة، يأمرونهم بارتداء الملابس النظيفة وتلميع الأسلحة وكي الطرابيش، يرتبون الأسرّة ويغسلون الأرضية ويفرشون أرض المعسكر برمال نظيفة، يستعدون كما قيل لهم لاستقبال الصاغ «محمد أفندي الماس»: ضابط قصير القامة، متين الجسم، تشع منه مهابة غريبة، يستعرض الصفوف ويتأمل الأسلحة، يقف على مكان مرتفع ويهتف بهم جميعا: «حان وقت الرحيل، سنسافر جميعا شمالا حتى الإسكندرية حيث البحر العظيم، ثم تبدأ بعد ذلك رحلتنا الكبرى».

- ٤ -

«ترى كيف ستستقبلني باريس، هل ستعطيني الأمان الذي أبحث عنه، أم ترجعني خائبة ؟».

تسأل «شارلوت» نفسها، القطار يستعد لدخول محطة «جار دي ليون»، تظهر معالم المدينة التي تبهرها وتخيفها، ليست كالمدن الساكنة التي نشأت وعاشت وكبرت فيها، الناس هنا يعلنون عن وجودهم، ويخافون من الوحدة داخل بيوتهم المغلقة، يقضون أكثر أوقاتهم في الشوارع والمقاهي والمسارح، يتبادلون الحب والنمائم، ويبحثون قبل الطعام عن أحدث الأزياء، أي ثياب تبدو عتيقة بجانب ثيابهم. وهذه المرة تجد «شارلوت» قبعات غريبة فوق رءوس النساء، كل قبعة حديقة متنقلة. تهبط هي و«ماكس» إلى باريس مختلفة، تنتظر وصولهما وتترقبهما، مدينة مثل خلية نحل، ملوك وأمراء ورجال مهمون لا يكفون عن المرور بها، تنتظرهم هذه المرة وحدهما، تجهز نفسها خصيصا لهما، يسيران على رصيف المحطة فتصدح الموسيقى بصوت عال، موسيقى لا تخص فرنسا ولا النمسا، تخص المكسيك، سلامها الوطني الإمبراطوري، رايات ترفرف فوق كل الصواري، عُقاب ينشب مخالبه في حية رقطاء، تحيط به نباتات الصبار، رموز مرسومة وسط الراية المكونة من ألوان ثلاثة، الأحمر والأبيض والأخضر، تخص المكسيك، تمسح «شارلوت» الدموع التي تذرفها عيناها، تدوي

أصوات المستقبلين مرحبة بقدومهما، تسمع صوت «ماكس» يهتف مندهشا: لماذا فعل «نابليون» بنا هذا؟! كنت أعتقد أنها مجرد زيارة خاصة، أنا حتى لم أعلن قبولي للعرش، إنهم لا يتفضلون علينا بهذا العرش، ولكنهم يرغموننا عليه.

من الذي يهتم؟ من يكره أن يستمتع بهذه اللحظة؟ تخطو هابطة فوق البساط الإمبراطوري، مكانها المستحق، لن تسير بعد اليوم إلا فوق هذا النوع من السجاد، ينحني أمامها وزراء نابليون ورجال قصره، يسير أمامهما قائد حرس الشرف شاهرا سيفه، وعلى الجانبين نساء ورجال يهتفون لهما، نساء جلودهن بلون النحاس، شعورهن كثيفة ولامعة ومسترسلة، صدورهن بارزة، ورجال ذوو شوارب كثة تتجه للأسفل، تدرك أنهم بعض من الشعب اللذان يستعدان لحكمه، مكسيكيون مهاجرون أو منفيون، يرتدون ملابسهم التقليدية الزاهية الألوان ويخرجون لاستقبالهما، تلقي عليهما النساء الزهور ويلوح الرجال بقبعاتهم الضخمة، لحظة من السحر، التحمت القارات وأصبحت المكسيك في قلب فرنسا، ينحني أمامهما المسيو «ثيير» وزير الخارجية، تعرف أنه أشد المعارضين لحملة فرنسا على المكسيك، ولكنه مأخوذ بهما، بالحيوية التي بعثاها في قلب العاصمة القديمة، يقودهما إلى عربة تجرها الخيول، عربة الإمبراطور «نابليون»، يتزاحم الفرنسيون وهم يرفعون القبعات ويهتفون: «بون تشانس ماكسمليان، بون تشانس شارلوتا»، يتهكم «ماكس» وهما داخل العربة: لقد استثمر «نابليون» الكثير في حملته على المكسيك، يبدو واضحا أننا رهانه الأخير حتى يستعيد أمواله..

مرة أخرى تضع أصبعها على فمها محذرة: ليس هذا وقته...

لا يجب إفساد لحظة الانتشاء بالأوهام والظنون، هذا فقط وقت الاستمتاع بالصيحات التي تتعالى بالفرنسية والإسبانية، ووقع سنابك الخيل التي تقودهما إلى قصر «التويلري»، و شارع الشانزليزيه الممتد، المسلة المصرية التي تلقي عليهما نظرة غامضة، تظهر أسوار القصر، وتصدح الأبواق معلنة عن وصولهما، يظهر «نابليون» أخيرًا بقامته المنتصبة، وشاربه المبروم إلى أعلى، وبجانبه جميلة الجميلات «أوجيني»، فاتنة، أكبر منها بعشر سنوات على الأقل، ولكنها تحمل جمال نساء غرناطة وسحرهن، تقبلها وتحتضنها، تشم رائحة خلطة العطور الخاصة بها، في قدميها حذاء رائع مطعم باللؤلؤ، لن ترتديه إلا مرة واحدة، كل خطوة بحذاء جديد، تسير معهما وهي تخاطبهما، جلالة الإمبراطور، جلالة الإمبراطورة، لحظة نادرة تساوت فيها الرءوس، تفكر «شارلوت» أنهما تتشاركان معا في الأصول الإسبانية، جدها ملك إسبانيا من ناحية الأم، يجري في عروقها دم «البوربون»، أما «أوجيني» فمجرد ابنة لواحد من النبلاء الإسبان، ورغم ذلك فليس لها حظها.

يبدو «نابليون» مهيبا في وقفته المنتصبة، جسده ممشوق دون زوائد، شعره ناعم، غزير رغم الصلعة الموجودة في مقدمة رأسه، أطراف شاربيه مبرومان، تخرجان عن حدود وجهه وتمتدان في الفراغ، على صدره ثلاثة من الأوسمة على الأقل، ووشاح ذهبي يمتد من كتفه الأيسر حتى خصره، المعلق فيه السيف، وأوجيني فاتنة حقا، ملامحها واضحة، تنساب خصلات شعرها من تحت القبعة الضخمة، ويكشف ثوبها عن نحر عاجي جميل، لا ترتدي حول عنقها إلا سلسلة معلق فيها ماسة صغيرة زرقاء، تمسك يدها وتهتف في جذل: لا تبال بأحاديث الرجال، تعالِ نتحدث معا بالإسبانية، اللغة الحقيقية للعشاق، هل هذه الرحلة هي مجرد حلم؟ في الصباح لا تهدأ من استقبال كبار رجال

الدولة وزوجاتهم وحتى عشيقاتهم، وفي المساء عشرات من الحفلات الراقصة، الكوميدي فرانسيز ينتظرهما بمسرحية غريبة، مأخوذة عن رواية «كوخ العم توم»، يقول «نابليون» معلقا عليها وهو يضحك: هذه الرواية كتبتها امرأة صغيرة ولكنها أشعلت حربا كبيرة، هي السبب أن شمال أمريكا يحارب جنوبها، حرب لا يمكن أن ينتصر فيها أحد، ولكن سيكون من شأنها أن تدمر هذه الدولة المتباهية..

أمنية ليست بعيدة عن تحقيق حلمهما، لم يتصوروا ضراوة هذه الحرب الأهلية، ومن الغريب أن تكون رواية حزينة مثل هذه سببا في هذه الحرب، عبيد أمريكا الذين ضجوا من قسوة الرجل الأبيض، يحلمون بالانعتاق من حياة مليئة بالمهانة والإذلال، لا يجدون مفرا من أن يتركوا أسيادهم القساة ويفروا شمالا، ولكن السادة لا يكفون عن مطاردتهم، عن اقتناصهم وبيعهم من جديد وقتلهم إذا استحكم الأمر، تضغط «أوجيني» على أصابعها، لا تريدها أن تتأثر أو تبكي، في داخلها روح طفلة شقية، عمرها أربعون عاما ولا تكف عن العبث، تصحبها إلى معارض الأزياء، وتشتري قبعات بلا عدد، تتحرك وسط جمع من نساء الطبقة الراقية، وصيفات ومحظيات، ولكن السياسة تأخذ مجراها رغم هذه الاحتفالات، «ماكس» يناقش الإمبراطور بجدية، ماذا يمكن أن يحدث بعد أن ينفض كل هذا؟ لم تعد أمامهما فرصة للتملص!

لا يفهم «ماكس» لماذا اختاره «نابليون» ليكون إمبراطورا رغما عنه؟ ولا سر ذلك الحماس المبالغ فيه إلا بعد يومين كاملين! عندما حان موعد اجتماعه مع وزير المالية اليهودي «آشلي فولد»، في صباح يوم ضبابي، يحضر الوزير ومعه معاونوه يحملون دفاتر ضخمة، يفتحونها أمامه فتهب رائحة الكافور، صفحاتها مقسمة إلى أعمدة، وكل عمود ممتلئ بالأرقام المحبطة، ينحني الوزير أمامه ويقول في نعومة. تعلم

جلالتك، أن على المكسيك أن تدفع قيمة التكاليف التي قادتكم للحكم، القوات التي تحارب الآن من أجل تثبيت عرشك، مطلوب ٢٦٠ مليون فرانك من المكسيك ثمنا لهذه الحملة.

يهتف ماكس مذعورا: كيف تطلبون هذا من بلد أفلسته الحرب الأهلية؟

يتظاهر الوزير أنه لم يسمع للاعتراض، يواصل القول: كما أن عليكم أن تدفعوا ألف فرنك كل شهر أجرا لكل جندي مشارك في القتال، هذا بالطبع غير الدين الرئيس الذي تدين به المكسيك والذي بسببه قامت الحرب، مائتا مليون فرانك..

النقود هي التي تتكلم، عرش المكسيك مجرد صفقة مالية، لا يملك «ماكس» إلا القول في سخرية: رائع، لم أستلم العرش بعد وأجد نفسي مفلسا وعلى حافة الخراب! من الخير لي ألا أقبله إذن.

يقول الوزير دهاءً: على العكس يا مولاي، ستصبح رجلا واسع الثراء، لقد أعطى جلالة الإمبراطور أوامره أن نعطيكم مبلغ ٨٠ مليون فرانك على الفور لتغطي تكاليف توليكم على العرش..

مبلغ باهظ ومغرٍ، حتى بالنسبة إلى أرشيدوق نمساوي يمتلك أخوه إمبراطورية شاسعة، لا بد أن خلطة من دهشة وطمع قد لمعت في عيني «ماكس»، رآها فقط اليهودي الموجود داخل وزير المالية، يغلق دفاتره وينهض واقفا، وهو يضيف: وسيضاف هذا بالطبع إلى بقية المبالغ المستحقة.. ولا ينسى أن ينحني قبل أن يخرج.

يظل «ماكس» عاجزا عن التوقيع على كومة الوثائق التي تركوها أمامه، يحس في هذه اللحظة بمدى وحدته، لا يفهم كل هذا الحجم من الأرقام والأصفار، دين فادح عليه أن يحمله على كاهله ويعبر به

المحيط، هذا إذا قرر الإبحار، ولكن هل كل ما ذكره الوزير كان دقيقا؟ لا يخطر ببال أخيه فرانز جوزيف أو ليوبولد ملك بلجيكا أن يرسلا معه خبيرا ماليا يمكن أن يواجه هذا الوزير، ويحذره قبل أن يضع توقيعه على وثائق لا يفهم منها شيئا، مهما فكر ما زال عاجزا عن التوقيع، حتى وهما يتوجهان للحفل الراقص في المساء، «أوجيني» عارية الصدر وساحرة، يتسابق الجميع على الرقص معها، تجعل «شارلوت» رغما عنها تقف في الظل، لا تجرؤ على منافستها، يصفق «نابليون» في حبور، لكنه لا يترك ما حدث في الصباح يمر مرورا عابرا، تهدأ الموسيقى قليلا فيميل على «ماكس» قائلا: لماذا رفضت التوقيع على الوثائق اليوم يا عزيزي الإمبراطور؟

يختنق «ماكس»: لم أصبح إمبراطورا بعد، ورغم ذلك مطلوب مني أن أوقع على دينا هائلا!

يضحك «نابليون»، دائمًا ما يجيد إخفاء انفعالاته: هذا لا شيء، مجرد ثمن مناسب للعرش الذي ستجلس عليه، أنت ذاهب لتحكم بلدا غنيا، وسيصبح أغنى في المستقبل، أكثر مما تتصور، انظر، كل السفراء المعتمدين في باريس حضروا الحفل، لماذا في رأيكم لم يحضر السفير الأمريكي؟

يجيب «ماكس» في سرعة: ربما لأنه يعترض على اختياري..

يرد «نابليون»: لأنه خائف منك، خائف من حاكم شاب محبوب مثلك، عندما تصبح مملكته بجوار بلده المنهك في العالم الجديد، اقرأ علامات المستقبل يا عزيزي، في الولايات المتحدة، جارتك العزيزة، تدور حرب ضارية بين الشمال والجنوب، يقع فيها من الضحايا ما يفوق قتلى كل الحروب الأوربية، إذا انتصر الجنوب

في هذه الحرب سينفصل عن الشمال، وهذا شبه مؤكد، سيكونون في آمس الحاجة لصداقتك، وربما ينضمون إليك، هكذا تصبح أهم وأغنى حاكم في العالم، لحظتها ستعرف أن عرش المكسيك كان يستحق ما هو أكثر..

يقول «ماكس» مندفعا، ربما للمرة الأولى في حياته: ولكن «بوبيلا» لم تسقط بعد..

يرد الإمبراطور في هدوء: سوف تسقط يا عزيزي، إنها محاصرة الآن، سنرسل لها المزيد من الجنود حتى تسقط، حتى صديقي الخديو الحاكم في مصر، سيرسل لي قوات إضافية، مسألة وقت ليس إلا

لا يملك «ماكس» إلا أن يغمض عينيه، يرتفع صوت الموسيقى تدعو الجميع إلى رقصة جديدة، يخترق شاب دائرة الظل التي تقف فيها «شارلوت»، ضابط بلجيكي مزهوا بنياشينه يدعوها للرقص، ترى «ماكس» وهو مغمض العينين، يرى إمبراطوريته الموعودة تمتد شمالا، تستعيد كل الأرض التي فقدتها والتي سرقتها منها أمريكا، ينظر الإمبراطور العجوز إليه في إغراء، يفتح عالما من الأساطير، «منتزوما» يولد من جديد، لكن «ماكس» ما زال متوجسا، يقول في صوت مكتوم: ولكن قواتك ستنسحب وتتركني وحيدا..

يرد «نابليون» في ثقة: من يقول هذا؟ أنا مثلك حريص على هذا الحلم، كان عمي «نابليون» الأول يحلم أن يبني إمبراطورية أسطورية في الشرق، ولكنه اكتشف مدى فقر الشرق وبؤسه، إمبراطورية فرنسا الجديدة ستكون في الغرب، في ذلك العالم الجديد، سيساعدني وجودك وذهب الأنكا والأزتيك على ذلك، لن ترحل القوات الفرنسية ما دمت أنت في حاجة إليها، خاصة الفيلق الأجنبي، لقد سحبته من

الجزائر لأنني لم أعد بحاجة إليه هناك، إنه جيش مكون من ثمانية آلاف مقاتل محترف، سيبقون رهن إشارتك دائمًا، ما إن توقع الوثائق المالية حتى نوقع بجانبها اتفاقا عسكريا آخر..

يعود «ماكس» ليؤكد عليه: لن تسحب قواتك مهما حدث في أوربا؟..

يؤكد «نابليون» له: مهما حدث، لا تخش شيئا، المستقبل مضمون..

تشتعل موسيقى الحفلة، تلهث «شارلوت» في بهجة، تحس بخفة الفراشات، ويد الضابط تمسك بكفها وتحيط بخصرها فلا تكاد تلمس الأرض، تتبدل وجوه الرجال الذين يراقصونها، والأذرع التي تتعلق بها، تشعر أنها أنثى مرغوبة منهم جميعا حتى ولو كانوا أقل منها قدرا، يدهشها أكثر أن ترى علامات السعادة أخيرًا على وجه «ماكس»، أصابه مس من سحر المكان، تقف «أوجيني» بالقرب منها، تشع توهجا يعادل كل الشموع التي تضيء القاعة، تقول لها: لأول مرة أرى هذا العدد من الرجال، من مختلف الجنسيات، وكل هذا العدد من النساء متحمسات للرقص، لا أحد يهدأ تقريبا..

تقول «أوجيني» ضاحكة: لقد قمت بتحرير أجساد النساء يا عزيزتي، انظري إليهن، لا واحدة ترتدي مشدات للصدر أو للخصر، لا وجود لأي نوع من الأربطة، أصبحت أجسادهن حرة طليقة داخل ثيابهن، وعليك أن تجربي ذلك في بلاطك، وستكون النتيجة مذهلة..

تحدق «شارلوت» مذهولة، لا تصدق عينيها، ثياب النساء واسعة بعض الشيء، يتحركن داخلها بحرية، إيقاع الرقصات سريعة، الأجساد أكثر اندفاعا، التلاصق بينها أطول، والاحتكاكات لا تتوقف، ونابليون لا يكف عن برم شاربيه.

... تمضي الأمور بسرعة غير متوقعة، يصل وفد البرلمان المكسيكي إلى باريس، يحملون عرضا رسميا بالعرش، عشرة من نبلاء المكسيك، يتقدمهم صديقهما القديم «جيوتريز ايسترادا» أول من جاء إلى قصرهما في «ميرامار» وعرض عليهما العرش، تقبلها «أوجيني» وتؤكد أنها ستأتي لزيارتها هناك، لأن مغامرة المكسيك هذه كلها من صنعها، تلح عليها أن تقنع «ماكس» ليتم الأمر سريعا وأن يقبل بالعرش، تريد أن تتواصل الاحتفالات في باريس، ولكن «ماكس» يصر قائلا: لن أقبل العرش وأنا في فرنسا، سوف أوصم أنني عميل لـ«نابليون» حتى نهاية عمري، سأقبل العرش فقط على أرض الإمبراطورية القديمة، يجب أن يأتوا إلى «تريستا» حيث نقيم..

في أعماقه يريد أن يثبت لأخيه «فرانز» أنه لا يخاف تهديداته، ولكن قبل أن يعودا إلى «ميرامار» كانت هناك رحلة عليهما القيام بها، يجب أن يأخذا الضمانات اللازمة من إنجلترا قبل أن يقوما بعبور المحيط، وببساطة آسرة تضع «أوجيني» الحل أمامهما: فلتواصلوا الرحلة إلى إنجلترا، سينقلكم اليخت الإمبراطوري «هورتنس»، وسيرحل الوفد إلى إيطاليا وينتظركم هناك، أيام قليلة لن تحدث فرقا.

وداع مؤثر، تصبح أكثر اقتناعا أن «أوجيني» أقرب لها بكثير من «إليزابيث» عديلتها، زوجة الإمبراطور، بعد هذه الأيام الحارة في ضيافتها لن تتخلى عنها أبدًا، تنساب الدموع على خدها واليخت يغادر الميناء، لن تنسى هذه الرحلة أبدا، خاصة عندما أحاطت بهما برودة لندن، ليس الطقس ولكن ناسها الأكثر برودا، تستقبلهما الملكة فقط لأنها جزء من عائلتها، ولكنها لا تستطيع أن تسكت صحفها التي ظلت تهاجمهما طوال الوقت، لا يطيقون أن تدعم فرنسا أحدا، لا يخفي رئيس الوزراء استغرابه من أن «نابليون» استطاع أن يستخدم أميرا من

«الهابسبورج»، وأميرة من «البوربون»، دون أن يعطيهما وعدا قاطعا، ولكنه يصبح واقعيا في نهاية الزيارة، يقول لـ«ماكس»: بالطبع نريدك أن تصبح إمبراطورا، ونريد أن نرى المكسيك مستقرة، على الأقل حتى تدفعوا لنا ديوننا، نحن لسنا العدو، أعداؤكم في الشمال..

تنتظر «شارلوت» فقط نهاية الزيارة حتى يرحلا سريعا من هذا الجو المقبض، يعودان إلى «تريستا» حيث ينتظرهما الوفد المكسيكي، ولكن في لحظة الوداع، تفاجئهما ابنة العم، الملكة «فيكتوريا» العجوز، تمد يدها وتحتوي وجه «ماكس» بين كفيها، تتأمله قليلا كأنها تستجلي ملامحه، تتأمل لحيته التي تركها تنمو وتحيط بوجهه مثل أسد صغير، تهتف بصوت مهتز: سوف يقتلونك يا صغيري..

يرتدان سويا في فزع، وعندما تصبح في العربة التي تقودهما للميناء، تنظر إلى وجه ماكس فتجد الدموع تنحدر من عينيه في صمت.

- ٥ -

لليوم الثالث يغيب ضوء النهار ولا تبقى سوى الظلمة، لا يوجد قمر في هذه المدينة، البحر فقط بأمواجه التي لا تتوقف وسطوته التي لا تقاوم، يرتطم بالجدران التي يختبئون خلفها، يمنع عنهم النوم، ويحول أحلام اليقظة إلى كوابيس للغرق، يقف الصاغ «محمد الماس» على باب العنبر الواسع في ميناء «المكس»، يراقب الجنود الذين يشغلون المكان، يستلقون فوق أغطيتهم الثقيلة، أو يستندون إلى الجدران، لا يتحدثون إلا قليلا، يصيبهم صوت البحر بالتوتر، منهكين من الجوع وطول الانتظار، على ضوء المصابيح المعتمة، المعلقة في الجدران، والتي لا تكف عن الارتعاش، يرى «ألماس» نظرات اللوم في عيونهم، أقصى ما يمكن أن يفعلوه، يشعر بما يعانونه، لونه أقل سمرة منهم قليلا، ورتبته أعلى منهم، ولكنه منهم، حيرته مضاعفة مثلهم، معظمهم قادم من أقصى الجنوب، من عمق غابات النهر وربما أبعد من ذلك، ولكن أين هو الآن من جبل «التجلي»، من بقية جبال النوبة الأبدية المقدسة؟! جميعها غاية في البعد، وما داموا يقفون على حافة البحر فلا بد من سفر، ولكن إلى أين؟ لا أحد يدري..

قائد الكتيبة «جبرة الله» قادم نحوه، بشرته فاتحة عنهم جميعا، ثوبه أبيض ناصع يزيح الظلمة، يشد «ألماس» قامته ويرفع يده بالتحية، يشير له أن يسترخي، ويشير للرجال أن يظلوا جالسين، ينظر إليهم في قلق:

صاغ «ألماس» أفندي.. هل وصلت عربات الطعام؟ لا ينتظر إجابته، وجوه الجنود جميعها ناطقة بالجوع، والهواء البارد ينفذ إليهم من ثغرات في جدران العنبر، يلتفت نحوه وهو يقول في حنق: شو ها العمى.. لقد نبهت عليهم في «قشلاق» الإسكندرية ألا يتأخروا لهذا الحد..

هكذا الحال عندما يغضب، يحتقن وجهه، ويلتوي لسانه ويعود إلى أصوله الشامية، يقول له رغم أنه كان جائعا مثل الجميع: ليس هذا هو المهم يا سيدي، سيتأخر الطعام وسيأتي باردا، لقد تعودنا على ذلك، المهم أن نعرف إلى أين سنسافر، ومتى سيحدث ذلك؟

يبتعدان سويا عن الباب حتى لا يسمع الجنود حديثهما، يقفان في مواجهة الظلمة والريح، يقول: أليس هذا هو الجنون بعينه؟ حتى أنا نفسي، القائد، لا أعرف، شيء مطلق السريَّة، يلقون بي أنا ورجالي في هذا المستنقع ثم لا يقولون شيئا، لا يخافون فقط إلا من القناصل الأوربيين ومراسلي الصحف، لا يبالون أنني ورجالي ننتظر وسط بحيرات الملح، تصور يا ماس أفندي، جناب أفندينا سعيد باشا هو الذي كلفني بهذا الأمر بنفسه، ذهبت لمقابلته في القلعة، لم يقل إلى أين نتجه، الحق أنني لم أجرؤ على سؤاله، سألت ذلك المستشار الفرنسي «ديليسبس» الذي لا يفارقه أبدا، لم يجبني بوضوح، حدثني فقط عن وجوب الحفاظ على سرية الحملة، أكد لي أن أفندينا لا يريد أن يعلم الباب العالي نفسه بهذا الأمر، ولا القناصل، خاصة قنصل «لوندره» في الإسكندرية، الحق أنني لم أفهم منه شيئا!

من الذي يمكن أن يهتم بمصير أورطة سوداء جائعة، تقل أعدادها عن الخمسمائة رجل بقليل، لا يشعلون حربا ولا يحسمون معركة ومع ذلك يحاطون بمثل هذه السرية، يغطون ثيابهم العسكرية بأغطية زرقاء،

ويخفون أسلحتهم ومخاليهم، تقلع بهم السفينة من شاطئ «كسلا» في السودان في صمت، وعندما يصلون إلى «السويس» يحشرونهم خفية في عربات القطار، وينفث القطار دخانا أسود، حتى يصل إلى خارج حدود «الإسكندرية» فيتوقف، ينتظر حتى يحل الظلام قبل أن يسيروا خفية إلى «بيت المكس»، وها هم جميعا، جالسون لا هم لهم إلا انتظار عربات الطعام.

يعبر رجل جديد البوابة الخارجية قادما نحوهم، لا يعرفون كيف وصل إلى هنا بلا جواد ولا عربة، يرتدي الزي العسكري الأبيض ويضع على كتفيه الغطاء الأزرق، احتياطات التنكر اللازمة، هل هو جندي كان هاربا وجاء متأخرا؟ ملامحه مصرية، وبشرته قمحية، يقف أمامهما نصف مندهش ونصف مفزوع، لا يعرف إن كان في المكان الصحيح أم لا، يكتشف أنه لم يؤد التحية العسكرية فيرفع ذراعه بتراخ وزهق، رغم الزي الذي يرتديه لم يكن عسكريا محترفا، وقفته تدل على ذلك، يقول: أنا «مظلوم أفندي عبد الأحد»، موظف بدائرة المعارف، سأكون واسطة الترجمة الفرنسية للأورطة..

ينظر إليه القائد «جبرة الله» في شك واضح، يهتف به: من أين أنت؟

يرد الرجل وهو يرسم علامة الصليب على صدره: أنا من «طنطا» تباركت تربتك السوداء يا أرض الدلتا..

يمد يده له بمظروف أصفر اللون، يتناوله ثم يناوله للماس، مجرد خطاب تقليدي بالتكليف بمرافقة الحملة، ينظر للقائد، هم ذاهبون إذن لبلاد الفرنسيس، يمسكون بالخيط الأول، ليس إلى أي من بلاد السلطان التركي، ولكن ما حاجة هذا البلد الأجنبي لهم، الفرنسيس

يمتلكون جيوشا أكبر وأكثر عتادا، يسأله القائد: هل تعرف إلى أين نحن متجهون؟

يقول المترجم في ثقة: سأعرف بالتأكيد، أنا بارع في مثل هذه الأشياء.

يتقدم قليلا إلى باب العنبر، ثم يتراجع سريعا وهو يهتف: لن أبقى وسط هذه الرائحة العفنة..

لا يرغمه «ألماس» على الدخول، في النهاية ليس رجلا عسكريا، يقول القائد في زهق: كان الأجدر أن يبعثوا معنا طبيبا على الأقل، يبدو كأنهم يريدون التخلص منا، لماذا أحضروا الرجال إذن من عمق الجنوب؟

لم يكن «ألماس» يعرف القائد «جبرة الله» جيدا، قابله للمرة الأولى في السويس، جاء برفقة معاون الحربية وتلقى منه الأوامر بأنه سيكون قائد حملتهم الغامضة، يخبره أنه كان من أتباع القائد الأكبر إبراهيم باشا، تبعه من الشام إلى مصر، ويقول له بعبارات مترددة والقطار يهتز بهما: «كان مجنونا، ولكن آمنت به، اعتقدت أنه يمكن أن يخلصنا من ظلم الباب العالي»، تجعل كلماته «ألماس» ينكمش في نفسه، مضت الأيام التي كان تحدي وانتقاد الباب العالي لائقا، انتهت المغامرة الكبرى، ولم يبق إلا المحافظة على مواقع أقدامهم، تتعالى في الظلمة أصوات عالية، صرير عجلات يختلط بحمحمات خيول، ورجال يحثونها على السير، يتصايح الجنود في بهجة، وصلت عربات الطعام أخيرًا، يتقدم الجميع لاستقبالها، عربات ثلاث، اثنتان منهما محملتان بأرغفة الخبز، الثالثة تزحف تحت ثقل الأوعية الممتلئة بمزيج الفول والعدس، لا تتصاعد منها أبخرة، وجبة أخرى باردة، المهم أنها قد وصلت قبل أن يفقد

الجميع الوعي، تتعالى قرقعات صواني الصفيح التي سيتناولون فيها السائل البارد، ويفرغ جنود العربات سلال الخبز، أرغفة كثيرة، شكلها كاف لإشباع الأورطة، ينزلون أوعية العدس والفول الضخمة واحدة بعد الأخرى، يندلق بعض العدس وبعض الفول، ولكن هناك ما يؤكل على كل حال، ينفذ صبر الجنود، تدق البغال الأرض وهي تحمحم، في وسط هذا الجو المفعم بالبهجة والتوتر يتقدم القائد «جبرة الله» وهو يمسك مصباحا لا يعرف أحد من أين أحضره، يسير في خطوات سريعة متجها نحو آنية العدس، يجد «ألماس» نفسه واقفا في طريقه، غلطة كبرى ولكن ليس أمامه إلا أن يفعل ذلك، يقول له بصوت خافت: سيدي القائد، أرجوك سيدي.. ماذا ستفعل؟

يرد في عصبية: أريد أن أعرف إن كانت هناك ديدان في العدس أم لا؟ لن أسمح...

يقاطعه بنفس الصوت الخافت: الجوع سيجعلهم يأكلون أي شيء، لا نريد ثورة ولا تمردا..

يتوقف مترددا وقد فوجئ بلهجته وإصراره، يقول في تردد: والديدان..؟

قلت: علينا أن نطفئ الأنوار قبل أن يأكلوا..

يحدق في وجهه لبرهة غير فاهم، ثم ينقلب وجهه إلى النقيض، ينفجر ضاحكا في عصبية، يهتز جسده ويحتقن وجهه حتى أنه يشعر بالشفقة عليه، يقول: وأنت؟ يرد «ألماس»: سأكتفي بالخبز..

يتراجع من أمامه حاملا المصباح، يشير «ألماس» للجنود حتى يتقدموا، يهرولون جميعا في وقت واحد، تصطك الأوعية في بعضها البعض، يظهر الضباط الأربعة أخيرًا، يسبونهم ويطلبون منهم تنظيم

صفوفهم، يبدو هذا صعبا في البداية، يتظاهر بالغضب ويأمر بإطفاء كل الأنوار ويتناول الجميع طعامهم في الظلمة..

ليلة طويلة أخرى، يستلقي هو وبقية الضباط الأربعة في غرفة مجاورة على أكوام من القش، ويقضي «مظلوم أفندي» الليل مستندا للحائط، لا مكان له بين الضباط، ولا يرضى بالنوم وسط الجنود، الوضع مزرٍ للجميع، ولكن عربات الفطور تأتي قرب الظهيرة وهي تحمل آنية الفول البارد والعصيدة، تحمل أيضًا أخبارا أخرى، يقبل القائد «جبرة الله»، يحمل رسالة مطوية ويقول هامسا: موعد الرحيل اليوم، جاءت رسالة سريعة من معاون الحربية يخبرنا أنه يجب ألا نترك خلفنا ظلا على الأرض ونحن نسير، سننتظر غروبا آخر قبل أن نبدأ أول حركة.. إلى أين؟ يسأله بنظرة حائرة، يتناول منه الرسالة ويقرأها أكثر من مرة، سفينة فرنسية تقف الآن في الانتظار في ميناء صغير عند قرية الصيادين في «العجمي»، غير بعيد من هنا، ولكن إلى أين ستأخذهم؟ ربما إلى فرنسه، وربما إلى مكان آخر في هذا العالم الذي لا تهدأ فيه الحروب، الجميع يشعرون بالتبرم، ولا أحد يجرؤ على إظهار ذلك، سيغادرون بعد آخر ضوء، في الظلام حيث لا مجال لرؤية الديار التي يغادرونها، وحتى تخفي الظلمة مشاعر الحنين، الرحلة المؤجلة بدأت أخيرًا، دون تفاصيل ودون وجهة محددة، دائمًا ما تكون البدايات غامضة، يجهزون الصفوف، ويحملون الأسلحة ويتلفعون بالأغطية الزرقاء، يبدءون السير غربا نحو الميناء الذي على بعد أميال قليلة، يؤانسهم الموج الذي يرتطم بالشاطئ، والريح التي تهب من الصحراء محملة بالرمل، يستديرون حول الكثبان الرملية، يبتعدون عن صفوف الصبار والتين الشوكي، يمرون بخيام البدو المتناثرة ونارهم الموقدة، يتطلعون إليهم في حيرة، يبتعد البعض عن طريق الجند في خوف،

ويغلب الفضول البعض الآخر فيسألهم عن وجهتهم، يقولون إنهم لا يعرفون، جمع ضخم من السود يمضون دون أن يعرفوا مصيرهم، يتقلب حصى الطريق تحت أقدامهم، وتناثرت النجوم فوق رءوسهم دون أن يولد قمر، لا أحد يطلب التوقف لأن البرد كان شديدا، ولو توقفوا لتجمدوا، ولكن ساعات الليل تمضي دون الوصول إلى هدف، يمتد الشاطئ المظلم بلا نهاية، ويتعثر الجنود في الكثبان والأشواك البرية، لو أن الأحذية أقل ثقلا، والمخالي على ظهورهم أقل حجما، ويأمرهم القائد «جبرة الله» بالتوقف قليلا، الوحيد الذي يركب جودا، أبيض اللون أصيلا، لا بد أنه من حظائر «أفندينا»، لا يرى «ألماس» وجه القائد بوضوح، ولكنه يسمعه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، يقول: فلنتوقف هنا قليلا، لا أريد أن أفقد أحدا قبل أن نصل، ينظر للبحر المظلم، أين نحن من الفجر؟ تهوي أجساد الجنود مرة واحدة على الرمال، تتحول إلى كتلة مغبرة، تعالت أصوات شهقاتهم، ويعصف الهواء البارد بهم جميعا، يظل «ألماس» واقفا يحاول أن يبقى منتصبا، أمر خاطئ وغير محترف، هذا التوقف سيرهقهم ويضعف من عزيمة الجنود ويجعلهم يصلون متأخرين، لكنه لم يتعود أن يعصي أمر القائد. يقف «مظلوم أفندي» بجانبه،عاجزا أيضًا عن التقاط أنفاسه، يقول: لو كنت أعرف أن المهمة هكذا ما كنت قبلتها، اللعنة.. كنت فقط أحلم بالذهاب إلى باريز، لحظتها كنت سأترك الجيش وأهرب في حواريها، ولن ترون وجهي مرة أخرى.

يضحك الضباط الذين حوله، ويضحك بعض من الجنود الذين يفهمون اللهجة المصرية، يجلس «ألماس» قليلا حتى لا يشعرهم بالذنب بسبب وقوفه، ينحني «مظلوم أفندي» ويتناول بندقية أحد الجنود من على الأرض، تتابعه عينا الجندي في قلق، لا يتدخل أحد لأنهم

يعرفون أنها خالية من الذخيرة، يستند عليها كأنها عكاز ويبدأ فجأة في الغناء، صوته متحشرج وحنجرته متقطعة، ولكنه يرتفع تدريجيا حتى يفرض نفسه على صمت الصحراء، تحمله ريح الليل ويردده الصدى، كأنه يؤازره:

«يا ناعس الأجفان.. ما تودعني حين الرحيل

يا ناعس الأجفان.. تاه عن قدمي السبيل»

يحدق فيه الجميع، يرى «ألماس» عيونهم وهي تبرق، تمزق كتلة الظلمة المحدقة بهم، يستمع إليه مندهشا، من أين جاء بهذه الأغنية وكيف أكسبها تلك النبرة السودانية الآسرة؟ ببطء يتسرب الصوت المتقطع الخشن إلى داخله، يستعذب الإيقاع الذي يحدثه وهو يدق كعب البندقية في الرمال، يواصل الشدو الخشن، يمتلئ السكون بنبضات صوته، يتقدم القائد «جبرة الله» وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة أقرب للتقطيب، لا يغني الرجل من خلال حنجرته ولكن من أعماق روحه، ما إن ينتهي من الغناء حتى يكونوا قد تحرروا، تحرروا من عبء الانتظار وتعب الرحلة، والخوف من المجهول الذي ينتظرهم، تدب فيهم حياة جديدة أشبه بالنفس الثالث، ينهضون يخلعون أحذيهم، ويضعون أقدامهم في ماء البحر، يختبئون خلف تلال الرمل حتى يتبولوا، تتعالى أصواتهم وهم يتبادلون الكلمات ويضحكون ويغنون أغانيهم الخاصة، يجلس «مظلوم أفندي» فيجلس «ألماس» بجانبه، يسأله في استغراب: هل عشت طويلا في السودان؟ يقول: وهل يجب أن أذهب إليهم، إنهم يملئون كل مكان في مصر، أنا أجيد تقليد كل اللهجات، يقول: أرجو أن تجيد لهجة الفرنسيس، يرد: والإنجليز أيضًا. تدب حالة من الفوضى ويتناثر الجنود ولم يعد من الممكن جمعهم وإرغامهم على السير في

الظلام مرة أخرى، ويقول «جبرة الله» وهو يسترخي. ستكون معجزة إلهية أن تتبدد هذه الظلمة المطبقة، كأن هذه البقعة من الأرض لم تر نورا قط منذ بدء الخليقة..

الغريب أن الفجر يجيء في هذه اللحظة، يظهر خيط من ضوء شاحب، يشق ظلمة السماء الراقدة فوق البحر، تتجه رءوس الجنود في اتجاهه، ينتشر لون رمادي، يكتم الجميع أنفاسهم وهم يراقبون انفلاج النور من الظلمة، معجزة ولادة كل يوم تحدث أمام أعينهم، يمتزج الماء والرمل ويتشاركان في بعث الرماد، ينهض «مظلوم أفندي» واقفا ويتطلع حوله، ويصيح منبها الجميع: لقد وصلنا، لقد طوى صوتي المسافات وقصرها، هذه معجزتي الخاصة..

ينهضون واقفين، تستدير رءوسهم، في نهاية منحدر التل الرملي الذي نقف عليه تبدو قرية الصيد الصغيرة، مستكينة في انتظارهم، وينجلي الضوء أكثر فتظهر السفينة الضخمة رابضة في الميناء الصخري، تفرض سيطرتها على البيوت الطينية المستكينة، لم يتعودوا على سفينة بهذا الحجم منذ أن جاءت حملة الفرنسيس، قلوعها الست مطوية، وجسمها مغلف برقائق من الصلب، والعلم الفرنسي يرفرف مع الريح، والحبال التي تشدها للشاطئ معقودة في أوتاد ضخمة. ينتهي الجنود من ربط أحذيهم ويحملون مخاليهم، تنتظم صفوفهم، ينحدرون من فوق التل بخطى أسرع من العادة، أصبحت القرية أكثر ضآلة وازدادت ضخامة السفينة، يسرع «مظلوم أفندي» بالسير إلى جانبه، يسمعه وهو يهتف في انبهار: أكاد أشم رائحة «باريز»، انظر هذا هو اسم السفينة مكتوب بوضوح، «لو سين»، اسم النهر الذي يمر في وسط «باريز»، الشيخ الطهطاوي بنفسه أخبرني كيف كان يتنزه على ضفته.. قبل أن يموت بالطبع..

ينسى كل ما عاناه من تعب. تظهر قوارب الصيادين، مجرد نقاط ملتصقة بالشاطئ، لا بد أنهم مع وجود هذه السفينة العملاقة قد خافوا من الخروج للبحر، ظلوا قابعين في بيوتهم، العجائز يحملون من طفولتهم ذكرى الغزو الأول الذي قامت به سفن الفرنسيس، ويزيد من قلقهم رؤية طابور الجنود السود، لا بد أنهم توقعوا معركة جديدة تحرق بيوتهم وقواربهم. يلتزم الجنود بالشاطئ ويتجهون مباشرة للسفينة، يتجنبون بيوت القرية وطرقاتها، يخرج أهلها يتأملون قدومهم في دهشة ووجوههم السوداء في حذر.

ولا بد أن بحارة السفينة كانوا يراقبون قدومهم بواسطة المناظير المكبرة، فقد بدءوا في الصياح وإنزال الدرج، يصيح القائد «جبرة الله» طالبا منهم تنظيم صفوفهم، يشير لـ«الماس» أن يقف بجانبه، فيشير بدوره لـ«مظلوم أفندي» أن يتقدم قليلا ليكون بجانبهما، تنتظم أيضًا صفوف بحارة الفرنسيس ويهبط إليهم قبطان السفينة بزيه الأبيض. رجل ضخم بارز الصدر، تتألق على صدره الأوسمة المتدلية بعد أن انعكست عليها الشمس، تحيط بوجهه لحية شقراء كثيفة، تتصل بشواربه، يرافقه ثلاثة ضباط آخرين، يرفعون أيديهم بالتحية، يبتسم ويتوجه للقائد بالحديث، يقول شيئا ثم يتوقف، وعندما لا يجد ردا يواصل الحديث، ينظر القائد نحو «مظلوم أفندي»، ولكنه يبدو مصدوما، وجهه جامد تمامًا، يردد بصره في حيرة بينه وبين القبطان، كل واحد منهما ينتظر ردا، لا يصدر عن «مظلوم أفندي» أي صوت، ينظرون جميعا إليه، المصريون والفرنسيس، يرجون كلمة واحدة منه، يصيح القائد «جبرة الله» من بين أسنانه: أنطق، قل شيئا. تتوقف النوارس عن الحومان، وموجات البحر عن التدافع، تتعلق العيون بالرجل الفاغر الفم، وعينيه اللتين توشكان أن تخرجا من حدقتيهما، يبدو على وشك أن يفقد وعيه، لا فائدة من التهديد

ولا مجال للتفاهم، يستخدم القبطان أخيرًا لغة الإشارة، يشير لهم جميعا أن يبدءوا بالصعود إلى السفينة، طلب لا يحتاج لكلمات كثيرة، يصعد القائد بعد أن يلقي على «مظلوم أفندي» نظرة قاتلة، ينتظر «ألماس» حتى يصل للسطح، ثم يشير لصف الجنود بالصعود، يظلون أيضًا جامدين، يبدون فجأة متهيبين من مغادرة الأرض، من الرحيل إلى المجهول، تلقي الشمس جانبا من أشعتها على وجوههم، الإشراقة الأخيرة في هذا المكان، عندما تحين لحظة الغروب لن يكون واحد منهم هنا، سيكونون جميعا في مكان لا يعلمه أحد، مع قوم لا يعرفون لغتهم ولا يفهمونهم، وربما لا يعرفون لماذا يحاربون من أجلهم؟! يصيح أحد الضباط بأعلى صوته: انتباه.. إلى الأمام سر.. ينفضون دهشتهم ويتحركون أخيرًا، يتصاعد الغبار، ويتناثر الحصى، لكنه صعود متثاقل خال من الثقة، تدب أصوات أقدامهم على السلم وتهزه، يواصلون الصعود حتى يختفون، تبلعهم السفينة جميعا، وعلى مبعدة يتجمع أهالي القرية، يتابعون ما يحدث في دهشة. يهدأ الغبار المثار، لا يبقى على الشاطئ غيره و«مظلوم أفندي»، جامدا ومذهولا، يقول له: هيا يا «مظلوم أفندي»، فلنصعد، لا يلتفت نحوه يسمعه وهو يقول: إنهم لا يتحدثون الفرنسية، على الأقل اللغة التي أعرفها، يدفعه برفق نحو الدرج، يصعد ببطء و«الماس» يدفعه من الخلف.

تزعق أبواق السفينة كذئاب جائعة، يموج سطحها الخشبي تحت أقدامهم، لا مستقر بعد الآن، يتشبث «ألماس» بالحاجز المعدني، يحس برهبة الموج الممتد، حيوان أزرق عضلاته دائمة التقلص، يحيط بهم، يحاصرهم، يوشك أن ينقض عليهم، يقف «مظلوم أفندي» محاولا أن يفيق من ذهوله، يتشبث بالحاجز، يخشى أن يتركه ويضيع في هذا السديم الواسع، يبتعد الشاطئ بكل ما عليه من ناس وبيوت

ورمال، لا أحد يعرف إلى أين؟ يهبط «ألماس» إلى الدرج المؤدي إلى قاع السفينة، رائحة بقايا الخيول تعبق المكان، الشحنة السابقة للسفينة، لم يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف المكان بشكل جيد قبل أن يأتي رجاله، أي بداية هذه؟ يتأمل الجنود وهم مكومون في القاع، مثلما كانوا في العنبر القديم، يهتزون ولا يكفون عن التقلب يمنة ويسرة، لا يملكون أمر أجسادهم ولا مصائرهم، وجوه فزعة وأفواه فاغرة، منهكة من طول المسير طوال الليل، ولكن النوم كان أبعد ما يكون، يحاول «العاصي» أن يقف لتحيته، يهتف بهم: عليكم بالنوم حالا، هذا أمر، يريد أن ينقذهم من حالة الضياع التي يشعرون بها مع كل موجة ترتطم بجدران السفينة، يعرف أنهم جوعى، ولا يدري متى سيقدمون لهم الطعام، جزاك الله يا «مظلوم أفندي»، لا أحد يعلم شيئا، ولا يستطيع أن يقول لهم أي شيء حقيقي، لا يعرف حتى المكان الذي سينام فيه، يخرج من كوة القاع، يتأمل حركة السفينة، تخف ضجتها بعد توقف المراجل البخارية، تنشر أشرعتها وتتهادى على سطح الموج، يتقدم بحار فرنسي، يشير له حتى يسير معه في ممر طويل، إلى قمرة صغيرة، الغرفة التي سيقيم فيها، بجوارها غرفة أخرى، لا بد أنها غرفة القائد «جبرة الله»، يتمدد على السرير الضيق، بجانبه كوة صغيرة يظهر من خلالها موج البحر، ونوارس ضالة بلا أرض، لكن قلقه على الرجال يمنع عنه الراحة، هل استطاعوا النوم؟ هل سيقدم لهم الطعام؟ ينهض مسرعا، يتخبط في الطرقة الطويلة حتى يخرج للسطح مرة أخرى، يترنح من الدوار والرغبة في القيء، «مظلوم أفندي» ما زال يقف بجانب الحاجز، مذهولا كما تركه، وبحارة السفينة في حركة دائبة، يقومون بتجهيز الطعام، يحضرون سلالا تحتوي على أرغفة من الخبز، طويلة وسميكة، وأقراص أخرى من الجبن الجاف،

يصفونها في شكل أعمدة أسطوانية على حافة السطح، يحملون أوعية ضخمة تتصاعد منه الأبخرة، لا يتصور أبدا أنه توجد إمكانية لتسخين مثل هذا الوعاء دون أن تحترق السفينة بأكملها، حساء ساخن، يسبح على وجهه زغب من الريم وبقع من الدهون، وجبة طيبة في هذا الجو البارد، تحت هذه الريح التي لا تهدأ، يضعون أصناف الطعام في صف واحد، دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، يعرفون أن الجوعى ستهديهم معداتهم إلى هذا المكان.

كالعادة مع كل وجبة يظهر فجأة القائد «جبرة الله»، بصحبته هذه المرة القبطان الفرنسي، يتفحصان أواني الطعام، يشير القبطان لكل إناء ويشرح محتوياته بكلمات سريعة، يتقدم أحد البحارة وهو يحمل مغرفة من حديد، يغرقها في إناء الحساء، يخرجها وفيها قطعة ضخمة من اللحم، شديدة البياض، بلورات الملح لا تزال عالقة بها، يهز القائد «جبرة الله» رأسه كأنه يفهم كل ما يسمع، لا يجرؤ «مظلوم أفندي» على الاقتراب منهما، يبدأ الجنود في الصعود من الكوة إلى سطح السفينة، تزداد حالتهم سوءا، يتفرقون على السطح عاجزين عن الوقوف وحتى عن الجلوس، يهاجمهم إحساس الغثيان ودوار البحر في قسوة، يسيرون بخطوات مترنحة، يتكئ بعض منهم على الحاجز ويبدءون في التقيؤ، يفرغون خلاصة أمعائهم، ترتج أجسادهم بشدة، من الواضح أنهم قاوموا طويلا حتى لا يلوثوا قاع السفينة، يخيم الصمت على الجميع وهم يراقبون ما يحدث، يقترب «ألماس» من الجنود ويحاول التهوين عليهم، ينظرون إليه بعيون غائرة ووجوه شاحبة، كأنهم قد رءوا الموت مبكرا، مشقة أكثر حدة من الرحلة الليلية، يهوون جالسين على الأرض خائري القوة واحدا بعد الآخر، أفضل على أي حال من أن يسقطوا في البحر، يعدو مسرعا إلى حيث يقف القائد، ممسكا بخناق «مظلوم

أفندي» الذي كان يرتجف، يصرخ فيه: أريد أن أعرف نوع هذا اللحم قبل أن يأكله جنودي؟

يهز «مظلوم أفندي» رأسه ويعدل ثيابه، يدور بعينيه حتى تقع على أحد البحارة، يقترب منه ويتحدثان، يبدو هذا من حركة جسديهما، يشير «مظلوم أفندي» للإناء الساخن ويتحدث ليس بصوته فقط، يلوي جسده ويصدر أصواتا كثغاء الخرفان، كخوار البقر، وحتى صهيل الحصان، يتأمله البحار ويهز رأسه نافيا، يتوقف كل شيء، حتى القبطان الفرنسي يحدق فيهما مذهولا، وأخيرا يقعي «مظلوم أفندي» على أربع، يصدر صوتا قبيحا خشنا، كأن يستغيث متحشرجا، وأخيرا يشير البحار برأسه موافقا، ينهض «مظلوم أفندي» وقد حقق انتصاره الأول، تتابعه أعين الجميع وهو يعود ليقف أمام القائد هاتفا: أنه لحم خنزير مملح.

للحظة يدرك «ألماس» حجم المأساة، يلتفت إلى القائد الذي يعدو نحوه مذعورا وهو يهتف: هذا اللحم لا يصلح طعاما لنا، إنه محرم علينا.

ولكن «مظلوم أفندي» يرد بحماقة: ولكنه يصلح لي.. أنا قبطي.

يرمقه «جبرة الله» في سخط. حتى أنت، لن تتذوق قطعة واحدة منه.

يتراجع «مظلوم أفندي» وقد اصفرّ وجهه، يقف «جبرة الله» أمام القبطان الفرنسي تمامًا، يشير إلى إناء اللحم وهو يهتف: مسلم نو.. خنزير نو.. يبدو الذهول على وجه القبطان، يدرك ماذا يحدث ويفهم إيماءات الرفض، ولكنه لا يفهم سببها، يشير «جبرة الله» لبقية جنوده ويصيح فيهم بقوة: لحم نو.. نو.. يحتقن وجه القبطان، يشير للبحارة أن يحملوا إناء اللحم بعيدا، يتابعهم «مظلوم أفندي» وهو على وشك البكاء، كان الخبز جافا، الجبن خشنا، وما بقي من الطعام كان قليلا، يزحف الليل والبرد على البحر، هل يستطيعون الصمود؟

يقبل القبطان ويتحدث في لهجة سريعة، يتراجع «مظلوم أفندي» إلى الوراء حتى لا يطالبه أحد بالمزيد من الترجمة المؤلمة، كانوا جميعا في موقف غاية في السوء، يشير القبطان للقائد ليسير بصحبته إلى مقدمة السفينة، ويشير القائد للماس أن يصحبه، وبدوره لا يجد بدًّا من دعوة «مظلوم أفندي» ليصحبهما، ربما ينقذ ما يمكن إنقاذه، يقتنص هفوة أو إشارة عابرة فيفهمون شيئا، لا يبدي القبطان اعتراضا، يسيرون في طرقة ضيقة بين حاجز السفينة وغرفة الآلات، يشعل البحارة ضوء المصابيح الأمامية للسفينة، لا أحد يريد الاصطدام بجسم مجهول، يدخلهم القبطان إلى غرفة واسعة، يدرك «ألماس» على الفور من فخامتها، والزينات والأسلحة المعلقة على الجدران، والخرائط المفرودة على المنضدة العريضة، وآلات القياس والتوجيه الموجودة في كل ركن أنهم في غرفة القيادة، يكتم أنفاسه حتى لا يصدر أصوات الانبهار، غرفة فاخرة بشكل لا يصدق، يتذكر رائحة الروث التي تعبق قاع السفينة، يسرع البحارة بإنارة المكان بالمزيد من المصابيح، يضعون أكبر المصابيح بجانب الخريطة المفرودة على المنضدة، يمسك القبطان عصا طويلة و يشير إليها، خريطة ملونة مليئة بالتضاريس، مساحات من الزرقة وحواف متعرجة من الخضرة، رغم أن «ألماس» قد رأى الكثير من الخرائط من قبل، ولكنه لم ير خريطة بهذا الاتساع، إن كانت تصور العالم فهم يتجولون في عالم بالغ الاتساع، يشير القبطان إلى نقطة بداية، مرسوم عليها دائرة حمراء، يمتد منها خط طويل يعبر بحرا من الزرقة الباهتة، يمرق بين شواطئ صخرية، ويلتف حول جزر نائية، يصل في النهاية إلى شاطئ غاية في البعد، تختلط فيه خضرة السهول بألوان الجبال البنية الداكنة، يتحدث القائد ببطء مشيرا للنقطة الأولى، وينير الله عقل «مظلوم أفندي» أخيرًا، يرفع صوته قائلا:

القبطان يتحدث عن بدية الرحلة.. من الإسكندرية، يتقدم بجرأة وقد استعاد ثقته بنفسه ليقف بين القائد والقبطان، يواصل الكلام: وهذا الخط الممتد هو مسار رحلتنا الطويلة، يهز القبطان رأسه موافقا فيشرق وجهه بشبح ابتسامة، ولكن القبطان يقفز بعصاه عبر الزرقة الداكنة، تبدو الدهشة وخيبة الأمل فجأة على «مظلوم أفندي»، يكتسي جبينه بالعرق، يقول بصوت مختنق: نحن لسنا ذاهبين إلى فرنسا، لن نقترب حتى من شواطئها، لن نستطيع حتى أن نشم روائح باريز

يصيح فيه القائد وقد نفذ صبره: اللعنة عليك وعلى باريز، قل لنا إلى أين نحن ذاهبون؟

لا يبدو مباليا بغضب القائد، ينحني ويقترب من الخريطة أكثر، يتتبع بأصبعه الخط الممتد، كأنه على وشك أن يغوص به في بحر مترامٍ، يقول بصوت مرتعد: نحن ذاهبون إلى العالم الجديد، سنعبر المحيطَ إلى بلد تدعى «مكسيكا»، لعلك سمعت عنها يا سيدي القائد؟

في صوته رنة من سخرية لا يلاحظها سوى «ألماس»، من حسن حظه أن القائد «جبرة الله» يصيبه الذهول، لم يسمع من قبل أي شيء عن بلد بهذا الاسم، كيف بقي هذا الاسم مخفيا عليه حتى الآن، ولم يرد ذكره في أي من المراسلات التي تم تبادلها مع معاون الحربية؟! يتحدث القبطان، لكن الغباء يسيطر مرة أخرى على «مظلوم أفندي»، يتناول القبطان ورقه ويكتب عليها عددا، يقول مظلوم أخيرًا: لقد كتب عدد الأيام التي ستستغرقها الرحلة، خمسة وثلاثين يوما.. رحلة طويلة، يبدو أنها ستكون شاقة..

تتناثر الكلمات التي تمت ترجمتها بصعوبة.. البحر.. المحيط.. العواصف.. جبال الثلج.. الحيتان.. التيه الأزرق الراقد في الانتظار،

لا جدوى من المخاطرة لأن ثمنها الوحيد هو الموت، تزداد عصبية القبطان، يهتف غاضبا من صمت «مظلوم أفندي» بعد أن عجز تمامًا عن مجاراته، يدرك «ألماس» فجأة مغزى ما يحدث، السبب الذي جعل القبطان يحضرهم ويريهم كل هذه الخرائط، يقول للقائد: ربما يريد أن يخبرنا بمدى الإنهاك الذي ستحدثه الرحلة بنا، وأن هناك حربا في انتظارنا..

يهتف «مظلوم أفندي» كالببغاء: الحرب.. الحرب..

لا يبال «ألماس» به، يواصل الحديث مع القائد: لا بد أنه يريد أن نحافظ على الرجال طوال هذا الطريق الطويل، يريدهم أن يأكلوا الطعام الذي يقدم إليهم، خاصة اللحم..

يردد «مظلوم أفندي»: اللحم.. اللحم..

يتأمل القبطان حديثهما، لكن القائد «جبرة الله» يرفع يده صارخا: لا لحم.. لقد ركبنا البحر ونحن مسلمون، وسنواصل الرحلة ونحن مسلمون، وحتى لو متنا.. سنموت جوعى ولكنْ مسلمين..

يلتفت إلى «مظلوم أفندي» ويصرخ فيه: اللعنة عليك.. ترجم له ماذا أقول.

يحاول «مظلوم أفندي» لكنها محاولة بلا أهمية، يفهم القبطان كل الصراخ الذي قيل بالعربية، يخيم صمت متوتر على الجميع، مصدومين، دخلوا الحرب مبكرين، ما حدث أصبح جزءا من معركة الطعام، يتبادل القبطان والقائد تحية باردة، يدب النفور بينهما منذ البداية، يستدير «جبرة الله» منصرفا، ينظر القائد شذرا إلى «مظلوم أفندي» فينسحب سريعا، يتوقف القائد بجوار الحاجز، الليل أبرد مما تحتمله نفس جائعة، والسماء مخفية خلف سحب سوداء، وقطرات

من رذاذ يتناثر على وجوههم، لا يدري أهو من موج البحر، أم أنه رذاذ من المطر؟ مقدمة لعاصفة ما، يسمع القائد وهو يقول في آسى: ها هو «أفندينا» يرسلنا للحرب إلى بلد مجهول لا نعرف حتى اسمه، لا أحد يأبه بتقديم شرح أو تفسير، أرواح رخيصة تساق إلى حرب غامضة، لا نعرف متى قامت ولا لأي سبب ستنتهي؟! وربما نكون موتى في ذلك الحين، ملك..مكس.. أي اسم هذا، بأي لغة يتحدثون؟ أعرف أن كل اللغات لا تكف عن التقاتل، ما دمت لا تفهم لغة قوم فلن تتعاطف معهم، ولن تألفهم، ستظل تقاتلهم دون رحمة، ولن يستطيعوا أن يديروا رءوس جنودي، ما يفسد الحرب هو التعاطف، أعرف ذلك كله، ولكنهم هذه المرة قذفوا بنا بعيدا، ولولا هذا المدعو ديليسبس ما كنا في هذا الموقف، أنا متأكد أن أفندينا نفسه لا يعرف شيئا عن هذا البلد..

يشعر «ألماس» بالخوف من كلماته، يقول في صوت خافت، لا يريد أن يظهر أي إشارة لنقص الطاعة أو قلة الولاء: ولكن هذه حياة العسكرية يا سيدي، مهما كانت الأوامر علينا أن نطيع ونمتثل..

يهز القائد رأسه، لا يبدو مقتنعا بهذه الإجابة العقيمة، ربما كان له الحق أن يفكر إلى مدى أوسع من «ألماس»، أن يقول أشياء لا يجرؤ على قولها أو التفكير فيها، يقول القائد: وهؤلاء الرجال، أليس من حقهم أن يعرفوا لماذا يموتون في هذه الأرض الغريبة؟

يقول «ألماس» في صرامة: هم عبيد يا سيدي، لا أرواح لهم، انضمامهم للجيش كان أفضل ما حدث في حياتهم، أمثالهم يعملون الآن خدما في البيوت، أو مسخرين في المزارع، إنهم الآن يتناولون الطعام كل يوم، ويأخذون راتبا في نهاية كل شهر، الأمر مختلف تمامًا..

يلتفت نحوه، يحدق فيه مستغربا، يحاول أن يقرأ ملامح وجهه، يعيد التعرف عليه، يقول وفي صوته دهشة حقيقية: ألست منهم؟!

يشعر «ألماس» بإهانة حقيقية، هذا القائد الشامي الضعيف البصر لا يجيد قراءة ألوان الجلود كما يقرأها، عليه أن يكبت مشاعره وينصب قامته وهو يقول: أنا من جبل «التجلي» يا سيدي، في بلاد النوبة، أسرتي كلها في الجهادية من أيام الباشا الكبير، لم يكن في أسرتي عبيدا كما أننا لا نستخدم عبيدا ولا جواري..

يواصل «جبرة الله» التحديق فيه، كأنه قال كلاما غير مفهوم، حين لا تطرف عينا «ألماس» ولا يتخلى وجهه عن إصراره، يدير ظهره له متظاهرا بتأمل البحر، يقول: إنه يوم طويل ومرهق، يجدر بنا جميعا أن نأخذ قسطا من الراحة، أراك في الصباح..

يسير في بطء إلى قمرته، يترك «ألماس» واقفا لبعض الوقت، يحس أنه على وشك التجمد، يوشك أن يدخل إلى يوم جديد دون طعام، ليس في حاجة لذلك، معدته تؤلمه، لا طعام يمكن أن يمكث فيها فوق هذا الطوف المهتز، يسير ببطء إلى المكان المخصص له، هل يمكن أن نواصل الحياة فوق هذا السطح المهتز والطعام القليل وهم لا يعرفون ماذا ينتظرهم خلف حافة الأفق؟

يسقط أول الموتى في اليوم الخامس من الرحلة، مع أول ضوء يشق ظلمة الأفق ويفصلها عن سيولة الموج، لا أحد ينام تقريبا، الكوابيس تلاحقهم، لا السفينة تتوقف عن الارتجاج، ولا الموج يكف عن ضربها، ولا الغثيان يهدأ قليلا، يرى «العاصي» وهو يخرج من قاع السفينة، تظهر رأسه السوداء وفي وسطها عيناه الغاضبتان، ذلك الجندي الذي لا يهدأ غضبه، يحمل على ظهره جسدا آخر،

هزيلا ومسترخيا وفاقد القدرة، يواصل الصعود حتى يظهر الجسد بأكمله، عاريا وأسود وملطخا ببقايا القيء، يمدده برفق على السطح الخشبي، يجلس على ركبتيه أمامه، يتقدم «ألماس» كأنه يسير في غيبوبة، ها هو يفقد واحدا من رجاله «بخيت النور»، يعرف شكله ويحفظ اسمه كما يحفظ أسماء الجميع، ولكن الموت يبدله، يحوله إلى كائن غريب، والأوساخ الملتصقة بجسده تبدو كالحراشيف، تعطيه رائحة كريهة، يمد يدا مرتعدة ويغلق فمه الفاغر، ويرخي جفنيه ليتفادى عينيه المحدقتين، المحملتين باللوم، ينظر إلى «العاصي» الذي يجلس مقعيا أمامه، لا يبكي، ولكن وجهه كان جامدا ومصدوما، يقول له بصوت خافت: كيف مات؟ يشير «العاصي» إلى الأوساخ المتجمدة على جلده، لم يتوقف عن التقيؤ، لم تقبل معدته أي طعام، خرجت روحه مع عصارة جسده، يبدأ بقية الجنود في الخروج من الأسفل، يكونون حلقة حولهما، يجلسون في صمت وهم يحدقون في الجسد المسجى، كأن الموت قد فاجأهم جميعا، بطريقة غامضة حل ضيفا ثقيلا داخل السفينة، لن يغادرها إلا بعد أن يدفعوا الثمن، جاء القائد ووقف بجانبه وهو يهمس من بين أسنانه: فقدنا أول رجالنا حتى قبل أن نرى موقع القتال، موت رخيص لا نستحقه..

يتوقف البحارة عن العمل، يثبتون عقد الحبال ويهبطون من أعلى الصواري، يتقدم القبطان الفرنسي ويقف بجانبهم دون كلمة، يحملون جميعا ذنب هذا الميت، تهتز السفينة مع الريح، وتبدو السماء باهتة خالية من السحب والنوارس، يتقدم «مظلوم أفندي»، كعادته لا يظهر إلا في الوقت غير المناسب، يلمس كتف «العاصي» برفق، يشير له أن يتنحى حتى يجلس مكانه، يخترق الصمت فجأة ويبدأ في تلاوة آيات من القرآن، صوته الأجش المجروح نفسه الذي كان يغني في

الصحراء المفتوحة، كيف استطاع أن يحفظ كل هذه الآيات، كيف تعلم ترتيلها بهذه العذوبة وهو مسيحي؟! ينصتون جميعا مأخوذين بقوة صوته، تبدأ الدموع في الانحدار على وجوه الجنود، بعد فترة يتغير إيقاع صوته، لا يتوقف ولا يلهث ولكن نغمة التراتيل تختلف، ليست أدعية ولا آيات قرآنية، لكنها تراتيل تشبه التي كان «ألماس» يسمعها عندما يتسلل للكنيسة وهو طفل صغير، تراتيل قبطية، الميت كان مسلما ولكن من يدري، ربما انتزع من دينه مثلما انتزع من حياته القديمة، يترك «مظلوم أفندي» التراتيل ويذهب إلى إيقاع آخر ولغة غير مفهومة، ربما كانت مزامير يهودية، من يدري أي معانٍ يرددها هذا الصوت الذي يبعث القشعريرة في البدن ويستحضر هذا الدمع الغزير، من أين جاء هذا الشخص؟ وما دام يمتلك كل هذه الإمكانيات، لماذا تخذله قدراته إذن عن الترجمة؟ يداهم الموت رجاله قبل الأوان، من المؤكد أنه ما زال متربصا بهم في الأرض الغريبة، لا يعرفون أهلها ولا لغتها ولا تضاريسها ولا حتى أين الخطأ وأين الصواب في كل ما يحيط بهم، ولكن الموت واحد. لا يتحرك أحد حتى بعد أن توقفت التراتيل، يردد الأفق المبتل صداها، وتصبح السماء جوفاء وأكثر بعدا، القبطان الفرنسي هو أول من يفيق، يشير لبحارته فينصرفون سريعا، وقبل أن يتحرك أحد من السود يعود اثنان من البحارة يحملان لفائف من الأغطية البيضاء، الأكفان المعتادة، ولا بد أن السفينة من طول ما رحلت قد تعرضت لزيارة السيد «الموت» عشرات المرات، لذا يتعاملون معه بطريقة سريعة وعملية، لا يستغرق الحزن وقتا طويلا، يقتربون من الجثة محاولين أن يغطوها، يشعر «ألماس» أنه يجب أن يتدخل، يشعر أن الموت قد شله طويلا، يتقدم ويوقف تقدم البحارة قائلا: يجب أن نغسله أولا...

لا يدري إن كان البحارة قد فهموه أم لا! ينهض بعض الجنود مسرعين، يحضرون دلاء الماء المعلقة المُعَدة لمكافحة الحرائق، يلقونها في البحر ويسحبون الحبال فتعود ممتلئة، يبدءون في غسل الجسد الهامد، يتقلب بين أيديهم دون مقاومة، يصبون الماء عليه برفق وهوادة، يزيلون الأوساخ التي تعكر صفو جسده، يحضر البحارة قوالب من الصابون دون أن يطلب منهم، يستعيد الجسد المسجى سمرته ووداعته المفقودة، يصبح متأهبا لمواجهة الحياة الأخرى، يجففونه جيدا، ويعيدون قراءة عشرات الآيات، يقودهم «مظلوم أفندي» من آية إلى أخرى، يلفونه في الأغطية البيضاء ويربطونه بإحكام، يستعدون لأكثر اللحظات رعبا، حيث لا أرض، ولا قبر يضم هذا الجسد الغريب، تحول «بخيت النور» إلى لفافة بيضاء فاقدة الحيلة، رفعها الجنود ووضعوها على حاجز السفينة ونظروا نحو «ألماس»، يجب عليه أن يومئ إليهم قبل أن يدفعوها إلى القبر الأزرق المتلاطم، أمر صعب، كأنه يأمر بقتله للمرة الثانية، ولكن ليس من الممكن الوقوف هكذا للأبد، يهز رأسه في كآبة حقيقية، يندفع الجسد متهاويا في الماء، كتلة بيضاء تغوص ثم تعاود الصعود، لا تريد أن تبتعد، هم الذين يبتعدون، ينتزعوها من وجودهم، يراقبون الجسد وهو يطفو، والماء يتوغل بين طبقات الأكفان البيضاء، يحتويها في جوفه، يحولها إلى لون باهت الزرقة ويغوص بها تدريجيا، يختفي «بخيت النور» إلى الأبد ويتواصل الرحيل.

كما يتوقع «ألماس»، يعرف الموت طريقه للسفينة ويبدو أنه لا يريد أن يفارقها، بعد خمسة أيام أخرى يموت الجندي الثاني، يبتلع الموج جسده في صمت وبدرجة أقل من الحزن، تصبح الرحلة أقسى من أن تحتمل. تعاني الأجساد السوداء من الخواء، تصبح أكثر هشاشة، يسري في عروقها دم مالح، ويهاجمها الموت دون هوادة، يقيمون الطقوس

الجنائزية، ويرددون الآيات نفسها، وعند غروب إحدى الشموس يتناهى إليه صوت «مظلوم أفندي» قادما من أسفل، يغني للجنود، ويستحثهم على مشاركته، لابأس بذلك فالغناء حزين، يشاركونه في تردد في أول الأمر، ثم ينخرطون جميعا في الإيقاع، يخرجون ما بداخلهم من شجن، يتواصل الصوت والسفينة تخترق الظلام، ظلمة الكون التي لا حد لها، كانوا جميعا في حاجة لتعويذة أكثر قوة لتدفع الموت بعيدا عنهم، لا يدرك «ألماس» ذلك إلا حين يقف «العاصي» أمامه، شفتاه جافتان، وعيناه حمراوان، وحتى جلده المشدود يبدأ في الارتخاء، يؤدي التحية وقد شد جسده بالطريقة الصحيحة، إلا أنه يشعر أنه يتحداه، يتحدى كل سلطة تعلوه، خاصة والقائد «جبرة الله» مختبئ في قمرته معظم الوقت، لا يوجد غيره لمواجهة الجنود، يقول بعربيته المتعثرة: بعد إذنك يافندم، سأتناول هذا الطعام..

يفهم «ألماس» ما يقصده، ولكنه لا يحب طريقته في التحدي، ولا يريد التنازل بسهولة، يقول: أي طعام؟

يركز عيناه عليه، لا يخشاه، ولا يخشى أحدا: هذا اللحم، نحن نعاني جميعا من جوع دائم، والموت يطل علينا كل يوم.

يقول «ألماس»: القائد منع ذلك، أنت عسكري في الجهادية ولا بد من إطاعة الأوامر..

يتراجع وهو يقول: أنا عسكري جائع يافندم، أرجو أن تخبر «البك» أنه يجب علينا أولا أن نقاوم الموت، لن ننسى لك ذلك.

ينسحب من أمامه، لا ينوي «ألماس» إخبار القائد، لا يريد أن يقوم بعقاب واحد من رجاله أمام هؤلاء الفرنسيس الغرباء، يأمل فقط أن يتراجع «العاصي» في اللحظة المناسبة، ما زال عبدا على أي

حال، لا يأتي أحد لمقابلته، لا يخرج أي جندي من قاع السفينة حتى وقت الطعام، ولكن عندما يحين الوقت يخرج البحارة بوعاء الحساء الساخن، يحملونه على عربة صغيرة ذات عجلات خشبية، كمية قليلة منه، سيأكلون هم، وسيكتفي جنوده بالخبز والجبن وربما بعض العصيدة، إذا سمح بذلك البحارة البخلاء، يقف بجانب القائد «جبرة الله»، يتابعان عملية توزيع الطعام، يفتح «ألماس» فمه من الدهشة وهو يرى «العاصي» ينهض وحيدا، يجلس بقية الجنود في المؤخرة ويتابعونه بأعينهم، يتقدم من البحار الذي يوزع الحساء ويمد يده نحوه بوعاء القصدير، يسمع القائد وهو يهمس من بين أسنانه: ماذا يفعل هذا الجندي؟! يقول «ألماس» مهونا: سيدي، نحن لا نعرف من أين جاء، ربما لم يكن مسلما، كان يكذب، يقول القائد وقد ازداد حنقه: ولكني أصدرت أوامري، تجحظ عيناه وهو يرى «العاصي» عائدا والأبخرة تتصاعد من وعائه، يصيح فيه. معتدل.. قف، يتوقف «العاصي» معتدلا، يقول القائد: للخلف.. در، أرجع هذا الطعام، ولكن «العاصي» لا يتحرك، يتصلب في مكانه ممسكا بالوعاء، يعيد القائد الأمر، أخيرًا يرد «العاصي» في هدوء وإصرار: سيدي أنا جائع، الطعام غير كاف، تتوقف كل حركة على سطح السفينة، يصبح وجه القائد محتقنا، بينما يخفي السواد كل ما على وجه «العاصي» من انفعالات، يبحث القائد في الحزام الموجود حول خصره، لم يكن هناك سلاح، لحسن حظ «العاصي»، يراقب «ألماس» ما يحدث مذهولا، عليه أن يتقدم ويصفع «العاصي»، يركله في مؤخرته ثم يبحث له عن سجن داخل السفينة، قبل أن يفعل ذلك تتحرك مجموعة أخرى من الجنود، ينهضون من أماكنهم وهم يحملون أواني القصدير، يخبطونها في الأرض قبل أن ينهض، تتوالى الدقات، لغة سرية يتشاركون فيها جميعا، ينهضون

ويقفون خلف «العاصي» في صمت، كتلة من الوجوه السوداء ترتدي ثيابا بيضاء متسخة، دون طرابيش، ورءوسها، التي كانت دائمًا حليقة، تكتسي بشعر أسود ملتوٍ في حلقات، ينظرون نحوهما بوجوه جامدة، تتردد أنفاسهم في صوت مسموع، جوعى، غاضبون، يتطور الموقف ويوشك أن يفلت من أيديهم، يقف الضباط الأربعة خلفنا، يصرخ «ألماس» في الجنود: انصراف، يستدروا جميعا، لا يعودون لمؤخرة السفينة، يسيرون بخطى بطيئة ومؤكدة نحو الوعاء الذي يطهى فيه اللحم، ينظر «مظلوم أفندي» إلى القائد في توسل، يقول بصوت خافت: الجوع كافر يا سيدي، لكنه لا يسير خلفهم، رغم أنه كان عليه أن يفعل، يقول «ألماس» للقائد في رجاء: دعنا نذهب لقمرتك يا سيدي، فلنجلس ونفكر في هدوء، يلتفت إليه وعلامات الذهول مرسومة على وجهه، يجب أن ينتزع نفسه من هذا الموقف المضطرب، يختبئ عن هذه العيون التي تحملق فيه، يسير بجانب «ألماس» بخطوات بطيئة، لا يدري إن كان يترنح في خطواته أم أن اهتزاز السفينة كان زائدا؟! يجلس منهارا في القمرة على حافة الفراش، يغلق «ألماس» الباب في إحكام، يتوقع ثورته ولا يريد أن يسمعهما أحد في لحظة الضعف، ولكن حالة القائد أسوأ من أن يعالجها الصراخ، يحدق فيه بعيون غائرة وهو يتمتم: هذا تمرد، إنهم لا يستحقون جميعاً سوى الموت.

كان على حق لولا أنهم في بحر مفتوح، يتجهون لأرض مجهولة، وأمامهم حرب يخوضونها، لا معنى للانضباط العسكري ولقواعد التحكم القديمة، لا مجال لتوقيع أي عقوبة عليهم لأنهم بالفعل في حالة مستمرة من العقاب، وليسوا أفضل حالا منهم، يقول له كلاما كثيرًا، لكنه يطلب المستحيل، يريد سجنا على ظهر السفينة يضعهم جميعا فيه، ماذا تكون السفينة إذن غير سجن عائم؟ لا ينصت له جيدا، لا ينتبه إلا عندما

يقول له «ألماس»: لا أطلب منك عدم عقابهم، سنعاقبهم بالتأكيد لأن هذا ما يستحقونه، ولكن هذه السفينة لا تخصنا، سنؤجل ذلك حتى نصل إلى مكان مناسب ونتملك القدرة على العقاب.

يهدأ قليلا، يهدأ مؤقتا، يستطيع أن يتركه وحده، السطح خال من الجنود، ليس هناك إلا «مظلوم أفندي» جالسا وهو يأكل بقايا طبقه، ينظر إليه في شرود، يهبط إلى قاع السفينة فيتبعه، يجلس الجنود ومعهم الضباط الأربعة في استرخاء، يصمتون جميعا حينما يرون «ألماس»، يحاولون القيام ولكنه يشير لهم أن يبقوا في أماكنهم، يسمح للضباط فقط بالوقوف بجانبه، عليه أن يظهر غضبه عليهم واضحا وصريحا، تنعكس أضواء المصابيح المعلقة على مآقيهم، تجعلها لامعة ومتحدية، يرى وجوههم كما لم يرها من قبل، يدور ببصره حتى تقع عيناه على «العاصي»، يواجه نظراته دون أن يبعد عينيه، يفعلوا مثله جميعا، وجوههم ليست خائفة ولا شاعرة بالخطأ ولا مستكينة ولا تسعى للعفو، لا توجد نظرات وقحة ولا إيماءات للتحدي، فقط لم يكونوا عبيدا، لم يعودوا عبيدا، لم تتغير ألوان جلودهم، ولم ترتق رتبتهم، ولكنهم لم يعودوا كما كانوا، ليس اللحم بالتأكيد، ولكنه الرحيل للمجهول والموت الذي أصبح قريبا، لدرجة نزعت الخنوع منهم جميعا، تضيع الكلمات من فمه، ولكن يجب أن يصيح فيهم: البحارة الفرنسيس غير راضين عنكم، اشتكى لي القبطان إنكم تتركون الأوساخ على ظهر السفينة عندما تنصرفون، لن أسمح في ذلك، ماذا سيقولون عن الجيش المصري؟ نحن جنود ولسنا زبالين، ستنهضون في الصباح وتنظفون السطح جيدا، ثم سنتحاسب فيما بعد.

يستدير لينصرف، ينظر إليه «مظلوم أفندي» مندهشا، يعرف أنه يكذب، لم يكن يقصد كل ما قاله، يخرج للسطح بحثا عن نسمة من

هواء، البرد الشديد يجعل جسده على وشك التجمد، يشعر بجوع هائل لم يشعر به من قبل، يلجأ إلى قمرته الضيقة ويحتمي بها انتظار قدوم الصباح.

لا ينظفون ظهر السفينة في الصباح، يؤدون الطقس الأكثر حزنا، يموت الجندي الثالث ويتسلم الموج منهم اللفافة البيضاء المعتادة، ولا يبدو على المحيط الجائع أي نية للشبع والاكتفاء! هل جازف وأكل من اللحم المحرم، أم أن الموت كان مقدرا له منذ البداية؟ يلفهم صمت حزين آسيان، حتى القائد «جبرة الله» يظل صامتا، عاجزا عن توجيه أي لوم أو إصدار أي أمر، يهبط الجميع إلى قاع السفينة ولا يخرجون جميعا حتى في وقت الطعام، رغما أن الجو قد تغير فجأة، تهدأ الريح الباردة التي كانت تنفذ في عظامهم، وتحل بدلا منها تيارات من الدفء تحيط بهم في رفق، كنوع من العزاء، ويتغير لون الرماد في الموج إلى زرقة باهتة وتبتعد السماء المقبضة، وتسطع عليهم شمس جديدة، يذهب إلى «مظلوم أفندي» يرجوه أن يهبط إليهم، أن يقنعهم بالصعود من جحرهم البارد، لا جدوى من أحزان الجنود لأن الموت دائمًا ما يتبع خطاهم، يغيب «مظلوم أفندي» قليلا ثم يصعد ويتبعونه، يخرجون من الفتحة الضيقة ويتطلعون حولهم مثل فئران تخرج من مخابئها، تحاول التأكد أنها بعيدة عن مخالب القط، يخشون من وجود القائد، يسترخون قليلا تحت الشمس، توقف السفينة محركها البخاري مرة ثانية وتفرد أشرعتها الثلاثة تتهادى في رفق على سطح الموج، يشعرون ببعض من الأمان وهم يجتازون هذه المنطقة الدافئة، بضع من دفء الجبال والغابات البعيدة، يزيح عن أنفسهم قليلا من الكمد.

في اليوم السابع عشر يتغير شيء ما في حافة الأفق، تتراخى موجات الماء وتصبح أكثر نعومة، تتحول الزرقة إلى خضرة بلون الزيتون، تظهر

قمة مِئذنة، تبرز مثل ذراع أبيض يمتد صاعدًا من جوف الماء، يسعى لملامسة سماء نائية، يتوقف «ألماس» مبهورا غير قادر عن الحركة أو الكلام، إلى أين وصلوا بالضبط؟ بلادا غريبة أم عادوا أدراجهم إلى الإسكندرية؟ أين يمكن أن توجد مِئذنة في غير هذه المدينة؟! يتوقف «مظلوم أفندي» بجانبه، يتطلع للذراع الصاعد، ثم يقول في ثقة: هؤلاء البحارة أرهقوني كثيرًا، ولكني عرفت منهم كل ما أريد معرفته، هذا الفنار يقف في مقدمة جزيرة «فانشال»، جزيرة صغيرة على هيئة القمع، و المدينة التي نقترب منها هي عاصمتها «ماديرا»، نحن في بداية رحلتنا عبر المحيط..

ينظر إليه مغتاظا، يفسد عليه لحظة السحر التي عاشها للحظات واهنة، هذا فنار وليس مئذنة والرحلة متواصلة، فرغم الملح الذي أصبح يجري في عروقهم والحياة التي تتسرب من أجسادهم ما زال في الانتظار، محيط شاسع حافل بالموج الغاضب، تبدو الريح وكأنها تغير اتجاهها، تدفعهم إلى الجزيرة، لسان من الأرض مكسو بخضرة كالإسفنج، الفنار على طرفه الأمامي، تتسع الجزيرة وتبدو قلعتها البيضاء تطل منها فوهات المدافع السوداء، ومن خلفها يعلو برج كنيسة بعيدة تدق أجراسها بشكل متواصل، هل ترحب بهم، أم تحذر الجميع من اقترابهم؟ يطوي البحارة الأشرعة في سرعة، وتدفعهم الريح الغامضة وحدها إلى الميناء، يهلل الجميع في فرح، مجرد اقتراب الأرض يبعث الأمل في النجاة من هذا السديم الأزرق، تتكاثر أسراب الطيور قبل أن تستقر على الصواري العارية، ليست النوارس وحدها ولكن برفقتها طيور إستوائية ملونة، تستقر السفينة بجانب الشاطئ الصخري برفق، تمتلئ المياه حولها بالعديد من القوارب، مليئة برجالٍ سمر يشبهون جنوده قليلا، ونساء أثدائهن عارية، يزوم الجنود في وحشية عندما

يكتشفون ذلك، تبدو السفينة على وشك أن تنقلب في اتجاه هذه القوارب، يصيحون بتوق ورغبة في مطلق الأنثى، ترسو السفينة، يمتد سلم طويل يصلها باليابسة، يتطلع الرجال نحو المعبر بشوق، ولكن النظرة الصارمة على وجه القائد تجعلهم يتراجعون جميعا، يتقدم قبطان الفرنسيس، يرتدى ثيابه الرسمية ويضع كل النياشين فوق صدره، يتوقف أمام القائد «جبرة الله» ويلقي عليه التحية العسكرية، يتكلم بسرعة ودون توقف، ينظرون حولهم بحثا عن اللعين «مظلوم أفندي» ولكنه ليس موجودا، يتوقف القائد عن الكلام يائسا ويلقي التحية، يهبط إلى الشاطئ وخلفه ثلة من ضباطه، يتركهم جامدين في حيرة، يظهر «مظلوم أفندي» من خلف غرفة الماكينات، يهتف القائد به: اللعنة عليك حين نحتاج إليك لا نجدك، ماذا يقول هذا الفرنسي اللعين؟

يقول «مظلوم أفندي»: هو فعلا ملعون، ويتحدث بفرنسية لعينة لا أدري من أين جاء بها، لم أفهم إلا شيئين، الفحم والطعام..

يقول القائد مغتاظا: أي فحم وأي طعام؟

ولكنه جاء بالمفيد، لخص ما تحتاجه أي سفينة في رحلتها الطويلة، الفحم لتواصل السير، والطعام لكل من على سطحها، يقوم «مظلوم أفندي» بواجبه حقا، يقبل أحد الضباط الذين هبطوا مع القبطان مسرعا، يأمر بحارته أن يصطفوا صفا واحدا، يختار أقواهم جسدا ويأمرهم بالنزول إلى اليابسة، يستدير نحو القائد ويتحدث بنفس السرعة، يشير له «مظلوم أفندي» أن يعيد الكلمات نفسها مرة أخرى، يعيدها الضابط ببطء وهو يدقق على كل كلمة، يلتفت نحوهم أخيرًا: هناك أزمة في الأسفل، يريد رجالا يساعدونهم في نقل الفحم والطعام،عشرين رجلا على الأقل.

ينظر القائد نحو «ألماس»، يتوقع أن يعترض، لكنه يهتف به:

اعطه الرجال الذين يحتاج إليهم، كل الذين عصوا أوامري وأكلوا هذا اللحم اللعين..

يتنهد «ألماس» في ارتياح، لو كان هذا انتقامه فليكن، ربما ينفث هذا عن غضبه، يشير لـ«العاصي» ولبقية الذين معه، عليهم أن يهبطوا من السفينة خلف هذا الضابط الفرنسي وأن يطيعوا أوامره، يسيرون في صف واحد دون تذمر، ضاقوا ذرعا بالبقاء طويلا على السفينة، ويريدون الهروب من الموت الذي يسكنها، يشاهدهم مرة أخرى وهم يعاودون الصعود من أسفل حاملين أكياس الفحم، يفعلون ذلك في سرعة وكفاءة ودون تمرد، العرق يغمر وجه «العاصي» ولكن نظرته مليئة بالإصرار، كانوا جنودا حقا ولم يكونوا عبيدا، لا يتصور أن السفينة يمكن أن تستهلك كل هذا القدر من الفحم، لأن طابور الجنود والبحارة لا يتوقف.

أخيرا يصعد القبطان، خلفه بحار وحيد يحمل كتلة ملفوفة بغطاء من قماش نظيف، يقترب من «جبرة الله» ويبدأ حديثه الغامض، يشير إلى اللفافة التي يحملها البحار، يصفر وجه «مظلوم أفندي» وهو يدرك أنه يتعرض للاختبار من جديد، يزيح البحار غطاء اللفافة، تبدو قطعة من اللحم قانية الحمرة، تتخللها أنسجة دهنية متعرجة، يصيح «مظلوم أفندي» في انتصار وقد أدرك أنه ليس في حاجة للترجمة: لحم البقر، هذا شكله ولونه، لقد أحضر هذا اللحم خصيصا لك يا سيدي..

يبتسم «جبرة الله» أخيرًا، يحني رأسه بود للقبطان، لكن الأخير يرفع يده وهو يحمل زجاجة النبيذ، يشير لأحد البحارة فيحمل إليه كأسين فارغين على صينية من الفضة، نبيذ أحمر قانٍ، يصبه في الكأس حتى يملأها، يقدمها للقائد الذي ينظر إليه مترددا، يريد «ألماس» التدخل

ولكنه لا يعرف كيف، خرجوا من مأزق لحم الخنزير ليقعوا في مأزق آخر، يشعر القائد بالخجل فيمد يده ويتناول منه الكأس، ولكن القبطان لا يهدأ، ولا يقنع، يصب لنفسه كأسا آخر، ويلمس به حافة كأس القائد وهو يدعوه للشرب، يتكلم دون أن يفطن إلى وجه القائد المحتقن وأنفاسه المتلاحقة، يلتفت نحو «مظلوم أفندي» لعله يوضح شيئا، ولكنه كالعادة غارقا في عرقه، ينظر للقبطان كأنه عدوه اللدود، يحاول أن يتكلم: حقا سيدي.. لا أدري من أين جاء بهذه الفرنسية؟! إنه يتحدث عن رجل ما، إنجليزي ربما.. اسمه «شكسبير» ربما كان تاجرا أو لصا، لست أدري، ولكنه يقول إن رجلا في مكان ما، ربما كان هو نفسه، باع روحه للشيطان من أجل كأس من نبيذ هذه الجزيرة، أو ربما باع شيئًا آخر، لا أدري..

تواصل السفينة رحيلها، يبتعدون عن الجزيرة كأن لم تكن، من الصعب تصور أن يعيش أناس وسط هذا القفر من المياه دون أن تلامسهم أرض أخرى، يتبدى عالم الله الغريب أمام أعينهم ولكن الموت لا يغادرهم، يموت جندي رابع بعد أسبوع من معاودة المسير، لا يذكر الأسماء، ولا يتعرف على الوجوه خاصة بعد أن يداهمها الموت، يكسبها غرابة ويحيلها للمجهول، كم رجلا سيفقدون قبل أن تتم هذه الرحلة اللعينة، وكم سيتحملون توالي الليل والنهار حتى يصلوا الجزيرة منسية، تتحسن حالة القائد قليلا، ويتقبل أطباق اللحم التي يقدمها له الفرنسيس، يدرك أن الرحلة أكثر قسوة من أن يجتازها بمعدة خاوية، يجتازون المنطقة الدافئة، تصبح الشمس كرة باردة ضائعة في سماء بعيدة، تحيط بهم عواصف هوجاء ويقترب الموت من أعناقهم، لا يكف المطر عن الهطول أو الموج عن الفوران، لا يجرؤ أحد على الخروج إلى السطح لأيام متوالية، ولا تنزاح السحب الملبدة بالغيوم، تطوي

السفينة كل الأشرعة وتترك نفسها، أفضل الطرق لمواجهة قوة العاصفة هي أن تستسلم لها، وعندما تهدأ قليلا أخيرًا يلقون بجثة خامسة قربانا لها، اللعنة على ذلك الموج الذي لا يشبعه الموت، يبحرون في مياه ممتدة ومتسخة، وسط بقايا من الطحالب وحطام البحر والمخلوقات النافقة، يتقلب الموج ليخرج من جوفه بقايا الغرقى الذين سبقوهم، حطام سفنهم وبقايا عظامهم.

تمر ستة عشر يوما قبل أن يشاهدوا الأرض مرة أخرى، ولكنها ليست الأرض الأخيرة التي سيستقرون عليها، جزيرة عابرة أخرى، يعرف من «مظلوم أفندي» أنها تدعى «مارتينيكا» أرض أخرى تابعة للفرنسيس الذين يبدو أنهم قد التهموا هذا المحيط، هذه المرة لا يخدعه شيء من معالم الجزيرة، لا الفنار ولا برج الكاتدرائية، يسمعون صوت الأجراس تدق مرحبة بهم، تبدو شواطئ الرمال صافية وممتدة، تطل عليها صفوف من نخيل غريب، يشبه النخيل في بلادهم ولكنه أكثر طولا وأنحف ساقا ومحملا بثمار جوز الهند، استقبال حار، يبدو كأن أهل الجزيرة جميعا قد خرجوا لاستقبالهم، سمرتهم أخف من سمرتهم، وألوان ملابسهم صاخبة، تحمل النساء الزهور وأطباق الفاكهة ويهتفن بالأغنيات، جو مختلف ودافئ وحميم، يتجمع الجنود، حتى المرضى منهم، يصيحون والسفينة تهتز مع إيقاع رقصات النساء على الشاطئ وهن يحملن أطباق الفاكهة، القائد مفزوع كالعهد به، يريد أن يعيد الجنود إلى كوة السفينة ولا يستطيع، وكالعادة يقبل القبطان الفرنسي وهو يرتدي ملابسه الرسمية ونياشينه الكاملة، يسير «مظلوم أفندي» بجانبه وهما يتناقشان، يتحدث كل واحد منهما للآخر في مشهد أشبه بالخيال، يقتربان من القائد، يقول «مظلوم أفندي» في ثقة: هذا ما فهمته، لن ينزل الجنود للشاطئ، ولكن الشاطئ سيصعد.. أقصد الباعة.. للسفينة..

ينظر القائد للنساء شبه العاريات، يهتف مفزوعا: كلا..

ولكن النساء يصعدن بالفعل على سلم السفينة، تضيع صيحات القائد الفزعة وسط ضحكاتهن، يقتربن من القبطان ويحطن به، يمسد شعورهن ويقبل وجناتهن ويمد يده في جيبه ويوزع عليهن العملات المعدنية، تتقدم النساء داخل السفينة كاشفات عن سيقانهن الطويلة، يخطين فوق الممر الممتد حاملات أطباق الفاكهة، قرابين نضرة، أصابع الموز أطول مما يعرفونها، والمانجو والبطيخ والبرتقال والخوخ والعنب الأحمر الضخم الحبات، فواكه أخرى لم يروها من قبل، طازجة ونضرة ورائعة الألوان، تمتلئ السفينة برائحة النسوة وهن لا يكففن عن الصعود، يتبدد طعم الملح ويهدأ شظف العواصف، يحل دفء إنساني ينبعث من تلك الأجساد الفتية المشدودة، يتخلصون من رائحة القاع العفنة بما فيها من آثار الخيول وروث البغال التي أضنتهم، تنتعش عيونهم التي كلت من زرقة البحر والسماء وهي ترى كل هذا الزخم من الألوان، خاصة جلود النساء التي هي الأجمل والتي لا يضاهيها أي لون، تنفتح أمامهم جنة مفاجئة، فردوس وسط محيط مالح، لا تتردد النساء في التقدم، لا يخشين من عنفوان الجنود ولا جلودهم الداكنة، يخترقن كتلتهم التي تراجعت وانقسمت إلى قسمين، ثم تداخلت واختلطت الأجساد وتلامست وافترقت، يتناول الجنود الفاكهة يقضمون الموز والبرتقال بقشورها، تسيل عصارتها على جوانب أفواههم، تضحك النساء باستمتاع، دائمًا ما يكون جوع الرجال مثيرا، وباعثا على الضحك، تتكاثر الأيدي التي تمتد للأطباق، يلمسون نهودهن في رقة، يحاولون لف أذرعتهم حول خصورهن أو الالتصاق بمؤخرتهن، ولكن النساء بارعات دوما في هذه اللعبة أيضًا، تمرسن عليها من الاحتكاك الطويل بالبحارة الجائعين، لا يختلف هؤلاء

الجنود كثيرًا عن كل العابرين، الرجال ليسوا إلا قرودا ضخمة يقومون بحركات تبعث على البهجة وأحيانا على الحزن، لكنهم قرود، ولكن لهؤلاء الجنود امتياز البشرة السوداء، لمسات خشنة بعض الشيء، حميمة وجائعة، تولد داخلهن نوعا من الانتشاء، يبتعدن ويقتربن وينهرن المتحرشين وهن يضحكن، يدرن حول الرجال كأنهن يؤدين رقصة لا تنتهي، رقصة الرجل والمرأة كما وضعت الطبيعة تصميمها الأولي، يفيق الرجال من موات الرحلة الطويلة ويولدون من جديد، يتذوقون طعم الحياة التي جمدها الملح، حيث تهب الفواكه عصارتها والنساء أجسادهن بلا مقابل وتنساب الشهوة بلا عوائق، تتحول السفينة إلى غابة صغيرة، استثنائية وأكثر انطلاقا، ويصيح القائد: لا أستطيع أن أحتمل كل هذا العهر، يسرع هابطا إلى قمرته، يشعرون جميعا بارتياح حقيقي، تتواصل الرقصة بأريحية أكثر، يضحك الرجال بخشونة تجاوبها ضحكات النساء بنعومة ويستمر التلامس دون أن يغضب أحد، أو ترتفع صرخة واحدة، عدد الرجال كان كبيرا والنساء صغيرا كما يجب أن تكون الرقصة، النساء يدرن وكل رجل يأخذ كفايته من التلامس، حتى بعد أن فرغت أطباق الفاكهة ظلت النساء متواجدات، مستمتعات، يدركن أن هذه اللحظات قصيرة مهما طالت، من المحتم أن تواصل السفينة الرحيل، تكتسب المطاردات نعومتها من انسياب الموج والنسيم الذي يهب، بداية الأشياء قبل أن تفسد، توقظ الذاكرة المنسية، لحظات من طفولة ضائعة قبل الاختطاف والخضوع لنير العبودية، الأرواح الحرة المتوهجة التي لا تخضع للاستعباد، خيط رفيع يربط هذه الأجساد بذواتها التي فقدت في رحلة المطاردة الممتدة عبر الغابة والنهر والبحر، ثم تبدأ النساء في الانسحاب، تمزقت بعض من ملابسهن، وتعرت أثداء بعضهن، وأصيب بعضهن بالخدوش والجروح الصغيرة، يغادرن

منهكات ولكن منتشيات، يتركن الرجال متراخين على حاجز السفينة أو جالسين على الأرض بين بقايا قشر الفاكهة، ثم ترتفع كل صفارات السفينة، صيحة الوداع، وتعاود الرحيل، يشقون السديم الأزرق من جديد، حتى بعد أن تخلت النوارس عن متابعتهم.

بعد أيام قليلة من الرحيل يدفعون ثمن لحظات البهجة القليلة في «مارتينيكا»، في صباح يوم ما يجد «ألماس» نفسه عاجزا عن النهوض من فراشه، ألم شديد يقبض على عضلات بطنه، سخونة في الرأس ورغبة في التقيؤ، لا يستطيع أن يستسلم، عليه أن يقاوم وينهض، يصعد مترنحا إلى سطح السفينة. الهدوء يسود المكان، والسفينة فاردة أشرعتها، تركت نفسها لقوة الريح لتدفعها، والبحارة أقل عددا عن كل صباح، لا يوجد أيضًا أحد من الجنود على السطح، لا يوجد حتى الذين يقدمون طعام الإفطار، يواصل «ألماس» السير مترنحا ومستندا لحاجز السفينة حتى يهبط إلى القاع، على ضوء بقايا المصابيح التي تذوي، يرى الجنود راقدين، معظمهم عاجز عن الحركة، عيونهم محملقة وجلودهم ساخنة، ولامجال لدخول الهواء النقي إلى المكان، جميعهم يشتكون من آلام البطن، نفس الآلام التي يشعر بها، ولكن حالة البعض الآخر كانت أسوأ، يأخذ البعض في التقيؤ، لا تسعفهم الفرصة ولا القوة للخروج من قاع السفينة وإفراغ ما في جوفهم في البحر، يتقيئون في الأماكن التي ينامون فيها، يتحول قاع السفينة إلى مستنقع من العفونة والروائح الكريهة، يقترب منه الجندي «علي جوفان»، يقول: امض أنت يا سيدي، تبدو متعبا، لا نريدك أن تموت في هذه العفونة، يحاول أن يبدو متماسكا، من القلائل الذين يقاومون، يستند مجهدا إلى الحائط، سيموتون جميعا في هذا التابوت العائم، يمنعه جفاف الحلق من الكلام، ويسلبه الألم القدرة على الوقوف، يدفعه «جوفان» برفق نحو

السلم الخشبي، يستند إلى حاجز السفينة ويفرغ ما في بطنه، يتهاوى على الأرض قبل أن تدركه سواعد البحارة، يجرون جسده الهامد إلى قمرته، يرى السماء غائمة، ولا أمل في التشبث بأي شيء، هذا البحر القاسي لا عودة منه، يغمض عينيه فيرى وجوههم الغاضبة تصرخ فيه: ماذا فعلت بنا؟ لم تكن الوجوه هي التي تصرخ، صوت آخر كان يهزه بعنف حتى يفتح عينيه ويستعيد وعيه، القائد «جبرة الله» وقد اقتحم قمرته: ماذا فعلت بجنودي؟ يفتح عينيه عاجزا عن الرد وعن إدراك ما حدث، مريضا ومذعورا وشاعرا بالذنب، المهمة كلها على وشك الفشل، سيموت هؤلاء الجنود قبل أن يخطون على أي أرض، ولو قدر له النجاة وهو أمر مشكوك فيه، لن يكون مصيره إلا المحاكمات العسكرية والسجن، لا يستطيع أن يقول شيئا، عليه أن يصرخ في جنوده حتى ينهضوا وينظفوا المكان، وأن يبحث عن طبيب وأدوية من الفرنسيس، هم السبب في تلك الرحلة المميتة. يأتي «مظلوم أفندي» ويجلس بجانبه، يحمل بعض زجاجات صغيرة، يلح عليه أن يتناولها حتى تخف درجة حرارته، يقول في حزن: المرض قد ضرب السفينة كلها، حتى البحارة الفرنسيس، العديد منهم يستلقون على السطح وهم يتلون في ألم، والقيء يلوث كل مكان، القبطان قد أصيب بالجنون، لا يكف عن الصراخ، البحارة يحملون سلال الفاكهة والخضروات التي اشتروها من الجزيرة ويلقون بها في البحر، أخبرني أحد الأطباء أنهم يعرفون السبب، إنه الوباء، هذه الجزيرة التي غادروها انتشر فيها وباء مرض يدعى «التيفويد».. لقد تلقوا رسالة من الجزيرة، يحذرونهم من المرض ولكن بعد فوات الأوان..

ينظر «ألماس» من خلال الكوة للسماء البعيدة، الآن يدفعون ثمن هذه المتعة العابرة غاليا، يواصل «مظلوم أفندي» القول: لقد نقلت

هذه الأنباء للقائد «جبرة الله» فارتفعت درجة غضبه، ذهب لقبطان الفرنسيس وصرخ في وجهه وهو يلوح بقبضته غاضبا، لم يسكت القبطان، كان هو أيضًا منفعلا فأخذ يبادله الصياح والتهديد، كلٌّا بلغته، لا حاجة للترجمة، اللهجة، قبضات اليد، الرذاذ المتناثر، كلها كافية للتعبير عن الاتهامات المتبادلة ومشاعر الحنق التي يكنها كل واحد منهم للآخر، بعد ذلك استعاد كل واحد منهما هدوءه، وبدآ يفكران فيما يفعلان للتصرف مع هذه الكارثة..

تهبط الحرارة، وتخف التقلصات في بطنه، لا يجد بدا من التحامل على نفسه ومعاودة الهبوط إلى الجنود، يصدر أوامره لهم، عليهم أن يفعلوا المستحيل حتى ينظفوا هذا المكان الذي يعيشون فيه، وأن يتم تقسيم الجنود بحيث تعزل الحالات التي تعاني من الحمى بعيدا عن الأصحاء، الجندي «جوفان» الوحيد الذي لم ينهر تحت وطأة المرض، كان مثله من النوبة، ليس من الجبال ولكن من سهل أسوان، فيه بعض من صلابة الصخور في هذه المدينة، ولا بد أنه تعرض لأيام قاسية من وطأة «السخرة» زادت من قوة احتماله، «العاصي» وبعض الجنود هم أيضًا متماسكون رغم نوبات الألم، عليه أن يشارك الجميع، يبذلون جهدا كبيرا في جلب الماء، وحمل الأوساخ، وغسل أجساد المرضى المتسخين، لا يستطيع القبطان أن يتجاهل مسئوليته عما حدث، يرسل طبيبا يقوم بإرشادهم، وسلالا من الزجاجات الصغيرة البنية اللون، يقول «مظلوم أفندي» إنها مخفضات للحرارة، لم تكن كافية، لذا تم تخصيصها لأكثر الحالات ارتفاعا، يظلون واقفين على أقدامهم طوال اليوم، وفي النهاية يسقطون جميعا من فرط الإعياء، لا يذهب «ألماس» للمكان المخصص لنومه، لا يريد ذلك، لا يجرؤ أحد من الفرنسيس على النزول إليهم، لم يفعلوا ذلك وهم أصحاء فكيف يفعلونه وهم على

وشك الموت! يستيقظون مع موت جديد، يموت أحد الجنود، بداية أخرى لرحلة من الموت المتعدد، لا توجد أكفان، بالكاد يستطيعون أن يغطوا وجهه حتى لا يرى إلى أي قاع يهوي، ينظرون لبعضهم البعض، لوجوههم المفزوعة، يدرك كل واحد أن دوره قادم، يصعد الماس بصحبته «سالم» و«العاصي» و«جوفان» وبعض الجنود الأصحاء ينامون في العراء فوق ظهر السفينة، يجب أن يبتعدوا عنهم في الليل حتى يقوموا على خدمتهم بالنهار، يحبس القائد نفسه في غرفته، يكتفي بتلقي التقارير الموجزة التي كان «ألماس» يبلغه بها من خلف الباب، يظل حريصا على أن يبقى بعيدا عنهم، بعيدا عن الموت، ولكن المفاجأة أن واحدا من البحارة الفرنسيس يموت أيضًا، يلقون بجسده دون أن يغطوا وجهه، يغوص سريعا كأن الموج كان في انتظاره، ثم يموت جندي آخر من السود، وبحار ثان، وجندي ثالث، لا نهاية لهذا الكابوس، ينشب الموت أظافره في السفينة المنكوبة الحظ،ولا يريد أن يغادرها، إذا كانت الرحلة هكذا فماذا عن الحرب التي تنتظرهم؟! يسأل «مظلوم أفندي» في يأس: أين هي الأرض التي وعدونا بها؟ يقول وقد خارت قواه: يخيل لي أنهم أنفسهم لا يعرفون، وجوههم كئيبة، وضع الموت عليها علامته، وينتظر ورودها إليه.

يأتي صباح لا يرون فيه وجوه بعضهم البعض، يحاصرهم ضباب لا يدرون من أين جاء، من السماء النائية أم من الموج الصاخب؟ كأن عدوى «التيفود» قد انتشرت وأصابت الأفق البعيد بالحمى، تحيط بهم أنفاس الضباب الرمادية لتكمل دائرة القلق وافتقادهم للأرض، تبتعد الشمس أكثر وتتحول إلى قرص مغبش، هش، على وشك الاختفاء، وكأن الضباب مجرد حجاب يخفي عنهم قدرا متوقع الحدوث، تبدو من خلاله فجأة لمحات من أشعة ملونة، تظهر وتختفي سريعا كسراب في

صحراء النوبة، يلمح بصعوبة وجوه البحارة والجنود وهي أكثر فزعا، أصبح الموت أكثر رقة وهشاشة ولكنه تمدد بحيث يمكنه أن يطول أي جسد، الضباب ليس باردا كما توقع، بل دافئ كالحمى، متراكم الطبقات، لا يكشف أستاره إلا عند ضربة القدر الأخيرة، فجأة تبدو لمحة من خضرة الموج، تبددت الزرقة الداكنة وبدأ الماء يعكس شيئا ما، عالم آخر، داكن وصلد، يتراجع الضباب عنه ويفشل في إخفائه، هل هي خدعة بصرية جديدة؟ يبدأ البحارة في طي الأشرعة، يوجهون الدفة ويبطئون السرعة، مثل أمل طال انتظاره يظهر سور المدينة، خط حجري داكن اللون يسد زرقة الأفق، ليس هناك امتداد للفراغ، تتجمد الرؤية وتسكت الدهشة ألسنتهم، يصعد بحار وحيد فوق أعلى الصواري ويملأ رئتيه قبل أن يصيح: فيرا كروز.. فيرا كروز.

عام ١٨٦٤م

- ٦ -

يستحق تحقيق الأحلام بعضا من الدموع، ويستلزم اقتلاع الجذور كثيرًا من الألم، وتبدو صيحات الفرح أشبه بمخدر مؤقت، ترتفع صيحات جديدة وسط أروقة «ميرامار»، قلعتهما الصامتة، تدوي الحناجر باللغة الإسبانية، «فيفا الإمبراطور مكسمليان، فيفا الإمبراطورة كارلوتا»، تحرف بسيط في الاسم يجعلها تشعر أنها قد أصبحت كائنا مختلفا، امرأة أخرى غير التي عاشت خمسة وعشرين عاما تحت اسم «شارلوت»، ستتذكر هذا اليوم طويلا، يوم الأحد العاشر من أبريل ١٨٦٤، تفتح حدائق القصر للمرة الأولى لأهل المدينة، كانوا فقط يلمحونها من خارج الأسوار، تتأمل «كارلوتا» القبعات الضخمة لوفد البرلمان المكسيكي، وقطع الفضة التي تزين ثيابهم، يخطون إلى داخل القصر، خمسة أشهر كاملة يتحملونها دون جواب قاطع، تأجيلات وترددات ومناورات ومساومات، ويتحملون فوق ذلك برد أوربا السيئ الذي لا يوجد له نظير في «مكسيكا» البعيدة، يقف «ماكس» أمامهم، يرتدي زي البحرية الذي يعشقه، حلة بيضاء مزينة بخيوط ذهبية، معلقا على صدره نياشينه وأوسمته، «كارلوتا» بجانبه، ترتدي ثوبا ورديا وعلى رأسها تاج من الماس، ورثته عن أمها بنت ملك إسبانيا، لم تتح لها الفرصة من قبل لترتديه، لم تكن إمبراطورة من قبل، منضدة صغيرة في جانب من القاعة، عليها كومة من اللفائف، رسائل من كل

مدينة في المكسيك تطالب «ماكس» أن يكون إمبراطورا عليها، تتطلع بطرف عينيها فتلمح وجهه شاحبا، تخشى أن ينهار ويغمى عليه، ولكن صديقهما القديم «جواتريز» يتحدث، يقرأ رسالة أعضاء البرلمان، يرد «ماكس» بالإسبانية، اللغة التي بدءا في تعلمها منذ عامين، يقول بصوت متماسك: يشرفني أن أقبل هذا التاج، وسوف أبذل قلبي وروحي من أجل حرية ورخاء المكسيك.

تثير كلماته الحماس في نفوس الجميع، وتتعالى الهتافات، لا تصدق «كارلوتا» أن هذه اللحظة قد جاءت أخيرًا، منذ أيام قليلة فقط كان كل شيء مهددا بالانهيار، «فرانز» الأخ الأكبر اللعين ما زال مصرًّا على رأيه، ووثيقة التنازل تبدو كسيف معلق فوق رقابهما، لم يذهبا لروما ولم يحاولا الشكوى للبابا، ينتظران أن تمر العاصفة، ولكنه لا ينتظر، يرسل مرة وسيطا، وأخرى تهديدا، يضعهما دوما تحت ضغط عصبي رهيب، تهتف في «ماكس» أن يتنازل عن هذا الميراث الثقيل، مصيرهما قد تحدد وأصبح مستقبلهما في عالم آخر، لا يستمع إليها، كيف تطالبه بالتنازل عن نصيبه في هذه الإمبراطورية العتيقة لأجل أخرى لم تولد بعد؟! ولكنها انهارت أمامه ذات ليلة، انفجرت باكية حين أخبرها أنه سيرفض تاج المكسيك، اكتشفت لحظتها أن عقله وحواسه ورغباته لم تزل كلها مركزة على تاج النمسا، تاج المكسيك ليس إلا بديلا بائسا، هروبا إلى المجهول، المشكلة أن هذا الرفض لم يبق سرا، تسربت أخباره كذرات الرمل، يعلم به سفير فرنسا في فيينا ويرسل على الفور رسالة لنابليون الذي يجن جنونه، ولأوجيني التي تنفعل وترسل لها رسالة غاضبة، الرهانات التي عقدوها عليهما تصبح خاسرة، يضيع الوفد الذي جاء من المكسيك إلى أوربا لمدة خمسة أشهر دون أن يعرف لمن يتوجه ولمن يهب العرش، يدرك نابليون أن الملايين التي أنفقها على حملته

لن يستطيع استردادها، يرسل برقية غاضبة لماكس يهتف به: «كيف تدع مشكلة عائلية تؤثر على قرار بهذه الخطورة؟»، يتحول عرش واحد من أغنى البلدان إلى عرش لقيط لا أحد يرغب فيه.

محبطة ويائسة، تتأمل وجه «ماكس» وهو عاجز عن حزم أمره، تقرر أن تتحرك وحدها، تركب القطار إلى فيينا وتذهب من فورها لمقابلة الإمبراطور فرانز، ولدهشتها لا يتلكأ ويقابلها على الفور، تريد منه أن يصل إلى حل مع أخيه، لا يمكن أن ينتهي حلم بهذا الاتساع من أجل وثيقة بهذا الصغر، لا أحد يريد أن يتحول هذا الأمر إلى فضيحة أوربية لا يمكن السيطرة عليها، لا يبدو متعجرفا أو باردا كعادته معها، ولكنه للمرة الأولى يبدو متفهما وراغبا في المعاونة، ربما لأنها المرة الأولى التي تتوافق فيها رغباتهما معا، كلاهما ـ إضافة إلى نابليون وأوجيني ـ يودون أن يرحل «ماكس» بعيدا عن هذه القارة، في داخل كل واحد منهم رغبة خفية لتحقيق مصلحته الخاصة، يبتسم في وجهها يعدها بالقدوم إلى ميرامار بنفسه، سيعمل على إقناعه ويرتب له وداعا يليق بإمبراطور من أسرة «هابسبورج»، ينفذ ما وعده بالفعل، يجيء ومعه بقية الأخوة، والوزراء والسفراء الموجودين في الإمبراطورية، ما عدا السفير الأمريكي بطبيعة الحال، ما زال يرفضهما، سيبقى الأمريكيون غصة في حلقيهما، أخيرًا يلتقي الأخوان المتخاصمان، يجلسان وحدهما طويلا، في النهاية يجد «ماكس» أن عليه أن يوقع، فهذا هو قانون الإمبراطورية، وفي المقابل على الإمبراطور فرانز أن يبقي على مخصصاته المالية التي تبلغ مائة وستين ألف جيلدر كل عام، في كل أمر لا بد من صفقة ما، بعدها تراقب «ماكس» وهو يسير وحيدا، يتأمل غرف وممرات القصر، وبيت النباتات، وشتلات الورد التي زرعها، يبدو شخصا ضائعا، يشعر أنه لن يرى هذا المكان مرة أخرى، تتقافز «كارلوتا» من شدة الفرح

بينما ينطوي هو حزينا داخل نفسه، ويبلغ الأمر ذروته حين تجيء برقية من أمه «الأرشيدوقة صوفيا»، دائمًا ما كانت تكرهها، تقول بكلمات وجيزة: وداعا يا عزيزي، أشعر أننا لن نلتقي مرة أخرى. «ماكس» هو ولدها المفضل، سبب آخر يدعوها للحنق على «كارلوتا»، ينسحب إلى غرفته ولا يخرج منها.

تحتشد فنادق المدينة بالذين جاءوا حتى يتبعوا الإمبراطور إلى مملكته الجديدة، مغامرون وباحثون عن الثراء وهواة استكشاف العوالم المجهولة، لا يتوقف مكتب البريد عن استقبال برقيات التهنئة من كل أنحاء أوربا، المئات منها جاءت لها وحدها، أناس لا تعرفهم وآخرون لم تلتق بهم إلا في مناسبات عابرة ومع ذلك لم يفوتوا هذه اللحظة، ينتشر الخبر بسرعة، لا تدري لماذا كان الجميع في انتظاره بهذه اللهفة؟ في الصباح، وقت تناول طعام الإفطار، تأتي البرقية التي كانوا في انتظارها، من الإمبراطور نابليون وأوجيني معا، تشهق هي في فرح وهي تفتحها، تحاول أن تقرأها لماكس بصوت عال، ولكنه يشير بيده قائلا: دعيني في سلام، ولا أريد الآن أن أسمع أي شيء عن المكسيك.

يتخلى عن الإفطار وينسحب إلى غرفته، ولكن السفن تظل واقفة في الميناء مستعدة، السفينة الملكية النمساوية «نوفارا» التي ستحملهما، والفرقاطة الفرنسية «التايمز» التي ستحرسهما في رحلة عبور المحيط، وطوال اليوم لا تتوقف القوارب عن نقل الحقائب والصناديق التي تخصهما، كثيرة هي بقايا الذكريات التي تربطهما بهذا المكان، ولكنها لا يجب أن تمثل عائقا، يحزم الخدم الكثير من الأشياء، يجهز «ماكس» العديد من عينات النباتات، سيأخذها أيضًا إلى عالمه الجديد، مثلما كانت لها حقيبة كاملة تحتوي على كل ألعاب طفولتها، رافقتها من بروكسل إلى هنا، وها هي تستعد للسفر معها مرة أخرى.

في ظهر اليوم التالي يتلقيان زيارة غريبة، لم تكن متوقعة، يأتي السفير الأمريكي طالبا مقابلة «ماكس»، لم يشأ أن يقابله وحده، كان تعبا من كثرة التهاني، من المؤكد أنه لم يأت للتهنئة، تنظر إليه في توجس وهو يقترب منهما، حادا وصارما، وبعيدا عن أصول اللياقة بعض الشيء، يقول: سيدي.. لقد جئت لأقدم لك الإنذار الأخير لحكومتي، الولايات المتحدة لن تسمح بقيام أي نظام ملكي على حدودها الجنوبية، خاصة إذا كان هذا النظام يقوم على أنقاض نظام جمهوري قامت بتدميره قوة غزو أجنبية..

يستمع إليه «ماكس» هادئا، تعرف أنه يرتجف ويحاول أن يتماسك، يبدو السفير صلفا ومتعاليا كدأب كل الأمريكيين، يقول «ماكس» في صوت حازم: فات الأوان يا سيدي، أنت تخاطب الآن إمبراطور المكسيك الجديد..

ينهض واقفا لينهي المقابلة، يظل السفير متجمدا قليلا في مكانه، لا يتصور أن تكون المقابلة باترة لهذا الحد، لا يملك إلا أن يستدير منصرفا، يلتفت «ماكس» نحوها، شفتاه ترتعشان، ووجهه يكسوه شحوب غريب، تتخيل للحظة أنه سوف يغمى عليه، تهمس له مشجعة: إنه خائف منا، ولكنه يفاجئها بالقول: هذه الرحلة يجب أن تتأجل، يسرع بالدخول إلى غرفته ويغلق بابه من الداخل، يا إلهي ماذا يمكن أن تفعل ألا يمكن التخلص من هذا الجار اللعين؟ يترك طبيبه الخاص ليعلن للجميع أن الرحلة ستتأجل ثلاثة أيام كاملة لأن الإمبراطور يعاني من الحمى، كل ما كانت ترجوه خلال هذه الأيام اللعينة ألا يحدث أي شيء إضافي يؤجل الرحلة للأبد، عليها أن تظل في هذه الحالة من الترقب، كل يوم هو بمثابة عام كامل، السفن لا تنصرف، ولا يبدي الوفد المكسيكي أي نوع من الامتعاض، ولا تكف الطيور عن الدوران

مثل سؤال بلا جواب، يتغير العالم في اليوم الثالث، يتجمع آلاف الناس أمام القصر، يملئون مسافة الأميال الأربعة التي تفصل قصر ميرامار عن مدينة «ترستا»، يمتلئ البحر أيضًا بالمئات من قوارب الصيد، جاءوا جميعا لوداعهما، فلاحون وصيادون، دائمًا ما كان «ماكس» يهبط ليجلس بينهم في المقاهي والحانات الصغيرة. يقف بجانبها مذهولا، يراقبهم ويسمعهم وهم يهتفون باسمه.. يا أميرنا البَحار.. اسم التدليل الذي ينادونه به طوال هذه السنوات، قرار الرحيل عن هذا المكان جعله يكتشف أناسه القدامى، يحاول أن يخفي دموعه وهما يهبطان سويا على الدرج الرخامي المؤدي للبحر، يعانق الذين يقفون في انتظاره، يقف الوفد المكسيكي مندهشا، يدركون أنهم قد ظفروا بشيء ثمين للغاية دون قصد، اقتطفوا جوهرة من بحر الأدرياتيك ليزرعوها على شواطئهم القاحلة، وداع مؤثر، يبكي الجميع إلا «كارلوتا»، لديها الكثير من الدموع ولكنها تبقيها في داخلها، لم تحن لحظتها بعد.

يحملهما القارب بعيدا عن ميرامار، ينتزعهما من حياتهما القديمة، تنزل السفينة النمساوية والفرقاطة الفرنسية أعلامهما وترفعان العلم المكسيكي، ما إن يصعدا إلى ظهر السفينة حتى تدوي طلقات مائة مدفع من كل القلاع المطلة على البحر، يرتج العالم كله ويتغير، يحل بدلا منه عالم جديد لا تدري ما هو، ولكنه مختلف بالتأكيد، تبدأ السفينة رحلتها وأصوات الصيادين تلاحقها، تتناهى صيحات الجماهير هادرة من الشاطئ، يهب الهواء ساخنا محملا برائحة البارود، الوداع يا ميرامار، حزينة ولكنها ليست آسفة، كان لا بد من المغادرة، ببطء يأخذ كل شيء في الابتعاد، تنزوي شرفات القصر، وتبهت أشكال الخدم وهم يواصلون التلويح، يعلو الموج ويختفي الشاطئ بما عليه من حشد، كانت تظنه سيبقى راسخا، تتناثر مراكب الصيادين وتتباعد

حتى تختفي هي أيضًا، تنفتح أمامهما مساحة قاحلة من الزرقة الباهتة، إنه البحر، البداية التي لا نهاية لها، يتمطى الموج في كسل ورغبة، ولا تسكن الريح، ولا تخفت حرارة الشمس، ملح وزبد وطيور ضالة وجزر من نباتات بلا جذور وأفق لا يجيء، ويبقى «ماكس» حزينا، لا يتحدث كثيرًا، لكنه معها في نفس السفينة وهذا كل شيء، البعد عن الشواطئ يجعل الرحلة أشبه بالقدر، لا يمكنك التوقف ولا النكوص، وسط الموج المتقلب، خلف كل لحظة هدوء تختفي عاصفة ما، تعبرهما سفن غريبة، تطلق صفاراتها على سبيل التحية أو التحذير، ولكن البخار المتصاعد من أبراجها لا يتوقف، تهبط إلى غرفة «ماكس»، يجلس إلى مكتبه، يكتب ويرسم ويخطط، يحدد ملامح بلاطه المقبل، نظامه وشكله، يريد أن ينقل البروتوكول العتيق لبلاط «هوفبرج» إلى عالمه الجديد خلف الأفق، لعل هذا يخفف من شعوره بالغربة، ولكنه البحر، من يستطيع أن يحبس نفسه أمام هذه الزرقة اللانهائية، العالم الذي يولد كل لحظة من زبد فوار.

تتوقف السفينة للمرة الأولى عند شاطئ إيطاليا، يركبان القطار إلى روما، يركعان على ركبتيهما أمام البابا «بيوس التاسع»، يقبلان أطراف عباءته القرمزية، باركنا يا أبتاه، اتل على رءوسنا تعويذة تحمنا من الشر الأسود الرابض في الأدغال، ولكن البابا ينشغل أكثر بمحاولة التأكيد على أن الكنيسة في المكسيك يجب أن تستعيد نفوذها، وتسترد الأراضي التي صادرها الجمهوريون، حقوق الناس محترمة، ولكن حقوق الكنيسة مقدسة، لم يكن «نابليون» فقط هو الذي يسعى وراء مصالحه الخاصة، يكبت «ماكس» مشاعره، لا يستطيع أن يعطي البابا وعدا صريحا، يعرف أن الكنيسة هناك شرهة ولا تشبع، لا يخبره عما فعله به أخوه، يحملهما القطار الخاص مرة أخرى إلى البحر، حيث

لا مساومات، تظهر الجزر الصغيرة وعليها بيوت بيضاء مثل كومة من نوارس، يلوح لهما الأطفال على الشواطئ الصخرية، لا يعرفونهما ولكنهم يحاولون أن يرفعوا عن كاهلهما غربة السفر، تقترب السفينة من نهاية البحر الأبيض، وتبدو صخرة جبل طارق مثل شاهد أخير، يسمعان دوي المدافع مرة أخرى، الحامية البريطانية ترسل لهما تحياتها بأمر من الملكة، ما أسهل الطلقات وما أصعب وعود الأمان، كعادتهم يجلس الإنجليز على حافة سور العالم، يطلقون صيحات التشجيع وينتظرون نهاية اللعبة، كما تعود أبوها أن يقول دائمًا، تواصل السفينة التقدم بمحاذاة الشاطئ الإسباني، تنطلق المدافع مرة أخرى من ميناء «قادش»، لمدة ٣٥٠ عاما ظل هذا الميناء يستقبل الذهب القادم من المكسيك وبقية العالم الجديد، يرسل لهما الآن تحياته وهما يسعيان للخزائن الفارغة، يسمعان آخر الطلقات من ميناء لشبونة حيث يصب نهر التاج في البحر ولا يبقى أمامهما سوى المحيط، لا أحد يكرههما حتى الآن، لعل المصير الذي يترصدهما يكون كذلك.

رحيل متواصل وسط موج بلا شواطئ ولا نوارس ولا مؤانسة، تصبح الريح أكثر برودة، ويزمجر الموج غاضبا، هذا هو حال المحيط دائمًا، لا يرحم السفن الضعيفة ولا الناس الضعفاء، تصبح السماء أبعد ما تكون، وتشرق شمس من الصقيع، تلاحقهما «الفرقاطة» الفرنسية في دأب، كأنها تخشى أن ينكصا على أعقابهما، حتى عندما تتعطل سفينتهما في وسط المحيط، ويصيح القبطان النمساوي أنه لا يملك كفايته من الفحم، إهانة حقيقية للطاقم النمساوي عليه أن يبتلعها ويطلب المعونة من «الفرقاطة»، التي تستجيب وتعطيه بعضا من الفحم الفائض عندها، مكتوب عليهما أن يتلقيا المعونة من الفرنسيين حتى في الفحم، فيما عدا ذلك تتشابه الأيام كزرقة الماء وشحوب السماء، تكتب عشرات

الرسائل لأبيها، على أمل أن ترسلها له من ميناء ما، يحذرها القبطان من الوقوف طويلا على السطح حتى لا تتجمد أطرافها دون أن تنتبه، تقول له إنها ستبلغ الرابعة والعشرين من عمرها، أصبحت كبيرة بما يكفي لتأخذ الحذر، ولكن أيامها كانت لا تزال مجمدة، تنتظر لحظة فاصلة، أمل بعيد يرقد خلف أفق غائم، لا تستطيع النوم، وحتى بعد أن ينام الجميع تظل ساهرة، تقرأ على ضوء مصباح السفينة المهتز.

لا تعرف كم يوما مر على السفينة وهذه الريح الباردة تتلاعب بها؟ كأنهم يسعون لهدف غير محدد، أحلام مجمدة، نفتقد حتى أوربا الباردة، ولكنها في ذات يوم تخرج إلى السطح فتجد «ماكس» واقفا يتطلع للأفق، هو الذي يبدأ بالحديث معها، يتكلم دون توقف عن أحلامه التي يريد أن يحققها، سيصنع إمبراطورية جديدة أفضل من التي تنازل عنها، خالية من كل أمراض القارة الأوربية ومن حروبها التي لا تهدأ، سيعتمد على الفرنسيين ولكن ليس طويلا، وسيجد طريقة ما للتفاهم مع جارتهما في الشمال، لا يوجد مستحيل، وعندما تهدأ الأمور قليلا سوف ينجبان وريثا للعرش، ينشآن سلالة ملكية جديدة لن تكون أقل عراقة من «الهابسبورج»، في تلك اللحظة يتغير الهواء وتهب عليهما موجة دافئة، أهي تأثير من كلماته، أم لفحة من الأحلام العريضة التي يعقدها على تلك المغامرة؟ يقبل القبطان عليهما باسما، تدخل السفينة في منطقة الريح المدارية و تتخطى منطقة الصقيع، يبدأ حلم الدفء البعيد المنال، بعد أيام يرون أول قطعة من الأرض الاستوائية، تمتد أمامهم شواطئ جزر «المارتنيك» كالسراب الدافئ، صفوف من أشجار نخيل جوز الهند، خلفها دغل من أشجار داكنة الخضرة، يصبح الجو حارا، كأن هناك غلالة من الدفء تحيط بجلودهم، تخلصهم من معاطف أوربا القديمة، كانت أرضا فرنسية رغم أنها تبعد عنها كثيرًا،

اقتصوها من الإنجليز أيام «نابليون بونابرت» وما زالوا يحافظون عليها في إصرار، محطة للأمان في طريق رحلتهما البعيدة، يتأمل «ماكس» ما حوله في ذهول، تدوي أصوات المدافع لتحيته، يجد نفسه في مواجهة مباشرة مع الطبيعة الاستوائية بكل ما فيها من توحش وبدائية، مختلفة عن البيت الزجاجي الذي كان يحبس نفسه فيه، الطيور الملونة والفراشات الصغيرة كلها طليقة تنعم بالدفء، يقول لها: هذه الجزيرة تذكرني برحلتي المبكرة للبرازيل، لم تكن برفقته، يتقدم منهما صف من النساء ذوات البشرة الداكنة، ابتسامتهن واسعة ومضيئة، يلبسن ثيابا ملونة بالغة الضآلة تكشف عن أفخاذهن السوداء، وعن ثدي واحد مشرئب لكل واحدة منهن، لا يهبط أحد، لا هي ولا أحد من الحاشية التي ترافقهما، لا أحد يدري كيف يمكن أن تستجيب أجسادهم لهذا العالم البدائي؟! تشعر بالغيرة لأن «ماكس» مستغرق في تأمل هذه الأثداء المشرعة في صلابة، ولكن في هذه اللحظة بالذات، في ذلك المكان أدركت أنه قد أصبح إمبراطورا حقيقيا.

يصعد حاكم الجزيرة إلى سفينتهما يبدي احترامه لماكس، ويقبل يدها في مودة، يتحدث بحماس عن المهمة السامية التي يتحملها في حكم هذه الجزيرة المتوحشة، يؤكد لهما أنها نفس المهمة التي يسعيان إليها في الأرض الجديدة، كانا معا شركاء في مهمة غامضة، تعرف أن هذه الكلمات تؤلم «ماكس»، لا يريد مزيدا من الارتباطات مع فرنسا، يفاجئهما الحاكم بالحديث عن عشرات من المكسيكيين الموجودين في سجون الجزيرة، يمثلون عبئا إضافيا على مواردها القليلة وعلى قوى الأمن فيها، يلاحظ إمارات الدهشة المرسومة على وجهيهما، يوضح أنهم جنود وأسرى،تم أسرهم في المعارك الدائرة هناك، ولكنهم كانوا أكثر من أن تستوعبهم السجون الموجودة

في المكسيك، لذلك قاموا بنقل الأخطر منهم إلى هذه الجزيرة، تفكر حائرة، هل يمكن أن يتجاهلا ذلك؟ يبادره «ماكس» على الفور: لماذا لا تفرج عنهم، يكفي ما قضوه داخل السجن؟ لدهشتهما يوافق الحاكم على الفور، يريد أن يتخفف من هذا العبء، ولكنه ينبههما محذرا: إنهم من غلاة الجمهوريين، عندما يعودون لا ندري في أي جانب سيحاربون؟ يتحمس «ماكس» بكونه السبب في استعادة هؤلاء الجنود لحريتهم، ولكن هذا يزيد من حيرة الحاكم، لا يستطيع أن يبقي السجناء طلقاء في المدينة، و لا يملك النقود اللازمة حتى يرحلهم على متن أي سفينة تجارية عابرة، يصر ماكس على أن يأخذهم معه، أن يركبوا معهما السفينة نفسها، لا يخفي القبطان النمساوي امتعاضه، حمولة السفينة لا تكفي لحمل كل هذا الجمع البائس من البشر، لا ينثني «ماكس»، يذهب للفرقاطة الفرنسية ليتفاهم مع قبطانها، تتأمله «كارلوتا» وهو يسعى على أرصفة الميناء جيئة وذهابا بدهشة لا تخلو من الإعجاب، أصبح إمبراطورا بالفعل، يسعى لإنقاذ جزءٍ من شعبه، مهما كان خلافهم معه، يبر بقسم الولاء الذي قطعه على نفسه، يعود مبتسما بعد أن تنجح جهوده، يقسم المفرج عنهم إلى نصفين، كل سفينة تحمل نصفا، تعرف أنها والسيدات اللاتي ترافقنها لن يتمكنَّ من الخروج إلى سطح السفينة بعد الآن، تتأمل الأسرى الخارجين من ظلمة السجن من بعيد، ملابسهم أصبحت مزقا وأثمالا لا تكاد تستر أجسادهم، وجوههم شاحبة وجائعة، يتكومون في جانب من السفينة، لا يتحركون منه، يبدو واضحا أن أيام السجن الطويلة قد هدت في داخلهم أي أثر للمقاومة، أصبحوا جزءا من الواقع الذي يسعيان إليه بكل ما فيه من بطولة وبؤس. تعاود السفينة الإبحار من جديد، تشق الموج بثبات، تختلف الروائح، كل يوم يحمل الهواء رائحة جديدة،

وتهب عواصف مختبئة، وتظل كتلة البشر البائسة هاجعة في مكانها، حتى عندما تتلبد السحب، وعندما تأتي النذر بأن موج البحر سيرتفع ويضرب سطح السفينة، لا يرضون بالنزول إلى القاع، يتمسكون بالحبال والصواري، يرتجفون داخل أماكنهم، يسمعون صوت الموج الغاضب، لا يعرفون مدى المعاناة في الأعلى، يتحمل الجنود دون شكوى أو تذمر، لا يقع أحد منهم في البحر، جبلوا على الصمود، تدوم العواصف عدة أيام قبل أن يهدأ البحر فجأة، يخرج ماكس بنفسه ليطمئن عليهم، في تلك اللحظة من الهدوء تظهر طيور النورس وهي تحوم في السماء بكثافة، وجزر صغيرة تحيط بها شعب من المرجان بلونها الأرجواني، مدببة الأطراف كسعف النخل، يمسكون أنفاسهم بينما تزحف السفينة ببطء وسلام آسر داخلة إلى خليج المكسيك.

-٧-

يهبط الجنود السود من السفينة بأقدام مرتجفة على أرض سوداء، هشيم من عشب محترق، تتشعب جذوره بين رماد البارود وغبار البراكين، مرضى ومتعبين، غرباء عن هذا المكان، عن العالم بأسره، خلف جلودهم كل شيء أسود، يجري في عروقهم دم أسود، وتخفق بداخلهم أرواح سوداء، وينتظرهم في السماء مكان مكسو بالسواد، تتعالى حولهم صيحات لا يفهمونها، وتوجه لهم أوامر لا يدرون كيف يطيعونها، ينصاعون فقط للإشارات التي ترسم أمامهم، لا أحد يقدم لهم العون، التلال خرساء، والموج أبكم، حتى اسم البلد الذي هبطوا إليه من الصعب نطقه، في الحرب لا يوجد فائض من الوقت، لا مجال للاسترخاء، أو النوم الآمن، يقظة لا تنتهي، بلا بهجة ولا رفقة ولا فرحة ولا غبطة ولا أمل، يبحثون عن مكان لهم تحت شمس غريبة، لا يتحدث معهم الفرنسيس كثيرًا، الأوامر لا تحتاج إلى الكثير من الكلمات، الكلمات ألغاز لا تحل، لا يبتعدون عن الشاطئ كثيرًا، يظل البحر في ظهورهم والمدينة الحجرية في مواجهتهم، يهبط المرضى فوق المحفات، عيونهم مغمضة لا يرون شيئا من الأرض الجديدة، تحمل القوارب أجسادهم المجهدة إلى قلعة حجرية على جزيرة قريبة من الشاطئ، لا أحد يدري إن كانت لهم عودة، أم أنها المرة الأخيرة التي يرونهم فيها، خلف جدران القلعة توجد المستشفى

والسجن، وبئر مالحة المياه، وساقية لا تتوقف عن الدوران، مكان واحد، للآمال والمخاوف.

يقترب أهل المدينة قليلا من كتلتهم السوداء، أطفال حفاة يلقون عليهم نظرات مستطلعة، مليئة بالفضول والخوف، جلودهم السوداء تصيبهم بالقشعريرة، تقبل بعض النسوة، كثيرات ووحيدات، يسرن بمهل على طول الخط الحجري، يمسكن أطراف ثيابهن ويتطلعن نحو صفوفهم، يلبسن ثيابا واسعة الصدور، أثدائهن واضحة وبارزة لأعلى، دعوة خفية لهم ليقبضوا عليها بأصابعهم، لكن القائد «جبرة الله» يصيح فيهم: حذار من الاقتراب أو لمس أي امرأة، جئنا هنا للحرب وليس لمطاردة النساء، من يسع خلف أي امرأة فليس أقل من إطلاق النار عليه، يحاول أن يحاصر الرغبة التي تتلظى بداخلهم، يعيشون حالة دائمة من الجوع والحرمان، يوجههم «ألماس أفندي» للمهام التي تنتظرهم، خيام عليهم أن ينصبوها، وقطعة من الأرض يجب أن تحاط بالأسلاك الشائكة، وأحجار ترص فوق بعضها لتصبح ساترا يحتمون خلفه.

بعد أيام يجيء كبير الفرنسيس، الجنرال «فوري»، هكذا فتح الله على «مظلوم أفندي» ودلهم على اسمه، يحيط به الغبار، تثيرها الخيول التي يمتطيها فرسانه، ثيابهم زرقاء متألقة بالأوسمة، يحيطون بالقائد الكبير الذي لا يبدو منه إلا قبعة عالية، في مقدمتها ريشة بيضاء، يخطون في خيلاء وزهو. يفكر «ألماس» وهو يراقبهم، ما الذي جاء بهم جميعا لهذه البلاد البعيدة حيث لا يوجد سوى الموت؟ ينتصب القائد «جبرة الله» منتظرا، بجانبه «ألماس» و«مظلوم أفندي» والضباط الأربعة، تصطف طوابير الجنود في المؤخرة، يهبط قائد الفرنسيس من على جواده، يتبادل القائدان التحية، مصافحات وابتسامات متكلفة، يقول

كلمات لا يسمعها جيدا ولا يفهمها نهائيا، يحدق في المترجم صامتا وحائرا، تتحول المهمة العسكرية إلى كابوس متكرر من عدم الفهم، يحاول «جبرة الله» أن يخرج من المأزق، يسير معهم ليستعرضوا صفوف الجنود، ابتلع البحر منهم صفا كاملا، يتأمل قائد الفرنسيس ألوان جلودهم بعينيه الفارغتين، يبدو راضيا عن درجة سوادهم، يمد يده إلى أحد البنادق التي يحملها العسكري «علي جوفان»، يحاول الإمساك بها، يتراجع العسكري قليلا وقد فوجئ بحركة يده، ولكن نظرة صارمة من «ألماس» تجعله يرخي أصابعه ويترك سلاحه، يقلب القائد البندقية باهتمام، يكسرها ليرى حشوتها، كانت خالية من الطلقات، يظل يحدق في الماسورة الفارغة، ثم يلتفت لضباطه، يحدثهم مشيرا إلى السلاح، يتناول واحد منهم السلاح ويعيد فحصه، يتوجهون جميعا بالحديث إلى القائد، يشيرون له بأصابعهم مؤكدين على شيء غير مفهوم، و«جبرة الله» جامد الوجه، يقول «مظلوم أفندي» فيما يشبه الإلهام: أعتقد أنه يتحدث عن مقاس ربما.. البندقية، وحجم.. ربما الطلقات، يسرع «ألماس» إلى المكان المخصص للذخيرة، يعود حاملا حفنة من الطلقات، يتناولها الجنرال، وقد أشرق وجهه، هناك من استطاع أن يفهمه أخيرًا، يتفحصها باهتمام، تتوزع الطلقات بين بقية رجاله، يعودون للتحدث إلى القائد «جبرة الله»، يقولون كلامًا كثيرًا ولكن من جانب واحد، يظل وجه «جبرة الله» جامدا، لم يشأ حتى أن يلتفت ناحية «مظلوم أفندي»، يدخلون جميعا إلى إحدى الخيام وتبقى صفوفهم تحت الشمس، وأخيرا ينسحب قادة الفرنسيس مسرعين، غاضبين، هذا ما يبدو من حركاتهم المتبرمة، في الخيمة يتقدم «مظلوم أفندي» وهو يقول في صوت غير مؤكد: يريدون أن يأخذوا منا بنادقنا، يقولون، أظن أنهم يقولون، ربما.. أنها غير صالحة.

يربد وجه «جبرة الله»، يقول: كيف نحارب إذن.. ثم أنها عهدة، كيف يمكن أن نعود بدونها؟

يبدو «ألماس» حائرا، ينظر إلى «مظلوم أفندي» ينتظر منه أن يكمل أو يفسر، ولكن هذا هو آخر حدود فهمه، شيء غامض لم يصل إليهم جميعا، يهتف القائد منفعلا: علينا أن نتمسك بأسلحتنا، سنطلق النار على من يحاول أن ينتزعها منا، عمموا هذا الأمر على كل الجنود..

يرفعون حالة الاستعداد، لا يدعون أحدا يقترب منهم غير عربات الطعام، وما تحمله من وجبات ماسخة قليلة الحجم، يعيشون على حافة الجوع، لا يصلون أبدا إلى مرحلة الشبع، بدا كأن الفرنسيس قد أخطئوا باستقدامهم إلى هذا المكان، ويبحثون عن وسيلة ليتخلصوا منهم، يراودهم الأمل أن يوم عودتهم قد اقترب، بعد عدة أيام يأتي ضابط منهم، لا يكف عن الكلام بلغته الغريبة، يحدق فيه «مظلوم أفندي» وفي الجنود بعيون زائغة، يدور حول نفسه، يريد شيئا يستند إليه، تحمم الشمس جسده بالعرق، يشعر بالعالم يدور من حوله، يسقط على الأرض، يصرخ أقرب جندي منبها الجميع، يزيحهم «ألماس أفندي» من حوله حتى لا يمنعوا عنه الهواء، انقطع الخيط الأخير للتفاهم مع هذا العالم، وجه «مظلوم أفندي» شاحب وجلده جاف، كأن عصارة الحياة توشك أن تتبخر من جسده، يحملونه ويعدون به للشاطئ، يقفون في مواجهة القلعة الحجرية، المكان الوحيد الصالح لعلاجه، ولكن كيف يصلون إليه، يصرخون عاليا ربما يكون هناك من يسمع صوتهم، ينظرون لوجهه الصامت، يخشون أن يكف عن المقاومة، يتقدم الضابط «بلال» نحو أحد قوارب الصيد، قارب صغير حائل الطلاء، مربوط في وتد مغروس في إحدى الصخور، يندفع الرجال ويساعدونه في جذبه، يسجون الجسد المنهك بداخله، يركب عدد قليل بجانبه، يشقون الماء

بضربات أذرعتهم، تبدو المسافة القصيرة نحو القلعة طويلة ولا نهائية، يوجه الحرس الفرنسي بنادقهم نحوهم، يريدون أن يمنعوا قاربهم من الرسو، يحمل الجنود السود الجسد ويندفعون وسط بنادقهم، لا يجرؤ أحد على اعتراض لهفتهم وجزعهم، يتراجع جنود الفرنسيس، يجتازون ممرا حجريا، تظهر مجموعة من الراهبات يرتدين أردية رمادية فضفاضة ويحطن وجوههن بأوشحة بيضاء، يحملن محفة ويهرعن نحوهم، لا يطلبن مساعدة من أحد، قويات البنية، يحملن جسد «مظلوم أفندي» النحيل بخفة ودون مجهود، يدخلن به الأروقة المظلمة، هل سيرونه مرة أخرى، هل يمتلك جسده الهزيل القدرة على النجاة من الموت؟ يستدير الجنود، يحشرون أنفسهم في القارب ويضربون الماء بأذرعتهم، ينضمون إلى البقية التي كانت في انتظارهم على الشاطئ.

تجيء عربات الطعام، أرغفة الخبز وأوعية الحساء تطفو عليها طبقات الدهن المعتادة، لا أحد يجد في نفسه القدرة على الأكل، رغم كل الذين ماتوا في الطريق، إلا أن ابتعاد هذا الرجل يحز في نفوسهم جميعا، بعد ما حدث له لا أمل لهم في أي تواصل، يصطفون في صفوف طويلة كل يوم، يستنفدون طاقتهم في التمارين وينتظرون، أصبح لهم خيام ومعسكر وأرض صلدة يقفون عليها ولكن لا شيء يخصهم، يأتي أهل المدينة للفرجة عليهم، والنساء.. النساء، قريبات وشهيات وبعيدات المنال، ثيابهن الملونة وشعورهن الشعثاء المزينة بالورود والأشرطة الحمراء، لا يقتربن ولا يكففن عن إثارتهن.

يتواصل جمود الحال لبضعة أيام، مصيدة حارة وشديدة الضجر، ولكن ذات يوم يأتي «بو علام»، بصحبة ثلاثة من رفاقه، يقف على حافة البيوت ويتأمل معسكرهم، خيامهم البيضاء ووجوههم السوداء، يرى للمرة الأولى كل هذا العدد من السود في مكان واحد، يعرف أن

الجزائر مليئة بهم، يتسللون إليها عبر الصحراء، ويسيرون في أسواقها، شعورهم شعثاء،مغبرة بذرات الرمال وجوههم عابسة، لا يختلف هؤلاء عنهم، فقط تكتسب جلودهم زرقة من شدة الإجهاد، وعيونهم محمرة من فرط الترقب، ويبدون غاضبين كدأبهم، مكومين وخائرين ومع ذلك يقبضون على بنادقهم، ينظرون شذرا إلى الضباط الفرنسيين الذين يحومون حولهم، يجزون على أسنانهم، متأهبين لخوض معركة ما، يقترب الثلاثة، لا يتراجعون رغم أن بنادق السود موجهة إليهم، ورغم أنهم يرتدون زي الجيش الفرنسي الذي يبدو أنهم يكرهونه، يتجرأ أحدهم ويرفع صوته عاليا، يقول: السلام عليكم، تلجم المفاجأة ألسنة الجنود، يلاحظون أن لون جلود الأربعة أفتح قليلا من جلودهم ولكن ملامحهم أقرب إليهم، يتنفسون في ارتياح، ينزلون البنادق ويشيرون لهم بالاقتراب، يتقدمون مجهدين متعبين، جاءوا من سفر طويل، يجلسون بينهم على الأرض، ثيابهم متربة وملامح الجوع تبدو عليهم، مثلهم تمامًا، يسألهم «بلال»: من أين الأخوة؟

يقول أحدهم: اسمي «بو علام» ونحن من الجزائر..

يذكر لهم أسماء رجاله، كلها من أسماء المسلمين، ولكن أين يوجد هذا البلد؟ كثير من الجنود لا يعرفون، يؤكدون لهم أنه أقرب مما يظنون، بعيد بعض الشيء ولكن يمكن الوصول إليه دون سفينة، وأن حجاج بيت الله حين يخرجون منه لا بد أن يمروا بمصر، ولكن كيف جاءوا إلى هذا المكان، وماذا يريدون؟ يقول «بو علام»: سأجيب على كل شيء، أنا معكم حتى الصباح، ولكني مكلف بمهمة يجب أن أؤديها، أين أجد القائد؟ يجب أن أقابله أولا

ينهض «بو علام» واقفا، يتقدم الضابط «بلال» ويسير بجانبه،

ويبقى رفاقه جالسين بين الجنود، يخرج أحدهم من جرابه بعض التبغ وقطع الفاكهة الجافة ويقدمها لهم، يسير «بو علام» نحو ركن بعيد من المعسكر حيث يجلس القائد وبجانبه «ألماس أفندي»، يؤدي التحية فينهضان واقفين، يلاحظ على الفور أن القائد مختلف، بياض جلده واضح، وشعره مائل للحمرة، يلاحظ أيضًا أنه بالغ الهزال، يقدم «بو علام» نفسه من جديد، ويضيف في سرعة: لقد استدعانا الجنرال الفرنسي «فوري» من مدينة «أوريزابا» على وجه السرعة، أخذت الرحلة منا يومين كاملين، حتى الآن لم يتركوا لنا فرصة للراحة أو حتى لتناول الطعام، قادونا على الفور لمقابلته، قابلنا الجنرال شخصيا..

لا يبدو أن القائد مهتم بمقابلة الجنرال كثيرًا، يهتم أكثر بوجود جنود مثلهم في هذا المكان النائي، وكأنهم لا يتشاركون في المصير نفسه، يقول «بو علام»: إنها فرنسا يا سيدي، هي أيضًا تحكم بلادنا منذ حوالي ثلاثين عاما، قبل أن أولد أنا بثلاثة أعوام، تمامًا كما يحاولون أن يفعلوا مع هذا البلد، وهم يصرون على أننا فرنسيين رغم أننا لا نشبههم ولا نتحدث لغتهم، حتى الجنرال «فوري» نهرني اليوم عندما قلت له إنني عربي، هتف بي أنت فقط فرنسي تتحدث العربية.

يتحدث بسرعة وبأنفاس متقطعة، يريد أن يفرغ شحنة الكلام المختزنة في أعماقه، لا يفهم القائد الكثير من لهجته الملتوية، تبدو عربية ولكنها ليست كذلك، يتذكر أن هناك أميرا عظيم الشأن جاء من الجزائر إلى دمشق منفيا، هو أيضًا كان يقاوم الفرنسيس، اسمه الأمير «عبد القادر الجزائري» بصحبته جمع من المغاربة كانوا يقدسونه، لم يقابله، ولكن دمشق كلها كانت تتحدث عن مقدمه، قال له مستفهما: أنت مبعوث إلي إذن من قائد الفرنسيس [illegible]؟

يقول «بو علام»: الجنرال بنفسه هو الذي طلب مني التوجه إليكم بسرعة، يشرفني أن أكون المترجم المصاحب لكم أنا وبقية زملائي منذ الآن..

قال القائد: وهل جئتم مثلنا للحرب في هذه البلاد؟

قال «بو علام»: أجل، فرقة كاملة، ندافع عن «أوريزابا» وهي بلدة في السهوب..

ينظر إليه «جبرة الله» أخيرًا في راحة، تنفرد أساريره، يهتف: ستحل أزمة كبرى، منذ أن جئنا إلى هنا ونحن لا نفهم شيئا مما يدور حولنا، أين نحن وماذا نفعل هنا وماذا يريد هذا «الفوري» منا؟

ينظر «بو علام» إليه مندهشا، يتأمل بقية الجنود الذين عبروا آلاف الأميال دون أن يعرفوا سبب ذلك، فقط أنهم سيشاركون في حرب غامرة لا شأن لهم بها، تمامًا كهؤلاء الجزائريين الأربعة، يشير له القائد ليسيرا معا، بعيدا قليلا، تتابعهما عيون الجند، يستمع القائد إليه باهتمام، بينما يقول «بو علام»: الفرنسيس يحاربون أهل البلاد، لا أعرف سبب ذلك بوضوح، ربما لأسباب واهية كما حدث في الجزائر، ولكن هذا دأبهم على أي حال، هبطت قواتهم إلى «فيراكروز» منذ عام، وهم في حاجة لوجودكم هنا حتى تدعموهم في الحرب، ضد كل الأهالي الذين يحيطون بنا..

يفهم القائد مغزى كلماته، لم يكن هو أيضًا يحب الفرنسيس كثيرًا، لكنه يقول: المشكلة أن الفرنسيس أصدقاء أفندينا، وقد أصدر أوامره لنا بإطاعتهم، أمر واضح وصريح لا أملك شيئا في مواجهته، أهل هؤلاء البلاد لا يهمونني كما أنهم لا يهمون أفندينا..

يبتعدان عن عيون الجنود المحلقة، يسيران على شاطئ تغطيه رمال

سوداء، تغوص أقدامهما في ذراته الناعمة، يشرح له «بو علام»: إنها ذرات متناثرة من رماد البراكين التي تحاصر المدينة، وهي تذكرها دائمًا أنها تحت رحمة الطبيعة..

يتوقف القائد، يشير إلى جزيرة صخرية بالقرب من الشاطئ، تقف عليها طيور النوارس ساكنة لا تحرك إلا رءوسها ومناقيرها الطويلة، يقول: هذه الجزيرة أخذت خمسة وعشرين من رجالي دفعة واحدة، أصابهم مرض «التيفويد» على ظهر البحر بسبب قبطان فرنسي أحمق، وتم نقلهم لهذا المستشفى الشبيه بالسجن، ولكنهم خرجوا جميعا منه إلى هذه المقبرة، هذا غير الذين غرقوا في البحر المجهول، ماتوا جميعا قبل أن ندخل أي معركة، لا أدري ماذا يريدون منا بالضبط في هذه الأرض الغريبة؟

يقول «بو علام» بطريقة مباشرة: يريدون منكم الدفاع عن هذه المدينة «فيراكروز»، إنها الشريان الوحيد الذي يربطهم بفرنسا والعالم بينما يندفعون هم إلى داخل البلاد، دون وجودكم ستبقى ظهورهم عارية..

ينظر «جبرة الله» إليه حائرا: لا أريد أن أعتقد أنني وجنودي على هذا القدر من الأهمية، هل يمكن أن يتوقف مصير تلك الحملة الهائلة وهذه الجيوش الفرنسية العظيمة. على هذا العدد الضئيل من رجالي السود؟!

يقول «بو علام»: إنهم ليسوا فرنسيين فقط، هناك جنود مرتزقة من النمسا وبلجيكا، حتى الفيلق الأجنبي الذي أذاقنا الويل في الجزائر موجود هنا أيضًا، وعليك أن تتصور هذا.. هم أيضًا في حاجة إليكم..

ينظر القائد إليه متضايقا، يشعر أنه يتلاعب به، أو يبالغ في أداء مهمته، يقول: ماذا تعني؟ الأمور لا تستقيم هكذا، لقد تناقص عددنا بشكل مفزع ولم يعد رجالي كافين لأي عملية عسكرية كبرى..

يقول: بالطبع لو كنتم أكبر عددا لكان الأمر أفضل، ولكن المهمة ما زالت كما هي، حماية هذه المدينة الحيوية، سأقول لك ما سمعته، وهو أمر مؤكد، نقله إليَّ واحد من رفاقي من «وهران»، بلدتي نفسها، لم أتعرف عليه هناك، ولكننا تقابلنا هنا، إنه يعمل مع الطاقم الصحي، وكان في هذه القلعة منذ أشهر قليلة، لقد استمع بإذنيه لأطباء الحملة وهم يتحدثون عن الحمى الصفراء، أجل.. الحمى الصفراء، يقولون إن «فيراكروز» مدينة موبوءة لا تحب الرجل الأبيض، عندما هبط الجنود الفرنسيين إلى هنا، هاجمتهم هذه الحمى، قتلت منهم أكثر مما فعلت بهم عصابات الجمهوريين، قاموا بالعديد من الأبحاث، وعمل رفيقي فيها قبل أن ينتقل معي إلى مدينة «أوريزابا»، اكتشفوا أن جلد الرجل الأبيض لا يمكنه أن يتحمل هذه الحمى، وحدها فقط الجلود السوداء هي التي يمكنها التحمل والإفلات من المرض.. أرأيت؟

يصفر وجه «جبرة الله» فجأة ويتراجع من أمامه، يدرك «بو علام» فجأة مدى حماقته، كان يدلي بهذه المعلومات للشخص الخطأ، جلد القائد «جبرة الله» كان أكثر شحوبا من الفرنسيس أنفسهم، يهتف بصوت مختنق: ماذا.. أفندينا فعل ذلك؟ لقد خدعني مرتين، مرة حين أخفى عني اسم الأرض التي سيرسلني إليها، ومرة ثانية حين أرسلني وهو يعلم أنني ميت..

يقول «بو علام» في بلاهة: ربما لم يكن يعرف، وربما لن تموت، هذه الحمى مخصصة للفرنسيس فقط..

بالتأكيد ليس هذا وقت المزاح، كلاهما يدرك ذلك، يجلس القائد على إحدى الصخور، كأنه ينتظر الموت ولا شيء آخر، يتأمل الجزيرة كأنه يبحث عن حفرة زائدة فيها، يتمتم «بو علام» مهونا عليه: نحن مسلمون ونؤمن بقدر الله، لا يمكن أن نصدق تخاريف هؤلاء الفرنسيس..

لا يبدو أنه يستمع إليه، يتمتم من بين أسنانه: اللعنة عليك يا أفندينا، ينظر للأفق كأنه يستعيد ذكرى بعيدة، يصبح صوته خافتا حتى أن «بو علام» يسمعه بصعوبة: أفندينا سعيد باشا هو الذي كلفني بهذه المهمة اللعينة، إنه سليل محمد علي وأسرته المجنونة، لا شيء يوازي طموحهم غير جنونهم، كنت أنا أيضًا مجنونا لأنني آمنت بهم وتبعت خطاهم من الشام إلى مصر، سرت خلف جيش أخيهم الأكبر إبراهيم باشا، كان قائدا مروعا، أزاح الأتراك من الشام، واعتقدت أنه المخلص من عسفهم، تعرفت على أبيهم الباشا الكبير محمد علي، المجنون الحقيقي، استقبلني في آخر أيامه، كان قد فقد ذاكرته، ولكن أحدا لم يستطع أن يزحزحه عن العرش، ورحل إبراهيم أيضًا وهو على حافة الجنون، ولكن ظل أملي قائما في أخيه سعيد باشا، رغم أطواره الغريبة، كان يكره كل الأجانب، حتى ظهر ذلك الفرنسي المدعو ديليسبس، فرديناند ديليسبس، منذ أن تعرف عليه وقد التصق به كالقراض لم يتركه أبدًا، من المؤكد أن إرسالنا إلى هذا البلد المميت هي فكرته، هو الذي ألح على أفندينا وأقنعه بها، عرفت فيما بعد أنه يمت بصلة قرابة لإمبراطورة فرنسا «أوجيني»، هذا الوغد كان يعمل لحسابها، عندما استدعاني الباشا لمقابلته، كان الفرنسي موجودا، لم ينطق بكلمة واحدة ولكني أدركت أنه هو الذي رتب الأمر ولقن الباشا كل حرف، حدثني أفندينا عن الأورطة السودانية، وعن حاجة إمبراطور فرنسا إليها، كان

يريد كتيبة كاملة، ولكن الظروف لم تسمح إلا بتجميع هذه الأورطة، كل هذا والفرنسي يتأملني في تمعن ومكر، كنت أعتقد أنه كان يفكر إن كنت أصلح لهذه المهمة أم لا، ولكني أدركت الآن مغزى نظراته، كان يعرف أنني لن أعود منها، حاولت أن أتحدث إلى أفندينا، لكنه لم يخبرني إلى أين سأذهب ولا من سنحارب، ولم يكن من حقي أن أسأل، لم يعطني الأذن بذلك، ظل الأمر سرا بينهما هما الاثنين، كان عليَّ فقط أن أشعر بالشرف لأن أفندينا تكرم عليّ بهذا الاختيار، ولم أتصور أن يقوما معا بخداعي، كم خديعة من هذا النوع مارسها علينا هؤلاء الكبار!..

يستمع «بو علام» إلى هذه الكلمات الكثيرة، ويراقب القائد وهو يغرق سريعا في حالة من الحزن والشجن، كأنه يرثي نفسه، يصمت فيظل صامتا، ولا يبقى إلا صوت الموج المرتعد، والريح التي تثير الرماد الأسود، يقول في بطء: ما زالت هناك رسالة من الجنرال «فوري» عليَّ إبلاغها لحضرتكم..

يرفع القائد يده مشيرا له أن يتوقف، يهتف في ضيق: اذهب إلى «محمد أفندي ألماس»، تفاهم معه حول كل ما يريدون، فقط ابتعدوا عني جميعا..

يضطر «بو علام» للابتعاد، يسير متجها نحو الجنود، يتفحص وجوههم المتشابهة، تنتهي حيرته حين ينهض من بينهم شخص آخر أقل سمرة، ينظر «بو علام» إلى قامته القصيرة وبنيته القوية، يوحي بالثقة، يشعر «ألماس» بالقلق وهو يرى انعزال القائد، لكنه لا يسأل، يستمع إليه وهو يقول: يريد الجنرال أن تسلموا أسلحتكم جميعا، هذه البنادق التي تحملونها لا تصلح للقتال هنا، ستنفد الذخيرة التي أحضرتموها معكم

وتصبح بلا قيمة، سيعطونكم بنادق جديدة بدلا منها، وستستخدمون الذخيرة المتوفرة هنا..

ينظر إليه «ألماس أفندي» بهدوء، يقول: لقد فهمنا ماذا يريدون منذ المرة الأولى، ولكن هذه الأسلحة هي عهدتنا، سنحاكم إذا عدنا بدونها..

يتساءل «بو علام»: ولكن، لا بد أن لديكم أوامر بإطاعتهم..؟

يقول: أعرف.. ولكن لا يوجد جندي واحد يسلم عهدة الحكومة لغرباء..

يقول «بو علام»: أكد لي الجنرال أنه سيعيدها إليكم فور انتهاء الحرب..

يسأله «ألماس أفندي» وهو يحدق في عينيه: هل تثق فيهم؟

يقول: بالطبع لا، ولكن هذه الأرض التي نقف عليها في قبضتهم، ونحن هنا تحت إمرتهم، هذه حربهم يا سيدي، وربما لا يبقى أحد منا على قيد الحياة بعد ذلك..

ينظر «ألماس أفندي» نحو القائد، ما زال شاردا في تأمل البحر، كأنه يفكر في طريقة ما للعودة، يلتفت «ألماس» نحوه ويقول في بطء: قبل أن نتحدث عن الأسلحة وتسليمها، عليك أن تقول لهذا الجنرال الفرنسي إن هؤلاء الجنود قد عبروا بوابة الجحيم للتو، جحيم بارد ومالح، لا يوجد في عروقهم غير الملح، ولم يعد يشمون غير رائحة الموت، إنهم في حاجة لطعام ودواء قبل أن يموتوا كحيوانات، لقد أكلوا كفايتهم من لحم الخنزير، ولا بد أن هذا يعذبهم، إنهم حائرون بين أن يحافظوا على حياتهم، وبين أن يخالفوا تعاليم دينهم، لقد أصابهم هذا الأمر بمرض عضال، ولن يفيقوا منه إلا بعد أن يعود طعامهم إلى طبيعته..

يتأمل شكلهم، مؤسيا وحزينا، جيش تمت هزيمته قبل أن يدخل أي معركة، ينهض «بو علام» ينصرف من أمامه ببطء، ينسحب بقية زملائه، ربما لم يكن في استطاعته أن يقابل الجنرال الفرنسي بسهولة، ولكن عليه أن يكون مصرا حتى يفعل شيئا من أجلهم.

لا تحدث المعجزة إلا في اليوم التالي، لا يأت ضباط الفرنسيس لطلب السلاح، ولا يظهر الجنرال المتعجرف، يأتي بدلا منهم جميعا موكب أكثر أهمية، قطيع مهيب من عشرة أبقار بيضاء يخالطها بقع من السواد، يسوقها رعاة من الهنود أهل البلاد، يسيرون في بطء آسر حتى يصطفون أمام أعينهم المتحفزة، وبطونهم الجائعة، يظل الهنود واقفين لبعض الوقت دون صوت، تخور الأبقار وقد أدهشها ثقل السكون، يرفع الجنود السود عيونهم وقد أدهشتهم عذوبة أصوات البقر، يتقدم واحد من الهنود، يرفع سكينا طويلا وقد علق فيه منديلا أبيض، يراقبونه وهو يتقدم حتى يقف تحت مرمى نيرانهم، إشارة واضحة وجلية، يتقدم «ألماس» متخطيا صفوف رجاله، يتقدم من الهندي الذي ينحني أمامه ويناوله السكين، يشير إلى البقر ويتحدث بسرعة، ثم يتراجع بظهره، يفعل مثله بقية الهنود، يضعون السكاكين على الأرض ويتراجعون، تلفتت الأبقار في حيرة، تحاول أن تتحرك مبتعدة بعد ترك زمامها، ولكن السود يتركون البنادق ويزحفون نحوها بهدوء، يستعيدون خبرتهم الطويلة مع البقر، مبعوثة السماء التي أرسلنها الآلهة لعالم البشر، كائنات نورانية من عالم علوي، في غابر الأزمنة طلبت منها الآلهة أن تهبط للأرض وتقول للبشر أن يصلوا للآلهة ثلاث مرات ويأكلوا مرة واحدة، ولكن البقرة حين هبطت ورأت العيون الجائعة والنفوس المنكسرة، امتلأ قلبها بالشفقة عليهم، طلبت منهم أن يصلوا مرة واحدة، وأن يأكلوا ثلاث مرات، وعندما عاودت البقرة الصعود

وجدت الآلهة غاضبين لأنها قد عصت أوامرهم، ووعدت البشر بأكثر مما ينبغي، نزعوا عنها هالتها السماوية وأمروها أن تعاود الهبوط إلى الأرض، حتى تعمل مع البشر وتساعدهم في الحصول على الوجبات الثلاثة، هبطت البقرة، حملت هموم الناس وزرعت الأرض معهم، وأعطتهم سائل الحياة من جسدها، ولكن البشر الغادرين، ذبحوها وأكلوا لحمها، تمامًا كما سيفعلون الآن، يحيطون بالبقرات العشر في بطء ودفء، دون أي صوت يمكن أن يزعجها، يتحسسون أجسادها في حنان، يشعرون بدفئها يتسلل إليهم، بعض من وهج الغابة وحيويتها، يغنون ويضحكون وهم يخفون السكاكين عن عيون البقر، لا يريدون إفزاعها حتى لا يصبح لحمها مرا، يحيطون بكل بقرة بحيث يفصلونها عن الأخرى، يتقدم «ألماس»، يطلب منهم جميعا أن يبسملوا ويقرءوا الفاتحة، تبدأ عملية الذبح، يرتفع خوار البقر من وطأة المفاجأة، تعلو أصوات الجنود وهي تردد التكبيرات عاليا، يرددها الصدى وتسمعها بيوت المدينة كلها، صيحات غريبة تسمعها هذه الشواطئ عبر المحيط الواسع، يرتفع اسم إله المسلمين مكبرا، تقدست أسماؤه، وتباركت عطاياه، ترتجف أجساد الأبقار قبل أن تقذف ما في داخل عروقها من دماء، يقدمها الجنود السود قربانا له حتى تشملهم رحمته على هذا الشاطئ الغريب وتلك البلاد النائية.

يحمل الهنود إلى معسكرهم بعض أواني الطهي، وأرغفة من خبز الذرة، وسلال من الفاكهة، تغمر الجنود حالة من الحبور والفرح، يسلخ بعضهم جلود البقر حتى يظهر لحمها الوردي، ويرص البعض موقدا من الأحجار ليعد عملية الشواء، سيشهد شاطئ «فيراكروز» أكبر وليمة شواء يمكن أن تكون، وسيملأ عبق الدهون هواء المدينة بدلا من رماد البراكين، يصعد سكان البيوت القريبة فوق منازلهم ويراقبون

الحركة التي يموج بها السود، يسمعون ضحكاتهم العالية الخشنة، يرون أجسادهم نصف العارية وهم يغتسلون من آثار الدم في مياه البحر، بعد فترة تتحول الأبقار العشر إلى أكوام من اللحم الوردي الزاهي، لامعة لدرجة عدم التصديق أن دفقة الحياة قد غادرتها بالفعل، تتحضر السفود، تصطك الأحجار حتى تشتبك الشرارة الواهنة في أوراق الشجر وتتحول إلى نار حامية، تجيء عربة يجرها بغلان، تحمل زجاجات مرصوصة من النبيذ الأحمر، اللمسة الأخيرة حتى تصبح الحفلة كاملة، يخطط الجنرال «فوري» لكل شيء كأنه يدير عملية حربية، يديرها من خلف ستار ما بحيث لا تظهر أصابعه، يمسك «العاصي» بعظمة، في مؤخرتها قطعة مشوية من اللحم، يقتطعها بأسنانه في استمتاع، يكتشف وجود «بو علام» على مبعدة، يراقب وجوه الجنود التي يغطيها الدهن، لا تقل نسبة السواد في وجوههم إلا عندما يبتسمون، يتقدم منه، يقرب قطعة اللحم من وجهه وهو يسأله: ألا تريد أن تأكل؟

يقول «بو علام»: أنا نباتي، وهذا يجنبني الكثير من المشاكل..

ينظر إليه «العاصي» مستغربا، بعد أيام الحرمان لم يتوقع أن يرفض إنسان اللحم، يقول: كنت أحسب أن معرفتك بالعربية ولغة الفرنسيس معا هي فقط الشيء الغريب فيك، هل يمكن أن تعلمني هذه اللغة الصعبة؟

يبتسم «بو علام» متسائلا: لماذا؟

يقول «العاصي»: أريد أن أعرف ماذا سيقولون عنا، لا أريد أن يسبني أحد من خلف ظهري.

يضحك «بو علام»: لا تحتاج معرفة السباب إلى تعلم لغة، على أي حال يمكننا أن نجد وقتا لتعليمك ولكن فيما بعد، الآن اذهب وواصل احتفال الشواء.

تخرج بعض النسوة من بيوتهن، يدرن من بعيد خارج حدود المعسكر، يراقبن حركة الجنود في حذر، تتسلل رائحة الذكور إلى أنوفهن، يمتلئ الجو بروائح حسية، خطوة ما تقوم بها امرأة أو رجل ستنهي هذا التوتر الذي يشعر به الطرفين. في مؤخرة المعسكر يظل القائد «جبرة الله» جالسا، لا يشارك الآخرين ولكنه يراقبهم بعيون غائمة، يراهم وقد تحولوا إلى ظلال غير واقعية، أمامه وعاء من القصدير مليء بقطع اللحم، لم يمس تقريبا، يقترب منه «بو علام» وهو يحمل زجاجة من النبيذ، يتأمل وجهه الحزين، كأنه يراقب شبح الموت وقد أصبح أكثر اقترابا من رقبته، ينزع سدادة الزجاجة ويقدمها له: سيدي.. تذوق نبيذ هذه البلاد ربما يعجبك..

ينظر نحوه قليلا كأنه يحاول التعرف عليه، يتناول الزجاجة ويأخذ منها جرعات كبيرة، من بعيد يراقبه «ألماس» بعيون منذهلة، لا يتصور أن القائد يتجرع الخمر بهذه السهولة، يجلس «بو علام» بجانبه، يراقبان معا حركة الجنود ونزقهم الصاخب، لا يريدون النبيذ، يصرخون طالبين شراب «المريسة»، مشروب لا يعلم «بو علام» عنه شيئا، يسمع القائد يتحدث في خفوت: الحياة لغز، نولد في مكان ما، وتتواصل حياتنا رغم كل قسوتها، ولا ندري في أي بقعة من الأرض ستنقضي أعمارنا، تأمل هذه النوارس التي تمتلك السماء، والبراكين التي تتنفس في قمم الجبال، كل هذا لا يقارن بالثلج الذي ينام على جبال الشام..

ينهض واقفا، يشير إلى «ألماس أفندي» الذي يقف أمامه منتصبا، يقول له بصوت مجهد: سأدخل خيمتي، لا أريد أن يزعجني أحد، واصلوا حفلتكم وطعامكم وتدريباتكم، لا شأن لي بها، لا أريد أن يزعجني أحد في الوقت الذي أقضيه مع نفسي..

يهتف «ألماس أفندي»: تمام يا فندم.

يدخل القائد الخيمة ويغلقها خلف ظهره، يتأمله «بو علام» و«ألماس» كل منهما البعض، هناك شيء خاطئ، يستمر الصخب، شبع وشراب وتبقى النساء بعيدات، يلحن في الأفق، يتواصل الاحتفال حتى بعد أن تغرب الشمس..

لا يغادر القائد خيمته حتى بعد أن تشرق شمس اليوم التالي، تخلو الخيام كلها إلا واحدة، تنتظم طوابير الصباح، وتبدأ التدريبات، يستمع القائد «جبرة الله» إلى صخبهم، ولكنه لا يستطيع الحركة من فراشه، يفتح عينيه ويحدق في سقف الخيمة، مضيء ومائل للصفرة، يشعر بالأشعة تنفذ في نسيج الخيمة وتلون جلده، يرفع يده ويتأمل أصابعه، أطرافها باهتة وصفراء، هل هذه الصفرة هي اللعنة التي تصيب البيض، يهز رأسه، عليه أن ينفض كل هذه الأوهام وينهض، ينظم عمل اليوم، يشرف على عملية تبديل الأسلحة، يشترط أن يكون وعدهم بإعادة الأسلحة القديمة مكتوبا، عليه أن يقابل القائد الفرنسي لحل بقية المشاكل العالقة، يسمع صوت خطوات تتجول أمام الخيمة في قلق، لا بد أنه «ألماس أفندي» عليه أن يخرج إليه، يعطيه الأوامر التي يحتاج إليها، الزمن لا يتوقف والحرب لا تؤجل، يجاهد حتى يجلس أخيرًا، يشعر بالعالم يدور من حوله، اللعنة عليك يا «بو علام»، أنت الذي زرعت في ذهني هذا الوهم، أنا لست مريضا، كلماته فقط هي التي أوحت لي بذلك، فقط لا يمكنه الحركة، تغير المناخ في هذا البلد الغريب، الحنين إلى بيته القديم في بر الشام، هذا هو سر التعب الذي يعتري جسده، يرتفع باب الخيمة ويظهر وجه «ألماس»، يبدو أنه حسم أمره أخيرًا وقرر ألا يمتثل للأوامر ويقتحم الخيمة، يقول: جاءت العربات التي تحمل البنادق، لقد أفرغها جنود الفرنسيس، هل تريد أن تراها؟

يشير له بيده موافقا، ينهض بصعوبة، لكن ذرات الأرض ناعمة من تحته، تغور من تحت قدميه، يخطو بجانب «ألماس» وسط الصفوف المتراصة لجنوده، وجه «بو علام» ينظر إليه في إشفاق، هل يتوقع سقوطه في هذه اللحظة؟ يسير خلفهما إلى حيث تقف مجموعة من الضباط الفرنسيس، ينزلون البنادق من العربات، يضعونها متعامدة معا بحيث تكون عشرات من أشكال الأهرامات الصغيرة، يحدق فيها الجنود السود في خوف وحذر، أكثر رشاقة من بنادقهم، مؤخرتها كبيرة صالحة لتخزين المزيد من الطلقات، والماسورة قصيرة ورفيعة حتى تنطلق منها الرصاصات بسرعة فائقة، البنادق القديمة كانت أكثر ضخامة وثقلا، يتم حشوها من خلال الماسورة، هناك صناديق أخرى مليئة بثياب جديدة، لا تشبه ثياب بقية الجيش الفرنسي كثيرًا، لكنها بألوان ثيابهم الأصلية، عليها علامات جديدة تميزهم، وتحافظ على شكل طربوشهم القديم، ينظم الضباط الأربعة الجنود في صف طويل، يبدأ من البحر حتى مكان تسليم البنادق، يتبدل الجيش الذي عبر معه المحيط الشاسع، لا يبق منهم إلا جلودهم السوداء، وأرواحهم الخفية، يتغيرون كما يتغير العالم، ينسحب منه الضوء وتبقى العتمة، يغمض القائد عينيه ليرتاح قليلا، يشعر بدبيب الحمى، تزحف وتنشب أظافرها في جسده، ما علة تسميتها، هل سيتحول جلده للون الأصفر، هل يمكن التعرف عليه في العالم الآخر؟! رجل ميت غريب قاتم أصفر، يموت في أرض غير أرضه، يقف على عتبات الملكوت بعد أن قام بكل الاختيارات الخاطئة، تخفت أصوات الجنود تدريجيا، تصبح أشبه بوشيش من أمواج خفيه، يسقط على الأرض، يسمع صراخهم من حوله، يسمع صوت «بو علام»، من المؤكد أن هذا كان صوته، يصيح: لا بد أنها الحمى الصفراء، لنسرع به إلى جزيرة سان خوان، لا

يريد الذهاب إلى هذه الجزيرة، يريد أن يرتاح، يعود فقط لمنزله فوق جبل «قسيون»، يحملونه من أطرافه الأربعة، يفسح الفرنسيس طريقا للعربة التي كانت تحمل السلاح، في البداية كان يسمع قعقعة العجلات وحمحمة الخيول، تخفت الأصوات وتغيب، لا يسمعهم وهم يبحثون عن قارب، لا يشعر بهم وهم يقلبون جسده، ويتحسسون عروق عنقه، ولا يسمع صوت «ألماس» وهو يصرخ ملتاعا: مات القائد..

على الجزيرة الصخرية القريبة من الشاطئ يجدون حفرة زائدة، لا يدرون من حفرها، ولكنها كانت في انتظار جسده الذي كان قد ذوى وأصبح غاية في الخفة، يقرءون عليه الفاتحة، ويخلع الجنرال «فوري» قبعته، ويحني رأسه، يجتمع حشد غريب من ضباط الفرنسيس والجنود السود وبعض الهنود من أهالي المدينة، ويرتفع صوت النفير في نوبة وداع، تنساب تردداته فوق الموج، لا تصل لمكان، فقط هذه الحفرة من الأرض، ينسحب الجنرال سريعا بعد أن يتمتم ببعض الكلمات، تمتلئ الجزيرة بعد ذلك بالجنود السود، يهطل المطر بغزارة فيخفى دموعهم، يظلون واقفين جامدين لفترة طويلة، يعودون للمعسكر مبللين، جواد القائد الأبيض ما زال يقف وحيدا، عاجزا عن مضغ العشب، يشعر الجنود أنهم قد أصبحوا أكثر غربة في هذا البلد الغريب، أكثر ضعفا، ولكن لا وقت يضيعونه في الحزن، يقتاد الضباط الفرنسيس الحصان الأبيض إلى السفينة، يقول «بو علام» إنهم سيعودون به إلى مصر، وسيرسلون أيضًا مستحقاته المالية، ثم كان يجب أن تنتهي أيام الحزن، لأن الحرب لا تنتظر.

يدفع الجنود السود الثمن مقدما، يذوقون الموت قبل أن يدخلوا الحرب، ولكنها لم تكن بعيدة عن أطراف أصابعهم، يجدون أنفسهم فجأة في غمارها، لا يندفعون لها ككتلة واحدة، ينقسمون، يتحولون من

«أورطة» إلى «فصائل»، كل واحدة منها تحارب في مدينة مختلفة، فوق أرض لم ترها من قبل، فئران سود، تطبق عليهم مصيدة البلاد، كما فعلت بالفرنسيس من قبل، عليهم ألا يكفوا عن القتال حتى لا تطبق على أعناقهم، لا يبق في «فيراكروز» إلا بضع عشرات منهم، بجوار قبور الذين رحلوا، جزء منهم يبقى ساهرا على الأسوار، يستنشق غبار البراكين، لا يدري من أين تأتي الطلقة الأولى، وجزء آخر كان مكلفا بحراسة القطار الذي يرحل كل يوم عن المدينة..

في ذلك اليوم يركب «بلال» القطار متأخرا قليلا، قبل أن تتحرك العربات يقف على الرصيف مشدوها، يتأمل المرأة التي تبيع المانجو، ترشق إحدى الثمار في عصا طويلة وتمسك باليد الأخرى سكينا، تزيل القشرة الرفيعة ببراعة دون أن تمس شيئا من أنسجتها الطرية، تقطع بنفس البراعة الأنسجة الصفراء المسكرة إلى فصوص صغيرة، تضعها في ورقة من أورق الموز قبل أن تناوله إياها، قبل أن يعطيها الثمن يبدأ القطار في التحرك، يلقي لها القطعة المعدنية من النافذة فتلقفتها بنفس البراعة. امرأة عريضة الصدر، جلدها لامع، مثل الثمار التي تبيعها، يحدق فيها مسحورا ولكن القطار يحمله بعيدا رغما عنه، يتذكرها كلما تناول واحدا من الفصوص، يشعر بحاجة ملحة لأن يلامس امرأة، النساء هنا ساخنات، يتقبلن الملامسات والمداعبات الخفيفة، لا يصبن بالفزع من اقتراب الرجال، ولكن عليه أن يزيل حاجز الغربة التي تفصلهما أولا، ولا أهمية بعد ذلك للغة، ستكون هناك لغات أقوى يتفاهمان بها بالتأكيد، يجلس بجانب «بخيت» على المقعد الخشبي، طوال الوقت وهو يراقبه من النافذة، يقول له ضاحكا: هل نلت شيئا من هذه المرأة، هل أعطتك شيئا؟

يتنهد بلال وهو يقول: ليس بعد، ما زال لوني الأسود يخيفها..

يشاركه بخيت في خيبة الأمل: المدينة مليئة بالعبيد، ومن المؤكد أنهن لا يخفن منهم، إنهن يخفن منا على وجه خاص..

يقول بلال في ثقة: مهما كان الأمر، سأكون أول واحد فيكم يحصل على امرأة، ما إن أحصل عليها فلن يتوقف سيل النساء، إنهن لا يختلفن كثيرًا سواء في الغابة أو المدينة، لا يبحثن فقط إلا على متعة الجزء السفلي.

يتأمل زملاءه السبعة، يجلسون في مقاعد الحراسة، شاهرين بنادقهم إلى خارج النوافذ، منشغلين بمراقبة قمم التلال التي تبدأ في التتابع، منذ أن جاءوا وقد ترك الفرنسيس لهم مهمة حماية القطار. رحلة خطيرة، تمتلئ العربات بالسادة ورجال المناجم والضباط والسيدات اللواتي يلبسن قبعات مزينة بالريش، في هذا الصباح بالذات يقف طاقم الحراسة وهو يراقب القطار يمتلئ بأناس مهمين، ثلاثة من الضباط الفرنسيين، صدر أحدهم منتفخ بالأوسمة، ومدير لمناجم الفضة وموظفين من أهل البلاد ولكنهم يبدون على جانب من الأهمية، وقس وقور يمسك صليبا فضيا ولا يكف عن مباركة الركاب، تجار ونساء أنيقات يسرن في تأنق وأخريات يجذبن أطفالهن للركوب. يتجهن في رحلة تنتهي عند مدينة «مادلين» قبل أن تتفرق بهم الطرق، رحلة تمتد على مدى ستة وسبعين كيلو مترا، ينطلق القطار فيها بين غابات مطيرة وتحت أشجار متشابكة الغصون وفوق واد غائر، يطلق القطار صافرته وسط الوديان الخالية، وتنحدر القضبان إلى الأسفل قليلا وهو يستعد للدخول بين مضيق جبلي، يسبق مدينة «لاتيجريا»، المحطة الأولى في الرحلة، حيث يوجد مستنقع هائل يسير القطار على حافته وهو يرتج.

يميل القطار على جانبه فجأة، ترتج العربات وتصطدم ببعضها البعض، تخرج القاطرة عن القضبان، يجذب السائق المكابح بقوة قبل أن تنقلب بهم، تنخلع القضبان وتخرج عن مكانها، وقبل أن يتمالك الركاب أنفسهم تبدأ طلقات الرصاص تنهمر كالمطر من أعلى التلال، في لحظة يتحول المكان إلى مصيدة للموت، ينهار الركاب، يبتعدون عن النوافذ ويزحفون تحت المقاعد، ليس هناك متسع للجميع، يبدأ الجنود السود فورًا في الرد، يوجهون بنادقهم للأعلى، يختبئ المتمردون خلف الصخور، فوق الجدار الصخري الذي يطل على القطار، وضعهم أقوى وأكثر تحكما، يتوقعون حركة الجنود داخل المصيدة قبل أن يقومون بها، ليس مجديا الدفاع من نوافذ القطار، فهي هدف سهل، يمكن للعدو التركيز عليه، كما أن الرصاص يخترق الحائط الخشبي، يمكن أن يصيبهم وهم جلوس في أماكنهم، يشير بلال للجميع أن يتبعوه للجانب الآخر من العربة، سيوفر لهم ذلك حماية جيدة، يلمح فجأة الضابط الفرنسي المهم وقد هبط على الأرض، يمسك بندقية ويوجهها من خلف حاجز العربة، صدره مكشوف والأوسمة تلمع تحت الضوء، هدف يغري بالقنص، كيف يقع ضابط كبير في هذا الخطأ؟ يقفز بلال حتى يجذبه للخلف، ولكن الرصاصة تسبقه، يرى جسده وهو يترنح مرتدا للوراء، نافورة دم تنفجر من صدره، دون أن يدري يقفز بلال من النافذة، يهوي جسد الضابط بأكمله على الأرض، ويظل الرصاص ينهمر من حوله، يحدق فيه بعيون غائرة بينما بلال يحاول جذبه، يريد فقط أن يبعد رأسه عن الرصاص المنهمر، يحس فجأة بألم جارح يشق صدره، لسعة من نار تغور في روحه، يميل برأسه فيرى الدم يكسو صدره، دمه هو وليس دم الفرنسي، يتطلع إلى أعلى فيجد السماء أكثر بهتانا وابتعادا، تبدو أصوات الرصاص قادمة من

عالم آخر، لن ينال المرأة التي يريدها ولكنه يحس بطعم المانجو في فمه، ورائحة جسدها في أنفه، يغمض عينيه ليحافظ على هذا الطعم وتلك الرائحة، يقفز بقية الجنود، يشاهدون الجثتين مطروحتين على الأرض، متجاورتين، الدم الذي يكسوهما يجعلهما متشابهتين رغم اختلاف الملابس وألوان الجلود، أول قتيل أسود يسقط في القتال على هذه الأرض، سيكون هذا مصيرهم جميعا، لو لم يكونوا فئرانا، يحددون الاتجاه الذي يأتي منه الرصاص، يهبط الضابط الفرنسي الآخر ويحاول أن يتولى القيادة، يعرفون بالغريزة كيف يتصرفون، لا يجب أن يفعلوا مثل المهاجمين، لن يهدروا ما يملكون من طلقات، لن يطلقوها إلا على شيء يتحرك، هدفهم هو أجساد المهاجمين الحية، عليهم أن يكتموا أنفاسهم ويظلوا صامتين، تتعالى صرخات من داخل القطار، موت جديد، وإصابات نفاذة، يهتف الضابط الفرنسي بشكل متواصل، لماذا تتوقفون؟ ردوا عليهم بإطلاق النار، لكنهم يقبضون على بنادقهم مترقبين، «بخيت» هو أول من يلمح رأسا سوداء تتحرك خلف صخرة، يضعها في منتصف أسفل الهدف ويطلق النار، يسمع صوت انفجار جمجمته، ويبدو أنها رأس ضخمة ومهمة، لأن سيل الرصاص يبدأ في التساقط بغزارة، تصبح الحركة بين الصخور أكثر وضوحا، يضربون أي شيء يتحرك في الأعلى، تنتقل أصوات الصراخ من داخل القطار إلى قمة الصخور، يرون الجثث وهي تنطرح وتهوي، ومن داخل القطار يعلو بكاء الأطفال على أمهم التي تحتضر، وتمرق رصاصة وتمس كتف بخيت، مس من النار يفتح جرحا في كتفه، يواصل إطلاق النار رغم الألم، يدرك الضابط الفرنسي ميزتهم الأساسية، أنهم يعرفون كيف يقاتلون، وأن الرصاص عهدة، أثمن من يطلق طائشا في الهواء، كل رصاصة يجب أن تصيب.

يسود السكون فجأة، لا تظهر أي حركة، تبقى الجثث معلقة في أماكنها بالأعلى، لا أحد يحاول سحبها، لا صوت غير البكاء في القطار، هناك قتيل آخر مات في مقعده، انسحب المهاجمون فجأة، هكذا يبدو، كانوا أكثر عددا وأفضل موقعا ومع ذلك لم يقدروا على اصطياد الجنود السود ولا الاستيلاء على القطار، يتقدم الضابط الفرنسي منهم يقول: ما فعلتموه هو أمر مدهش، لقد أفلتم من مصيدة مميتة وأنقذتم الجميع..

ينظرون إليه دون أن يعرفوا كيف يجيبون، يفهمون كلماته بصعوبة، لم تتعد معرفتهم بالفرنسية مرحلة السمع دون الكلام، يعرفون أن الضابط الفرنسي الذي مات يدعى «الميجور لاجير» وأنه قائد كتيبة تدعى «الفرقة الأجنبية»، يحملونه بجانب زميلهم بلال، يضعونهما بجانب بعضهما البعض، يساعدون العمال في إعادة تركيب القضبان من جديد، يصعدون أعلى التلال لاكتشاف المصيدة المنصوبة لهم، يحصون الجثث المتناثرة فوق الصخور، هناك عشرون جثة على الأقل، فكم كان عدد المهاجمين كلهم؟! كان برفقتهم بعض مهندسي السكة الحديد ولحق بهم بعض عمال الصيانة من المحطة التالية عندما لاحظوا تأخر القطار، ومن المدهش أن القطار واصل رحلته وهو يحمل الموتى والأحياء على السواء.

لا تتوقف الحرب، معركة صغيرة تتبعها معارك أكبر، معارك للاستكشاف وتطهير الأرض الحارة، لا يكفي سوء مناخها، ولكنها ممتلئة أيضًا بالمتمردين، وفخاخ الموت، لكن المعركة الأكثر هولا تنتظر الجميع عند مدينة اسمها «بوبيلا»، جاء القائد الفرنسي بنفسه ليخاطب القائد الذي ترقى، اليوزباشي «محمد ألماس»، يلعب «بو علام» دوره في الترجمة، دون تلعثم أو ذهول، في إفهامه أن

هناك معركة ضخمة تنتظرهم في عمق البلاد، يريدون أي جنود يمكن الاستغناء عنهم دون تعريض المدينة للخطر، يأخذون مائة وعشرين من الجنود السود دفعة واحدة، وعلى البقية أن يواصلوا الليل بالنهار في حراسة «فيراكروز».

يسير «علي جوفان» وسط طابور الجنود، «بو علام» بجانبه، معظم الجيش الفرنسي والمرتزقة التابعين لهم يتحركون أيضًا في صفوف طويلة، لم ينس الجيش هزيمته الأولى في مستنقع هذه المدينة، وهو يسير الآن مدفوعا بكل غرائز الثأر، يمضون غربا، فوق التلال التي تغير فيها الثعابين جلودها، مسيرة طويلة مضنية، تنضم إليهم طوابير من الفرسان، وأرتال من المدافع التي تجرها الخيول، مدافع جديدة قادمة للتو من فرنسا، الشحم ما زال يغطي أجسادها، تهبط وتصعد التلال بفوهاتها المستديرة مثل أفواه جائعة، بعد أيام تبدو المدينة ببيوتها البيضاء المرتعدة، تواصل الجيوش إطباقها على المدينة من كل جانب، يبدو من إصرارهم على سد كل ثغرة أنهم ينوون محوها من على وجه الأرض، يثبتون المدافع فوق التلال الزلقة، يربطون عجلاتها وسط مفازات من الخضرة والصخور الحادة، تصبح المدينة تحت رحمة فوهات صلبة متأهبة، يشير «بو علام» إلى لافتة خشبية ضخمة موجودة على جانب الطريق، محفور عليها بحروف محترقة، يقول لجوفان. هذا هو اسم المدينة «بوبيلا دي زراجوزا»، زراجوزا هو اسم القائد الذي هزم الفرنسيين عندما هجموا عليها في يونيو الماضي، لقد أخذت المدينة اسمه وانتسبت إليه، قبل أن يتم كلماته يصل القائد الفرنسي بجواده، يشير للافتة ويهتف غاضبا، تتقدم ثلة من الجنود، يحضرون الفئوس والمعاول ويهوون عليها في قوة، تتحطم الحروف وتتحول إلى شذرات متفرقة، تفقد معناها، يلتفت «جوفان» مندهشا لـ«بو علام».

لماذا يفعلون ذلك، إنها مجرد لافتة؟ يقول: هذا يعطيك فكرة إلى أي درجة تثير هذه المدينة غيظهم! قال جوفان: كما أتخيل، لا يريدون أقل من محوها من فوق الأرض، يومئ «بو علام» برأسه موافقا، يبدو مغرما بتاريخ هذا البلد الغريب، يظل يتحدث بينما «جوفان» يتأمل المدينة: يقال أن أحد الأساقفة الإسبان رأى صورتها في أحد أحلامه، واديا تنبت فيه الزهور، يخترقه نهر صافي المياه اسمه سان فرانسيسكو، تحلق فوقه طيور كبيرة بيضاء شبيهة بالملائكة، وعندما يستيقظ الأسقف الإسباني من نومه يبدأ في الرحيل ويظل يبحث حتى يجد هذا المكان فيبني فيه أول كاتدرائية، وهكذا تبدأ المدينة من مجرد حلم، وهم يستعدون الآن لتدمير حلم هذا الأسقف.

يظل الجميع هادئين، يرتاحون في أماكنهم، يخشون الاقتراب من المدينة في آخر ضوء من النهار، يمضي «المدفعجية» معظم الوقت في ترتيب المدافع وضبط الزوايا المختلفة، يخصصون فوهتها ويسلطونها على كل موقع من المدينة، رغم أنها تبدو ساكنة وصامتة كأنها لا تشعر بوجودهم، يهبط الليل حاملا سلاما زائفا للجميع، يتخففون من التعب الذي ينهك أجسادهم، يتلقون الندى بلا أغطية، يتطلع «جوفان» للسماء والنجوم البعيدة، كم تشبه السماء في بلاده، ليست هي ولكنها تشبهها، يغلق عينيه لا يرى قرى أسوان البعيدة، فقط يشم رائحتها، ويسمع غناء المنشدين الجوالين من الغجر، ويتذكر تسابيح أبيه، يصرخ نفير الصباح، فينهض مذعورا، فجر رمادي داكن، والجنود يتراصون في صفوف ممتدة، يقف الرفاق السود في جانب هذه الصفوف، يتقدم القائد الفرنسي صارخا، لا يدرون ماذا يفعلون، يصيح وهو يشير إلى موقع آخر من التل، ينقذهم «بو علام» من غضبه، يترجم له الأوامر، عليهم أن يغيروا مواقعهم ويتقدموا الصفوف، بعد أن تصمت المدافع

عليهم أن ينحدروا سريعا ويحدثوا ثغرة في تحصينات المدينة، لا يندفعون لنهاية المدينة، ولكن عليهم أن ينتشروا في الشوارع ويتعاملوا مع من فيها دون رحمة، يشدد على الجملة الأخيرة، يريد أن يثبتها في أذهانهم، لا اعتراض، عليهم أن يمتثلوا للأوامر، هذه تعليمات «ألماس» قائدهم الجديد، يقفون في المقدمة، سيحصدهم الموت أول من يحصد، ينظرون إلى بعضهم البعض بعيون واسعة، ربما تكون هذه نظرات الوداع، يقبضون على الأسلحة التي قيل لهم إنها الأشد فتكا، لن نهاجمهم الآن، يقف الجنرال «فوري» وسطهم فوق جواده، يصيح الجميع: سندكهم بالمدافع أولا، كلمات باترة يظل الجميع مترقبين حتى تدوي أصوات المدافع، حمم تنطلق من فوق رءوسهم نحو البيوت الهاجعة، لن تستيقظ إلا وهي وسط الجحيم، تأخذ المدينة ألوان اللهب وتكتسي جدرانها بسواد البارود، تشتعل النيران في قمم الأشجار، لا تتوقف المدافع إلا بعد أن يتغير شكل المدينة نهائيا، يتم تدمير حلمها الأبيض ولا يبق منها إلا حطام بائس، يصيح القائد الفرنسي بصوت هائل: «دبيشي فو»، يجاوبه الجميع بالصياح، ينحدر «جوفان» إلى أسفل قابضا على البندقية، وفي مقدمتها سلاحه الأبيض مشحوذٌ وماضٍ، يدخلون جميعا في عالم حرب لم يعيشوها من قبل، بريق ورعد يتداخلان في مسام أجسادهم، تضع طابعها على أرواحهم ندوبا لا تندمل، يجري «جوفان» باحثا عن الثغرة التي ستأخذه إلى هذا العالم المختلف، تقترب المدينة وتحيط به، يسمع أصوات طلقات الرصاص، لا يعرف من أين تأتي، ولا كيف يهرب منها؟! يقترب منه زميله جمعة ويصرخ: نحن ننحدر أكثر مما يجب، علينا أن نتمهل قليلا حتى يلحق بنا الفرنسيس، ولكنه لا يملك إلا أن يندفع، لو تمهل سيكون هدفا سهلا للقنص، تواجهه التحصينات، أخشاب وأسلاك ملتوية وصفوف من

أكياس الرمل، ورصاص يهمي كالمطر من حوله وخلف أذنيه، يسمع صرخة جمعة، يلتفت إليه فيجده ملقى على الأرض، والدم ينبجس من صدره، يتوقف وهو يلهث، يحدق مباشرة في عينيه كأنه يلومه، يقبل فارس فرنسي على جواده، يصيح في أذنه مباشرة: «دبيشي تو»، يشعر بالحنق، يواصل التقدم.. أين هي هذه الثغرة اللعينة؟ يراهم خلف المتاريس، يلمح وجوههم خلف الأسلاك الملتوية، يوجهون رصاصاتهم نحوه، لكنها لا تصيبه، ربما تصيبه دون أن يدري، ربما هو الميت الآن وليس جمعة، أحدهم يحشو بندقيته ويصوبها نحوه، قبل أن يرجع الترباس إلى الخلف يقفز نحوه ويغرس سلاحه في عنقه، يسقط على الأرض في الجانب الآخر، ينهمر حوله وابل من الرصاص، بارود ونار، هل لحق به الآخرون؟ يطلق النار على شخص ما، لا يعرف إن كان يحارب معه أم لا! لكنه يقف عثرة في طريقه، يسمع خلفه عشرات الصيحات بالفرنسية، يدخلون خلفه من الثغرة نفسها، يقفز تحت سماء من أدخنة وبارود، يعدو بعض الجنود أمامه، يطلق النار على ظهورهم، لا ينتظر ليرى ما حدث لهم، المدينة غائمة أمام عينيه، دخان الحرائق خانق، البيوت مهدمة والجدران ممتلئة بالفجوات، نساء يصرخن وأطفال يعدون إلى غير مكان، لن يقتلهم، لا يستطيع قتلهم وهم بهذا الرعب، ومدينتهم على هذه الدرجة من الدمار، يقتل كل من يرفع يديه مستسلما، لا يريد أسرى، ولا يستطيع التعامل معهم، عليه فقط التقدم ومواصلة إطلاق النار، قالوا لهم «بلا رحمة»، يعني بلا تردد، الحرب هو أن تسبق عدوك في القتل، يكتشف أن خلفه ثلة من الجنود السود، يحمون ظهره وهو يتقدمهم، يطلقون النار سواء ظهر أحد أو لم يظهر، ترتفع صرخات من أماكن مجهولة، يموتون دون أن يروهم، غير قادرين على المقاومة، الدمار الذي أحدثته المدافع الطويلة

الضيقة الفوهات قد أصابتهم بصدمة ورعب هائل، حتى قبة الكاتدرائية تخترقها قذيفة مباشرة تجعل السنة اللهب تندلع من داخلها، يعود الرصاص للانهمار عليهم، فريق منهم محصن داخل سوق المدينة، يطلقون النار، تجمعت الجنود السوداء، ما بقي منهم، يحيطون بهم من كل ناحية، ولكنهم يبتعدون عن مرمى نيرانهم، يتركونهم يخوضون معركتهم اليائسة ويطلقون آخر الطلقات، لا يقترب الفرنسيس، يتركون السود يقضون عليهم بطريقتهم، يأخذ «جوفان» مكانه محتميا خلف كومة من الحطام، يراقب الجنود المحاصرين، واحد منهم قتل زميله «جمعة»، تمرق طلقاتهم فوق رءوسهم، ولكنهم يشددون قبضتهم حتى لا يخرج أحد، يتركونهم حتى يفرغوا طلقاتهم في الهواء، آخر المعارك في المدينة المنهارة.

يسمع «جوفان» وقع سنابك الجواد قبل أن يسمعها أحد، يلمح فارسا مندفعا فوق جواد هائج، يرفع سيفه عاليا فيخطف بريق الشمس، يهجم في محاولة يائسة لفك الحصار عن رفاقه، مشهده خيالي مفزع، قادم من أغوار الانتقام، يفكر «جوفان» أن يلقي البندقية ويفر هاربا، لكنه يحتمي فقط بالركام ويركز البندقية على كتفه، ينتظر حتى لا يفصله عن الحصان الهائج إلا خطوة واحدة، لحظة فارقة يستطيع فيها سيف الفارس أن يطيح برأسه، يطلق رصاصته الوحيدة، تخترق رأس الحصان فيتوقف فجأة، يدور حول لنفسه مطلقا صهيله الأخير، يغطي الدم عينيه فيرفع قوائمه عاليا، يسقطان معا، يحاول الفارس أن ينجو من تحته، يسقط تحت قدمي «جوفان»، يمد يده ليمسك السيف، لكنه يضع قدمه على ذراعه ويسلط بندقيته على رأسه، يوشك أن يضغط الزناد، ولكن الرجل الذي لم يعد فارسا يحدق فيه بعينين محملقتين خاليتين من التوسل أو استجلاب الشفقة، رتبته كبيرة، يبدو هذا واضحا من بزته

العسكرية وما عليها من شارات وأوسمة، على الجانب الآخر يفرغ المحاصرون الحمقى طلقاتهم في الهواء، يسود صمت متوتر للحظات، يرفعون أطراف أصابعهم، ثم أذرعتهم، وتتبعها رءوسهم، يتقدمون مستسلمين في بطء، وعلى شفاههم ابتسامات منهكة ومستعطفة، ينظر الجنود السود إليهم وهم يلهثون، يغطيهم الدم والبارود، مجهدين من وطأة القتال والجوع، بدون أن يتبادلون كلمة واحدة يفتحون النار عليهم جميعا، يباغتونهم دون فرصة للهرب، تتفجر نوافير الدم من صدورهم، يتساقطون سريعا، كومة متناثرة من الأجساد الدامية، يصرخ الفارس الملقى على الأرض مثل حيوان جريح، لكن «جوفان» يغرس البندقية أكثر في رأسه، عليه أن يقتله أيضًا، لكنه لا يفعل، يظلان جامدين على هذا الوضع حتى تنتهي آخر الطلقات، تنتهي المعركة الشاقة، وتسقط المدينة المحترقة، ينهض الرجل من على الأرض، ويدفعه أمامه، لا يدري إلى أين يذهب به.

كتلة سوداء تزحف للأمام في صمت، يحدق فيهم جنود الفرنسيس بدهشة وببعض من الخشية، يسيرون خلفهم، لا يتبادلون كلمة واحدة، قال السود كل ما لديهم في الحرب، قاتلوا كما تعلموا، وكما تنص عليه أوامر الفرنسيس، بلا رحمة، لم يرحمهم أحد حين جاءوا بهم إلى هذا المكان، في قاع سفينة مليئة بالعفن وروث الخيول، يتجمع الجنود في مركز المدينة «الزجالو»، منطقة مسورة بحائط من الأحجار أقيمت على عجل، يقف على جوانبها حرس الفرنسيس شاهري الأسلحة، وفي الوسط عدد كبير من الأسرى، يجلسون خافضي الرءوس، ينظر الجنود السود لبعضهم في ذعر، يقوم الفرنسيس بالأسر، ويأمرونهم هم بالقتل، يحولونهم إلى حيوانات محبة لسفك الدماء، يرفع الأسرى رءوسهم ويحدقون بعيون مذعورة، هذا [illegible]، يقدم لهم «جوفان»

أسيره الوحيد، ينضم للبقية الموجودين داخل السور الحجري، يأمرهم ضابط الفرنسيس بالوقوف في صفين، ينقصهم أربعة جنود، أحدهم كان صديقه المقرب، يتقدم «بو علام» ويقف بجانبهم بينما يتقدم الجنرال «فوري»، يتأملهم بطريقة غريبة، يمسد شاربه ويتحدث بسرعة، يترجم «بو علام» ما يقوله: يقول القائد إنكم قتلتم الأسرى، نحن لا نفعل ذلك، لا نقتل من يستسلم، ولكن هذا أفضل على أي حال، لدينا عدد كبير منهم..

ينصرف داخلا إلى خيمته، لا أحد يدري إن كان راضيا أو غاضبا، ولكنهم في العشاء يصرفون لهم ضعف الكمية من لحم البقر، هناك خطأ ما، ولكن لا أحد يخبرهم به، يشعرون بحاجتهم إلى بعض من «المريسة»، تخفف من توترهم، يعطونهم ذلك النبيذ الأحمر الذي يقلب المعدة، يغمض «جوفان» عينيه ويتمنى أن يأتي الصباح دون طلقات إضافية.

يأتي الصباح أخيرًا والمدينة هادئة، دفعت ثمنا غاليا لهذا السكون، أسرى ملقين على الأرض، مقيدين من الخلف، ينظرون إليهم بعيون غائرة، لا يقدم لهم سوى الخبز، ولكنهم أحياء على الأقل، ليس من الممكن قتل كل هذا العدد بأي حال، ينسحب الحراس إلى الخلف، وكالعادة يتركون مهمة حراستهم للسود، لا يوجد بينه وبينهم إلا خط مرسوم على الأرض، لا يجب أن يتخطاه أحد، لا الأسرى ولا الحراس، يفكون قيودهم في منتصف النهار، لا يتحركون من أماكنهم تقريبا، يحدقون في حراسهم السود برعب وخشية، الأوامر صريحة، إطلاق النار على الفور، يشعر «جوفان» بالضيق من عدائهم الواضح، يوشك أن يطلق النار أكثر من مرة، لا توجد بينهم أي لغة مشتركة، يأتي بعض الضباط الفرنسيس ويتحدثون معهم، هناك شيء مشترك بين الجميع،

إلا هم، الفرنسيون يتحدثون الفرنسية، وفي «مكسيكا» يتحدثون الإسبانية، لغات ملعونة لا يفهم منها حرف، ولكنهم يتحاورون، أما الحنق والكراهية والصمت فهي من نصيبهم، يدور «جوفان» ببصره حتى يرى الرجل الذي أسره، ينظر نحوه أحيانا، يتأكد أنه واحد من قوادهم الكبار، رغم أنه يجلس ذليلا مثل بقية الجنود الصغار، يبدو أنه يتسلى بالنظر إليه ومراقبته، بعد برهة يفاجأ به وهو ينهض واقفا، يبدو طويل القامة لحد واضح، لو أنه في الغابة لكان زعيما مهيبا، ولكنه هنا مثير للقلق، يوجه بندقيته نحوه ولكن يبدو أنه لا يبالي، لا يشعر بالخوف مثل الآخرين، يسحب «جوفان» زناد البندقية مهددا، لكنه لا يعطيه مبررا لقتله، يظل واقفا مكانه، يمد يده في جيبه ويخرج منه ورقة مالية، يلوح بها أمامه فيقرر «جوفان» أن يقتله فورا، ولكن الضابط يشير إلى مكان ما، هناك كشك خشبي لبيع الطعام، قد نجا بغرابة من التدمير، لم تسقط عليه واحدة من القذائف التي انهالت على المدينة، يظل الرجل يحرك الورقة المالية ويشير إلى الكشك، تتحول الابتسامة على وجهه إلى نظرة متلهفة، ينتظر منه أن يستجيب، دون كلام يجد نفسه يفهم ماذا يريد الأسير، ولكن لماذا وقع اختياره هو دون بقية الجنود، هل يعتقد أنه سيكفر عن ذنبه لأنه كان السبب وراء أسره؟ لا يوجد أحد من ضباط الفرنسيس بجانبه، ينزل البندقية ويتقدم نحوه، يتقدم هو أيضًا خطوة، لا يتجاوزا الخط الفاصل، يتناول منه «جوفان» النقود ويعدو في اتجاه الكشك، بداخله توجد امرأة، ضخمة بعض الشيء، ترتد للخلف حين تراه، ينشغل قليلا بتأمل ثدييها النافرين، ثم يمد يده نحوها بالنقود، تنظر إليه غير مصدقة، يمكنه أن يأخذ كل ما يريد دون أن يدفع شيئا، يشير إلى أرغفة الخبز، لأصابع اللحم التي تتدلى أمامها، يبدو عليها أنها قد فهمت ما يريد، تتخلى عن خوفها وتعطيه الخبز وأصابع اللحم

وتضيف إليهما زجاجة من الخمر وباقي النقود، يعدو عائدا إليه، هو أيضًا ينظر إليه غير مصدق، هل كان يعتقد أنه لن يرد له شيئا؟ يتناول الطعام وباقي النقود وهو ما زال يحملق فيه، يقطع قطعة كبيرة من الخبز ويقدمها له، يتناولها «جوفان» في تردد، يبدآن في مضغ الخبز معا، يعرض عليه اللحم والخمر ولكنه يهز رأسه رافضا، يضحك الضابط وهو يأخذ جرعات من الزجاجة، يضحك «جوفان» أيضًا، ينهض آخرون ويقدمون له النقود، يحضر لهم المزيد من الطعام، يعدو دون تبرم بين المكانين حتى ينفد الطعام الموجود في المقصف تمامًا، يأكلون جميعا ويتبادلون الكلمات، ربما بعض الضحكات المبتورة، يفيقون من ذل الأسر ويستعيدون جزءا من إنسانيتهم، يتبدد الخوف ويوجهون إليه كلمات لا يفهم معناها، لن أكون قادرا على قتلهم بعد الآن، يفكر في نفسه، يتأمل وجوه زملاءه السود، ما زالوا واجمين، ولكنهم يخفضون البنادق قليلا، لم تعد نظراتهم بنفس الحدة، يواصل القائد الشرب وهو يتأمله، ودون أن تغيب الابتسامة من على وجهه، ربما لأنه يكتشف أن هذا الجندي الأسود أقل وحشية مما كان يعتقد، يمد يده للحزام الذي يلتف حول خصره، شكله غريب، أشبه بجلد الحية الرقطاء، مجدولا بقطع من الفضة، يخلعه ويقدمه له، ينظر «جوفان» إليه مترددا، حزام ثمين لا يتنازل عنه المرء بسهوله، يلح عليه أن يأخذه ويلفه حول وسطه، كان شيئا جميلا، أثمن ما امتلكه على الإطلاق، يرفع «جوفان» البندقية ويتقافز في الهواء والحزام حول وسطه، يضرب الأرض بأقدامه كما كان يفعل في قريته القديمة، وسط خلانه، حيث لا حرب، وحيث لا يترك جده مسبحته، ولا تكف أسراب الحمام على الدوران فوق هامات النخيل، يصفق الضابط الذي كان عدوا، ويصفق بقية الجنود المأسورين، ويتمنى «جوفان» لو أن الحرب تنتهي في هذه اللحظة.

- ٨ -

تظهر ملامح الشاطئ الصخري والسفينة تواصل الاقتراب، تولد «فيراكروز» أمام أعينهما، بعد خمسة وأربعين يوما من الإبحار، لا يفطن أحد منهما أن هناك سفينة أخرى تغادر الميناء في عكس الاتجاه الذي يسيران فيه، «فرقاطة» أمريكية تحمل القنصل الأمريكي الذي كانت لديه أوامر محددة بمغادرة الميناء في اللحظة التي يصل فيها الزوجان.

المدينة غارقة في صمت الموتى، لا أحد يشعر بوجودهما، حتى عندما تطلق «الفرقاطة» الفرنسية واحدة من قذائفها، لا يبدو أن أحدا في المدينة قد سمع شيئا، مقبرة هامدة، قلعة حجرية على جزيرة لا تبعد عن الشاطئ إلا بضعة مترات، ستعرف فيما بعد أن اسمها «سان خوان دي أولوا»، تطل مدافعها من فتحات السور، وتبدو نوافذه الضيقة وعليها قضبان غليظة، تمتد أمامها مقبرة تضم صفوفا من شواهد القبور، قبور الحملة الأولى من الجنود الفرنسيين الذين حصدتهم الحمى الصفراء، المدافع الأول التي تصدت لقوات الغزو، لم تكن هذه المدينة التعيسة تملك ما تقاوم به إلا هذا الوباء المتوطن ليست هي الأرض التي حلمت بها «كارلوتا» بالتأكيد، يحيط بالمدينة سور صخري متداع في معظم جوانبه، ومساكن خشبية من غصون الأشجار تحدد معالم الميناء، أما القباب وأبراج الكاتدرائيات فتبدو مدمرة، دمرتها الغزوات المتتالية التي تعرضت لها المدينة. كلهم تألبوا عليها، إسبان وأمريكيون وأخيرا

فرنسيون، هل يمكن أن يمنحها مجيئها بعضا من السلام؟ يرفض «ماكس» أن ترسو سفينتهما وسط الأسطول الفرنسي، يحاول يائسا أن يبدو مستقلا، ولكن المدينة تظل صامتة ورجال الأسطول غاضبين، يخطوان خطواتهما الأولى على أرض غير مستقرة، الهواء ليس نقيا كما توقعت، يهب محملا بآثار الحروب الماضية، روائح من بارود وحرائق وجثث، ليست هذه أوربا بالتأكيد، تظهر وجوه الهنود الصغيرة، تحدق فيهما باستغراب، هل كانوا بعد كل ما مر بهم في حاجة إلى إمبراطور جديد يأتي من حيث جاء الغزاة؟ هل كانوا في حاجة لتلك القارة البعيدة التي لم ترسل لهم منها إلا الإسبان والفرنسيين والأفاقين والأوبئة؟

يخطوان على الرصيف الحجري، رمال الشاطئ سوداء، لا يقدر الموج على غسلها، غبار البراكين التي تحملها الريح دوما من مكان ما فوق الجبال، تطلق بعض سفن الأسطول الفرنسي مدافعها، تجاوبها مدافع من القلعة، تنتبه المدينة لهما قليلا، يقبل مسئول ما، قصير وضخم وشاربه كث، وكالعادة مائل إلى أسفل، ينحني ويبحث عن تبرير لكل هذا الإهمال: اعذرنا يا مولاي، سفينتكم وصلت مبكرة بعض الشيء..

كأن كل شهور التأخير الطويلة لم تكن كافية، يتجمع بعض الأهالي من الهنود، يظهر أمامهما فجأة صف من الجنود السود، متشابهي الوجوه، يرتدون زيا غريبا أبيض اللون، وعلى رءوسهم أغطية حمراء قانية، أصغر قليلا من طرابيش السفراء الأتراك، يرفعون بنادق مرشوق فيها سكاكين طويلة، وجوههم صلبة جامدة لا يظهر عليها أي تعبير، تتذكر «كارلوتا» على الفور تمثال البازلت الأسود الموجود في قصر أبيها، كانوا صورة منه وقد دبت فيه الحياة، لكن التمثال هناك كان جالسا بينما هم وقوف، تمر هي و«ماكس» وسط أكوام من القمامة والذباب،

تنظر لوجهه فتجده مفزوعا، لا بد أنه كان يستعيد في ذاكرته لمحة من حدائق ميرامار، ليست المدينة التي يتصورها ولا المملكة التي حلم بها، لا تشبه أي مدينة أخرى، يبدأ الأهالي في التدفق خارجين من الشوارع المتباعدة، يحدقون فيهما بعيون فارغة، هل يرحبون بهما حقا، أم أنهم ما زالوا في أعماقهم يميلون للجمهوريين؟ مرغمون على الصمت لأن الفرنسيين يعتصرون قلوبهم، تتردد هتافات متفرقة، خاوية بلا طعم، يصمتون بعد فترة، ولا يبق غير نظرات الاستغراب.

يظلان في جلستهما مشلولين تقريبا حتى الظهيرة، يعانيان من الحر وإلحاح الذباب، وأخيرا ينقشع غبار الطرقات وتظهر عربات مسرعة، تسود حالة غير مفهومة من الهرج، يزدحم المكان بأناس لا يعرفان من أين جاءوا! تختلط أصوات الذين يسعلون والذين يصفقون،يتخلل ذلك بعض من ألفاظ السباب، لغتها الإسبانية أجود قليلا من «ماكس»، تسللت في دمائها من ناحية الأم، تستطيع أن تتبين مدى بذاءة الكلمات تقال علنا في حضورهما، يظهر رئيس الحكومة «خوان ألمونت»، أكثر هرما مما تتذكره، قابلاه بشكل عابر في أوربا، وسط لفيف من الدبلوماسيين الذين عزلهم تقلب الأنظمة، كانوا يحلمون وقتها بقوات غازية تعيدهم إلى بلادهم، ينجح في مسعاهم أخيرًا، يصبح رئيسا للحكومة التي يسعيان إليها، ينحني ويشد شاربه ويبالغ في الاعتذار، يتحدث عن وعورة الطريق من العاصمة حتى هذه المدينة، كل الطرق غير آمنه، تحولت قوات الجمهوريين بعد هزيمتها إلى شراذم من عصابات مسلحة، تضرب سريعا وتهرب أسرع، لا يكاد «ألمونت» يتوقف عن الكلام، هل يشجعهما على مواصلة الرحلة، أم يحثهما على العودة؟ تنظر إلى «ماكس»، لا يبدو أنه قد تأثر بهذه الكلمات المحبطة، ينهض ليعلن أن عليهم أن يبدءوا المرحلة الأولى من رحلتهما إلى

العاصمة، حلم يبعد عنهما بحوالي خمسمائة كيلو مترا على الأقل، في أوربا تبدو هذه المسافة بعيدة بعض الشيء، ولكنها هنا مستحيلة، عبور إلى عالم آخر، أكثر من ثمانين فردا، وحوالي ٥٠٠ حقيبة وصندوق، وعربة متينة صنعت خصيصا في «بروسيا»، سافرت معهما وعليها أن تكمل رحلتها من هذا الميناء المتسخ إلى قلب البلاد، لا تعرف حقا حال الطرق، ولكن توقن أنها صعبة مثل كل شيء هنا.

يسيران إلى وسط المدينة حيث توجد محطة القطار في ميدان «لوما آلتا»، أبعد ما تكون عن كونها محطة، مبنى خشبي ورصيف حجري وقضيبان وعدة عربات حديدية، يقولون لهما إن الإنجليز قد أقاموها منذ سنوات ولكن الخط الحديدي ظل معطلا حتى أعاد الفرنسيون تشغيله من جديد، كانوا في حاجة إليه في حربهم التي طالت، ينحشر الجميع داخل العربات القليلة، يسير الجنود الفرنسيين بجانب القطار راكبين فوق الخيول، ويتجمع بضعة من الجنود السود في العربة الأخيرة، يمسكون الأسلحة بوجوه متجهمة مثيرة للرعب، تحيط بهم جبال محملة بنذر الخطر، في أي لحظة يمكن أن تبرز فوهات البنادق من خلف الصخور، يجلسان في الوسط، في أشد العربات أمانا، ولكن خطر الموت يظل فوقهما، نورس غريب يحوم، لا يتوقف «ألمونت» عن الكلام: نيومكسيكو تنتظركم باشتياق، لم أر أهل المدينة بمثل هذا الحماس من قبل، رايات الإمبراطورية ترفرف على كل الشرفات، والنساء يحملن الزهور، يهتز القطار مع كلماته، وتنفتح البلاد أمامهما، وديانها العميقة وبحيراتها الغزيرة وغاباتها المطيرة، تلوح من بعيد قمة بركان يتصاعد منها الدخان، تنظر إلى وجه «ماكس»، لدهشتها الشديدة لا ترى علامات الامتعاض التي كانت موجودة من قبل، يبدو منبهرا بمشاهد الطبيعة التي تتبدى أمام عينيه، طبيعة بكر لم تشوهها بعد يد

الإنسان، برية وبدائية، تحمل آثار الخلق الأول، جنة حارة ومنسية، يلاحظ أنها تتأمله، يقول مبتسما: انظري إلى هؤلاء الجنود الفرنسيين الذين يرافقوننا، إنهم دخلاء، لا ينتمون إلى هذا المكان، ولكننا سنكون جزءا منه، سأحب هذه التضاريس وسأحب أهلها أكثر، بعد اليوم لن أكون أميرا نمساويا ولكن إمبراطورا حقيقيا للمكسيك، سأزيل حاجز الغربة اللعين الذي يفصل بيني وبينهم..

هل يمكن أن يتمكنا من ذلك حقا، أن تصبح هذه التلال البرية وطنا لهما؟ ينتهي حلم اليقظة عندما يتوقف القطار عند قرية هندية صغيرة، تنتهي القضبان فجأة، لا يوجد إلا ظهور الأحصنة والبغال وربما بعض الأبقار حتى يكملا الطريق للعاصمة، كما يقول ماكس ضاحكا، يتم تجهيز العربة لها ولبعض النسوة اللاتي يرافقنها، وتحمل البغال كمًّا هائلا من الأمتعة، يركب «ماكس» وبقية الرجال فوق ظهور الجياد، تبدأ عملية الصعود الشاقة، يخرج العشرات من هنود القرى الصغيرة، يتجمعون حول موكبهم في دهشة، لا يعرفون معنى أن يكون هناك إمبراطور جديد، لكنهم يساعدون في دفع العربة، يواصلون الرحيل حتى يهبط عليهم ليل مفاجئ، يقضونه في إحدى المزارع، لا يوجد عدد كاف من الأسرّة، تضجع «كارلوتا» وحيدة فوق فراش صغير، تراقب حركة الفئران خلف العوارض الخشبية، وينام «ماكس» وبقية الرجال على أكوام من القش، لا بأس، يحدث هذا كثيرًا في رحلات الصيد، الفارق أنها لم تكن في رحلة صيد، كانت مجرد إمبراطورة تسعى لعرشها وتشعر بالضياع.

يستيقظون في الصباح و«ألمونت» لا يكف عن الكلام: نحن الآن على الطريق إلى «بوبيلا»، لا بد أنكم سمعتم عن هذه المدينة وقبابها المائة، بالتأكيد ستخرج لتعلن عن ولائها لكم، يبدو الاهتمام على وجه

«ماكس»، تتذكر «كارلوتا» أن هذه المدينة كانت تحتل مخيلته، فهي لم تتحد الفرنسيين فقط، ولكنها أثبتت أن هذه أرض صعبة.. يسمع أن شاعر فرنسا العظيم «فيكتور هوجو» قد ألف قصيدة عنها وهو في المنفى، يشيد بصمود المدينة النادر ويهاجم وحشية «بونابرت»، وعندما سقطت واقتحمها الفرنسيون، وجدوا نسخا من هذه القصيدة معلقة في كل مكان، يتقدم «ماكس» الركب مثيرا الحماس في نفوس المسافرين، تقفز العربة على الطريق المليء بالصخور، يؤكدون لها أن الشمس لن تغرب قبل أن تشاهد قباب «بوبيلا» المائة، أو على الأقل ما تبقى منها، تسأل نفسها: كيف تستقبلهما بعد هذا الدفاع الأسطوري الذي بذله أهلها من أجل الجمهورية؟! هل ستظل على رفضها لهما، أم يتقبلونهما ويبدءون معهما عهدا جديدا؟ يواصلون الصعود فوق التلال الداكنة، خضرة طحلبية تتلوى مثل ثعابين متصلة، تهبط بهما إلى وديان غامضة وتصعد بهما إلى قرب السحب، تمر ساعات قبل أن تختفي الشمس فجأة وتخف درجة الحرارة، تبرز قرى هندية صغيرة من بين الأحراش، يتطلع إليهما أطفال بوجوه نحاسية، لا يفهمون سر هذا الركب الفخم، يقترب «ماكس» منها، تشعر بالسعادة لأنه تذكرها وسط هذا الزحام اللاهث، تقول له فجأة: هل كنت تعلم أن اليوم هو عيد ميلادي؟ ينظر إليها مندهشا، لا تتوقع أن تدق الأجراس في مكان ما، ولا أن تضاء الشموع، تتذكر فقط شيئا بسيطا مثل هذا وسط مشقة الطريق، يمكن أن ينعش روحها، تريده أن يعرف أنها ليست مبتئسة رغم مشقة الرحلة، تقول: أصبحت الآن سيدة هرمة، عمري أربعة وعشرون عاما كاملة، يلتفت نحوها بوجهه الفاتن، يمد يده فتتشبث بها، يقول: الشيخوخة للآخرين، بمثل روحك لن يقدر عليك الزمن أبدا، يركض بجواده ليكون في المقدمة مع رئيس الحكومة والجنرال الفرنسي، ويتواصل السير.

يشح الضوء من حولهما فجأة، يهبطون من أعلى التلال العالية إلى قاع وادٍ داكن الخضرة،، يتحدث «ألمونت» كعادته: «بوبيلا» تقع خلف التل الذي أمامنا، ما إن نعلو عليه حتى نراها، تنظر نحو السماء مستغربة من تبدل ألوانها واختفاء زرقتها، تسقط على وجهها أولى قطرة من المطر دافئة، ليست باردة كأمطار أوربا الجارحة، يبرق ضوء خاطف من خلف التلال ثم يدوي صوت الرعد، تسري نبضاته فتهتز الأرض، تصهل الخيول فزعة وترفع قوائمها، لا يترك لهم المطر فرصة ليجمعوا شتات أنفسهم، تنشق بطن السماء كأنها قد عبأت نفسها بالمياه انتظارا لهذه اللحظة، تغرق المياه الجميع والجياد التي يمتطونها في لحظات، يسرع أحد الحرس حاملا مظلة، يضعها فوق رأس «ماكس»، ولكن قسوة المطر وشدة اندفاعه تحطم أضلاع المظلة الرفيعة، يصبحون جميعا تحت رحمة سيل لا ينقطع، تتابع «ماكس» بعينيها، يغطي شعره الأشقر وجهه، تبرق من خلاله عيناه الزرقاوان بشدة، يبدو سعيدا بالمطر الدافئ رغم غزارته، تشعر بحاجتها لأن يأتي ويسير بجانبها، لكنه يلكز جواده بكعبه ويمضي للأمام، رافعا رأسه، لم يكن ليدع المطر ليهزمه مهما بلغت شدته، لا يلتفت، لا يبحث عن ملجأ يحتمون به، لا يوجد غير أشجار وأحراش من الأعشاب البرية، لا يوجد إلا التقدم ومواصلة السير، هذا هو الشيء المنطقي الوحيد وإلا غرقوا جميعا في بحر الطين، يسيرون خلفه جميعا، والبرق يضيء قمم التلال والرعد يرجها ، يتسلل الماء من سقف العربة إلى عباءتها وثيابها الداخلية، تشعر بـ«الكوريسيه» يضغط على جسدها وقد تشبع بالماء وازداد ثقلا، تشاهد السيدات اللواتي جئنا برفقتها من أوربا، لا تعرف دافعهن الحقيقي، أهو الإخلاص أم الطموح والبحث عن المغامرة، مثلها تمامًا مبللات، شاحبات الوجوه،

يوشكن على السقوط، يختلط المطر بالتراب، يتحول إلى بحر متلاطم من الطين يوشك أن يغرقهم جميعا، يتحول قاع الوادي لمصيدة مميتة، تنحدر سيول من الماء الطيني بأقصى سرعتها، تحيط بهم وتحاصرهم، يواصل الماء الارتفاع حتى يصل إلى الركب، يوشكون على الغرق مبكرا، حتى قبل أن يصلوا للمدينة الأولى التي تقودهم للعرش، بقدر جمال هذه الطبيعة بقدر كمية الغضب الكامن فيها، تصهل الجياد ويوشك الماء على الوصول لأعناقها، تتمنى أن يكون «ماكس» بجانبها، ينقذها في اللحظة التي توشك فيها على الغرق، لكنه يواصل التقدم ويستحث الجميع للمواصلة، لو تمهلوا للحظة سيغرقهم هذا السيل المنهمر من الجبال، أباطرة فاشلين، على قدر من الزراية والتعاسة، تفتح عينيها بصعوبة فتراه يلكز جواده المتعب و يوجهه نحو أعلى التل، يبعث تقدمه الحثيث في الجميع نوعا من الأمل، تتلوى قوائم الجواد تحته ولكنه يواصل المسير.

يبدأ مستوى الماء أخيرًا في الانخفاض قليلا، يصلون لحافة تل آخر، يعلو بهم قليلا، يلكزون خيولهم المتعبة ويرتفعون عن القاع الطيني، تخف حدة المطر ولكن الضوء يزداد شحا، تتحول الخضرة إلى سمرة داكنة، يبدأ البرد في اختراق عظامهم المبللة، عندما ينتهون من صعود التل الأخير لا يكون هناك ضوء، يتحولون إلى ظلال مرتعدة، لا يرون وجوه بعضنا البعض بوضوح، لا تعرف أين «ماكس»، يتحول المطر إلى ذرات متفرقة ثم يتوقف تمامًا، ينظرون حولهم غير مصدقين، تنزاح السحب فجأة كأنها رحلت إلى المحيط، وتظهر النجوم بعيدة ومتألقة، يعود ألمونت إلى الكلام: هذه حال بلادنا، يأتي المطر فجأة في أي وقت، عنيفا وهائجا، ثم يتوقف فجأة، تمامًا مثل مزاج المكسيكيين، يثورون بلا سبب ويهدءون فجأة، ليس هذا وقت المزاح، يزداد برد

التلال، يتكاثف الظلام كلما خاضوا في الوحل، تنبعث روائح الأرض وتجعل صدورهم ضيقة، تسمع «ماكس» وهو لا يستطيع التحكم في ضيقه: أين هذه المدينة بحق السماء؟

يقول ألمونت: إنها أمامنا مباشرة يا صاحب الجلالة..

لا يوجد أمامهم إلا كتلة من الظلام، وليس إلا الانزلاق في المزيد من الطين، تحاول التحكم في أسنانها وهي تصطك ببعضها، من المخزي أن يتقدم موكبهم الإمبراطوري إلى المدينة المنكسرة وهم ملطخون بالطين، تهزمهم الطبيعة قبل أن يصلوا إليها، يهتف «دياز» رئيس الحرس: لقد وصلنا إلى مشارف المدينة، تتذكر أنها عندما رأته في ضوء النهار أنه كان شابا وسيما، ماذا حدث له بعد أن تلطخ بالطين، عند مشارف المدينة لا يوجد إلا أكواما من الأحجار وبقايا الأسوار المحطمة، لا أحد يقف في استقبالهم، ولا ضوء يمكن أن يهتدوا به في الطرقات، يعود «ألمونت» للكلام: من الأفضل أن نذهب للبحث عن منزل أحد البارونات، البارون «جونزاليس» مثلا، يهتف «ماكس» في ضيق: لن نواصل التخبط وسط هذه الظلمة والطين، فلنبحث عن أقرب مكان، يشير «دياز» إلى شيء في الفضاء وهو يقول: لنذهب إلى هناك، الكاتدرائية، أعرف جيدا الطريق إليها..

يتبعونه جميعا دون اعتراض، يظهر أمامهم بقايا برج محطم، أول معلم تراه في هذه المدينة الغريبة، يوشكون أن يسقطوا جميعا من فرط الإعياء، يقتربون حتى يظهر أول شعاع من ضوء، شعلة موقدة على جانب الطريق المؤدي للمبنى المظلم، تهتز مع الريح وتوشك أن تنطفئ، تكشفت عن جانب من الطريق الموحل، والمباني المحطمة والفئران التي تسرع بالهرب مع اقترابهم، المخلوقات الحية الوحيدة

التي يرونها، تشعر للحظة أن هؤلاء هم السكان الوحيدون الذين بقوا في المدينة بعد سقوطها، ينتصب مبنى الكاتدرائية أمامهم، ربما الوحيد الذي نجا من الدمار، تبدو بصمات الحرب على جدرانه، فجوات غائرة، وآثار حريق، وتهدم في السور، تهب الريح يصدر الجرس المعلق في الفراغ صوتا، ترحيب باهت، يتقدم الجنود الفرنسيون الذين يرافقونهم في صمت ورهبة، ربما يحسون بالذنب بسبب ما فعلوه في هذه المدينة، تركوها نهبا لأشباح القتلى، يتوقفون أمام الباب الضخم، تنزلق «كارلوتا» من عربتها للأرض، تخذلها قدماها المخدرتان، لا يهرع أحد لإنقاذها، جميعهم يحاولون تفادي الانزلاق في الوحل، يتقدم «دياز» ويدق الباب بواسطة الحلقة المعدنية المعلقة، يدوي صوتها في الليل الساكن، وتردد صداه المدينة الخالية، لا يعرفون إن كان المكان مهجورا أم لا، يلح في الطرق، يسمع صوتا أجشًّا وغاضبا من الداخل، يسب ويلعن الذين جاءوا لإزعاجه في هذه الساعة، يفتح الباب، يبدو خلفه قس سمين بطنه ضخم، يرتدي ثوبا بنيا خشنا، ويحمل مصباحا في يده، يرفعه عاليا ويهتف في ضيق: نحن لا نستقبل غرباء، انصرفوا من هنا..

يتوقف مندهشا حين يرى الحشد الذي أمامه، والخيول المتراصة التي تحدق فيه، يفتح فمه من الدهشة، يدفع «دياز» الباب ويصيح فيه: أنت في حضرة إمبراطور المكسيك الجديد، افتح الباب وهيئ لنا المكان..

يواصل القس يحدق في الجمع المغطى بالوحل، لا يبدو عليه أنه يصدق شيئا، جميعهم متشابهون تحت أقنعة الطين، لكن ما يقلقه حقا هو الحرس الفرنسيون المصاحبين للجمع، الكابوس الحقيقي للمدينة، ينتحي عن الباب طائعا، يتدفقون جميعا للداخل، أخيرا يجدون سقفا

يحتمون تحته، ينهارون جالسين على المقاعد الخشبية المتكسرة، يبدو أمامهم المذبح الصغير وتمثال العذراء يطل عليهم في وداعة، كأنها تعتذر عما حدث لهم اليوم، يجلس «ماكس» بجانبها ويمسك بيدها، يلاحظ انتفاضة جسدها، يهتف صائحا: الإمبراطورة ترتعد، جهزوا لها غرفة في الحال..

لم تكن تريد أكثر من أن يحتضنها، يبعد الوحشة عن خلايا جسدها، ولكن تجد نفسها داخل غرفة شبيهة بالمقبرة، في أقصى الكنيسة، لا يوجد فيها إلا فراش صغير وصليب خشبي معلق على الحائط، كأنه ينتظر تعليق جسدها، تخلع ثيابها، وتنام عارية تحت الملاءات الخشنة، مثل أي شحاذة، بلا دفء، من أين يمكن أن يأتيها الدفء؟! حتى وسط ثلج أوربا لم تكن بمثل هذه الوحدة، يحاصرها الطين، دون أن يمد «ماكس» يده لينقذها، دون أن يحتويها بذراعيه في هذا الفراش الضيق البارد، في إيطاليا، في ميرامار لم يناما على فراش واحد، هكذا كان الحال دائمًا، أمر طبيعي وعادي بالنسبة إليه، لماذا تعتقد أنه سيكون مختلفا في هذا البلد الغريب؟ تظل عاجزة عن النوم، تهاجمها كوابيس لا تقدر على دفعها، تخرج من تلال هذه البلاد الغريبة حيوانات أكثر غرابة، تتجول في أرض أحلامها وتنشر فيها رماد الحرائق..

يوقظها صوت رنين جرس الكاتدرائية مفزوعة، كأنه يدق فوق رأسها مباشرة، تتجاوب معه أجراس أخرى من بعيد، تستيقظ المدينة وتنتزعها من الكوابيس، تشعر بالسعادة لأنها استيقظت، يدوي طرق على باب غرفتها، لا بد أن «ماكس» قد أحس بمدى وحدتها وجاء ليضمها أخيرا، لا حاجة لطرق الباب، تلتف في الأغطية الخشنة وتطلب منه الدخول، ليس هو، نسوة كثيرات يدخلن الغرفة، يحطن بها في ترحيب، وجوه نحاسية، وعيون واسعة، وشعور مسترسلة فاحمة

السواد، وشفاه ممتلئة بالشهوة، يحملن ثيابا وعطورا وأدوات للتجمل، يفْرقن حولها كالدجاجات، ينظفن جسدها بالعطور ويزلن الطين من شعرها، ويجذبنه للوراء، يمشطن خصلاته بعناية، يدرن بـ«الكورسيه» حول وسطها بحيث يصبح ثدياها سامقتين إلى أعلى، رغم صغرهما وعديم أهميتهما يصبحان شيئا بارزا لا يمكن تجاهله، يوقظن شيئا من أنوثتها التي هدها التعب، تشعر بالخجل ولكنها تعجز عن مقاومتهن، يلبسنها ثوبا مشغولا بخيوط من الفضة، لم يكن من ثيابها ولم تحضره معها، يبدو واسعا قليلا حول جسدها الضعيف، خاصة في منطقة الصدر، ولكنهن يضممن حوافه ببراعة، تزحف أصابعهن على كل جسدها، ثعابين صغيرة تزيد من شحذ مشاعرها، تنظر في المرآة التي أحضرنها، تطل عليها مخلوقة غيرها، يختفي وجهها الشاحب تحت طبقات من الزينة، ويشع الثوب حول جسدها بلون الفضة، صدر عريض وخصر ضيق وخيمة صغيرة في الأسفل، يفعلن كل هذا دون أن يتوقفن عن الضحك، تفهم ألفاظهن الفاحشة المليئة بتعبيرات جنسية، عارية ومكشوفة، يتبادلنها بلهجة حميمة دون خجل، لم تجاريهن، لم يكن ذلك في إمكانها حتى لو أرادت، ينتظمن واقفات في صفين، يصنعن ممرا يقودها إلى باب الغرفة، حركة ملكية، تعلمنها أو تدربن عليها، لا تريد أكثر من التخلص منهن، ومن هذه الغرفة الضيقة العبقة بأنفاسهن، تفتح إحداهن الباب وينحنين، تسير في المقدمة وهن خلفها، بهو الكاتدرائية مزدحم بالوجوه والشموع الموقدة، يدوي تصفيق حاد ومتواصل وتتعالى صيحات الإعجاب، تحني رأسها خجلا، تخشى أن تتعثر في ثوبها الفضفاض، كيف ازدحمت مدينة الأشباح بكل هذا العدد من الناس؟ لماذا يصفقون بهذا الحماس؟ لكن هذا أفضل بكثير من الانحناء الصامت الذي كانت تتلقاه في عالمها

القديم، جو مليء بالانفعال وببهجة غير متوقعة، يبدو الممر طويلا، يقف «ماكس» في انتظارها، يرتدي زيا عسكريا مكسيكيا، ويضع على صدره أوسمة عديدة لا تعرفها، بينها صليب ذهبي متألق، يتحول الشاب الأشعث المرتجف الملطخ بالطين إلى إمبراطور حقيقي، حوله حفنة من الرجال، يلبسون ثيابا زاهية موشاة بخيوط من الذهب والفضة، تميل وجوههم للسمرة، وشواربهم كثة، تعرف فيما بعد أن هؤلاء هم أعيان المدينة، «بارونات» الفضة كما يطلق عليهم، يتحكمون في تجارة نصف الفضة في العالم، يمسكون قبعاتهم الضخمة في أيديهم ويتطلعون إليها وهي تقترب، هل كانت جميلة في نظرهم، أم مجرد فتاة أوربية شاحبة عليهم أن يتقبلوها؟ يجيء الجواب سريعا حين تسمع تصفيقهم، تريد فقط الوصول إلى «ماكس»، تقف بجانبه بحيث يلامس كتفها كتفه، كثيرون يحنون رءوسهم أمامها، وأخرون يقبلون يدها، تصبح الكاتدرائية دافئة، مليئة بالتوقد، ولادة عهد جديد، يتقدم الضباط الفرنسيون الشبان ويقبلون يدها، شفاههم الدافئة تلامس أطرافها الباردة، ليس هذا جديدا عليها، ولكنها تشعر بالإثارة، أخيرًا استطاعت الوصول إلى «ماكس»، تقبض أصابعه على يدها، تضغطها وتشدها حتى تكون بجانبه، تهمس في أذنه: فيما كل هذا؟

يقول مبتسما: هل نسيت، اليوم عيد ميلادك..

يا إلهي، كيف نسيت وتذكر الجميع، كيف تذكر «ماكس» على وجه الأخص؟! يهتم بها، بتفاصيلها الصغيرة، هل تغير، أم أن المناخ اللاتيني قد عدل من مزاجه؟ تحاول أن تكتم انفعالاتها ومئات الحناجر تهتف باسمها، ولكن من بينها جميعا تشعر بالسعادة فقط لأن «ماكس» قد تذكر وحده هذا اليوم منذ أن تزوجها، يظل قابضا على يدها وهما يخطوان خارجين من الكاتدرائية، يواجهان المدينة معا، يفاجئهما هذا

العدد الضخم من الوجوه التي تقف في انتظارهما، يرفعون أيديهم محملة بعقود من الأزهار، النسوة جميلات، والرجال ممشوقو القوام، وصيحات «فيفا» تبعث من كل الأفواه، فيفا الإمبراطور، فيفا الإمبراطورة، فيفا ماكسمليان، فيفا «كارلوتا»، تخطو إلى عالمها الجديد وسط غابة من الفرح، لا يسيران على أقدامهما طويلا، يحضرون لهما عربة مكشوفة، تركب بجانب «ماكس» وتبدأ بالتلويح لهم، لا تدري أنها قد ارتفعت عن الأرض قليلا، لم تعد وجوههم النحاسية المبتسمة تحجب عنها المدينة، ترى حطامها خلف ظهورهم وصيحاتهم المرتفعة، بصمات الحصار المدمر والقتال الدامي الذي أعقبه، الثمن الذي دفع كان غاليا، بيوت ساقطة الأسقف، وجدران منهارة تعري الغرف المأهولة، ذهبت الجثث وظلت بقايا الأثاث، فجوات صنعتها القذائف، دوائر سوداء من البارود تحرق الـ«زيجالو» قلب المدينة، كل شيء أخذ نصيبه من الضربات المباشرة، مستشفى محطم، وبرج كنيسة اقتلع من مكانه، ومدارس تعشش فيها الغربان، تتسلق النباتات على وجهات البيوت، تريد أن تخفي آثار الموت، ثمن فادح للصمود، تنظر إلى صف الجنود الفرنسيين الذين يسيرون بجانب عربتها، كيف يمكن أن تتقبلهم المدينة بعد كل ما حدث؟ كيف يمكن أن تتقبلهم جميعا؟

تستمع بأذن واحدة إلى «ماكس» وهو يتحدث، يقول شيئا ما عن أنهما ذاهبان إلى قصر «أنطونيو دي لراما» واحد من أكبر «بارونات» الفضة في المدينة، سينعمان بإقامة فاخرة تعوض عليهما شظف الرحلة، وهناك حفل راقص يقيمه الضباط الفرنسيون على شرفهما في المساء، يبدو سعيدا مثل طفل، لا يرى «بوبيلا» كما تراها رغم أنه أول من حكى لها عنها، لا يرى هذه الغابة من صلبان الموتى التي يمرون من أمامها، لا أحد يستطيع أن يحصي عدد الجثث التي تحتويها هذه المقابر، كم

ثمن الهزيمة التي تجرعونها! تدير وجهها للناحية الأخرى، غابة أخرى من الصلبان يقف أمامها صف من الفتيات الصغيرات، هل تعمدن أن يجعلوهما يمران وسط هذه الغابة من المقابر؟ تردد الصغيرات «فيفا» بشكل متتابع، هل كن يهتفن لها، أم أنهن فرحات بنجاتهن من الموت؟ تتنهد في ارتياح عندما تبدأ الأشجار في التكاثف، تخفي ما خلفها من صلبان رمادية شاحبة.

يسد الطريق جمع من الناس، يرتدون ثياب الهنود التقليدية، سكان الجبال الأصليون، يقف في مقدمتهم رجل مهيب الطلعة، شعره منسدل خلف ظهره، وثيابه موشاة بخيوط مبهرة الألوان، أكثر ما يلفت نظرها هي حلقات الذهب المعلقة في أذنيه، والملتفة حول رقبته، يبدو زعيما حقيقيا، أتباعه من الرجال والنساء، يلبسون ملابس تشبهه ولكن أقل قدرا، تشعر بالقلق من وقفتهم بوجوههم الجامدة، تتوقف عربتهم ويتوقف رتل الجنود، يسرع أنطونيو بالهبوط ويقبل نحونا، يشير نحوهم ويقول في سرعة: هذا زعيم قبيلة «نارفانجال» أكبر قبائل الهنود التي تسكن الجبال، لقد هبطوا خصيصا للترحيب بكما..

تتنهد في ارتياح، يبادر «ماكس» بالقفز من فوق العربة، لا ينتظر حتى يقبل الشيخ إليه، يسير هو إلى حيث يقف الزعيم، يحني الرجل رأسه، ولكن «ماكس» يمسك بيده يهزها مصافحا، تجد نفسها وهي تهبط من العربة وتقترب منهما أيضًا، تتأمل ملامح الزعيم الغريبة وثيابه الجميلة، يلتفت نحوها، عيناه نافذتان، هل يدرك في هذه اللحظة أنها ليست إمبراطورة، ولكن مجرد طفلة متوجسة في أرض غريبة؟ يمد يده ويمسك أطراف أصابعها، يضع يده على كتفها برفق ويتخلى وجهه عن جموده، تبدو عليه ملامح ابتسامة وهو يخرج من جيبه لفافة من القماش، يفكها بأصابعه الطويلة النحيفة، يخرج منها خاتما، يمسكه بين أصابعه

ويضعه أمام عينيها، تنبعث لمعة خاطفة من حجر الياقوت الأزرق، قطعة كبيرة لم تر شيئا في حجمها، تشع منها كل ألوان الطيف، خاتم عتيق وجميل، تخشى أن تمد أصابعها وتلمسه، تسمع صوته للمرة الأولى، يقول بلهجة إسبانية غريبة: هذا هو خاتم «منتزوما»، جدي الأقدم، آخر أباطرة «الأزيتك» الذين حكموا هذه البلاد قبل أن يأتي الرجل الأبيض ويدمر كل شيء، إنه هديتي لك أيتها الإمبراطورة البيضاء، حتى لا تتكرر الأخطاء وتسيل الدماء نفسها..

صوته يثير الرهبة، كأنه قادم عبر أزمنة قديمة، يبدو الخاتم متوهجا، عال القيمة، أكبر من تتلقاه منه ببساطة، تنظر إلى «ماكس» الذي يهز رأسه مبتسما، تمد أصابعها وتتناول الخاتم، تبعد عينيها عن لمعته وتتأمل النقوش الموجودة عليه، تمائم قديمة، دقيقة وغائرة كغور الزمن، تشعر برجفة، تحس بملمس الإمبراطور القديم، تمتلئ أنفها بعبق عطوره القديمة، يواصل الزعيم كلامه: كان «منتزوما» ملكا سيئ الحظ، قصير النظر بعض الشيء، آمن كثيرًا بالإله الأبيض القادم عبر البحر، ولكن هذا الإله خدعه، سلبه ملكه، وسجنه وقتله، كان من الممكن أن تحميه التعاويذ المنقوشة على هذا الخاتم، ولكنه نسيه وهو يخوض معركته الأخيرة، كان مصيره محتوما، أرجو ألا تنسيه أبدا، سوف يحرسك طالما كنت إلهة طيبة ورفيقة بنا..

يفاجئها ويهبط على ركبتيه أمامها، يهبط أتباعه من خلفه، تلبس الخاتم في أصبعها وتقبله، كان ثقيلا، ثقل السنوات الماضية، بقايا الدم المسفوك، ثمن الاستكشاف الباهظ، انهيار دولة وانقراض جنس من البشر، يتقدم «ماكس» في اللحظة المناسبة يمد يده ويساعد الزعيم على النهوض، يقول: أنت ضيف الشرف اليوم على الغذاء..

يحني الزعيم رأسه ويقول: لا طعام لي إلا في الجبال، هبطت فقط لأخبرك أننا نعرف أنك الإله الأبيض الجديد، لا نريدك أن تفعل كما فعل «كورتيز» مع أجدادنا، ولا نريد أن تسيل على يديك المزيد من الدماء..

لا يدري «ماكس» ماذا يقول، لا يتصور أنه إله! ولا أن التاريخ القديم ما زال حيا حتى اللحظة، ولا أن تكون له علاقة مع «كورتيز»، القائد الإسباني الذي هبط في هذا المكان منذ أكثر من ثلاثة قرون وأخضع البلاد بحد السيف! لم تكن هي أو «ماكس» تعرف عدد المذابح التي ارتكبها، ولكنه قضى على أعداد كبيرة من أسلاف هؤلاء القوم، واستولى على أراض يصل حجمها إلى أضعاف مساحة إسبانيا، يقول «ماكس» صادقا: لم آت من أجل الدم، أتيت حتى أمنح هذا البلد المعذب بعضا من السلام..

يشير الزعيم إلى المدينة التي تحيط بنا: لقد مررت بشوارع «بوبيلا» المحطمة، عدني ألا تتحطم المدن في عهدك مرة أخرى..

تشعر بالخوف، تخطو قليلا للوراء، ولكن «ماكس» يقول في تأكيد: أعدك بذلك..

يتراجع الرجل دون أن يدير لهما ظهره، يقف على جانب من الطريق حتى يسمح لهما بالمرور، ويظل يتابع الموكب بعينية، ما زال يؤمن بالرجل الأبيض، رغم أنه قد سلبهم كل زمنهم الماضي، كانت سعيدة بهديته، وخائفة منها، بدا لها أن هذا السير لن ينتهي، وكذلك مشهد دمار المدينة أيضًا، كانت قسوة الفرنسيين أكثر من المعتاد.

تبدو أبراج بيضاء، قصر بارون الفضة الذي سيقيمان فيه، رابضا وسط غابة كثيفة الخضرة، يدخلون وسط طريق ضيق تحيط به أشجار

المطاط، تتنفس الصعداء لأنها ابتعدت عن زحام الناس، تريد أن تخرج من إحساسها العميق بالخجل، بشكل أو بآخر تشعر أنهما شركاء في المذبحة التي حدثت، كانت تمهيدا لقدومهما، ولكن هذا لم يكن صحيحا، فعل جنود نابليون ذلك تحركهم غريزة الانتقام، لحظة تدنت فيها نفوسهم ولم يعد يحكمها سوى الغرائز، يحيط بهما هدوء مفاجئ لا يسمع فيه إلا أصوات الطيور، تتبدل الأشجار مع كل خطوة، تزداد كثافتها كأنهما يدخلان إحدى الغابات، تخف الحرارة ويصبح الجو رطبا، يتأمل «ماكس» ما حوله في انبهار، يهمس. ما أشد كثافة هذه الخضرة، طوال عمري وأنا أتمنى أن أعيش في غابة مطيرة مثل هذه..

يتابع حركات الفراشات، نتف من ألوان زاهية تحلق حولهما وتحط على أكتافهما، يبدو مبهورا مثل طفل، ولو كانا في موقف آخر لهبط وأخذ في مطاردتها، تواصل العربة التقدم، يظهر البيت ذو الطابع الأندلسي القديم بلون أبيض كقشر البيض، تعشق هذه المنازل، تشبه بيت جدتها وسط مزارع الزيتون في «قشتالة»، هذا البيت أكبر حجما، يأخذ حيزا واسعا من الغابة كأنه نبت من بينها، كم التهم من أشجارها لينتصب واقفا! يعلن وجود «البارون» كملك، دون حاجة لدماء زرقاء، كم ملك يوجد على هذه الأرض الجديدة؟! وكيف يستطيع «ماكس» أن يفرض سطوته على هذه القصور وملاكها المختفين داخل الغابات؟ يقف بعضا من الحرس على البوابة الرئيسية، يرتدون قبعات ضخمة، ويحملون بنادق طويلة ويضعون أحزمة الرصاص متقاطعة على صدورهم، عندما تتوقف العربة، يسرع البارون ليتناول يدها ويساعدها على النزول، ينحني أمامها وينحني الجميع، يخطون جميعا داخل البيت، وسط متاهة ممتدة من الممرات والغرف، يتقافز البارون أمامهما بجسده الضخم،

يشعر بالحبور لأنه أدخلهما في متاهته، عنكبوت ضخم مبتهج ينسج خيوطه من حولهما، يستسلمان فقط لأنهما كانا في غاية الإجهاد، ولكن عليهما التماسك والابتسام، تفوح رائحة الغبار من كل مكان، يفتحون القاعات التي كانت مغلقة لأيام طويلة دون أن يعتنوا بتنظيفها، يفرشون السجاد ويعلقون الستائر ولا يزيلون غبار الزمن من عليهما، ستائر قرمزية متربة، فاقعة اللون، تحيط بالعالم من حولهما بدلا من ستائر أوربا الملكية الزرقاء، إلا أن رائحة أوربا لا تخلو من الدم،، خلف الثلوج والإتيكيت وأصول اللياقة، تصعد كل الأسر المالكة على درج ملوث بالدم، هنا سيوقفان الدم، تتأمل الخاتم الذي يثقل أصبعها وتوقن أنهما قادران على فعل ذلك، لن يلوثا الأرض الجديدة بميراث قارتهما العجوز.

لا تتوقف الوفود التي تأتي للتهنئة، عشرات من أسماء «السنيور والسنيورة» تتردد على مسامعهما، كثير من الرجال، ولكن النساء يلفتن نظرها أكثر، أجسادهن ممشوقة ولا تخلو من المنحنيات، أثدائهن مشرعة دوما، تقتحم المكان قبل أن يدخلن، سلاحهن المعلن، يحطن بـ«ماكس»، ويبعدنه عنها، يواصلن الانحناء أمامه بمناسبة وبدون مناسبة، يرمق هو صدورهن ببعض من الخجل، كن أكثر جرأة منها، لا يخشين الاقتراب من الرجال أو التلامس معهم بحميمية، هل يذكرنه برحلته المبكرة التي قام بها للبرازيل؟ من المؤكد أنهن الصنف نفسه، يعود بعدها بمرض غامض لم تسامحه بسببها، تخشى أن يضعف أمام سحرهن، وأن يعاوده المرض من جديد، لا توجد فرصة لتحذيره ولا مجال لإظهار مشاعر الغيرة، الضيوف لا يهدءون، أعدادهم أكبر مما تتوقع، جاءوا من المدن المجاورة ليتنصلوا من عهود الجمهورية القديمة، وليعلنوا عن عودتهم للملكية وللكنيسة التي تحميهما، تمتد

الموائد حافلة بكل أنواع الأطعمة، أطباق سخية مليئة باللحوم والطيور والأسماك، كل ما يمكن تذوقه في عام كامل كان موجودا أمامهما في مكان واحد، رغم جوعها لا تستسيغ الطعم، تتقلص معدتها مع كل قضمة، ربما السبب هو دوار البحر والسفر المتواصل، من حسن الحظ أنهما اصطحبا معهما الطهاة الخاصين بهما من إيطاليا، ولكن دورهم لم يحن بعد، تكتفي ببعض الفاكهة الاستوائية، أفضل ما وجدته حتى الآن، تتأمل «ماكس»، يجلس وسط مجموعة من النسوة يصررن على إطعامه بأيديهن العارية، كل شيء بدائي ومقزز إلى حد ما، لا أحد يعرف القواعد ولا أصول البرتوكول، بقية الضيوف يتكلمون ويأكلون ويتجشئون، الضباط الفرنسيون وحدهم من يفهم في أصول معاملة الملوك، ينظر قائدهم نحوها بطرف خفي، يوجه لها نظرات مشفقة، تتمنى أن يتدخل هو وجنوده ويفضون هذا السيرك، ينقذون زوجها على الأقل من حصار هاتي النسوة، يتقدم «ألمونت» أخيرًا، وينحني أمامها: سيقام حفل راقص في هذا المساء على شرفكم، أكبر حفل سوف تشهده المدينة، ربما ترغبين سموك في الراحة قليلا في غرفتك قبل أن يبدأ الاحتفال.

تتلقف الاقتراح وتنهض مسرعة، تستعد للانصراف، لا تبالي بكل هذا العدد الذين ينحنون أمامها، تسير مسرعة للغرفة التي اختاروها لها، واسعة، مليئة بالرياش المترب والنساء اللواتي يقفن على استعداد لخدمتها، لا يوجد «ماكس»، تمامًا كما تعود أن يفعل بها، لكل واحد منهما له غرفته الخاصة، لا بد أنه هو الذي أمرهم ذلك، لم تغير هذه الأرض الجديدة برودة القواعد القديمة، تقف وحيدة وسط نسوة غرباء يردن أن يخلعن ملابسها، يلمسن جسدها حيث لا تريد، تصرفهن جميعا، تجلس وحدها فوق فراش مترب، تخلع ثيابها وتنام عارية، تشعر

بحرارة الغرفة تحيط بجسدها، أشبه بعناق شخص لا تراه، تغمض عينيها وتغرق في العرق والسبات، يتقلب جسدها فوق الأغطية الحريرية حرا طليقا، طوال هذا الوقت وهي مقيدة بقواعد البرتوكول والثياب والمشدات والستائر الكثيفة التي لا تسمح للضوء بالنفاذ، تستطيع أن تلمس أي جزء من جسدها، بنشوة ودون خجل، دون أن تدري تغرق في نوم عميق، في أحلام مختلطة كأنها على ظهر سفينة لا تكف عن الاهتزاز، ترحل بعيدا عن جذورها الأليمة، تتساقط قشورها القديمة كانت تغطي روحها حتى تنهض في جسد جديد.

تنهض من سباتها، عارية ما تزال، يغمر العرق جسدها في غلالة رقيقة، كأنها ترتدي ثوبا شفافا، تستطيع السير هكذا دون خجل من عريها، تظل جالسة ساكنة في سريرها، تشم رائحة التراب الدافئ الذي يعبق كل شيء، لا تدري كيف أحسوا بيقظتها، حشد منهن يقتحم الغرفة، زوجات الأعيان وبناتهن، لا تدري أين اختفت الوصيفات النمساويات اللاتي اخترن مرافقتها، يحملن شموعا ويضعنها في كل أرجاء الغرفة، يمتلئ المكان فجأة بضوء وظلال، يقدنها إلى غرفة جانبية أصغر قليلا، في وسطها مغطس من الخزف، أبيض اللون، منقوش عليه زهورا ملونة وعصافير صغيرة، يشبه تمامًا الحوض الذي كانت تستحم فيه عند جدتها في إسبانيا، ربما كان هو، أحضره صاحب القصر بطريقة ما، تقول إحداهن: يجب أن نجهز سموك للحفلة الراقصة..

تجلس القرفصاء داخل الحوض، لم يزد حجمها عن أيام الطفولة إلا قليلا، يسكبن على رأسها ماء فاترا معطرا بالورد، مناسبا تمامًا لحرارة جسدها، تمسك كل واحدة منهن بذراعها ويمررن عليها الصابون، مع كل لمسة منهن تتفتح خلايا جسدها، يهيئنها لهذا العالم الجديد، يجلجلن بالضحكات وهن يقلن كلمات مليئة بتلميحات جنسية، الجو

الحار، وحروبهم التي لا تهدأ، إحساسهم الدائم بالعيش على حافة الخطر، يجعل أجسادهن ملتهبة، متهيئة دوما للمضاجعة والإنجاب، رغباتهن حسية ومعلنة، لا يكبتها ثلوج التزمت، لا يبالين كثيرًا أن جسدها سليل أسرة ملكية، كل ما يجري في عروقها دماء زرقاء، وأن جلدها محرم لمسه، ولكنها تشعر بالراحة تحت أصابعهن المدربة، تبعث داخلها نبضات جذلة، توقظ جسدها الصغير من غفوته التي طالت، تنهض من الحوض، وترى جسدها في المرآة المقابلة وهو يضوي تحت ضوء الشموع، جلدها الشاحب مفعم بالوهج، تتشربه خلاياها وتعيد بعثه من جديد، تؤكد لنفسها: أجل.. الضوء سكن جسدي، ولن تقدر الظلمة على مغالبة روحي، أصابعهن داكنة السمرة، لاتني تجفف بقايا قطرات الماء، يتلقفنها برفق وفرح، يحضرن لها ثيابا مكسيكية بهية الألوان، موشاة بخيوط من ذهب وفضة وفصوص صغيرة من الجوهر، تكشف عن رقبتها وذراعيها، العيب الوحيد فيها أنها تحتاج لصدر أعرض وثديين أكبر حجما، يعقصون شعرها للخلف ويضعن فيه وردة حمراء، يرسمن على وجنتيها دائرة حمراء من طلاء، ويضعن على شفتيها لونا أحمر براقا، تصبح ممتلئتين ويصبح فمها أكبر، يشع وجهها بالرغبة التي تضطرم بداخلها، لا أحد هنا يخفي عواطفه، يهتفن بها: أنت لست فقط إمبراطورة، أنت سيدة نادرة الجمال، على الرجال جميعا أن ينحنين أمامك ويقبلن يديك أيضًا.. ليس لمركزك ومكانتك ولكن من أجل جمالك..

يحطن بها من كل جانب، يسرن جميعا إلى قاعة الرقص، قاعة مزدحمة بالمرايا والشموع المتراقصة والرجال الوسيمين، ينحني «ماكس» أمامها مثلهم جميعا، يرتدي زيا عسكريا مختلفا، أجمل رجل رأته في حياتها وستظل تراه كذلك، يتناول يدها ويقودها لمنتصف

القاعة حتى يفتتحا الحفلة، ترتفع أصوات الموسيقى كما تحبها تمامًا، صافية متواصلة، يمر العازفون بأقواسهم على الأوتار حتى المدى الأخير، يضع يده حول خصرها ويدور بها، ويضمها إليه قليلا، تشم رائحة عطره، زهور الزنابق التي تقطر في هولندا خصيصا من أجله، الأمير الأوربي الوسيم نفسه، ولكن هل يعرف أنها تغيرت، وأنها في هذه الليلة بالذات تحمل جسدا جديدا، خصبا ومهيأ لتحقيق الرغبة التي تمنتها طويلا، أن تحمل طفله، ولي العهد الذي سيمتلك هذا العالم الجديد، تميل عليه وتهمس بجرأة لم تعهدها في نفسها، اكتسبتها من هذا الجو الحسي الدافئ الذي يحيط بهما، تقول: أنت الليلة لي، لا أريد أن أنام وحيدة في فراشي..

ينضم إليهما بقية الراقصين، تقفز بين ذراعيه، تصبح روحها في خفة الفراشات، تدور بينهم بلا تعب، تواصل الرقص حتى بعد أن يتراجع «ماكس»، يتقاطر الضباط الفرنسيين لتقبيل يدها والرقص معها، كانوا في مثل سنها وربما أصغر قليلا، شواربهم غير كثيفة، ويحرصون مع ذلك على برمها إلى أعلى، لا يجرؤ أحد من المحليين على الرقص معها، لا يتخيلون أن يحظوا بهذا الشرف، رغم أنها كانت تتوق لأن تراهم عن قرب، تتوقف أخيرًا لاهثة الأنفاس، يحيط بها الضباط الصغار، يناولونها كئوس الشراب، ويتبادلون معها أطراف الحديث، ترى نظرات الافتتان في عيونهم، المرأة الأوربية التي يحنون إليها ويرغبون فيها، في هذه اللحظة لم تكن إمبراطورة، فقط امرأة مرغوبة، لا بد أنهم شعروا بالدماء الحارة التي أصبحت تركض في عروقها، تنظر إلى «ماكس»، مشغول بالحديث مع نساء أخريات، يحاصرنه بأثدائهن، لا يهم، الليلة هي أجمل منهن كلهن، على الأقل هذا ما تدل عليه عيون هذه الدائرة من الضباط الصغار، فرنسيون.. عشاق بالفطرة كما يقولون، لا تريد لهذه

الحفلة أن تنتهي، ولا لهذا الوهج أن يتبدد، وفي نهاية الليل ستحصل على مكافأتها، سيكون «ماكس» لها وحدها، ترفض المزيد من كئوس الشامبانيا رغم أنها كانت تجري أنهارا، وملاعق «الكافيار» رغم أن الجميع يلتهمونها بشراهة، لا بد أن البارون قد استورد من فرنسا وروسيا سفينة كاملة منهما، لم تشاهد نساء يشربن بمثل هذه الشراهة ويتحركن مع ذلك في اتزان ويشتعلن من فرط الرغبة.

يتأخر الوقت ولا يبدو أن الحفلة ستنتهي، لن تبقى ساهرة طوال الليل، عليها أن تنسحب لغرفتها وتنتظر، تبتسم لماكس مؤكدة على موعدهما، تتسلل وحدها، لا تريد أن يتبعها أحد في الممرات الطويلة، تضل طريقها وسط التقاطعات المختلفة، تدور حول نفسها حتى يظهر واحد من الخدم، يسير خلفها محني الرأس حتى يوصلها إلى الغرفة، دافئة تستطيع النوم فيها عارية تمامًا، الشموع الجديدة ستجعل شكل جسدها أجمل وأكثر رغبة، تنجح في خلع ثيابها بنفسها، واحدة من المرات القليلة، ربما لأن الثياب هنا أكثر سهولة، ولأنها أخيرًا أحبت جسدها عاريا، ثدييها صغيرين وخصرها ضامرا قليلا وجلدها الذي كانت تخالطه الزرقة جعله الدفء أكثر نضارة، وسيمتلئ الليلة بالحياة، تجلس في الفراش، تضع على جسدها وشاحا خفيفا لا يخفي عريها، ترى هل سيعرف «ماكس» الطريق إلى غرفتها وحده، من المؤكد أن هناك من سيدله، إذا لم تقده رغبته، وسيكون هذا هو الشيء الطبيعي الوحيد منذ أن جاءا إلى هنا، تشعر أن كل خلية من جسدها مرهفة، متحفزة لكل صوت، لحفيف الريح وجنادب الليل الساهرة، ولكنها لا تسمع صوت خطواته، لا أحد يتجول خارج غرفتها، تغمض عينيها، تذوب كما تفعل الشموع، ببطء ونعومة، سيأتي ويفاجئها، من المؤكد أنه سيفعل، لا بد أن الحفلة قد طالت أكثر مما يتوقع، وربما لم يستطع

التخلص ممن يحطن به بسهولة، تواصل الانتظار، تغوص في ظلمتها التي لا تدري إلى أي مدى ستطول، توقظها برودة جسدها، برودة الغرفة كلها تبدد الدفء، وذابت الشموع حتى انطفأت، تجد نفسها فجأة وحيدة وغارقة في الظلمة، تنهض من الفراش وتتلفت حولها في جزع، لماذا لم يحضر؟ لماذا لم يستجب لنداء جسدها؟ هل حضر وانصرف حين وجدها مستغرقة في النوم، أو لم يجد من يدله على طريق غرفتها؟! تنتفض خلايا جسدها من فرط التوق، تريد لمسة من رجل، من «ماكس» على وجه التحديد، أي سبب قوي منعه عنها، كانت متأكدة أن جوفها الفارغ، في جو مثل هذا، سوف يمتلئ، لا يمكن يتخلى عنها في هذه الليلة النادرة الحدوث، تبحث حولها حتى تجد عباءة معلقة بالقرب من المرآة، تداري عريها بداخلها، دون تردد تخرج من الغرفة، أمامها طرقة ممتدة، خالية وموحشة، إلى أين تتجه؟ وأين توجد غرفته؟ تسير واثقة أنها ستهتدي إلى مكانه، لا بد أنه كان متعبا ونام على الفور، أو أفرط في الشراب حتى نسي موعدها، تواصل البحث واجفة القلب خائرة القوى، لا تريد أن تكون وحيدة، تتداخل الطرقات، لا أحد يقابلها أو يدلها على الطريق، أين ذهب الجميع؟ تدخل إلى قاعة الرقص، ترى انعكاس صورتها وحدها وسط المرايا التي تملأ الجدران، تنقسم إلى عشرات الانعكاسات، خيالات حائرة، تتلفت وتدور حول نفسها في رقصة حزينة، وسط بقايا زجاجات وكئوس محطمة وصواني المقبلات وبقايا الآلات الموسيقية، تواصل البحث، بقايا مناديل رجالية وقفازات نسائية ومشابك للشعر ومشدات للخصر وحمالات للجوارب ورافعات للصدر، وأحذية لا توجد منها سوى فردة واحدة وياقات معاطف وشراشيب وقبعات، ماذا حدث في هذه القاعة بعد أن انصرفت إلى غرفتها؟! لماذا كل هذا الكم من بقايا

الرجال والنساء الذين كانوا يملئون المكان، هل سقطت عنهم في غمرة الرقص، أم خلعوها بإرادتهم؟

تخرج من القاعة هائمة على وجهها، تتقاطع الممرات فلا تعرف بدايتها من نهايتها، تنطفئ الشمعة التي تحملها في يدها، تلقيها وتغوص في عتمة الممرات، تتخبط بين الأبواب المغلقة، لا تعرف غرفته ولا تشم رائحته ولا تهديها غريزتها، ترتمي على أحد الأبواب، ينفتح تحت ثقل جسدها، تجد نفسها في غرفة واسعة، يتوسطها فراش ضخم، وتنيرها بقايا شموع ذائبة، مليئة برائحة عطور وعرق وإفرازات، في منتصف الفراش يرقد رجل عار، فوقه أياد تغرس أظافرها في جلده، ومن تحته تمتد سيقان كثيرة، امرأتين أو ثلاثة، لا تعرف كيف احتواهن! يعلو وينخفض، تتحرك السيقان من تحته، وتنفتح أفخاذ غائرة، تتحرك في توافق مع حركته، تسمع صوته وهو يلهث كالخوار، وتسمع تأوهاتهن كأنه يضاجعهن جميعا، تشهق، مشهد حيواني لم تره من قبل، يلتفت الرجل إليها وتظل النساء مضجعات، السنيور أنطونيو، بارون الفضة، شعره متهدل ووجهه لامع تغطيه الإفرازات، كرشه الضخم يعلو ويهبط، يقول بصوت متهدج: هل ترين الانضمام إلينا يا سنيورة.. هناك دائمًا مكان لمن يريد؟ تنفجر النسوة من تحته بالضحك، تتراجع في رعب، هل تعرف عليها؟ هل عرف أنها الإمبراطورة ومع ذلك تحدث معها بهذه البذاءة؟ لم يكن ليجرؤ على إهانتها حتى وهو غارق في المضاجعة، تغلق الغرفة وتعود للتخبط في الطرقات المتداخلة، أبواب كثيرة مغلقة، أين منها غرفة زوجها؟ تمضي بعيدا ولا يعود هناك مجال للتراجع، هذا المشهد الحيواني يجعل كل خلايا جسدها متوفزة، تدفع بابا آخر، لا أحد يعتني هنا بغلق الأبواب، ينطبع المشهد الذي أمامها في أعماق عينيها، يحفر نفسه في نسيجها،

لا تتصور أن يوجد، أو يكون قابلا للرؤية. غرفة بلا أسرَّة، تضيئها بقايا الشموع الذائبة، ينبعث منها عطر شهواني ثقيل، يختلط برائحة العرق، أجساد عارية مستلقية على أرض الغرفة فوق فراء داكن الصفرة، لا أحد مستيقظ، لا شيء يغطي الأجساد العارية، رجال ونساء، جلود باهتة وأخرى داكنة، أجسادهم متداخلة الأعضاء، متعانقة وملتصقة ومتقاطعة، نساء يضجعن على صدور الرجال، ورجال ينامون على أفخاذهن، أياديهم متشبثة بأثدائهن أو غائرة بين أفخاذهن، لا تدري من يضاجع من؟ حالة جماعية من الشهوة، مشهد من بابل وسدوم وعمورة وكل المدن الملعونة تجمعت في هذه الغرفة، الدنس الذي سمعت عنه دون أن تتصور وجوده متجسد أمامها، هل زوجها بينهم؟ تتأمل وجوه الرجال، تحاذر حتى لا تحدق في أعضائهم العارية، تتعرف على وجوه بعض الضباط الشبان الذين كانوا يراقصونها ويقبلون يدها، يخلعون ما عليهم من ثياب وأنواط ونياشين، وتسترخي أجسادهم المشبعة، يلتقطون أنفاسهم ويزفرونها في راحة، يأخذوا نصيبهم كاملا من المتعة وينامو دون إحساس بالخطر، أطفال راضون، رغم أنهم ينامون على أرض الناس الذين أذلوهم وقتلوهم، لا تستطيع أن تمنع نفسها أيضًا من تأمل أجساد النساء: أجسادهن تنساب بنعومة وتضوي بخفوت، خلاسيات، مزيج من سمرة الهنود وبياض الفاتحين، حليب وقرفة، كاملة الاستدارة، مفعمة برغبات فياضة، مسترخية في أحضان الرجال، يستمتعن دون إحساس بالإثم، تذوب العداوات وتستجيب لتوق بدني لا يهدأ..

لكن «ماكس» ليس بينهم، كيف تخيلت أن أميرا من «الهابسبورج» يستلقي على هذه القطعة من الفراء ويترك جسده فريسة لهذا العري! تعاود البحث، لا بد أن تجده حتى ولو اضطررت لفتح كل الأبواب المغلقة،

وسط هذا الجو المشحون برغبات الأجساد، كيف نسي جسدها؟ ترى وصيفاتها نائمات عاريات ولكن بدون رجال، هل انصرفوا أم لم يكن في حاجة إليهم؟ ترى زنوجا ورجال بيض مستسلمين تحت أجسادهم، جحيما بشريا في كل الأوضاع، كل الخطايا دون العذابات التي يجب أن تكون، تصل أخيرًا إلى نهاية الطرقة حيث يوجد باب أكبر من كل الأبواب، عليه زينة من الورود وتعاريش من أوراق الغار، يدق قلبها وتضم الرداء حول جسدها العاري، يسري في عروقها دبيب نمل لا يهدأ، هل تدخل وتواجه ما ينتظرها، أم تستدير عائدة إلى غرفتها؟ تتجاهل ما يمكن أن تكتشفه وتقنع ببرودتها وحرقتها ورغبتها وجوعها وتوقها، تطفئ الحرقة التي تشعر بها، تتغلب على ترددها وتتقدم وتدير المقبض، الغرفة ليست مغلقة كبقية غرف المنزل، تتسلل للداخل وهي خائفة من إزعاجه: في مواجهتها فراش ضخم، فوقه ينام «ماكس» عاريا، شعره الأشقر منسدل على وجنتيه، ولحيته الشهباء مسترخية على صدره، مضطجع على ظهره وقد فرد ذراعيه، كل ذراع تتوسده امرأة: خلاسيتان بلون القرفة، عاريتان مسترخيتان وقد أخذتا كفايتهما منه، عاهرتان، فاتنتان، قذرتان، أجسادهما لامعة كنحاس مصقول، تتداخل أعضاؤهما في جسد زوجها الذي كان شاحبا وبريئا قليلا، وجهه ما زال مشربا بحمرة المضاجعة، وهو يزفر أنفاسه في ارتياح مثل كل الأجساد العارية المتناثرة في هذا المنزل، لم ينم بين ذراعيها أبدا بهذا الاسترخاء، وربما لم يشعر جسده بمثل هذا الشبع، الجسد الذي يبدو غريبا عنها، الذي لم يعطها الفرصة وظل نائيا عنها. تضع يدها على فمها لتكتم صراخها، تستند على الجدار حتى لا تنهار، لا تساعدها ركبتاها حتى تبقى منتصبة، تنهار جالسة على الأرض، يبلل وجهها دمع مالح، ويغمر جسدها عرق بارد، تحدق في الأجساد الثلاثة

المستلقية أمامها، كلها حية وهي وحدها الميتة، هربت الروح من الجسد وتركته مستندا إلى جدار..

تتشبث ببقية الحياة في جسدها، تفكر في أن تصرخ بصوت عال حتى تفزعهم جميعا، تقفز على زوجها وتخمش وجهه، تشد هاتي النسوة من شعورهن، ولكنها لا تجرؤ على ذلك، ماذا سيكون الحال، إمبراطورة مهجورة تبدأ عهدها بفضيحة، واحدة من بنات ملوك أوربا تهين نفسها مع عاهرات خلاسيات وجدتهن في فراش زوجها، تتوقف عن البكاء وتدير لهم ظهرها، لم تر شيئا، لم تسمع شيئا، لن تنبس بشيء، هكذا يجب أن يكون الحال، لم تكن موجودة في أي من هذه الغرف، تسير متخاذلة في الطرقات الممتدة، لا جدوى من محاولة فتح أي باب، تدور حول نفسها دون أن يهديها أحد، حواسها معطلة، لا تعرف كم مرة طافت في الممرات نفسها! لا تشعر بتعب أو خذلان في ساقيها، تريد أن تواصل السير حتى تقع منهكة على الأرض، لعل هناك من يحملها ويواريها عن الأنظار، وفي النهاية تجد نفسها أمام حجرتها، الباب ما زال مفتوحا، والشموع مطفأة، لا تستطيع العودة للفراش، سيهجرها النوم لليال طويلة، تجلس على مقعد في الغرفة المعتمة أمام نافذة مظلمة، ينفذ برد الليل في عظامها دون أن تتحرك، دون أن تبكي، سيكون هذا بكاءها الأخير، لن تسمح لنفسها بالفشل، وإذا كان «ماكس» قد دنس فراشه، فلن تدنس فراشها، ومهما استطال هذا الليل فلن يقدر عليها.

ولكن الليل لا يطول، تبدأ شقائق من ضوء شاحب تشق طريقها وسط كثافة الظلمة، إلى داخل نفسها، ترى خضرة الحديقة خارج النافذة واللون الأسود ينزاح عنها، تظهر الأوراق وهي مغطاة بطبقة لامعة من الندى، دموع صامتة من أجلها، لا بأس، عندما تعلو الشمس

في السماء سيجف كل شيء، وتلتئم الروح، تراقب انتشار الضوء، تسمع صوت عودة الحياة، في الحديقة يقف حصان شاهق البياض، بلون الحليب الطازج، لا يوجد فيه نأمة سوداء، ينحني برقبته ويقضم العشب بأسنانه ثم يرفع رأسه ويمضغه ببطء، تراقبه بانبهار، منذ لحظات لم يكن موجودا، لا بد أنه تخلق من ضباب الصباح، يحس بوجودها يسمع صوت أنفاسها، يلتفت وينظر نحوها بعينين واسعتين حزينتين، فيهما لمعة المحيط الذي عبرت من فوقه، ينظر كل منهما للآخر، يتوقف الجواد عن المضغ وهو يتأمل حالتها المزرية، تود أن تصرخ، تحدثه عن عذاباتها وصدمتها وعجزها عن البوح بما رأتـه، يواصل تحديقه كأنه يشاركها الحزن، يهز ذيله، أيضًا ناصع البياض، يسير في الحديقة ببطء، تحس بالحزن يتبخر من صدرها مع كل خطوة من خطواته، ولكنه يبدأ في السير مبتعدا، يختفي وسط ضباب الصباح كأنه ذاب فيه، تنهض مفزوعة، تخرج من غرفتها وتعدو في الطرقات حتى تصل إلى الحديقة، تدوس على العشب المبلل والطين الطري، أين ذهب؟ أين اختفى؟ تسمع صهيله قادما من مكان ما، تعدو عبر الحديقة حتى يوقفها السور الذي يحيط بالمنزل، يبرز أمامها ثلاثة من الجنود السود، يلبسون هم أيضًا ملابس بيضاء ويضعون على رءوسهم طرابيش حمراء، يتأملونها مندهشين، لا يحاول أحد أن يلمسها ولكنهم يسدون الطريق أمامها، لا يدعون لها مجالا للتقدم، يقول أحدهم بفرنسية متعثرة: مولاتي.. من الخطر أن تبتعدي هكذا..

تهتف بحرقة: أبحث عن الحصان، حصان أبيض وحيد..

ينظرون لبعضهم في حيرة، ويقول الجندي الأسود: لم نر جوادا هنا، الإسطبلات بعيدة عن هذا المكان..

تريد أن تصرخ في وجوههم، تأمرهم بالذهاب للبحث عنه، لم يكن أحد منهم ليفهم ماذا تريد، تصيح في وجوههم غاضبة: من أين جئتم أنتم على أي حال؟

يظلون حائرين كأنهم يفكرون في معنى السؤال، يقول أحدهم ببطء، وهو لا يدري إن كان هذا هو الجواب الصحيح أم لا: نحن من بعيد، نحن مصريون..

تعرف ذلك، منذ أن رأتهم وهي تعرف أنهم ينتمون إلى هذا التمثال من البازلت الأسود، تعرف أيضًا أنهم لن يفهموها، لا أحد يدرك أن يفهم مدى حاجتها لرؤية هذا الحصان، للتمسك بحلم عابر، تستدير بالطين العالق في قدميها وتعود إلى غرفتها، تستلقي على الفراش بقدميها المتسختين، وتغمض عينيها.

- ٩ -

الحرب مستمرة، يخرج الجنود السود من معركة ليدخلوا أخرى، لا هدوء، لا وقت لاستجلاب الذكريات، أو للحنين لديار الأهل، كلما ظهر «بو علام» عند خطوطهم أدركوا أن هناك مهمة جديدة، يختلي بالقائد «ألماس» ليقول له كلاما معقدا عن مشكلة ما.. في مكان ما، عليهم أن يتحركوا لمواجهتها، هذه المرة سيرحلون مع النهر، نهر «ريو بابالوبان»، اسم غاية في التعقيد، يبني المتمردون قلعة عند مدخله، تدعى كونجوليا، يتحصنون بداخلها، ويتحكمون في المنطقة المحيطة بها، يكوّن القائد الفرنسي الميجور «مارشال» قوة مكونة من ٦٠٠ فرد، نصفهم تقريبا من الجنود السود، يأخذون منهم ٢٣٤ فردا، للمرة الأولى يركبون القوارب، يتركون الأرض ويبحرون بعيدا، خليط من النمساويين ومتطوعين من جزر المارتينيك التي أصابتهم بالوباء وبعض من المكسيكيين، يجتاز القارب مياه النهر، يصل إلى منطقة لم يمتد إليها النفوذ الفرنسي من قبل، النهر ليس غادرا كالمحيط، يصلون إلى موقع بعيد عنها بسهولة، تبدو القلعة أمامهم واضحة، يهبطون على الشاطئ ويكونون طابورا طويلا، يسيرون صامتين نحوها، حيث يصب النهر في البحر الواسع، الحر قائظ، ولكن على طول الطريق هناك الكثير من أشجار البرتقال، يستعيدون المذاق القديم، يقتطفون ثمار البرتقال، يشربون عصيرها ممتزجا بماء النهر، عندما يقتربون، يدركون أنهم قد

أصبحوا تحت أنظار القلعة، يتركون حافة النهر ويدخلون غابة صغيرة، أشجارها كفيلة بأن تخفيهم عن العيون.

يبدأ الهجوم من ناحية النهر، يشاهد المتمردون القوارب الفرنسية السابحة ويفتحون عليها النار، يرد القارب عليهم بقوة، تلك المدافع الطويلة اللعينة التي دمرت «بوبيلا»، تسلط نيرانها على جانب محدد من جدرانها، يبدو واضحا أن القلعة ليست قوية كما يعتقد المتمردون، كانوا قد أقاموها على عجل، لم يتصوروا أن يصل الفرنسيون لموقعها النائي، يستمر القصف لنصف يوم كامل، تنجح القذائف القوية في فتح ثغرة في الجدار، تنهار الأحجار الجيرية، كانت ذائبة أصلا من تلامس موج النهر والبحر مجتمعين، وقبل أن يفيق مدافعو القلعة ويحاولون سد الثغرة التي يتدفقون من خلالها، تحين لحظة الجنود السود.

يجتازون الثغرة وهم يرددون صيحاتهم الوحشية، يطلقون الرصاص ويطعنون بالسناكي، يلقون من يتعرض لهم من فوق السور، لا تستمر المقاومة كثيرًا بعد أن يرى المتمردون وجوههم المخيفة، تأخذهم المفاجأة، يلقي البعض أسلحته، ويبادر البعض الآخر بالفرار من خلال ثغرة السور، يخوض السود حربا ضارية وعليهم أن يؤدوها كما يجب، لا يموت أحد منهم في المعركة، يموت من المتمردين حوالي المائة ويقع خمسون منهم في الأسر، يسمعون صياح نسوة وصراخهن، لا يدرون من أين تجيء! كانوا يعتقدون أن القلعة للرجال فقط، للقتال وليست للمتعة، يكتشفون أن الغرف الداخلية للقلعة مليئة بهن، بائعات هوى، أكثر عددا من الجنود، يلتصقن بالجدران وهن يرتجفن، رأين القتلى من الرجال ويعتقدن أنهن سيذبحن جميعا، يتحول الرعب إلى سعادة غامرة حين تصل القوارب التي تحمل الجنود الفرنسيين والنمسويين، لا يدع القائد الفرنسي أحدا يقترب منهم في أول الأمر،

يوقفهن في صف واحد، يسأل الملازم فرج العزازي: هل تريدون بعضا منهن؟

يتأملهن الملازم، يحدقن في وجوه جنوده بوجوه مفزوعة، أي متعة خلف كل هذا الفزع، يعرف أن أجسادهن ترفضهم، ينظر إلى جنوده، لا يريدون أيضًا أن يبحثوا عن متعة بدافع الخوف، يهز الملازم رأسه رافضا العرض، لم يكونوا ليغتصبوا أجسادا ترفضهم، وهناك حرب يريدون أن يتموها.

لم يطهروا القلعة فقط ولكنهم هدموها كلية، نزعوا الأحجار من أساسها، وانتقلوا بعد ذلك للجانب الآخر من النهر، توجد المدينة عزلاء بعد أن زالت عنها الحماية وأصبحت فريسة سهلة، عليهم أن يبدءوا منها ليطاردوا بقايا المتمردين من كل القرى على حافة نهر «بابالوبان»، أحيانا لا يكون هناك وقت للتلكؤ والقبض على الأسرى، أو ترك الجرحى خلف ظهورهم، ما يدريهم أنهم لن يغدروا بهم، ينسحب المتمردون أمامهم، يتركون مواقعهم قبل أن يصل السود إليها، تخرج النساء من القرى الصغيرة فزعات، يحملن أطفالهن ويهرعن للعراء، لم يكن السود حيوانات وحشية، كانوا فقط يحاربون، ينفذون أوامر الفرنسيس، البيوت التي اقتحموها، والمصانع التي هدموها، والأقبية والمخابئ، كلها كانت بأمر منهم، يتركون لهم كل أفعال الحرب الرديئة.

يرتكب القائد الفرنسي الميجور «مارشال» خطأ قاتلا، لا يجرؤ السود بالطبع على قول ذلك بصوت مسموع، يعتقد أن الحرب قد انتهت في هذا المكان، يأخذ القوارب الحربية ونصف الجنود بما فيهم نصف الجنود السود ويعود إلى «فيراكروز»، غلطة يدفعون ثمنها غاليا. يعود الكولونيل جارسيا الذين اقتحموا قلعته، ومعه ٥٠٠ من رجاله،

يريدون فقط الانتقام منهم، لم يبق من السود إلا ٧٥ رجلا وآخرون مثلهم من الخيالة الفرنسيين، يتركهم تحت قيادة ليوتنانت «لاشود»، يختبئ المتمردون في الغابة نفسها التي سبق واختبأ فيها الجنود السود وهم يستعدون لاقتحام القلعة، غير بعيدين عن الجسر الذي يعبر النهر إلى المدينة، ينتظرون غفلة منهم، لا يتحمل «بوشارد» الانتظار داخل المدينة، يريد أن يبادرهم قبل أن يصل لهم أي دعم، يقرر أن يهاجمهم بفصيلة من الخيالة وحاملي الرماح، يتبعهم السود سريعا ويشتبكون معهم في قتال مميت، يشاهدون الرقيب عبد الله حسين وهو يطعن جنديا مكسيكيا بحربته ويرفعه إلى أعلى دون أن ينثني ذراعه، مشهد مرعب، مثيرا لرهبة الجميع، لكن أحدا لا يتراجع، كأنهم يخوضون المعركة التي ستحسم هذه الحرب، بعد أن طالت ولوثت كل شيء بالدم، يسقط القائد «لوشاد» بعد أن اخترقت رصاصة عينه اليمنى وخرجت من أذنه اليمنى، بعد ساعتين ينسحب الجانبين من شدة الاجهاد، ولم تعد الخيل قادرة على التحرك بسبب كثرة الجثث، فقد السود أربعة من رفاقهم وأصيب سبعة عشر فردا بجروح مختلفة، تكومت جثامينهم، ومنحوا أوسمة فيما بعد، ولكن ما جدوى وضع الأوسمة على صدور الموتى.

- ١٠ -

تستيقظ مبكرة وتسير حافية القدمين، تحب ملمس البلاط البارد، طفلة شقية تتقافز بين المربعات البيضاء والسوداء، يحرص الخدم على أن يبقوه دوما نظيفا، على الأقل الممر الذي تسير فيه كل صباح، لكنها لا تصل أبدا إلى نهاية هذا القصر المتسع، غرفه العديدة تبدو بلا نهاية، وبلا جدران أيضًا، مليئة بالنوافذ، قالوا لها إن عددها ألف ومائة نافذة، ما حاجة الذين كانوا يحكموا من هنا لكل هذا العدد من النوافذ، كيف يعيشون حياتهم الخاصة وسط هذه الثغرات المفتوحة أمام الأعين؟! تسير إلى قاعة العرش الواسعة، تتأمل حالتها البائسة: ستائر قرمزية متهدلة ومقاعد متنافرة، خليطا من الطرز الأوربية العتيقة، تفقد اللمسة الإسبانية رونقها ويحل بدلا منها طابع سوقي، تحتاج إلى كثيرٍ من الوقت لتلقي كل هذا الأثاث من النوافذ، وتغير ألوان الجدران والستائر، وتجعل كل شيء يأخذ الطابع الذي تعودته في قصرها البعيد.

يدخل «ماكس» من باب القاعة، يتأملها كأنها شبح صباحي، يقضي ليلته مسهدا مثلها، لا يتبادلان كلمات كثيرة حول ما حدث، وربما أيضًا لا يدرك مدى المرارة التي تشعر بها بداخلها، لكنه، أحيانًا، يبدو مثل طفل مذنب لا يعرف طريقا للاعتذار، لا توجد حجة يخفف بها من ذنبه، إمبراطور من «هابسبورج» يبدأ عهده بمضاجعة العاهرات، نزوة بلا غفران، يتوقف عند المنضدة الموجودة في منتصف القاعة، يشير

نحوها حتى تقترب منه، لم يعودا يقتربان من بعض كثيرًا، تمتد على المنضدة خريطة لأرضهما الجديدة، موقع عليها باسم رسام فرنسي متخصص للخرائط: جبال بارزة بلونها البني المائل للصفرة، وأنهار غائرة زرقاء، وسهوب ممتدة بلون أخضر كالزمرد، فردوس أرضي لا يخلو من الثعابين، يشير «ماكس» للتضاريس بوجه مقطب، يقول: انظري كيف تبدو على الورق، أكبر بكثير من الأرض القديمة التي تركناها خلفنا، ولكنها في الواقع أصغر من رقعة الشطرنج.

تنظر إلى وجهه المجهد، إلى عينية اللتين يحيط بهما السواد، تسأل: لماذا تقول هذا؟

يشير إلى مكان ما في أعلى الخريطة، يقول: هنا في الشمال في قلب ولاية «نوفو ليون» يوجد «بنيتو خوارز» متحفزا، لم يعترف بعد أن سلطته قد انتهت وأنه مجرد رئيس سابق، حتى الآن لا يعترف بسلطتي، ولا يبدو أنه ينوي ذلك، هذا هو الكابوس الذي عليّ أن أواجهه في كل ليلة.

رغم غضبها منه، لا تستطيع أن تشاركه تشاؤمه، كانت متأكدة أنهما سينجحان، تؤكد له: لا تكن متشائما، منذ أن وصلنا إلى البلاد، والمدن تعلن عن ولائها لك الواحدة بعد الأخرى، والكثير من قادة المتمردين يعلنون انضمامهم لجيش الإمبراطور، إنها مسالة وقت حتى يستسلم ذلك «البنيتو» ويطلب العفو عنه..

يلتفت إليها، ربما ليرى مبررا لهذا التفاؤل، لا يجد، يقول: لن يفعل، ما دامت أمريكا تعترف به، وتخاطبه على أنه الرئيس الشرعي، ما داموا يرفضون بعناد أن يكون هناك نظام ملكي عند حدودهم الجنوبية، كنت أعتقد أنهم منشغلون بأمورهم الداخلية، تلك الحرب المستعرة بين شمال الولايات وجنوبها، ولكن هذا لم يوقفهم عن مواصلة تهريب

السلاح من منطقة «ريو جراندي»، الفرنسيون رصدوا هذا وما زالوا غير قادرين على إيقافه، فماذا سيفعلون بنا بعد أن تنتهي هذه الحرب؟!

لا تجد ما تقوله، رغم كل شيء ما زالت مؤمنة به، لا تستطيع التنصل من شراكتها له، أسيرة للسحر الذي يشع منه، يطوي الخريطة في بطء، يقول: عليّ ألَّا أبقى حبيسا طوال الوقت داخل هذا القصر، أريد أن أهبط للمدن الصغيرة، أطوف بها وأتصل بناسها، ربما أستطيع أن أوسع خريطة ملكنا قليلا..

فكرة جيدة ولكنها خطرة، لا تريده أن يبتعد ويتركها في هذا القصر المليء بالثغرات، ولكن عليه أن يفعل شيئا غير أن يطوي الخريطة ويلقيها في أحد الأركان، ينفض يده وهو يزفر، يتشاغل عنها بالدوران حول القاعة وتأمل جدرانها: ثريا متربة مدلاة من السقف، خزائن زجاجية محتشدة بالدروع والسيوف، رءوس حيوانات محنطة، بقايا سيوف ورماح متصالبة على الجدران، تذكارات الدولة المكدسة. كل الذين مروا من هنا أرادوا فقط أن يتركوا أثرا يضمن لهم البقاء، لكن الزمان لا يبقي على أحد، عليها أن تأمر بإزالة كل هذا الركام، تسمع صوت «ماكس» وهو يتحدث: لا أحب هذا المكان، إنه يذكرني بأن الناس الذين عاشوا هنا لم يكفوا أبدا عن التقاتل، لم تكن أيامهم مريحة، هل تشمين رائحة الدم، دم الفرائس والصيادين؟ أشمه في كل مكان، كأن هذا القصر كان مسرحا لمطاردة لا تنتهي، كلما فتحت النوافذ، لا أجد أمامي إلا النفايات والمتسولين! أي قصر هذا؟ ومن الذي وضعه في قلب هذه المدينة الصاخبة؟

يدور حول نفسه غاضبا، لا يراها، يحدث نفسه بصوت مرتفع، يغوص قلبها وهي تدرك مغزى كلماته، يحن إلى قصره وحدائقه في

ميرامار، حنينها أيضًا كان طاغيا، ولكنها لا تفكر في العودة، لا تريد أن تتحول سريعا إلى إمبراطورة سابقة، ينظر إليها الجميع كمصدر للشفقة، عليها أن تقاوم حتى تمر الأوقات الصعبة، تراقبه وهو يحدق في النوافذ المغلقة دون أن يجرؤ على التقدم وفتحها، يعرف جيدا ماذا ينتظره خلفها! تنظر له معاتبة، لم تتناول فطورها بعد، ولا طاقة لديها للجدل، يسمعان طرقا على الباب، يظهر سكرتيره، هناك موعد نسيه الجميع: عفوا يا مولاي.. مندوب قادم من فرنسا وبصحبته الجنرال «بيازين»..

هكذا الحال دائمًا، من الصعب أن تكون مستعدا، يتمتم «ماكس» وهو ينظر نحوها: مبعوث من نابليون أمر لا يبشر بخير، هلا حضرت معي هذه المقابلة..

تتطلع إليه مرعوبة، كيف تقابلهما وهي حافية القدمين، ناقصة الزينة وبدون إفطار، ولكنه يصر على وجودها: ثوبك طويل، لا تنهضي من فوق مقعدك، إيماءة واحدة بالرأس فيها الكفاية..

تتراجع قليلا وتبحث عن مقعد مناسب، يدخل المندوب وفي صحبته الجنرال، زوج من الصقور، تعرف «بيازين»، من الضروري طبعا أن تعرفه: القائد العام لكل القوات الفرنسية، الحاكم الحقيقي الذي رتب المسرح لقدومهما، أرمل طروب يجيد الإسبانية، ويستعد للزواج من مكسيكية صغيرة في السابعة عشرة من عمرها، من المستحيل أن يكون ولاؤه لهما مهما تظاهر بذلك، ولاؤه لنابليون، الإله الأعلى فوق «أولمب» الأرض، يمسك بيده خيوط اللعبة ويحركها وفقا لأهوائه، تسحب قدميها للخلف دون أن تنهض من مكانها، تهز رأسها فقط، يقف أمامهما المبعوث الفرنسي بقامته القصيرة، ليس له صدر الجنرال

العريض ولا شاربه المبروم، يتطلع نحوها في قلق، كأن وجودها سيعوق مهمته، تعرف ماذا يريد قبل أن يتكلم؟! أموالا، جزءا من ديونهما المتراكمة، التي تزيد كل يوم بسبب الحملة العسكرية التي لا تتوقف ولا تنتصر، وتقف بهم جميعا على حافة الإفلاس.

تحيات معتادة، مجاملات مبالغ فيها، يمرر «بيازين» بيده على شاربه، كان مخيفا، يخافونه جميعا منذ أن اقتحم مدينتهم بأسنة الرماح، ووضع على العرش إمبراطورا لا يعرفون عنه شيئا، يسلمه رسالة من «نابليون»، يقرأها «ماكس» في تمهل، لا يجلس على كرسي العرش، يستند إليه فقط، يرفع رأسه ويتأمل وجوه الاثنين، وجهين جامدين لا يبدو عليهما أي تعبير، تحس بالخطر، تعرف مقدما اللحظة التي يغضب فيها، يقول بصوت يحاول جعله هادئا: هل تتوقعان أن أوافق على مثل هذا الشيء؟

يقول «ماكس» بهدوء حذر، يكبت مشاعر الانفعال، يقول المبعوث في هدوء: مولانا الإمبراطور «نابليون» يتوقع هذا..

يبتعد عن العرش كأنه لا يعنيه، ينظر نحوها: إنه يطلب مني أن أتنازل عن منطقة «سونورا» في الشمال، التي يوجد فيها مناجم الفضة، يريد أن يضعها تحت حماية فرنسا، هل يمكن أن أبدأ عهدي بالتنازل عن جزء من الإمبراطورية؟!

يشعر «بيازين»، أنه قد صمت طويلا، يبرز صدره وهو يقول: فرنسا هي التي تحمي إمبراطورية «المكسيك» كلها، الإنجليز يضعون منطقة كاملة مثلها تحت حمايتهم، مليئة بمناجم الذهب، ليس غريبا أن تتم معاملة فرنسا بالمثل..

يقول «ماكس» هامسا: كان هذا قبل عهدي، وكان أمرا واقعا، أخذ

الإنجليز الذهب، والآن تريد فرنسا أن تأخذ الفضة، ومع ذلك ما زلتم تطالبون بلادي بدفع ديونها!!

لا أحد يجيب، لا أحد يكف عن نصب الشراك، ينظر الجنرال «بيازين» نحوها، تشعر بالبرودة فتعدل الثوب حتى لا تظهر قدماها العاريتان، لا بد أنه يعرف أنها حافية، لا شيء في المدينة يخفى عليه، يحاصرها بعيونه كما يحاصر «ماكس» بمطالبه، يظلان واقفين أمامهما في تحد خفي، مصممين على أخذ ما جاءا من أجله، لا يتركان لهما فرصة لالتقاط الأنفاس، ولا يريدان لهذه المقابلة أن تنتهي دون الحصول على الموافقة، تكتم كل ما في صدرها من كلمات، لم تتفق مع «ماكس» على الكلام، خاصة إذا كانت قدماها باردتين،يقول «ماكس» في خافت: لا أعتقد أنهم سيوافقون!

لا يبدو أن أحدا قد فهم ماذا يعني، يقول الرجل: من تعني عظمتك؟

دون جدوى يقول «ماكس»: وزرائي..

يا لها من حجة، حتى «بيازين» نفسه يرفع حاجبيه مندهشا، يبدأ نوع غريب من الجدل، الرجل الضئيل كان صبورا، يحاول أن يكون صوته خاليا من أي سخرية: أنتم قادرون على إقناعهم..

يتمتم «ماكس»: أنا في حاجة لمن يقنعني!..

يعرف الرجل الضئيل أنه لا جدوى من المكسيكيين، ولا خطر منهم أيضًا، منذ متى يمكن أن يأبه برأيهم، يتمتم بغموض: قد يعتبر الإمبراطور «نابليون» هذا نوعا من الرفض..

يرفع «ماكس» رأسه ويتأمله، يفكر في التهديدات المبطنة في كلماته، ولكنه يبدأ رحلة العناد دون عودة، يقول ببطء: علينا أن ننتظر

إذن حتى يجتمع المجلس، لا أريد أن تكون بداية عهدي بأن أستبد عليهم بالرأي..

لا يملك كل واحد منهما إلا أن يحني رأسه، لم يتوقعا هذه البداية، حتى ولا هي، قبل أن ينصرفا ينظر «بيازين» إليها نظرة طويلة، يشهدها على الخطأ الجسيم الذي وقع فيه زوجها، تخفي قدميها أكثر وتصعد البرودة حتى أذنيها، ينغلق عليهما باب القاعة الخالية، لا تطل عليهما سوى رءوس الحيوانات، يفتح «ماكس» النافذة ليبحث عن أي هواء، يندفع الهواء مختلطا بضجة الشارع ورائحته، يظل واقفا محدقا، تقف خلفه وتلمس كتفه، يستدير نحوها بعينيه الحزينتين، هل أخطأت؟ يهمس قائلا، تقول له مشفقة: أنت لم تخطئ،ولكن السياسة لعبة قاسية، تجعلنا ندفع مقدما ثمن الأحلام التي تراودنا، فرنسا تملك العالم من حولنا، هل تذكر ما قاله أبي ونحن نستعد للقدوم إلى هنا؟ علينا أن نورط فرنسا أكثر في هذه البلاد لا أن نقصيها بعيدا..

يضحك في مرارة: أبوك ملك قديم في مملكة قديمة، ماذا سيقولون عني وهم يرون أن أول عمل لي هو التنازل عن أرضهم للغرباء؟!

أبوها كان على حق، و«ماكس» على حق أيضًا، يتلفت حوله في ضيق، يشعر بالحصار، وجودها بجانبه يضايقه أيضًا، يقول: أشعر بحاجتي لهواء نقي، سأذهب للتجول في الخلاء، لا أريد حرسا ولا مرافقين..

لا تستطيع أن تتركه يخرج هكذا، تقول خائفة من أن يرفضها: هل يمكن أن آت معك؟

يحذرها: هناك مخاطرة ما.. سنرتدي ثيابا محلية ونخرج متنكرين..

لم تغفر له بعد، ولكنها تشعر بسعادة واهية، تهرع إلى غرفتها لتبدل ملابسها، عندما تكون بجانبه ورغما عنها يكون قلبها خفيفا، لا تكاد قدماها أن تلمسا الأرض، شغفا أم رغبة في تعذيب الذات، أم الانشغال بحلم ينسي جسدها جوعه وغيرته؟

ينطلقان بجواديهما من الباب الخلفي للقصر، يتأمل الحرس ثيابهما في دهشة، يلبس «ماكس» «الشورو» زيا أسود أنيقا، وقبعة أصغر قليلا من القبعة التقليدية، تخفي نصف وجهه، و ترتدي هي ثوبا مكسيكيا فضفاضا، يرتج جسدها في داخله بحرية، تلم شعرها بعصبة حمراء، كأنها غجرية من المجر، يضحك «ماكس» بجوارها وهما يطويان شوارع المدينة المتسخة، لا يباليان بأيدي المتسولين وهم يمدون أذرعتهم في ضراعة، المرة الأولى التي ترى فيها المدينة عن قرب، بلا زينة ولا حشود، يعبران شوارعها الضيقة المزدحمة، يدهشها أن منازلها بيضاء متألقة، تتشرب أشعة الشمس فتبدو مضيئة وساطعة، فقيرة ومتلاصقة، مقاهي الرصيف، المطاعم ورائحة الشواء، وأنغام «المارينبا» تنبعث من مكان ما، لا يلتفت إليهما أحد، يجتازان «البلازا» المزدحمة بالخيل والعربات، ويتغير الهواء ليصبح أكثر نقاء، وتمتد أمامها أرض تكسوها خضرة نضرة، تعلو أمامهما قمة أحد الجبال، تكسوها غابة كثيفة، فلنذهب ونكتشفها، يقول «ماكس» وهو يواصل انطلاقته وهي خلفه، يشير بيده: هذه حقول الكاكاو ممتدة على مدى البصر، أشجار متتابعة، وعشب ممتد وبحيرات لامعة، تشعر أن أرواحهما حرة طليقة، هل يمكن أن يستعيدا حبهما المفقود؟ هل يمكن أن تتقلص الخيانات لتصبح نوبات عابرة، وأن يتوطن قلبها على النسيان؟ جسدها في توق إليه، تريد أن تنجب أولادا منه، تكون سلالة ملكية تسود هذا العالم البكر، وتعبر الحدود الواهية لهذه القارة الجديدة، حلم «نابليون» العتيد، في إقامة

إمبراطورية بديلة في الغرب، أحضرهما إلى هنا لهذا الغرض، لكنهما لن يعملا لحسابه، ستغير هذه الأرض مصيرهما من جديد، وسيعبث القدر كعادته، لو أن «ماكس» فقط يضع بذوره داخل رحمها.

تدق الخيول الطريق بسنابكها، وتلهب الشمس جسدها، يصلان إلى حافة الجبل ويدخلان في تلافيف الأشجار المترامية على سفحه، غابة مسحورة، تأخذهما برطوبتها وخضرتها الداكنة، تتدلى حولهما غصونها القديمة مثل حبال ملتفة، عذراء لم تمس، لا شيء يحد من تحليق الفراشات، ولا الطيور التي تصدح، يسيران في ممر ملتو للأعلى، تظهر بضع درجات حجرية، متكسرة ولكنها صالحة لصعود الخيل، يظلان صامتين مأخوذين برهبة المكان، تشبه ميرامار، لولا أن هذه الغابة أكثر وحشية وجمالا، يقول «ماكس» هذا وهو يتلفت حوله مبهورا، لا بد أن مقابلة الصباح الفاشلة قد تبددت من نفسه، يعود كما هو، طفل الطبيعة البكر، ما إن تحتويه بين أحضانها حتى تتبدد أحزانه، يشير متحمسا: انظري هناك مبنى على قمة الجبل، ربما كانت قلعة حجرية، تبدو كذلك بالفعل من بين ذوائب الأشجار، تظهر لمحة من أحجارها العتيقة، يلكز الجواد ويواصل الصعود لاهثا، يقتربان من الجدران الحجرية الراسخة في الأرض، تتسلق عليها النباتات وتتفتح زهورا جهنمية مفلطحة الأوراق، تتبعه مشدوهة، تعبة وخائفة من فرط النزق، يزداد اقترابهما: قلعة سحرية في غابة سحرية، غارقة وسط بحر من الخضرة، ترسم الطحالب على جدرانها حروفا مجهولة، يدوران حولها بتمهل، الجدران سميكة وسامقة، أبراج صغيرة وفتحات للرماة، فوهات مدافع صدئة، تحيط بها نباتات متسلقة، تريد الانعتاق من رطوبة الغابة، يدور «ماكس» مبهورا، مستثارا، يصيح في ارتياح عندما يصل إلى الباب الرئيسي في اتجاه الشرق، بابا ضخما، مشغولا

بقطع الزرد والحديد، تكون أشكالا من وجوه متجهمة يعلوها الصدأ، طابع تماثيل الأزتيك التي رأياها خلال رحلتهما، رءوس ضخمة باعثة على الرعب، يهبط «ماكس»، يبدو مثل طفل اكتشف للتو لعبة جديدة، تشعر بالخوف من هذا المكان النائي، ربما تكون هناك وحوش برية قديمة خلف هذه البوابة، ربما تتحفز بأسنانها وهي تنتظر اقترابهما، تهتف به محذرة، ولكنه يواصل الاقتراب، يتحسس النقوش البارزة، اكتسب البعض منها لونا أخضر وأصبحت جزءا من خضرة الغابة، تشعر أنها تزحف عليهما كل لحظة، تتوسل إليه أن يعودا، لا يستمع لها، تسيطر عليه حمى الاكتشاف وعدم المبالاة بالخطر، يشهق ظافرا حين يجد بابا صغيرا داخل الباب الضخم، يدفعه بكتفه فيصدر صريرا، يستجيب ويتحرك، كل شيء ليس صلبا وجامدا كما تتصور، المكان ليس مهجورا لهذه الدرجة، لا يستطيع «ماكس» مقاومة إغراء الفتحة الموجودة أمامه، لا يبالي بتحذيراتها ويخطو داخلا، ذلك التهور المعتاد الذي دفع بهما معا لهذه الأرض.

تسمع من الداخل صيحات غاضبة، تهبط مسرعة من فوق جوادها وتخطو خلفه، لأول وهلة لا تفهم ماذا يحدث؟ تجد «ماكس» واقفا رافعا ذراعيه لأعلى، وهناك بندقية موجة لصدره، يمسك بها شخص نحيف مرتعد، داكن السمرة، زيه العسكري بالغ الرثاثة، وبندقية بالغة القدم، ماسورتها أكثر طولا منه، لا تكف يداه عن الاهتزاز، لا يستطيع أن يحكم قبضته عليها، يبدو خائفا أكثر منهما، تخشى أن تتسبب رعدته في انطلاق رصاصة طائشة، يتمتم «ماكس» ببطء: اهدأ.. دعني فقط أخلع هذه القبعة حتى ترى وجهي..

كلاهما يرتعد، تريد أن تضحك من منظرهما، لكن الموقف مرعب بالفعل، يمد «ماكس» أصابعه ببطء حتى لا يستثيره، يخلع القبعة ببطء،

تبدو بشرته الشاحبة ولحيته الشقراء وعيناه الزرقاوان، ملامحه الغريبة تثير حيرة الرجل، يهتف: أنت فرنسي آخر، مثلهم جميعا، كيف تجرؤ على التسلل هكذا؟

يلح «ماكس» عليه، يصبح الأمر أكثر هزلا: تأمل وجهي قليلا، ألا تهبط للمدينة أو تقرأ أي نوع من الجرائد؟ أنا الإمبراطور الجديد..

يهتف «ماكس» وقد يأس من غبائه، لا يخفض الرجل بندقيته، يكتشف وجودها بجانب باب القلعة، يدور ببصره بينهما، يتشبث أكثر بالبندقية وقد ظن أن هناك خدعة ما، يتمتم: ربما كنت كذلك لأنك غريب أكثر مما ينبغي، ما الذي يحضر إمبراطورا مثلك لهذا المكان النائي، أليس لك قصر تقيم فيه؟!

يضحك «ماكس» محاولا التخفيف من الموقف، يشير الرجل نحوها: ستقول لي أيضًا إن هذه هي الإمبراطورة..

يبتسم «ماكس»، تخف درجة التوتر، يقول: أجل.. ألا تهبط إلى المدينة أبدًا؟!

يهمهم الرجل: أنا أحرس هذا المكان منذ عشرات السنين، نسيت شكل المدينة وأناسها، ولكن من الجيد أنهم كفوا عن القتال وأحضروا إمبراطورا جديدا..

يمد «ماكس» يده إلى جيبه ويخرج قطعة ذهبية، المرة الأولى التي تراه فيها يحمل فيها نقودا، هناك دائمًا من يتولى عنهما عملية الإنفاق، حتى في أوربا البعيدة، بدأ يتغير الآن، يقول: لم تطبع صورتي على العملة بعد، ولكن يمكنك أن تحتفظ بها..

يخفض الرجل البندقية أخيرًا، يقلب العملة غير مدرك لقيمتها،

يقول: أنا حقا لا أحتاج إليها، ولكني سأحتفظ بها لأقول للناس إنني قابلت إمبراطورا، إن كنت حقا إمبراطورا..

يتنفسان أخيرًا في ارتياح، يخطوان إلى داخل المكان دون أن يهددهما ببندقيته، هناك بقية من عقل في رأسه رغم وحدته القاتلة، يجلس وهو يلتقط أنفاسه، ثم تطلَّع إليهما وقال في اهتمام: هل توقفت الحروب حقا؟!

لم تتوقف بعد ولا يبدو أنها ستتوقف قريبا، لا يقول له ذلك، يبدو جنديا هاربا من كل الحروب، يختبئ داخل هذه القلعة الرطبة، يحلم بلحظة من السلام، ربما عليهما أن يحسداه على هذه العزلة، يتقدم أمامهما ليريهما تفاصيل المكان: طحالب تملأ ثغرات الأحجار، ونباتات متسلقة تزحف من النوافذ إلى الداخل، درج زلق وضيق، وممرات طويلة ومعتمة، قاعات تنعق فيها الغربان، بوم نائم يستيقظ مفزوعا على صوت خطواتهما، عناكب من الصعب تمزيق أنسجتها الثقيلة. يقول الجندي الرث: كل شيء حدث هنا، تاريخ هذه الأرض إلا قليلا، هذا المكان كان القصر الصيفي للإمبراطور «منتزوما»، قبل أن يأتي الرجل الأبيض ويلوث كل شيء، في هذه الساحة كانت تقام احتفالات الخصوبة، يجدد الناس أجسادهم ويخلعون سنوات عمرهم، ويهبط الكهنة إلى الغابة ليطهروا الأجساد من الأمراض، يعطونهم مزيج إعادة الشباب وهم يتلون التعاويذ تحت المطر..

زمن ضائع، يوقفهما الجندي الرث على حافة السور، تمتد الغابة أمامهما، وتبدو خلفها المدينة، تحيط بها حواف المستنقعات، وتعلو جبال البراكين المغطاة بالثلوج، هل هذه المملكة لهما، أم هي مجرد حلم عابر؟ يواصل الجندي الكلام: هذه مدينة الأزتيك القديمة، كانت

هناك مجموعة من القبائل لا تكف عن الرحيل، تبحث عن قطعة من الأرض تمنحهم الأمان، تحاول الهروب من القبائل المعادية والحروب الوحشية التي تلاحقها حتى يصلوا إلى هنا، يرون أكبر مستنقع في الأرض، في وسطه توجد جزيرة تحيط بها التلال، يدركون أن أرضا مقدسة كانت في انتظارهم، ولكن الآلهة كانت تطالبهم كما هي العادة بدفع الثمن، مرت عليهم أثناء رحلتهم خمس شموس، كلما صعدت واحدة لوسط السماء، استقروا في أماكنها، ولكن الشمس سرعان ما تبرد وتتحول إلى صخور صماء، ويعودون للرحيل من جديد، أربع شموس صعدت وبردت وتحولت إلى صخر، ومن أجل أن تبقى الشمس الخامسة ويدوم دفؤها، ضحى الآلهة كلها بأنفسهم، ألقوا بأنفسهم لحمم النار، لذلك كان لا بد للبشر أن يفعلوا مثلها، يقدمون من أنفسهم قرابين من الدم مع كل شروق للشمس، آلهة الأزتيك كانت غاية في القسوة، لا تتقبل من القرابين إلا دماء البشر..

لا تملك «كارلوتا» إلا أن تشهق وهي تضع يدها على فمها: يا إلهي، دماء البشر، أليس شيئا وحشيا؟

يقول في شفقة: العيش الآمن باهظ الثمن يا سيدتي، عليك دائمًا إهدار دماء الآخرين حتى تنقذي دماءك، لقد دفعت عمري في هذه القلعة من أجل ذلك، وكان أجدادي في حاجة لأرواح الأسلاف حتى تهديهم للمكان الذي سيقيمون فيه مدينتهم، شاهدوا نسرا يهبط من أعلى، يحرك أجنحته الضخمة في الهواء ويوجه منقاره المعقوف، ثم ينقض على الأرض في حركة خاطفة، وعندما ارتفع من جديد كان بين مخالبه ثعبان ضخم يتلوى من فرط المباغتة، الإشارة التي كانوا ينتظرونها، أرواح الأسلاف هي التي حددت المكان الذي سيبنون فيه مدينتهم، ولكن الأرض كانت عطشى لدماء البشر، البحيرة

لا تستقر، والبراكين المليئة بالحمم تحيط بها، والقبائل الأخرى لا تكف عن مهاجمتهم، كيف كان يمكن أن يتوقفوا عن تقديم القرابين من البشر والأحوال هكذا؟! في هذه القلعة حبست الضحايا أياما طويلة قبل أن تقدم كأضحية لتهدئة غضب الآلهة، وظلت الآلهة عطشى رغم ذلك كله..

يسير الرجل ويتبعه «ماكس» مذهولا، أو مسحورا، يسأله مندهشا: في مكانك المنعزل هذا، كيف عرفت كل هذه الأشياء؟

يقول الرجل في تأكيد: «منتزوما» بنفسه أخبرني بذلك..

رجل مخبول، ولكن لحسن الحظ لم يكن مؤذيا، تذوب في ذاكرته حواجز الزمن، ولا يكف «ماكس» عن متابعته، وهي لا تملك إلا أن تسير خلفهما، تحيط بهما ظلال المكان وعتمته الأسطورية، تبعث داخلها بالخوف، تتخيل أنها ستكون الأضحية التالية، تريد أن تصيح في «ماكس» حتى يترك هذا المخبول الوحيد ويعودان إلى القصر، ولكن درجا حجريا يظهر فجأة، يهبط عليه الرجل فيهبطان خلفه، تشم رائحة عفونة عتيقة وتسمع صوت تكسر عظام هشة، كان يجب ألا يأتيا لهذه البلاد الغريبة، يتوقف الجندي الرث أمام حجرة معتمة ضيقة، يتسلل إليهما ضوء خافت من فتحة في الأعلى عليها قضبان متصالبة، المكان كله أشبه بجوف بئر، يغوص الجندي الرث في العتمة، لا يسمعان فقط إلا لصوته المرتجف كأنه قادم من زمن آخر: هنا قضى «منتزوما» أيامه الأخيرة، ومازال يظهر لي عندما يحل الظلام ولا يكف عن الحديث معي..

تشعر بالخاتم يزداد ثقلا في أصبعها، كان يجب أن تخلعه قبل أن تغادر القصر، تتعود عيناها على العتمة، يشير الرجل إلى حزم مربوطة من

الأسهم، أطرافها حادة مدببة، معلق بها ريش ملون، يتواصل الصوت: نجا «منتزوما» من كل هذه الأسهم، كل سهم يحمل ريشة لونها مختلف، كل لون يخص قبيلة معادية، ولكنه نجا منها جميعا، ولكنه كان تعس الحظ فلم يستطع النجاة من «كورتيز»، الغريب أنه كان يؤمن بقاتله، يؤمن أن «كورتيز» إله قادم من البحر، أشقر وأزرق العينين، لم يكن يريد أن يحاربه، حاول فقط أن يصالحه وأن يسترضيه، قدم له الهدايا وأعلن له عن ولائه، ولكن «كورتيز» لم يكن يؤمن بهذه الخرافات، لم يرض بأقل من الاستيلاء على مملكته كاملة، عندما اضطر «منتزوما» لمحاربته، فعل ذلك وهو غير مقتنع، قال لي ذلك بنفسه..

يبدو أن «ماكس» قد بدأ في تصديقه، يقول في أسف: من أجل هذا تمت هزيمته، كان عليه ألا يفعل..

يرد الجندي الرث في تأكيد: رغم ذلك فقد حارب بشجاعة مثل بقية الأزتيك، أتدري من هزمهم بالفعل.. الجدري، المرض الذي أحضره الغزاة معهم، لم يأت البيض إلا بالمرض لهذه الأرض المقدسة، هل أنت مريض يا سيدي؟

يشحب وجه «ماكس» فجأة ويهز رأسه بالنفي، رغما عنها تشم رائحة «منتزوما»، ترى وجهه وهو يتآكل بفعل الجدري، تشهق وهي تمسك بذراع «ماكس»، تتوسل إليه أن يخرجا من هذا الكابوس، يطاوعها أخيرًا، يصعدان، يعودان للهواء المعبق برائحة الغابات، تنظر إلى وجهه الشاحب وعينيه اللامعتين، كأنه على وشك البكاء، يتمتم لنفسه: أنا في حاجة لهذا المكان..

تسمعه بوضوح ولكنها لا تفهم ماذا يعني، ولا فيما يفكر، يخرج الجندي الرث ويقف محني الرأس، ينتظر انصرافهما، أزعجا وحدته

أكثر مما ينبغي، يخرجان من القلعة ويركبان الجياد، لا ينحدران مباشرة إلى الطريق الهابط إلى أسفل، ولكن «ماكس» ينحرف بجواده داخل دروب الغابة، يأخذ أنفاسا عميقة ويتأمل الأشجار العتيقة التي وجدت منذ بدء الخليقة، يراقب أسراب الطيور الملونة، لا يأبه كثيرًا بخوفها ورغبتها في الانصراف، ليست نادمة لأنها تبعته، ولكنه أصبح غريبا وشاردا كأنه لايدري أنها معه، يتمتم: سأنتقل إلى هذا المكان..

تشهق: أي مكان؟

يشير إلى أعلى: إلى هذه القلعة، ستكون مقري الجديد، لن أعيش في هذا القصر الذي يحيط به الشحاذون..

لا تصدق ما تسمعه، نزوة أخرى مفاجئة، يواصلان السير على الطريق المؤدي للمدينة، تصبح القلعة خلف ظهريهما، لكنها تدرك أنها لم تغادر مخيلته، تهتف محتجة: ولكنها في مكان ناء وبعيد عن المدينة التي نحكمها.

يقول في اقتناع: حوالي اثنين من الأميال، لا أكثر من ذلك، بعد أن نرصف هذا الطريق جيدا لن يكون نائيا، لقد تركنا ميرامار خلف ظهرنا، ستكون هذه ميرامار الجديدة.

يستيقظ الأمير الحالم في أعماقه، يريد أن يقيم حيث تطير الفراشات الملونة، تكتشف فيما بعد أنها لم تكن مجرد نزوة، فما إن يعودا إلى القصر حتى تكون حمى الانتقال قد سيطرت على ذهنه، تراجعت هموم الدولة ومخاوف الحكم الجديد، يوقظ الوزراء، يستدعي أفضل مهندسي الجيش الفرنسي، يذكر لهم حلمه في الانتقال إلى مقر جديد للحكم، إلى قلعة «شابولتبك» يبدون الدهشة والاعتراض، لا يتذكر معظمهم أن هناك قلعة بهذا الاسم، يرضخون أمام تصميمه، يعود

المهندسون بعد أيام وهم يحملون لفائف من التصميمات المطوية، تتكون دوريات استكشافية من راكبي الخيول، تطوف بالغابة وتفحص جدران القلعة، لا بد أن الجندي الرث يموت رعبا من كثرة الجنود الذين يطوفون حول مقر عزلته، لا يتراجع «ماكس» ولا يفتر حماسه، يريد الرحيل عن المدينة الخانقة بأسرع ما يمكنه، ربما كان هذا حلا يشجعه على الإقامة في هذا العالم الجديد، هي نفسها بدأت تشعر بأنها عارية وسط هذا القصر الكثير النوافذ، ولكن خوفها لم يهدأ، ماذا سنفعل إذا قطع المتمردون الطريق بين هذه القلعة المنعزلة وبين المدينة؟ تطرح عليه هذا السؤال وهو منهمك في تأمل الرسوم المختلفة، يقول دون أن ينظر إليها: لو حدث هذا سيكون فيها نهايتنا، يبدأ العمل سريعا، يتجمع المئات من العمال الهنود، ينتشرون على طول الميلين بين القلعة والمدينة، يتحركون كسرب من النحل في أرديتهم الداكنة، وقبعات القش الضخمة التي تحميهم من الشمس، تدك الأرض مئات من المعاول، تخرج من أعماقها تربة جديدة ليسير عليها ملك جديد، يختلف عن كل الذين عبروا من ملوك غابرين، فليهدأ قلبها قليلا، يريد «ماكس» أن يبقى في هذا المكان، آلاف العمال يساعدونه على ذلك، يحفرون بالمعاول، يسوقون البغال وهي تصعد التل حاملة سلالا من الأحجار، يهوون بفئوسهم ويقطعون الأشجار، يوسعون طريقا في وسط الغابة، يحاولون بعث الحياة في القلعة التي تحللت بفعل الزمن والرطوبة والمطر، يصعد إليها بناءون وحدادون ونجارون ومبلطون ومبيضون، تقف النساء على بابها وهن يمزجن الملاط، تتصاعد الأدخنة من تفاعلات الأحجار الكلسية، لاوجود للجندي الرث، انتزعوا منه مخبأه، تشعر بالعطف عليه، تطلب من الحرس أن يحضروه لها، لا يراه أحد، لا بد أنه يهيم الآن في الغابة، يقف مختبئا

خلف الأشجار وهو يراقب كيف تتبدل القلعة التي سرقت منه، حتى في الليل لا تهدأ الحركة، توقد المشاعل ويتحول العمال إلى ظلال معتمة لا تكف عن الحركة، كلما أصاب التعب جانبا منهم نهض آخرون، «ماكس» أيضًا لا ينام، لأيام كاملة لا يهبط من فوق صهوة جواده، يمر عليهم جيئة وذهابا، في الشمس الحارقة، في برد الليل، تحت زخات المطر المفاجئ، لا يوجد قدم فارغ في مساحة الميلين.

يحلم «ماكس» أن يكون هذا الشارع أجمل من «الشانزليزيه» الذي يمتد في قلب باريس، تشاركه أحلامه، وهما يراقبان حركة العمال، وردية ترحل لتأتي أخرى، تصطك معاولهم مع بعضهم البعض عند خط الافتراق، تصبح المدينة نشطة، يجيء باعة الأطعمة والفاكهة ويأخذون أماكنهم على جانبي الطريق، ولكن «بيازين» يبدو ممتعضا، لا يستطع أن يخفي ذلك عنها وهما يتجولان على جواديهما في نهاية يوم من العمل، تسمعه وهو يقول بوضوح: سوف يزيد هذا من عبء الدين الموجود على البلاد..

تشعر بالغضب، تعرف غرضه من هذه الرسائل المبطنة، لا يتصور أن تذهب النقود لشيء غير حربه الخاصة، الحرب التي لم ينتصر فيها حتى الآن، تقول: يريد الإمبراطور مكانا يحكم منه، ما المشكلة في ذلك؟

لا تدري إن كان قد شعر بغضبها أم تجاهله، يقول بنفس الدرجة من البرود: ليس إذا كانت الديون تبلغ مائتي مليون من الفرنكات، وكل موارده لا تزيد على الخمسة والثلاثين مليونا..

ترفع صوتها قليلا، لم تكن لتستسلم أمام هذه الملحوظة، تقول في بعض من الحدة: لم نتسلم الحكم إلا منذ مدة قصيرة، أين كان التنظيم الفرنسي خلال الفترة الماضية؟ لماذا لم يستطع زيادة العوائد؟

يرد ببرود: ماذا يمكن أن تفعل الإدارة في مواجهة كل هذا الفساد الذي تغرق فيه البلاد؟!..

يقول ذلك بلهجة قاسية، يومئ برأسه ويلكز جواده صاعدا إلى القلعة، لا بد أنه الآن يفكر في التقرير الذي سيرسل به إلى ولي نعمته في فرنسا، ولكن لا شيء يقاس بنظرة السعادة وإحساس الظفر الذي يبدو على وجه «ماكس» وهو يتحرك، تعرف أن «بيازين» على حق، هذا البلد أكثر ثراء مما يظنه الجميع، ولكن اللصوص والفاسدين فيه أكثر مما ينبغي، وأقوى مما يجب، يخيل إليها أنها ترى الجندي الرث وهو يسير ذاهلا، يحمل بندقيته الطويلة العتيقة على كتفه، يوشك أن يصطدم بالعمال، وتوشك أطراف معاولهم الحادة أن تصيبه، لا يسمع نداءها، لا يفهم ما يحدث حوله ولا يعرف إلى أين يتجه! ولكن القلعة لا تكف عن التغير في كل يوم، تفقد وحشتها القديمة، وتنزع جدرانها من غصون الغابة، وتغلق نوافذها أمام الأغصان التي تقتحمها، يصر «ماكس» على تحويلها إلى قصر يشبه قصر الأمان الذي فقداه.

يحين موعد الانتقال إلى «شابولتبك»، يتركان المدينة المزدحمة بالمتسولين، المفعمة بالروائح الثقيلة، يصعدان إلى قلعتهما العالية، تتراجع الغابة قليلا من حولها، لم تعد الأغصان تزحف على جدرانها أو تتسلل داخل نوافذها، تتأمل ما صارت عليه، ليست «ميرامار» ولكنها لم تعد القلعة القديمة، طليت الغرف الداخلية باللون الأبيض، وتم كشط الأحجار لتظهر ألوانها الحقيقية، واكتسى الدرج الزلق بسجاد أزرق ملكي، ووضعت على النوافذ الموحشة أبواب من الخشب والزجاج وأسدلت عليها ستائر من المخمل، تختار بنفسها الأثاث، تنتقيه من المحلات التي تستورد هذه الأشياء من فرنسا، أسعارها مضاعفة ولكن من يهتم، أن تخلق مكانا مفعما بالحياة والتفاصيل وسط غابة موحشة

هو أمر مكلف، يستطيع «ماكس» الآن أن يقف في النافذة ساعات طويلة يراقب رحيل الطيور، كم يوما عليها أن تعبر فيه المحيط حتى تصل إلى أوربا؟ يلتفت نحوها في ظفر، لا تمتلك أوربا غابة دافئة مثل هذه الغابة، لا توجد هناك إلا غابات سوداء موحشة، تومئ برأسها موافقة، لا تجرؤ على إخباره بما يقوله «بيازين» عن الكلفة الباهظة، يؤكد «ماكس» عليها: ليس السواد في الغابات فقط، ولكن القلوب هناك أكثر سوادا، ما زال يقنع نفسه بأهمية وجوده في هذا العالم الجديد، يهتف في انتشاء: سنقيم حفلا كبيرا، ندعو فقط من نحبهم سيقود هذا المكان المكسيك إلى عصر جديد، وستمتد الإمبراطورية حتى حدود «بنما»، تخشى أن يسترسل في أحلامه كثيرًا، تقول: وماذا عن أعدائنا الأمريكيين في الشمال؟ يضحك في انشراح. إنهم يتقاتلون، وسيواصلون القتال حتى يفني الشمال الجنوب، أو العكس، وسننجو نحن، أنا متأكد أننا سننجو، يحتضنها ويقبلها، لا تتمنى في هذه اللحظة أكثر من أن تنجب له وريثا، على الأقل حتى يكتب لحلمه الاستمرار، ولكن من يملأ رحمها الخالي؟

يسيران متماسكي الأيدي وهما يتفقدان المكان، يصلان إلى الغرفة المظلمة في قاع القلعة، لم تعد كذلك، تخلصت من السهام وبقايا العظام، ومن رائحة «منتزوما»، تم فتح بابا واسعا في جدراها السميك، ولم يعد يفصلها عن جوف الغابة إلا حائط من الزجاج، تطل من خلفه الأرانب البرية والثعالب الصغيرة ولا تكف الفراشات الملونة عن الطيران، مشهد بديع خاصة وهو يلتصق بها من الخلف ويحيطها بذراعه، ما أجمل الدفء الذي ينبعث منه، يهمس في أذنها: لقد أرسلت لأروبا لأطلب أنواعا مختلفة من العصافير، سأطلقها وسط هذه الغابة حتى تنتج سلالات جديدة، وماذا عن سلالتنا نحن؟ ذلك الحالم

المثالي الذي يجب عليها أن تؤمن به، لا يجب أن تدع مشاكل هذه الأرض الجديدة تأكل روحه!

يستعدان للحفل الكبير، ليس فقط أن يكون أفضل حفل تشهده المدينة، ولكن استعادة جزء من روح البلاط النمساوي الذي فقداه، حتى الآن لم ينجح الطباخون الذين جاءوا معهما في التعامل مع أنواع الأطعمة المكسيكية، ولا توجد كمية كافية من أطباق الفضة، ولكن يجب أن تعبر أضواء الحفل الحدود لتراها أمريكا، ويجب أن تدق الموسيقى عاليا ليسمعها «بنيتو خوارز»، يمتلئ الطريق الممتد من المدينة للقلعة بالأضواء، تنتشر عقود من زهور الليلك، وأغصان الزيتون، وتبدأ العربات التي تحمل الجميع في التوافد: ضباط فرنسيون يسيرون في خيلاء بقبعاتهم المستطيلة، «الهاسيندادا» من الأعيان والأثرياء، بثيابهم الفخمة المطعمة بخيوط من الذهب والفضة، بصحبتهم زوجاتهم وبناتهم وعشيقاتهم، دبلوماسيون أوربيون وتجار ومغامرون، يقبل المارشال «بيازين» بصحبة خطيبته الصغيرة ذات السبعة عشر عاما، تتطلع بعينيها الواسعتين وبشرتها النحاسية للدخول إلى عالم السادة، برغبة عارمة ودون رهبة، ويجيء الأساقفة والرهبان وهم يرتدون مسوحهم السوداء، يجتمعون في ركن من القاعة، يختلسون النظر لنحور النساء العارية ولا يكفون عن التهامس، يستقبلهم «ماكس» سعيدا لأنهم جميعا قبلوا دعوته ودخلوا قلعته الجديدة، جمع غير متناسق، لا أحد يعرف فيه الفرق بين الأصدقاء والأعداء، يقفون جميعا في المكان نفسه، لا تتوقف الموسيقى عن العزف، ولا تتوقف ضحكات النساء، و«كارلوتا» تسعى بين الجميع، تدعوهم للعشاء، منضدة ممتدة يجلس إليها الجميع، عليها أطباق الفضة وكئوس البلور وأزهار إستوائية نضرة، جاءت كلها من الغابة المجاورة، يتصدرها «ماكس»، وتجلس

في مقابله في الطرف الآخر، ويمتد أمامهما صفان من البشر الذين يتشاركون معهما في هذا العالم الذي يتشكل، تعرف القليل منهم وتجهل معظمهم، ولكنهم جميعا يحنون رءوسهم ويضعون على شفاههم ابتسامات واسعة، الطعام وافر ولكن لا أحد يأكل تقريبا، هكذا تقضي الأصول على منضدة الإمبراطور، لم يأتوا للتمتع بالطعام، يكفيهم فقط شرف التواجد.

تكون أول من ترى الرجل المتشح بالسواد، يقف على باب القاعة، طويل القامة، تمتد لحيته الكثيفة لمنتصف صدره، مغطى بالتراب، مسافر طال به السفر، ينظر إلى الجميع بعينين نافذتين، يعلو صدره ويهبط منتزعا أنفاسه في صعوبة، يعاني من غضب مكبوت، يهبط قلبها، مَنْ هذا الرجل؟! كيف وصل إلى قاعة الطعام، ولماذا يقف بهذه الحالة من التحفز؟ تنهض واقفة فيتوقف الجميع عن الأكل، يحول «ماكس» رأسه لينظر إلى حيث تركز بصرها، لا يتحرك الرجل من مكانه، يقف «ماكس» حائرا لوهلة، تتحرك كتلة القساوسة والأساقفة، يخبون في أرديتهم الطويلة حتى يقفوا أمامه، ينحنون وهم يقبلون يده، يتركها لهم بلا اهتمام، يظل واقفا يحدق في اتجاههما، كأنهما الوحيدان الجديران بالملاحظة والعداء، يهتف أحد الرهبان في تبتل: نحمد الرب أنه أعادك إلينا سالما يا سيدي الأسقف «لاباستيدا»..

يتردد الاسم على ألسنة جميع الجالسين حول المنضدة في مزيج من الرهبة والخوف، تبحث في ذاكرتها سريعا، تردد هذا الاسم أمامها أكثر من مرة، يدخل في تلافيف الأسماء والمشاكل التي تواجههما، يسرع «ماكس» ويتقدم من الأسقف، يقف حتى ينتهي القساوسة من عملية الترحيب، يبتعدون أخيرًا عن طريقهما، يقفان متواجهين، يتحرك «ماكس» بما يكفي من خطوات، ليس مستعدا لأن يقوم بخطوة أخرى

زائدة، لا يتحرك الرجل أيضًا، ولكنه يقدم تنازلا بسيطا، يحني رأسه قليلا، يقول «ماكس» ببساطة: جميل أن تعود إلى بلدك أخيرًا يا نيافة الأسقف، ستفتقدك روما، ولكننا سنسعد بك هنا.

يتصرف «ماكس» بكياسة زائدة، يرد «لاباستيدا» دون أن تطرف عينيه: مولاي الإمبراطور، أنا أحمل إليك رسالة مهمة من غبطة البابا..

لهجته مباشرة وحادة، يحافظ «ماكس» على ابتسامته الساحرة: ليس قبل أن تجلس إلى مائدتي..

يفسح القساوسة مكانا له وسط المائدة، يأخذ مكانه دون أن يبتسم أو يحيي أحدا، يرمقها بنظرة سريعة صارمة، ترد عليه بابتسامة متوجسة، يضع الخدم أمامه أطباق الطعام فلا يأكل شيئا، ينقل توتره إلى الجميع، ينقل نظراته بينهم، يلومهم لأنهم بقوا بينما رحل هو بعيدا، كان الأسقف العام لكل المكسيك، ولكنه اضطر للمغادرة عندما استولى «بنيتو خوارز» على السلطة، واستولى أيضًا على أراض شاسعة من أملاك الكنيسة، رحل الأسقف طريدا إلى إنجلترا ثم فرنسا، ثم استقر أخيرًا في روما، بجانب البابا، ولكن كل الكنائس لم تكف عن ترقب عودته، لا تدري «كارلوتا» من كان منهما مدينا للآخر بوجوده في هذا المكان، هناك ثمن لا بد أن يدفع، يحاول «ماكس» أن يحافظ على مرحه، يتبادل الحديث مع ضيوفه، ولكن الردود تأتي جافة وباترة، لا تجرؤ على الكلام، تحس بثقل في معدتها، يتبادل الضيوف النخب الأخير، لا يكلف نفسه برفع كأسه، بشكل أو بآخر تم إفساد العشاء، يركب الضيوف عرباتهم وخيولهم وينصرفون سريعا، تهز الريح المشاعل التي تضيء الطريق وتوشك أن تطفئها، يخلون المكان في زمن قياسي، حتى «بيازين»، يتناول يد عروسته الصغيرة ويقودها إلى الخارج، لا يلتفت للوراء، يظل الأسقف جالسا على المنضدة حتى بعد أن يبدأ الخدم

في رفع الصحاف، ما تزال ممتلئة ببقايا الأطعمة، يتكوم القساوسة مرة أخرى في ركن القاعة، يتحولون إلى كتلة سوداء ساكنة، يبقون فقط ليدعموا الأسقف العائد في مواجهة الإمبراطور، تقف حائرة، تتطلع إلى وجه «ماكس»، تُرى هل يريدها بجانبه؟ وجهه شاحب ولكنه كان يزم شفتيه في إصرار، لا يبدو خائفا من هذا الذئب الأغبر، يقف أمامه قائلا: هل يمكن أن تتبعني يا سيدي؟

يغادر الغرفة سريعا، ينهض الأسقف ببطء، لا يجد بدا من أن يتبعه، غرفة صغيرة ليس فيها إلا مكتب وخزانة للكتب، يدخل الأسقف فيجد «ماكس» واقفا في المنتصف ويديه معقودتان خلف ظهره، لا يتبادلان كلمة واحدة، يمد الأسقف يده في تلافيف ثوبه ويخرج رسالة مطوية، مربوطة بشريط قرمزي وعليها خاتم «الفاتيكان» واضحا، يفتحها «ماكس» بحركة سريعة، لا يبالي عندما يسقط ختم الشمع على الأرض، يتوقف بالقرب من المصباح، يقرأ الكلمات أكثر من مرة والأسقف يراقبه بوجه جامد، يرفع رأسه ويحدق فيه قائلا: كل ما يطلبه الحبر الأعظم واجب الاحترام والتقدير، ولكن من الصعب تحقيقه..

يحتقن وجه الراهب فجأة، كأنما أصابته ضربة برق، يقول: لم يطلب البابا أكثر من إعادة الحق لأصحابه، أملاك الكنيسة يجب أن تعود للكنيسة..

يقول «ماكس»: لست أنا الذي صادرت هذه الأملاك..

يرد الأسقف في سرعة: فعلها الجمهوريون، لذلك حلت عليهم اللعنة، أرسل الرب إليهم الفرنسيين، ثم جئتم أنتم، ووقفنا معك من أجل تصحيح هذا الخطأ الشنيع، غبطة البابا يلح بشدة لتنفيذ رد الأملاك بأسرع وقت.

يبتعد «ماكس» قليلا، يريد التخلص من أثر عينية النافذتين، يقول دون أن ينظر إليه: كانت الكنيسة تمتلك ثلث الأرض في المكسيك، مئات من الإقطاعيات والمزارع، بن وكاكاو وأناناس، يعمل فيها آلاف من الهنود، دون أجر تقريبا، فقط ما يبقيهم على قيد الحياة، أموال طائلة تصب في خزائن الكنائس والأديرة، وفي المقابل.. ماذا تقدم للناس؟ معظمهم جهلة لا يعرفون القراءة والكتابة، هناك قرى لم ترى قسا واحدا طوال حياتها، أطفال ولدوا دون تعميد وشيوخ ماتوا دون صلاة أخيرة ودون أمل في الغفران، كل هذه الثروات لم تقدم الكنيسة شيئا في مقابلها.

يتكلم في هدوء، ولكن غضب الأسقف يتصاعد، يرد عليه: مع كل احترامي لك يا مولاي، أنت ما تزال غريبا عن بلادنا، هذه الأرض وهبها لنا الرب، وبفضلها استطعنا أن نصون البلاد ونهدي هؤلاء الهمج إلى حظيرة الكاثوليكية، أنت إمبراطور كاثوليكي في بلد كاثوليكي، ونحن الذين صنعنا ذلك، البلد والمنصب، ونحن نعرف كيف نرعى الفقراء أفضل من أي أحد، علينا أن نستعيد أرضنا، هذه إرادة البابا وإرادة الله.

يهز «ماكس» رأسه: آلاف الفلاحين يمتلكون هذه الأرض الآن، وزعها عليهم الجمهوريون قبل أن آت إلى هنا، كيف أستردها منهم؟

لا يستسلم الأسقف بسهولة: نحن نعرف أرضنا جيدا، ويمكن أن نسترد كل شبر فيها..

يقول «ماكس»: أمر صعب أن أبدأ عهدي بخلق طبقة من المعدمين والمحرومين، سيكون هؤلاء أشد عداء لي من الجمهوريين، إنني أعد

الآن قانونا ستقوم الدولة بدفع مرتبات كاملة للقساوسة، وسنتولى الإنفاق على الكنائس والأديرة أيضًا..

يهتف الأسقف: بيوت الرب لا تعيش عالة على أحد، رد لنا أرضنا واترك لنا حرية التصرف، ما الفارق بينك وبين الجمهوريين الذين حاربناهم إذن؟! افعل فقط كما يقول البابا..

يتأخر الليل، لا يبدو أن هذا الجدل على وشك الانتهاء، يلتقط «ماكس» أنفاسه، يقول مهدئا: دعني أفكر، ربما نجد حلا..

لا ينخدع الأسقف بهذا الوعد الغامض، يواصل الجدال: متى يا مولاي، فلتسمح لي أن أعرف، بعد يوم، أسبوع، شهر..؟!

يرد «ماكس» ببرود: دعني آخذ وقتي يا سيدي الأسقف..

يستمر الأسقف في محاولة فرض سيطرته، لا يريد أن يخرج منهزما أمام جمع القساوسة الذين ينتظرونه، ولا المدينة التي ستعرف غدا بأمر هذه المقابلة، يقول ببطء: خذ وقتك، الوقت كله لكم، ولكن منذ الآن ستتوقف الكنيسة تمامًا في انتظار قراركم، سنغلق أبوابها في كل أنحاء المكسيك، لا قداس، لا تعميد ولا مناولة ولا زواج ولا اعتراف ولا مسحة للمرضى ولا حتى تأبينا للموتى، أهنئك يا مولاي الإمبراطور، لقد بدأت عهدك بحرمان شعب المكسيك من طقوس كنيسته..

يخطو خارجا من الغرفة، يخطو خلفه القساوسة خارجين، تراهم من نافذة غرفتها وهم ينصرفون، تشعر فجأة ببرد الغابة وهو ينفذ من خلال النافذة، يقبل «ماكس» ويقف بجانبها، يحدقان في الغابة المظلمة التي تحيط بهما، يستدير القمر ويهوي في فراغ العالم، يسيران وحيدين بين بقايا الحفل، رائحة الطلاء الحديث خانقة، طلاء طري لم يجف بعد،

تمامًا مثل إمبراطوريته الجديدة، يتساءل «ماكس»: ماذا أفعل مع هذا الرجل إذا نفذ تهديده؟ هل يمكن القبض عليه ومحاكمته؟

تقول له بصوت مخنوق: ستكون المجازفة أخطر..

يقول: لقد أعلن الحرب علينا، يحسبني مجرد ديكتاتور، إذا لم أكن متفتحا ولبيراليا وحرا فمن أكون؟

التحدي الأسوأ الذي يقابلانه حتى الآن، تتذكر كلمات أبيها الملك وينقبض قلبها، لا يحب الكنيسة ولكنه يحذرهما من معاداتها، ها هو العدو الثاني يظهر من خلف غمام الغيب، الحلفاء يطلبون الثمن وهما عاجزان عن الدفع، الأثمان التي يطلبونها تصيبهم في مقتل، بداية رائعة، نابليون أولا، ثم الأسقف، إضافة إلى العدو القديم المختبئ خلف الجبال، ماذا سيفعلان حيال كل هؤلاء؟!

يسير معها إلى غرفتها، رغم كل ما حدث يتسلل داخلها بصيص من الفرح، هذه الليلة في حاجة إليه، مثل حالتها في معظم الليالي، تتطلع إليه في رغبة ولكنه لا يلحظ رغبتها، وجهه ممتقع، يشعر أن خسارته كانت فادحة، تقول في صوت خافت: سننتصر عليهم جميعا، هؤلاء عجائز في عالم عجوز، إمبراطور فرنسي مستعمر، وأسقف شره وعلاقات فاسدة، نحن الأصغر سنا والأنقى روحا، سننتصر عليهم، عالمهم ولَّى وذهب، ولكن هذا عالمنا..

يستلقي بجانبها على الفراش، تضمه إلى جسدها، لحظة نادرة، يقول: ولكن هذا الأسقف كان على حق، نحن ما زلنا غرباء هنا، فرنسا زرعتنا في هذا المكان، وسط أناس لا نعرف كيف يفكرون ولا ماذا يحبون أو يكرهون؟! إنها فكرتي الأولى التي أجلت تنفيذها، سأجوب المدن المختلفة.

يسقط قلبها، سيتركها ويرحل بعيدا، تحتضنه أكثر، تحاول لا شعوريا أن تمنعه من الرحيل: إنها بلاد شاسعة، سيضيع عمرك قبل أن تنتهي من الدوران في مدنها..

يصمت مفكرا، يعود للقول: سأقسمها إلى مناطق، لن أذهب إلى الشمال حيث يوجد الخطر، سأكتشف وسط البلاد وربما أتجه غربا، سأرحل بعيدا عن أماكن القتال، ولكني سأواصل الرحيل حتى أراهم وأعرفهم، عليهم هم أيضًا أن يرونني ويعرفونني..

تتذكر رحلتهما الأولى وهما قادمان: طريق وعر، جبال غير مأمونة، مطر ينهمر دون حماية، يبدو مثل طفل صغير ترغمه الظروف على أن يتحدى قدره، ما زالت معترضة على رحيله: ولكن كيف ستدار الأمور هنا، من الذي سيجتمع بالوزراء، ويوقع القرارات؟

يقول: أنت الإمبراطورة، ستحلين محلي..

يقول هذا ويوليها ظهره، يريد أن ينهي الكلام، يتركها بجانبه مفتوحة العينين ومصدومة، هل يمكن أن يتقبلوها حقا؟ هل ينفذون قراراتها ويأبهون باعتراضاتها؟ يسكن جسده وينتظم تنفسه، يبدو مرتاحا مع الحل الذي وصل إليه، تمسح بيدها على شعره، تتأمل جسده النائم، لم يكن مرتاحا، تعتري جسده انتفاضات خاطفة، كأنه ما زال يواجه الأسقف المخيف، تهمس بصوت غير مسموع: يا حبيبي، ينتفض جالسا فجأة، ينظر حوله باستغراب، ينظر نحوها كأنه لا يتوقع وجوده هنا، بجانبها، في غرفتها، يقفز واقفا وهو يتمتم: يجب أن أستعد للرحلة.. ويتركها وحيدة.

يكتب إليها بعد رحيله بعدة أيام: «لا أستطيع أن أصف لك جمال هذه البلاد من الداخل، أريد للطبيعة أن تتداخل في جسدي حتى

أصبح منهم، كل ما حولي بالغ الفتنة»، لا تعرف ماذا كان يقصد، جمال الفراشات أم النساء؟ تطول أيام السفر، تتابع رسائله، أصيب بالمرض، مكث في الفراش لأسبوعين كاملين، يشرف على علاجه طبيب يعمل في الشركة الإنجليزية للمناجم، ورغم ذلك لا يفكر في العودة، يصر على مواصلة الرحيل، كأن الرحلة ليست فقط لكسب التأييد، ولكن للابتعاد عنها، تحاول أن تنسى بطنها الخاوية وتهبط إلى المدينة بلا وصيفات، تذهب لزيارة مستشفى التوليد، يحذرها وزير ما، لا تذكر اسمه على وجه التحديد: جسدك النحيل يا مولاتي لن يتحمل العدوى داخل المستشفى، هذه بلاد قاسية، هكذا يراها، جسدا أوربيا واهنا لا يصلح للحكم ولا القدرة على الاختلاط بالناس، رغم أن «ماكس» يصعد في هذه اللحظة إلى أعلى التلال، حيث الجمال النقي، تهبط هي لقاع المدينة، لا تتوقع ماذا يكون في انتظارها، تهاجمها روائح العفونة قبل أن تصل للمستشفى بشارعين، تشعر بالخجل من أن تخرج منديلها المعطر وتضعه على طرف أنفها، سيكون هذا مهينا لها وللجميع، يستقبلها مدير المستشفى، إسباني عجوز تفوح منه رائحة الكحول الصافي، يبدو مستسلما لمرور الزمن، يسير بجانبها في وهن بين صفين من الراهبات، شهيدات فيما تعتقد، قصيرات العمر، يتآلفن مع رائحة العفونة ولا يعدن قادرات على الشم، تمر من بينهن سريعا وهي تضغط معدتها لمنعها من التقلص، لا يجب أن تتقيأ الإمبراطورة أمام الجميع، يتقدم أطباء عجائز، إسبان قدامى يقولون كلمات غامضة عن قلة الإمكانيات وكثرة الولادات، كأن نساء المدينة لا هم لهن سوى الإنجاب، تسير في ممر غير مشمس إلى أولى العنابر، أسرّة صغيرة ترقد عليها أمهات صغيرات، وجوههن شاحبة وعيونهن بارزة، نحيلات لحد مثير للشفقة، يضممن أطفالهن إلى صدورهن، يلقمنهم أثداءهن، يسود

المكان إحساس بالجوع، نساء فقيرات يقفن على حافة الموت ومع ذلك يواصلن الإنجاب، دون جهد ولا رغبة، تتحسس بطنها الخالية، دائمًا خالية، «الكورسيه» المشدود حولها يوشك أن يلصقها بظهرها، لماذا يبدو الأمر معها صعبا؟ تحدق في الأمهات وأطفالهن، يستلقين على ملايات مصفرة مليئة بالبقع، يحدقن في ثيابها الفاخرة وقبعتها المزينة بريش النعام، يحسدنها دون شك، تشعر هي أيضًا بالحسد على كل واحدة منهن، على الأطفال النائمين فوق أذرعتهن، بائسات ومحرومات ولكنهن يملكن ما لا تقدر على امتلاكه.

مطبخ المستشفى مثير للغثيان، آنية صدئة يحوطها السواد، وكميات ضئيلة من الطعام، من المستحيل أن تكفي لإشباع هذه الأفواه، الأوساخ في كل مكان، لا يوجد قدر كاف من المنظفات، تغرق في الإحباط، تسير بينهم وهم يحيطون بها ويوجهونها للمكان الذي يريدونه، يخبرها المدير بصوته المتعثر أن الزيارة قد انتهت، ولكنها تدرك أنه يخادعها، هناك أشياء لم ترها في الطابق العلوي، تصر على الصعود، يؤكد لها: أنه مجرد عنبر آخر، حافل بالنسوة اللواتي يعانين من حمى النفاس، ومن آثار الجراحة، الكثيرات منهم فقدن أبناءهن، يطلقون عليه عنبر «القلوب الكسيرة»، لا أهمية لزيارته، كما أن من الخطر دخوله لأن احتمالات العدوى كبيرة، تشعر أنها لم تعد تخشى شيئا، تريد أن تواصل رحلتها للنهاية، تصعد الدرج فتزداد كثافة الرائحة، وتتكاثف العتمة، رغم الشمس الساطعة في الخارج، عنبر ممتد، حافل بالأسرة، أكثر من امرأة فوق سرير واحد، وجوه تكتسي بمسحة الموت، يتطلعن إليها فزعات، كأن ملاك الموت قد جاء إليهن بثوب أنيق، يتوسل إليها المدير بصوته المترنح: إذا أصررت على الدخول فلا تلمسي شيئا، تمسك بطرف ثوبها وتخطو للداخل، عن ماذا كانت تبحث؟ عن

الموت الأرضي، عن جواب للحرمان الذي يصرخ في داخلها، تنهض امرأة من فوق الفراش، هزيلة ومترنحة ووجهها محتقن بالحمى، تهبط على الأرض وتلمس قدمها، تشهق بقية الراهبات ويسرعن نحوها، تشير إليهن ألا يقترب أحد منها، تهتف المرأة بصوت متهدج: إذا كنت قديسة حقا.. افعلي لنا شيئا، تمد يدها وتحاول أن تلمس شعرها، يصيح بها الطبيب المترنح: لا تلمسيها، تبعد يدها في خوف، لا يجب أن تتحدى قدرها أكثر من هذا.

تترك المستشفى وهي مشوشة الفكر، لا تستطيع أن تنسى منظر وجوههن المفجوعة، وعندما تعود للقلعة المنعزلة تظل ترتجف، بداية خاطئة، ربما عليها أن تفعل مثل «ماكس» وتنتقل من مكان لآخر، ولكن إلى أين، يجب أن تبقى وتحضر نفسها للاجتماع مع وزراء زوجها، في اليوم التالي جاءوا كلهم إلى القلعة، جلسوا حول مائدة طويلة في قاعة العرش، يحمل كل واحد منهم رزما من الأوراق والمشاريع، ويحملون أكثر علامات الامتعاض على وجوههم، ربما لم تصل لدرجة الكراهية فيما تظن، يرددون يا مولاتي أكثر من مرة، ولكنهم لا يعنون ذلك، لا ينوون تنفيذ أي شيء حتى يعود زوجها، عليها أن تتغاضى عن ذلك وتجيد تمثيل دورها، تزيح الأوراق من أمامها، وتنظر إليهم مباشرة، متحفزة قليلا، تحاول أن تكون حازمة وواضحة: كل هذا جيد يا سادة، ولكن هناك أمرا أجده ضروريا للبدء به، مستشفى النساء بالمدينة، إنها مجرد مقبرة، أستغرب كيف يمكن أن يخرج منها أمٌّ أو مولودٌ على قيد الحياة..

تنظر في عيني الوزير المسئول عن الصحة مباشرة، لا يبدو عليه أنه اهتز كثيرًا، من المؤكد أنه عرف خبر الزيارة ولم يشأ أن يكون برفقتها، يرفع رأسه ويقول في بلادة: لا توجد أموال كافية للعناية

بهذا المستشفى، لا توجد أموال للعناية بأي شيء، الحرب تلتهم كل النفقات.. كان محقا، ولكنها لم تكن لتستسلم بسهولة، طوال الليل وهي تعد نفسها لهذا الجواب، تنهض من على مقعدها، لعل إحساس الغثيان يتوقف، تقول: سأتولى أنا الإنفاق على المستشفى من مالي الخاص، أملاكي في أوربا ستغطي كل شيء..

يحدقون فيها مذهولين، ما الذي أدهشهم أكثر، سخاؤها أم قدرتها على اتخاذ القرار؟ يبدءون في العمل، لا تحاول أن تؤجل شيئا، تعرف أن هذه أحد عيوب «ماكس»، يؤجل حتى يفكر، ويطيل التفكير حتى ينسى الأمر، تريد أن تقدم صورة مختلفة، تتحمل عبأها وتحملهم عبأهم، يدوم الاجتماع لساعات طويلة، تحس بالجوع، ولكنها لا تسمح بدخول طبق واحد من الطعام ولا بقطرة من النبيذ، يعملون بانهماك ويأخذون عشرات القرارات، تريد أن تنجح، وعندما يعود «ماكس» سيدهش من الكثير الذي أنجزته، ولكن أين هو الآن؟

يكتب لها كل يوم، يبدو أكثر عاطفية ومحبة أكثر مما يكون بجانبها، أخذته الرحلة بعيدا، إلى مدن راقدة في تلافيف الجبال وأخرى في قيعان الوديان، إلى أجواء متغيرة، من البرودة الشديدة إلى الحرارة الاستوائية الخانقة، لا تفرض الجيوش الفرنسية سلطتها فقط إلا على القليل منها، طرق وعرة ورحلة شاقة ولكن الترحيب الحار للأهالي يخفف كثيرًا من مشقتها، يخرج الهنود وهم يلوحون بأعلام خضراء، تلقي عليه الفتيات أوراق الورد من الشرفات، يؤكد لها في مرح، أو ربما ليثير غيرتها، أنه منذ أن قام بزيارة الأندلس عندما كان صغيرا لم يشاهد نساءً بهذا الجمال، كن أكثر فتنة وأناقة من سيدات البلاط اللواتي يتحلقن حولنا في العاصمة، في كل مكان يذهب إليه يسارع بارونات الفضة والكاكاو «الهاسندادوس» إلى فتح قصورهم البيضاء

أمامه، بباحاتها ذات النوافير، وحظائرهم المليئة بالخيول، مظاهر من الرفاهية والثراء لا تقارن بقلعته المتقشفة، يتقبل بسهوله من يقابله من المتمردين الجمهوريين، يصدق أنهم بالفعل قد غيروا ولاءاتهم، لا يدرك أن المكسيكيين يميلون لتأييد الطرف الغالب، يعبر عن آرائه الليبرالية بصراحة، رغم أن هذا يحرج أنصاره من المحافظين، يبقى فوق سرج جواده لساعات طويلة، ولا يطيق ذلك بقية أتباعه، يصعدون جبالا صخرية ويعبرون صحراء لا تسكنها إلا أحراش من الصبار بأشواكه النفاذة، لا يبقى مغلقا أمام وجهه إلا الكنائس، ولا يغيب عن استقباله إلا القساوسة، كان قد سمع كثيرًا بفسادهم، ولكن آثارهم السيئة في كل بلدة يمر بها: آلاف الأهالي لم يتعلموا مبادئ الكتابة، عشرات القرى الصغيرة لم تر قسيسا طوال حياتها، أطفال لم يعمدوا ولم يمارسوا أي طقس مسيحي منذ أن تمت ولادتهم.

تقوده المصادفة إلى مدينة «دولوريس هيدالجو»، في يوم ١٦ سبتمبر ذكرى استقلال البلاد عن التاج الإسباني في عام ١٨١٠، منذ حوالي أربعة وخمسين عاما، قام قس المدينة «دون خوان هيدالجو» بدق أجراس أبرشيته في منتصف الليل ليوقظ النيام، يدعو المكسيك حتى تنهض للتخلص من استبداد الولاة الإسبان، اتفق القس مع بعض رفاقه من قادة حركة الاستقلال على يوم محدد تبدأ فيه حركة العصيان، ولكن الخطة انكشفت، وبدأت سلطات الحكم الإسباني تستعد للقبض على الثوار، لذلك قرروا أن يبكروا موعد الإعلان عن عصيانهم، في تلك الليلة ظل القس يرن أجراس إبرشيته حتى أيقظ أهل البلدة، وقف أمامهم في الشرفة، وهو يصيح في رعاياه: فيفا مكسيكا.. عاشت المكسيك.. عاشت الحرية، وظلت أجراسه تدوي، ينقلها الصدى إلى بقية البلدات الأخرى فتجلجل أجراسها، تتحول شرارة التمرد

إلى نيران للثورة، وتصبح «فيفا مكسيكا» هو الشعار لحرب طويلة من أجل الاستقلال.

يصل «ماكس» إلى «دولوريس» في الوقت المناسب، في اللحظة التي ارتفعت فيها الدقات التاريخية للأجراس، يشعر بالرهبة وهو يدخل إلى بيت القس القديم. ظل البيت على حاله طوال هذه السنوات، وسط صراعات وحروب وانشقاقات لا تهدأ، حتى كلمة الاستقلال فقدت معناها، رحل الإسبان ولم يرحل الشر، بقيت بذوره كامنة في تربة البلاد، يخشى «ماكس» أن يكون وقوفه في الشرفة لإعادة نفس الصيحة القديمة نوعا من الهزل، ولكن عليه أن يؤمن بالدور الذي يلعبه رغم أنه جاء في نهاية القصة، ولكنه حين يقف في الشرفة ويهتف بالكلمة السحرية: «فيفا مكسيكا» يهتز الجميع وتصهل جياد الجنود الفرنسيين، يقول لهم إنه سينهي حروب الإخوة، سيوقف سريان الدم، ويجعل العالم يرى أمة جديدة تولد في المكسيك، يشتعل الحماس في النفوس التي تستمع إليه، ولا يكفون عن الهتاف، بعد أن يهبط من الشرفة يحيطون به حاملين المشاعل، ويظلون واقفين تحت نوافذ الغرفة التي ينام فيها وهم يهتفون: «فيفا مكسيكا.. فيفا مكسمليان» يهتفون له هو وليس للقس القديم.

تتوالى المدن، بعد «دولوريس» تأتي «خواناجواتو»، «ليون»، «موراليا»، تدهشه كل مدينة بحماسها، ويدهشه أكثر عندما يعلن الجنرالات الذين كانوا منذ أسابيع قليلة يحاربونه عن ولائهم له، يخيل إليه للحظات أن «بنيتو خوارز» قد انتهى، لكنه حلم أشبه بالوهم، فهو لا يكاد يسير إلا في الطرق التي أمنها الفرنسيون، تحت حمايتهم، أما القرى البعيدة في داخل البلاد فقد كانت كلها تحت سيطرة المتمردين، بشكل أو بآخر جعل المرافقون عالمه بالغ الضيق، يبتعد عن القرى الشديدة

الفقر، ولا يسير في الدروب التي لا تسلكها سوى البغال، ولا يتوقف إلا عند القصور الفارهة التي يعيش فيها «بارونات الفضة» وأخيرا بعد أيام طويلة تنتهي الرحلة.

يعود إلى «شابولتبك» وهو يشعر ببعض الانتصار، سيكسب المعركة ضد «بنيتو خوارز»، بعدها سيخوض معركته التالية ضد الكهنة والفرنسيين، تهرع إلى استقباله، محبة وعاشقة كالعهد بها، على استعداد لأن تنسى أي نوع من الإساءات حتى تنجح تجربتهما معا، لوحت الشمس بشرته، وبدا شعره مثل كومة من القش فوق بشرة من النحاس، الشيء الذي بقي مضيئا في وجهه هي تلك العينيان الزرقاوان وهما تتحركان في استثارة، يحكي لها عن جمال الطبيعة وفساد البشر، ثلاثة أنواع من البشر يجب على المكسيك التخلص منهم قبل أي إصلاح، القضاة المرتشين والضباط الجبناء ورجال الدين الشرهين، لن يحدث تقدم طالما بقيت هذه الفئات، كان متعبا، يريد أن يبقى ساكنا لفترة ليستمتع بالغابة، بالخريف وقد وضع لمسته وألوانه على كل الأشجار، بالفراشات التي ترف كالأحلام، ولكنها غفوة قصيرة، ولأن وزير المالية الفرنسية قادم، يحمل كشفا طويلا من الديون المستحقة.

رغما عن التعب والإرهاق، يرتدي «ماكس» إيهاب الإمبراطور ليقابل اللورد «مونتلون»، أكبر مبعوث يرسله له نابليون منذ أن تولى العرش، دب فرنسي غريب الشكل، قامته قصيرة وممتلئة وهناك حدبة متكورة على ظهره، ربما من أثر الحقائب المحشوة بالأوراق التي يحملها، يقدم له كشفا مليئا بالأرقام المرعبة، ديون المكسيك التي لا تتوقف عن الارتفاع، أكثر من مائتين وخمسين مليونا من الفرنكات، لم تتلق المكسيك منها فعليا إلا ستة وثلاثين مليونا، يهتف به «ماكس»

لماذا كل هذه المبالغ الإضافية.. لا أعتقد أن أرباح المبلغ الأصلي تصل إلى هذا الحد؟

يبتسم وزير المالية وهو يخرج أوراقا أخرى: إنها الحملة العسكرية يا سيدي، لقد تعهدت في الاتفاقية مع جلالة الإمبراطور «نابليون» أن تدفع ألف فرنك لكل جندي شهريا، وهذه هي التكاليف حتى الآن؟

يصيح «ماكس» في يأس: ولكن هذه الحملة بدأت قبل أن آتي إلى هنا بأكثر من عامين، كيف يمكن أن أتحمل تكلفتها؟

يقول الرجل بنفس البلادة: المكسيك هي التي ستتحمل يا سيدي، وهذه الحملة هي التي مهدت الطريق أمامكم للعرش..

يوشك أن يصيح فيه أنه لا يريد هذا العرش، أنه أمير من الهابسبورج، تسعى نحوه كل عروش أوربا، ولكنه يجد نفسه يقول في أسى: عندما جئت إلى هنا كنت أحسب أن كل شيء على ما يرام، المناجم تخرج إنتاجها، والمصانع تعمل والمزارع مزدهرة، كنت أعتقد أن الإدارة الفرنسية قد نظمت كل شيء، ولكننا ما زلنا في حرب لا تنتهي، كلما استعدنا مدينة سقطت أخرى، لعبة شطرنج لا تنهي، ولكنها تكلف أرواحا وأموالا، ولا أحد ينتصر!

يقول اللورد في تأكيد: فرنسا ستنتصر، من يحاربون هنا هم جنود أفضل جيش في أوربا..

يقول «ماكس» متشككا: أعلم.. ولكن من يضمن أنهم لن يتخلوا عني؟

يرد اللورد: كلمة الإمبراطور «نابليون»، إنه اتفاق مكتوب، مهما حدث في أوربا فلن تسحب فرنسا جنودها.

يقول «ماكس»: أريد المزيد من الجنود، رغم أن هذا يلتهم كل موارد البلاد، ماذا يمكن أن أفعل، حتى أرد لكم هذه الأموال يجب أن تسحبوا الجيش، ولو سحبتم الجيش سأجد الجمهوريين تحت شرفة قصري في الصباح، لو أنك وزير ماليتي، ماذا كنت ستفعل؟

كأن اللورد كان ينتظر هذه اللحظة، أن يشعر «ماكس» بالشبكة وهي تلتف حول عنقه ويبدأ في البحث عن مخرج من خيوطها، يقول في هدوء من أعد خطته منذ البداية: سنضع جمارك «فيرا كروز» تحت تصرف السلطة الفرنسية، وستفرض المزيد من الضرائب على تجار الذهب من الإنجليز، وستأخذ حق الدولة من تجار الكاكاو والتوباكو. ولا تنس يا مولاي مقاطعة «سونورا» الذي يريد الإمبراطور أن تكون تحت حماية فرنسا.

ينظر إليه «ماكس» مذعورا، باختصار سوف يثير هذا اللورد الشبيه بالدب عداء الجميع، إضافة إلى رجال الدين الغاضبين أصلا، يختتم اللورد كلماته: في أي الأحوال، يجب الوصول إلى اتفاق..

يعرف ذلك، يتحدث اللورد اليوم بمفرده، وغدا سيحضر «بيازين»، وسيتحرك خلفه صف طويل من المدفعية الفرنسية في شوارع العاصمة حتى يتم التوقيع على الاتفاق الذي يريدونه، هذه الإمبراطورية صفقة خاسرة، يجلس متعبا ومحبطا، يعود لتأمل الغابة، سينقضي الخريف ويأتي الشتاء دون تصل الطيور التي طلبها من أوربا، يريد أن يطلقها في الغابة قبل أن يتبدل الطقس، ولكنها تتأخر، يأتي كل شيء متأخرا، يترك الوزير الفرنسي ليدير الأمر مع وزرائه، التفاوض معه أكثر مما يحتمل، سيوقع الاتفاق الذي سيتوصلون إليه وهو مغمض العينين، المهم أن يستغرق في النوم.

لا نوم ولا إحساس بالأمن ولا نأمة من المحبة، تمضي الأيام، تمر فيالق الجيش الفرنسي، الفرسان فوق خيولهم مزهوون بالقبعات المخروطية والريش الملون، خلفهم الجنود، يتوجهون لتحرير مدينة «أوكساكا» للمرة الثانية أو الثالثة لا تتذكر، المؤكد أن تكلفة الحملة ستكون أعلى من كل الحملات، هذه المسيرة الصعبة وسط الجبال تنهك الخزينة، ولا توجد حرب تنهي كل الحروب، تشعر بالخوف يقبض على قلبها وهي ترى كل هذا القدر من الجنود يغادرون المدينة، ولكن «ماكس» يقول لها: غدا سيكون لنا أضعاف هذا الجيش من المكسيكيين، سيكونون أقل كلفة، وسيكونون حولنا دائمًا، أنا أعمل على ذلك منذ الآن.

هل كان يحلم أم يحاول أن يبث الطمأنينة في قلبها؟ ولكن طالما بقي «بيازين» هو القائد العام للقوات فلن يسمح بذلك، لن يسمح لأي قوة محلية أن تنمو بجانبه وتناوئه، ولكنها واحدة من أفكار «ماكس» الجديرة بالاهتمام، لن تكون إمبراطورا حقيقيا دون أن يكون لك جيشك الخاص، ولكن كيف يتأتى ذلك؟

لا يرحل كل الجنود، تبقى بعض القوات، ويظل هناك مدفع موجودا على باب القلعة، ولكن ماذا لو هجم المتمردون بأعداد كبيرة؟ ربما لن يتمكنوا من الاستيلاء على قلعتهما لبعض الوقت، ولكن سيحاصرونهما طوال الوقت، تنام مرعوبة في غرفتها الوحيدة على فراشها البارد، تهاجمها كوابيس من كل نوع، تستيقظ في منتصف الليل لتكتب إلى صديقتها الإمبراطورة «أوجيني»، خيط الإنقاذ الأخير في علاقتها مع أوربا، مع «نابليون» الذي يتلاعب مع زوجها، تحكي لها عن أحزانها الدفينة، تحاول أن تجعل منها صديقة، في منتصف الخطاب تسمع صوتا يخترق سكون الهواء، وترى ضوءا يشع في ظلمة الغابة، شهاب

يهوي، تنهض وتخرج من غرفتها مفزوعة، حافية القدمين، غير قادرة على التقاط أنفاسها، هل جاءوا بهذه السرعة، هل حان دورنا لنهوي مثل هذه الشهب الساقطة؟ هي المجنونة الوحيدة التي سمعت الصوت، تحذير لها وحدها، هناك مصابيح زجاجية موقدة، وكثير من الظلال التي تتراقص على الجدران، ولا يوجد خدم أو حرس، تفكر في الذهاب إلى غرفة «ماكس»، ولكن كبرياءها كان أعلى من خوفها، تهرع للنوافذ المطلة على الطريق الممتد للمدينة، تظل متجمدة، تشع من المدينة البعيدة نقاط من الضوء، وصوت طلقات مكتومة متباعدة، فمن أين جاءت هذه الطلقة المدوية التي أيقظتها، ماذا يدور هناك؟ هل يتعرضون لهجوم ما؟ لماذا اختارا هذا المكان النائي، لماذا جاءا أصلا إلى هذه البلاد، ولماذا هي وحيدة إلى هذا الحد؟ تجلس على الأرض، وتستند إلى الجدار، تتكوم في الركن حتى لا يرى أحد لحظة الهلع التي تعاني منها، تتخيل أن الرءوس الضخمة المتناثرة في الغابة، بقايا الأزتيك، وقد دبت فيها الحياة وتحولت إلى مردة عملاقة، لا بد من تعويذة تحميها منهم، تجري إلى غرفتها وترتدي خاتم «منتزوما»، تقبله وتبتهل لروحه حتى تخف عنها لعنته، تظل تحدق في السقف، ولكن صمت الغابة يظل سائدا.

تستيقظ في الصباح على صوت جلبة، القلعة كلها متحفزة، والخدم يسرعون في كل مكان، ليس هناك فزع ولكن هناك إثارة وترقبا، تخرج لمقدمة القصر، ترى أخيرًا كوكبة الفرسان وهي تقترب، بزات زرقاء، ورايات ملونة، ولكن الذين يقفون على حافة الطريق يلوحون لهم، لا توجد مظاهر للعداء، يقف «ماكس» بجانبها، يقول في انشراح: أليست هذه مفاجأة سارة لك، لا تفهم مقصده، يبدو باسما ومنشرحا، لا يشاركها حلم الخوف، تزداد كتيبة الفرسان اقترابا، تتعرف على

الراية التي يحملونها، راية «بلجيكا»، الأحمر والأصفر والأسود، أخيرًا هناك كتيبة من فرسان أبيها، لا بد أنها هدية خالصة لها، رغم البعد هو الذي شاركها ليلة الخوف، يدرك مدى حاجتها للأمان، هذه إحدى معجزاته، وليست مصادفة أنهم جاءوا في هذا الوقت بالذات، تسرع عبر الممرات لترتدي ملابسها الرسمية، تتلقفها الوصيفات وهي بينهن كالفراشة، تتذكر مشهد المدينة في كابوس الأمس، تسألهن عما يحدث؟ تقول إحداهن ببساطة: كان أهل المدينة يحتفلون بعيد أحد القديسين، هذه هي العادة، يستمر احتفالهم طوال الليل، في أي يوم وكل مناسبة، عليها أن تتعود على هذه الضجة، تجلس أمام المرآة، تريد أن تكون مرحة ومشرقة، تنزع من ملامحها مخاوف الأمس، تصل في الوقت المناسب لتقف بجانب «ماكس»، يقترب منهما أربعة من الضباط، كل واحد يحمل قبعته تحت إبطه، يتوقف ثلاثة منهم على مبعدة ويحنون رءوسهم، بينما يتقدم الرابع، يحني رأسه أمامهما، وهو يقول: كولونيل «بارون ألفريد فان در سمسن» في خدمتكم يا صاحبي الجلالة.

اسم طويل، ومثير للضحك، ولكنها لا تضحك، تحدق فيه مبهورة، قامته الطويلة ووقفته المعتدة وكتفيه العريضين والأوسمة المعلقة على صدره، يبدو وجهه غريبا، إله قديم من آلهة «الفلاندرز»، يقف منتصبا أمامها: شعره أصفر مترب وعيناه بلون البندق، أنفه ضخم قليلا، تحته شارب كث أطرافه مرتفع لأعلى، تحس برجولته الفياضة وهي تضفي سحرا على المكان، تشعر بجفاف ريقها، تدير عينيها وتتطلع إلى زوجها، تخرج وجهها من هالة هذا الضابط الغريب، هكذا يجب أن يكون الأمر، تتأمل وجه زوجها المتعب الشاحب، تحيط به لحية شقراء، تستطيل يوما بعد آخر، وجه يليق بقديس لولا عيناه الزرقاوان

دائمتا القلق، لا يكاد يلتفت إليها، يحدق هو أيضًا في الضابط البلجيكي الوافد عليهما، هناك فرقة نمساوية موجودة في «فيراكروز»، ولكن «ماكس» لم يبد يوما اهتماما بها، ربما لا يريد أن يبدي أي نوع من التحيز أمام الفرنسيين، ولكنها تشعر أن هؤلاء الفرسان يخصونها وحدها، لن يتخلوا عنها عندما تحتاج إليهم، يقترب «ماكس» من الكولونيل ويصافحه في حرارة، يصافح الآخرين أيضًا، تنهض بعده وتمد يدها نحوه، هل يلاحظ رجفتها؟ يتناولها بكفه الدافئة، تحس بشفتيه وهما تلمسان ظهر يدها، قويتين ولاسعتين، لا تدعه يكمل قبلته، تسحب يدها بسرعة، ولكن أثار شفتيه تظلان باقيتين، يقبل الآخرون يدها في نفس الموضع دون أن تشعر بهم، كأنه قد حفر أثره في أنسجتها، تريد أن تتحدث معه وحدها، كانت واثقة أنه يحمل لها رسالة من أبيها، لكن لم تكن هناك رسالة، ليس له صفة رسمية رغم أنه تقابل معه، هو الذي شجعه على جمع هذه القوات والسفر بها إلى المكسيك، كان مغامرا، يحمل على صدره بعض النياشين ورؤيا رومانسية عن اكتشاف العالم الجديد، حدثها عن حس المغامرة ولم يحدثها عن الغنائم التي يحلم بها، مهما كان الأمر، إنه إحدى هدايا أبيها، المساعدة التي يقدمها للبقاء فوق هذا العرش المهتز، يقول: أنت حقا شجاعة يا مولاتي، لأنكما تتحملان الإقامة في هذا المكان المنعزل، وتلك المدينة المجنونة، لم أصل إليها إلا بالأمس، ومع ذلك لم يتركوا لي الفرصة لأنام دقيقة واحدة، طوال الليل وهم يحتفلون بأحد القديسين، لا أدري.. لماذا يتركون النهار الطويل ويسهرون طوال الليل؟

كان ساهرا بينما تهاجمها المخاوف طوال الليل، لو عرفت أنه في المدينة لهدأت نفسها قليلا، لا يريد «ماكس» أن يجعل المقابلة مجرد مقابلة للتعارف، على مائدة الطعام يتحدث معه بصراحة، تنتابها

الدهشة لأنه يعطيه ثقته سريعا، يقول له مباشرة: أريد إعداد جيش من المكسيكيين، أريده بشدة، أشعر أنه بوصلة الأمان لهذا العرش، ومطلوب منك أنت بالتحديد أن تساعدني على تجهيزه..

يتوقفون جميعا عن مضغ الطعام، تنظر إلى «ماكس» فتجده شاحبا يتطلع نحوها في إصرار، ولكن «سمسن» يبدو محرجا: مولاي، ربما كانت هذه المهمة أكبر من إمكانياتي، لقد جئت للقتال، خبرتي في التدريب محدودة..

لا يبال «ماكس» باعتراضه، يقول له مؤكدا: سأكون في ظهرك دائمًا، سأقاتل معكم إذا لزم الأمر، هذه هي الطريقة الوحيدة التي سنهزم بها أعداءنا من الجمهوريين..

تريد أن تتحدث، أن تذكر «ماكس» بالمعاهدة التي وقعاها مع «نابليون»، يستدير نحوها مباشرة، كأنه قد قرأ ما يدور في رأسها، يقول: أعرف أننا وقعنا معاهدة في «ميرامار» تنص على أن مارشال فرنسا هو القائد العام لكل القوات النظامية، المعاهدة لم تتضمن شيئا عن المتطوعين، الكولونيل وأتباعه هم خارج هذه المعاهدة، أليس كذلك يا سيدي؟

يتوجه بالسؤال الأخير إلى «سمسن»، يقلب نظره بينهما وهو يقول: إنه لشرف لي يا مولاي.. ولكن..

ينظر نحوها لعلها تنقذه من هذا الموقف، في هذه اللحظة لا يوجد من يستطيع إثناء «ماكس» عن رغبته، يعتبر كلمات الضابط البلجيكي المتعثرة موافقة مطلقة، يضيف: ستقوم أنت وقواتك بحماية العاصمة، وخاصة ذلك الطريق المزعج الذي يفصل بيننا وبينها، وستتلقى أوامرك مني مباشرة.

لا تريده قريبا منها لهذه الدرجة، لا تريد أن تبقى وسط المشاعر التي تهز داخلها، فليبتعد قليلا حتى تسترد أنفاسها وتنسى هذه اللحظة الوجيزة، ولكن «ماكس» يبدأ في مناقشه التفاصيل، ربما كان محقا، ربما كان هو السبيل لإنقاذهما، أن يشرك أهل البلاد الذين دام صمتهم طويلا، يعرف «ماكس» أنه لن يكسب شرعيته الحقيقية إلا إذا رحل المدعو «بيازين» بكل ظلاله الفرنسية، هذا الاتفاق الذي يدور على الغذاء هو محاولة للتعجيل بهذا الرحيل، يتحدث «سمسن»، يقول رأيه في هذا الصراع الذي لا يريد أن ينتهي، صوته خشن، دافئ، يحاول أن يخفضه احتراما لوجودها على المنضدة، تختلس إليه النظرات دون أن تتقابل عيونهما، لن يقدر «ماكس» وحده على إنقاذهما، كانا في أمس الحاجة لمثل هذا الرجل ليخلصهما من إذلال الفرنسيين، «بيازين» طامع في المنصب لا شك في هذا، كل خطوة يقوم بها هي في مصلحته الخاصة، يجيد الإسبانية، يختلط بأهلها، يهبط الأسواق ويتحدث مع الأهالي ويستعد للتزوج منهم، فتاة صغيرة، ولكن أنوثتها متفجرة، هل ذلك المارشال الذي تجاوز الخمسين يقدر على تلبية رغباتها، لماذا تزوجته، طمعا في منصبه وسلطته، أم في العرش الذي يمكن أن يحمله إليها؟!

في اليوم التالي يصدر «ماكس» أوامره سريعا للبرلمان حتى يصدر تشريعا بتكوين جيش من السكان المحليين، وأن يشرف «سمسن» على تدريبه، يبدأ في الذهاب كل يوم إلى المدينة، يريد أن يصدر كل القرارات قبل أن يعود «بيازين»، ربما يستطيع أن يقاوم سطوته، يريد أن يمتلك المدينة ويضمن ولاءها له، كان مستثارا، و«سمسن» يظهر أمامها للحظات خاطفة، كثيرًا ما يعبر الطريق الممتد بين القلعة وبين المدينة، مشغولا دائمًا، لكنه لا يني يتأملها حين يدرك أنها لا تراه، تشعر بعينيه

وهما مسلطتان على ظهرها، لا تجرؤ على الالتفات، يبدو أن الأمور تتقدم، ينفذ «ماكس» قراره، ويبدأ المتطوعون بالفعل بالتقدم لإنشاء الجيش الوطني المنتظر، يبدو «ماكس» واثقا من نفسه، كأنه قد عبر خط الخطر إلى خط الأمان.

يقول لها: سأرحل، أريد أن أقوم بجولة أخرى في جنوب البلاد، لماذا لا تشعر بالحزن والإهانة هذه المرة، لماذا لا تشعر بالحنق لأنه سيتركها وحدها في هذه القلعة المنعزلة؟ هكذا تعود يضع على عاتقها هموم دولته، يتركها وحدها في مواجهة وزرائه، بنظراتهم المخادعة وابتساماتهم اللزجة، تستمع إليه في صمت، يدهشه أنه لا يجد تعبيرا على وجهها، لا تجرؤ على القول إنها تحس أنه بعيد حتى وهما معا في نفس المكان، تشعر بنفسها وهي تتغير ببطء وبدرجة طفيفة ولكنها تتغير، لا تقول شيئا، وسيكون من غير اللائق أن تنهض وتنسحب من أمامه، يواصل النظر لوجهها، يريد أن يقرأ علاماته، بالرضا أو الرفض، لكن ملامحها لا تفصح له عن شيء.

تشاهده في الصباح وهو يستعد للرحيل، تراقب الحركة المحمومة لرجال الحاشية، وهم يوالون إرسال البرقيات إلى الأماكن التي ينوي زيارتها، و يجهزون العربات ويحضرون الخيول، يظهر حرسه الخاص بملابسهم المزركشة التي صنعت خصيصا لإبهار سكان القرى المنعزلة، تجلس بجانب النافذة وهي تقنع نفسها أنه لا يهرب منها، أنه مجرد روح طليقة، لا تتحقق ذاتها إلا في الفضاء المفتوح للطبيعة، إمبراطور على بلد ممزق يحاول جاهدا أن يلملم أطرافه، لكنه خذلها كثيرًا، تركها وحيدة وجائعة، ولكنها ليست قادرة على كراهيته، أو التخلي عن الولاء له، تلوح بيدها مودعة، والأسى يعصر قلبها، يبتعد دون أن يلتفت للوراء، لا يوجد مكان تذهب إليه، ستبقى هنا في انتظاره، تبتعد

العربة، ينصرف الملوحون له، يجمعون أغصان الزيتون وسعف النخيل، وينصرفون خافضي الرءوس، تتراجع هي أيضًا وتدخل مكتبه.

ملفات متراكمة على المكتب، تنتظر أن يقوم بالنظر فيها، كانت متأكدة أنه لم يفتحها أصلا، تتراكم القرارات والقوانين والشكاوى والاستغاثات الإنسانية، جميعهم يحولون مشكلات الدولة إليه ويغسلون أيديهم من كل الخطايا، أمامها كثير من الأرقام المرعبة: خزينة على وشك الإفلاس، حملات عسكرية لا تنتهي، يذهب المارشال «بيازين» لتحرير نفس البقعة من الأرض أكثر من مرة، ما إن يتركها حتى يستولي عليها الجمهوريون، حرب عبثية، وخريطة دائمة التغير، لا يوجد ولاء، ولكن عمليات استنزاف لا تتوقف، تطلب اجتماع الوزراء، اجتماع طويل متواصل بلا طعام ولا نبيذ، عليهم أن ينتهوا من بعض هذه الملفات المتراكمة، ربما يستطيعون إصلاح الوضع قليلا، تعتقد أنهم كانوا يكرهونها، يتظاهرون فقط أن إجهادها لهم أكثر مما يحتملونه، كانوا رجالا وكانت امرأة وحيدة، ولكنها تفوق دائمًا قدرتهم على التحمل.

عام ١٨٦٥م

- ١١ -

يخرج «ألماس» من باب الخيمة ليجد «بو علام» في انتظاره، مهمة جديدة أمامهما، منذ أن جاء إلى هنا، منذ تولى قيادة هؤلاء الرجال وهو يشعر أنهم ليسوا مخلوقات حية، مجرد حيوانات مقاتلة، يأكلون وينامون ويقاتلون ولا يكفون عن التنقل في هذه الأرض الغريبة، مع كل معركة يشعر أنه يدخل متاهة جديدة تبعده عن جبال النوبة، يشعر أنهم يقاتلون بغريزة البقاء، فقط لمجرد ألا يقتلوا، لا يعرفون الهدف من هذا القتال المتواصل، لا توجد معركة ضخمة تحسم كل شيء، يقول «بو علام» بلهجته الجزائرية التي حفظها: إنها مهمة جديدة يا سيدي القائد، طلبوا مني إخبارك أن القائد ليوتنانت «شيزنو» سيأتي ليختار فريقا من رجالك حتى ينضموا إلى طابوره العسكري، إنه قادم من «مدلين» خصيصا لهذا الغرض..

معركة دامية أخرى، يسأله: ألم يذكروا أي معلومات أخرى؟

يقول: لقد ذكروا اسم مدينة على حافة نهر «ريو بلانكو»، النهر الأبيض، هناك واحد من قادة المتمردين، أخطرهم على الإطلاق، الكولونيل «أنتونيو جارسيا»، تذكر هذا الاسم جيدا لأن من الممكن أن تقابله في ميدان القتال..

يعرف أن الأسماء لا تهم كثيرًا في وقت القتال، تتشابه الوجوه لأنها

ملطخة بالدم والبارود، يوشك «بو علام» على الانصراف وقد أدى مهمته، ولكن «ألماس» يقول له: وهذا القائد ماذا عنه، أعني الرجل الذي سيقودنا؟

يتوقف وتظهر على وجهه علامات الانزعاج، يقول: تقصد «شيزنو»، إنه الأسوأ على الإطلاق..

يقول «ألماس» ساخرا: ماذا هل هو مجرم هارب؟

يقول «بو علام» بجدية: مؤكد أنه كذلك، إنه قائد الفرقة الأجنبية، أتعرف من هي؟

لم يكن يعرف بطبيعة الحال، يبدأ «بو علام» في التكلم في سرعة عن الجزائر، لا توجد فرصة إلا وذكرها، يحملها معه دائمًا، يقول: الفرقة الأجنبية هم جمع من الشذاذ والمرتزقة والمجرمين السابقين، رغم أنهم يتجمعون تحت راية فرنسا، إلا أن كل واحد منهم يبحث عن مجده الشخصي، كانوا أسوأ من أن تضمهم فرنسا لجيشها الرسمي، ولكنها كانت في حاجة إليهم ليقوموا بأعمالها القذرة، هم الذين اقتحموا الأماكن النائية في الجزائر التي لا يصل إليها الجيش الرسمي، أشداء ومدربون ولا يعرفون الرحمة، لذلك قضوا على أي تمرد تقوم به القبائل النائية، أصبحت الجزائر هي مقرهم الرئيسي، وهم ينطلقون منها إلى كل مكان تمارس فيه فرنسا عنفها وقمعها، يبدو وكأن العالم كله ملكا للفرنسيس يفعلون به ما يشاءون..

ينصرف «بو علام»، يتركه قلقا من التعامل مع قائد من هذا النوع، ولكنه عسكري محترف وعليه أن يؤدي عمله، يأمر الجنود بالاستعداد، أن يجهزوا كامل معداتهم وذخيرتهم، وأن يصطفوا في طابور طويل في انتظار قدوم القادة من الفرنسيس، لا يتأخرون طويلا، يرتفع غبار

خيولهم، ويظهر «شيزنو»، يعرفه من رتبته: جسده ضخم ووجهه ممتلئ بالندوب، يهتز فوق جواده مثل دب محتقن الوجه، يقفز على الأرض بحركة واحدة ويقف أمامه، يرفع «ألماس» يده بالتحية يردها عليه في تجهم، يقول في اختصار: أمامنا مسيرة طويلة، من الأفضل أنك جهزت رجالك..

يتقدم بخطوات مسرعة ويتفحص صفوف الرجال، يتأمل وجه كل واحد منهم وقامته وبنيانه الجسدي، كانوا متشابهين، ولكنه يشير لأشخاص بعينهم، كل واحد يشير إليه يأخذ خطوة للأمام، يحصي «ألماس» الرجال الذين يتقدمون، يختار سبعين رجلا بالضبط، كانوا الأفضل، نظرته صائبة ويحسن الاختيار، يستعد لمعركة كبرى، ينتهي ويلقي عليهم نظرة سريعة ليتأكد من اختياره، ثم يتوجه نحو «ألماس» وهو يقول: إنهم منذ الآن تحت إمرتي..

يرد بصوت خافت: شكرا لك يا سيدي، ولكني أريد أن أكون معهم..

ينظر نحوه مندهشا، يحني رأسه وهو يقول: ماذا.. ظننت أنك المسئول عن حماية هذه المدينة؟

يقول: سأوكل هذه المهمة لواحد من ضباطي، ولكن هؤلاء الرجال هم رجالي، وأنا أدرى بقيادتهم، لا أريد أن أفقد منهم الكثير..

يتطلع نحوه قليلا مستغربا، يقول: أنتم لا تملون القتال، هكذا أخبروني، لا بأس، سوف تأمر رجالك، ولكني سآمر الجميع..

يبدءون السير مع أول ضوء من النهار، ينضمون لبقية جنود الفرقة الأجنبية، مثلما أخبره «بو علام»، مظهرهم يبدو شبيها بقطاع الطرق منهم للجنود، إضافة للفرسان من راكبي الخيول، والقليل من الجنود المكسيكيين، لا يعتمدون عليهم إلا قليلا، ولا يشركونهم في القتال

الفعلي، يتبعهم جميعا صف طويل من البغال، تجر المدافع، وتحمل صناديق الذخيرة، وعندما تعلو الشمس يكونون خارج المدينة، وسط طريق مليء بالحصى وتحف به الأشجار، يخيم الصمت على الرجال، لا يسمع سوى صوت أنفاسهم اللاهثة وسنابك الخيل والصرير الذي ينبعث من العجلات، يتحسبون جميعا للمعركة القادمة، يعرفون أنها ستكون ضارية، لا يدري ما الذي دفعه إليها؟ كان هو وجنوده عائدين للتو من مهمة شاقة، وكان عليه أن ينعم بقليل من الراحة، ولكنه يهرب من نفسه، من حنينه لبيته وأهل قريته، يشعر بحاجته لنسائها، النساء هنا كثيرات، لكنهن يرتجفن من شدة الخوف حين يقترب منهن، في الواقع لم يجرؤ «ألماس» على محاولة الاقتراب منهن، رغم جوعه لملامستهن، عليه أن يحافظ على مركزه كقائد، يؤكد جنوده له نفس الشعور، بعضا منهم استأجر هذه النسوة وأعطوهن الكثير من النقود، ضعف السعر العادي، ولكنهن كن يرتعدن تحت أجسادهم، لا من فرط النشوة ولكن من شدة الخوف.

تتواصل مسيرة الجنود، لا يرتاحون إلا لساعة واحدة، يأكلون بعضا من الأطعمة الجافة، يظهر النهر أخيرًا ويسيرون على حافته، يتطلع إليهم بعض سكان القرى في خوف، من المؤكد أن المتمردين قد مروا من هنا، وآخر ما يتوقعونه أن يروهم وهم يتبعونهم، يصلون مع الغروب إلى بلدة صغيرة، اسمها «باس ديل ليمون»، ليست المدينة التي يقصدونها، المدينة الأخرى تقع على الضفة الأخرى من النهر، حيث توجد القوة الرئيسية للمتمردين، وذلك القائد «جارثيا» الذي جاءوا من خلفه، ينبه «شيزنو» عليهم جميعا: سنقضي الليل هنا، لن نشعل نارا ولن نثير جلبة، وسنتحرك مع أول ضوء للفجر..

ينهار كل واحد منهم في مكانه من شدة التعب، لا يقتربون من

المدينة حتى لا يثيروا المزيد من الجلبة، ينامون في العراء، تحت ظل الأشجار العتيقة، التي نمت منذ بداية الكون، ينام «ألماس» مثل كتلة من خشب، لا يفيق إلا ويد أحد الجنود يهزه: حان موعد الانطلاق، يتوقفون عند ضفة النهر، يدرك سر تسميته بالنهر الأبيض، تبدو أمواجه كأنها تتشرب الضوء، تصبح صفحته ناصعة البيضاء، يتأمل «ألماس» النهر قليلا قبل أن يشرعوا في عبوره، مستواه منخفض بعض الشيء ولكن هناك دوامات متداخلة، وريحا معاكسة لا تكف عن دفع الموج، هل يمكن عبوره وهم يحملون أسلحتهم وتلك المعدات على ظهورهم؟ لا شيء يوقف «شيزنو»، كان قد تعود على حروب الصحراء ومواجهة الأراضي المقفرة، ولن يوقفه نهر صغير، يلقي عليهم تعليماته: سيعبر راكبو الجياد النهر في طابور طويل، وسيمسك جنود المشاة بسيور السروج، مع كل جواد سوف يعبر جنديان، لا يجب أن يترك أحدهما السيور مهما كانت شدة التيار، فلنبدأ قبل أن يزداد الضوء..

تبدأ عملية العبور، يخوض «ألماس» بقدميه في النهر في مقدمة الرجال، يرفع بندقيته عاليا حتى لا تفسدها المياه، العدو ينتظرهم على الجانب الآخر، لن يترك الفرصة لهم ليجففوا بنادقهم، الماء ما زال يحتفظ ببرد الليل والتيار ينحدر سريعا، كأن مياهه تنجرف إلى هوة سحيقة، لا يبدو بهذه الخطورة لمن ينظر إليه من على الشاطئ، ينزلق بجانب الجواد، قابضا على السيور الجلدية، تحيط به قوى الجذب، تتسرب البرودة من خلال ثيابه فيرتعد جسده، يسابقون الزمن قبل أن يشعر العدو بوجودهم، الجواد الذي يتشبث بسرجه يقوده ضابط من جزيرة المارتنيك، هكذا أخبروه، الجزيرة التي سممت رفاقه، يبقي جسده مرفوعا بقدر ما يستطيع، يمسك «محمد الفود» بالسرج من الناحية الأخرى، يشعر «ألماس» أن قدماه لا تلامسان الأرض، يتشبث بالسرج

أكثر، يرتفع مع الجواد، تهب ريح مفاجأة فيحرك الجواد رأسه ويصهل، يسمع صرخة مباغتة، يحرك جسده لينظر من فوق رقبة الجواد، لا يجد يد «الفود» التي تمسك بالسرج، يلتفت خلفه في فزع، يرى رأسه وهي تدور وسط دوامات النهر، يشد السير ويحاول أن يسبح خلفه، يصيح به الفارس من بين أسنانه: لا تفعل، يهتف «ألماس» وهو يشهق: إنه من رجالي، يصيح الفارس: ستضيعان معا، يصيح «شيزنو» من مكان ما: واصلوا التقدم، حافظوا على الطابور، تبتعد رأس «الفود» أكثر، ينتزع الماء جسده من الطابور، يستولي عليه النهر بأكمله، يتوقف الجميع مذهولين، متوقعين أن تظهر رأسه مرة أخرى، لكنها لا تظهر، حتى لو كان يعرف السباحة فقد كان مثقلا بأحماله، وبعد فترة يتحرك الجواد ويجره معه، يشهق عاجزا عن السيطرة عن نفسه، يشعر بقدميه وهما تخوضان في طين الشاطئ، يزحف ورعب الغرق لا يجعله يرى ما أمامه، فقد واحدا من جنوده دون مبرر، ولا توجد فرصة للأسى، تمتلئ عيناه بالدموع، يتوافد بقية الرجال، يمسح الدموع عن وجهه فيرى رأسا أخرى تبتعد، تلتهم الدوامات «جادين أحمد»، تدور به ويرى فقط لمحة خاطفة من وجهه قبل أن يختفي، يلقي بالبندقية ويرفع المخلاة من على ظهره ويعود للخوض في الماء، لن يتركه يغرق هذه المرة حتى لو غرق معه، يفاجأ بجواد ضخم يعترض طريقه، وبوجه مليء بالندوب يصيح به: عد للشاطئ، النهر دائمًا يأخذ نصيبه، جميعنا ذاهبون للموت، هيا!!

رغم إحساس بالمرارة يتواصل سير الطابور، يعبرون غابة جرداء مصفرة الأوراق، محملة بنذر الموت، يعرف «شيزنو» الوغد طريقه جيدا، زودته العيون التي بثها بمعلومات دقيقة، تمنحهم الغابة الساتر الأفضل حتى يقتربوا من المدينة، يرون معسكر المتمردين أمامهم تمامًا، يقتربون كثيرًا منهم دون أن يشعروا بهم، لا يتوقعون أن يأتيهم

الهجوم من ناحية النهر، يقفون مبللين متعبين، لو تركوا لشأنهم لهووا في أمكانهم من شدة التعب، لكن رؤية المتمردين وهم مسترخون أمام خيامهم، والدخان يتصاعد من مواقدهم فرصة لا تعوض، رغم أن المدافع كانت على الجانب الآخر من النهر، إلا أن هذا لا يمنع «شيزنو» من الصياح بوحشية: هجوم، ينسون الإجهاد ويتحركون جميعا في وقت واحد، يعبرون المسافة التي تفصلهم عن المعسكر المعادي، البنادق في أيديهم محشوة والسناكي مشرعة، يسبقهم الفرسان على خيولهم، قبل أن يفطن المتمردون إلى الهجوم يجدونهم وقد أصبحوا وسطهم، تهوي السيوف عليهم وتشق صفوفهم، تصنع طريقا تتقدم القوات من خلاله وهي تواصل إطلاق النار، لا يفعلون أكثر مما يحدث في كل موقعة، يبادرونهم بالقتل قبل أن يقتلوهم، لا يأبهون برؤية وجوههم ولا في ماذا يفكرون، المهم أن يستغلوا صدمة المباغتة وعدم الاتزان الذي يعاني منه الآخرون، معركة هائلة، لا يذكرون كم واحدًا أطلقوا عليهم النار، ولا كم قتيلا طعنوهم بالسناكي! تمتلئ أنف «ألماس» برائحة البارود، وذراعه بالجروح، يسيرون على حافة الموت، يواجهون قوة منظمة، كلما اجتازوا طابورا منهم واجهوا آخر، ولكن المفاجأة تجعل صفوفهم توالي الانهيار، يوم منهك من القتال، ودفاع مميت يبديه المتمردون، لا يريدون الانسحاب رغم كلفته الباهظة، ولكن عند الغروب عندما تختفي الملامح، وتتشابه ألوان الثياب، يصبح القتال شبيها بالانتحار، ينسحب المتمردون من مواقعهم، يتركون جثث موتاهم والكثير من أسلحتهم، يتركون الجنود متعبين فلا يسعون للمطاردة، حتى «شيزنو» الذي كان طوال الوقت يصرخ في وحشية يكف عن الصراخ، يقف مجهدا على قدميه، ملطخا بالدم، جواده ملقى بجانبه وقد تلقى رصاصة في منتصف رأسه، ولولا أنه قفز في الوقت المناسب لمات تحته، يفقد «ألماس»

أربعة آخرين من رجاله، وهناك أكثر من مصاب، صامتين محدقين في الظلام دون أن يكون هناك ما يخفف عنهم.

لا يكف «شيزنو» عن الحركة، يظل مستيقظا طوال الوقت، يحمل مشعلا ويرافقه اثنان من القادة المكسيكيين من الجيش الإمبراطوري، يقلبون الجثث، يتأملون وجوه الموتى على ضوء الشعلة، ينفخ في حنق في كل مرة يهز القادة رءوسهم بالنفي، يطوف بين الجثث أكثر من مرة، يبحث عن الكولونيل «جارثيا»، العدو الذي يطارده، لكنه ليس بين القتلى، ما زال هاربا ومثيرا للمتاعب، يطفئ المشعل يائسا ويسود الصمت أخيرًا، ينام «ألماس» بعمق ودون أحلام، يقضون الليل جميعا وسط جثث القتلى، قتلاهم وقتلى الآخرين، وعندما يغرقون في السبات لا يكون هناك فرق بين الموتى والأحياء، في الصباح تبدو المدينة التي جاءوا لتحريرها، مستسلمة ومنتظرة، يحفرون خندقا طويلا، يضعون فيه كل الموتى، تتشابه الجثث، ولكن «شيزنو» لا يترك عملية الدفن دون أن يتابعها، يراقب الوجوه المشوهة وهي تسقط تباعا في الخندق العميق، ما زال لا يصدق أن «جارثيا» قد أفلت، كان قد دبر كثيرًا من أجل أن يجهز له هذه المفاجأة، هكذا لم تنته حربه بعد، يبدأ جنوده في السير نحو المدينة البيضاء، يراقبهم بعض المزارعين في حذر، يسمع «ألماس» اسم المدينة يتردد على ألسنتهم، طويلا وصعبا، يسألون المزارعين إن كان هناك متمردون أم لا؟ لا يتلقون إلا إجابات غامضة، يدرك الفلاحون أن الفرنسيس سيذهبون، وغدا يعود المتمردون، لا شيء يبقى على حاله، يواصل الجنود التقدم حتى مشارف المدينة، تستقبلهم شوارع خالية، وأناس مختبئون خلف أبواب مغلقة، لا أحد يجرؤ على الخروج والتعرض لطابور الجند، يتقدمون إلى «الزجالو» في منتصف المدينة، نافورة المياه والكاتدرائية ومركز الحكم، تدخله

القوات بسهولة وترفع فوقه العلم الإمبراطوري، يقومون بعملية تمشيط واسعة في أرجاء المدينة، لا يوجد متمردون، ولا أسلحة مخبأة، فقط وجوه خائفة، لا يستطيع «ألماس» مخالفة أمر القائد وهو يطلب منه أن يقيم هو ورجاله خيامهم بالقرب من السوق في وسط المدينة، يجهزون معسكرا صغيرا يضم خيامهم، ينتظرون عودة الحياة الطبيعية للأهالي، لا توجد أيام للراحة، ينظر إلى وجوه رجاله، تناقص عددهم وعيونهم محمرة من فرط الإجهاد، تأكلهم الحرب ببطء، تمضغهم تحت ضروسها، يظل هاجس البحث عن «جارثيا» مسيطرا على ذهن القائد «شيزنو» لا يكف عن إرسال الدوريات إلى القرى الممتدة على طول النهر، لا يجدون في كثير من القرى التي يدخلونها إلا نسوة يتشحن بالسواد ولا يكففن عن البكاء، تتشابه القرى في بيوتها الصغيرة المتلاصقة، وشوارعها الضيقة، وعدد النساء الباكيات، لم يبق من الرجال إلا عجائز واهني القوى، لا يخبرهم أحد بما حدث لأنهم كانوا خائفين منهم أيضًا، أخيرًا تحدثت امرأة وحيدة إلى «جوفان»، صغيرة في السن، تزوجت حديثا، وتعرف القليل من الفرنسية، وبدوره ينقل كلماتها إلى «ألماس»، سبقهم المتمردون إلى هذا المكان واقتادوا كل الرجال، يريدون تعويض النقص في أعدادهم، ولم يجدوا سوى هؤلاء المزارعين المستسلمين، لم يكن الأمر يخصهم، فالأهالي يكرهونهم تمامًا مثلما يكرهون الآخرين، عليهم العودة للمدينة وتقديم تقريره لـ«شيزنو»، لا يعرف إلى متى سيبقون في المدينة، ولكنه لا نهاية لهذه المعركة ولا الحرب برمتها، تعود الحياة للمدينة ببطء، يظهر الأطفال أولا، ثم تبدأ النساء في ممارسة البيع والشراء، ويحوم الرجال حولهم من بعيد، يظل حاجز الخوف قائما، لا يرفع السود بنادقهم في وجوههم، يكتفون بالسير في دوريات صغيرة دون الحديث مع أحد، لا يحاولون

حتى متابعة النساء ولو بأنظارهم، يشعرون بالملل منهن، ومن كثرة القتال، تصبح إقامتهم أطول مما ينبغي، يعتكف «ألماس» في خيمته مريضا بسبب مياه النهر، ولكن الأمور لا تبقى هادئة، لحسن الحظ لا يجرؤ المتمردون على الهجوم على المدينة، يهاجمون خط السكك الحديد على بعد أميال منها، للمرة العاشرة ينقطع هذا الخط، لا يكتفي المتمردون بذلك، ولكن يسلبون الركاب ما معهم، ويقتلوا مهندسا فرنسيا، دائمًا ما كان القطار فريسة سهلة لهم، يصدر «شيزنو» أوامره بأن تذهب قوة من الرجال السود لحماية العمال وهم يقومون بإعادة القضبان، تتحرك قوة منهم مكونة من عشرين رجلا، لا يستطيع «ألماس» الذهاب معهم، يظل في خيمته ولا يعرف بالضبط ماذا حدث؟ ولكن «علي جوفان» يقبل إلى خيمته في المساء، يبدو شغوفا لأن يحكي له أحداث اليوم الفائت، في بداية اليوم لم يكن «جوفان» مع الجنود الذين ذهبوا للحراسة، كان هذا دوره في طبخ الطعام لهم، مهمة أصعب من مواجهة المتمردين خاصة عند قيامه بتقشير البصل، يقف في جانب من المعسكر تحت سقيفة من خشب محاصرا بين الأواني النحاسية، عيناه تدمعان، يدخل ضابط فرنسي من كتيبة الاستطلاع، يحمل رسالة عاجلة عليه أن ينقلها لقائده، يهتف به: رفاقك السود في خطر، المتمردون عرفوا بوجودهم عند القضبان المعطلة، وهناك فرقة من خيالتهم تتجه نحوهم الآن، لا يرى «جوفان» الضابط بوضوح، يقف مذهولا وفي يده سكين المطبخ، ماذا يفعل؟ القائد يرقد مريضا في خيمته، يقول حائرا: ليس معي سلاح الآن؟ يقول الضابط: لن تقدر على محاربة المتمرين بمفردك ولكن على الأقل تستطيع تحذير زملائك، يندفع «جوفان» من السقيفة دون أن يدري إلى أين يتجه، يجد جواد الضابط الفرنسي مربوطا إلى شجرة قريبة، لا وقت للاستئذان، يقفز على ظهر

الجواد ويلكزه حتى يعدو أسرع، يسمع صياح الضابط الغاضب، يعرف منطقة «كوتاخالاتا» رغم أنهم يقيمون فيها من أيام قلائل، يسلك طريقا مختصرا عبر الحقول، عليه أن يسبق بقية المتمردين، يلهث الجواد ويستحثه بقدمه حتى لا يبطئ من سرعته، يقترب من دغل من الأشجار ويلمح الطريق المؤدي للسكك الحديد ممتدا أمامه، ترتفع رءوسهم السوداء من خلف الدغل، ثم تبدو جيادهم فجأة، لا بد أنهم سلكوا الطريق المختصر نفسه، يصيحون حين يروه، عليه أن يلوي عنان جواده ويعود إلى المعسكر، ولكنه لا يفعل، يلكز جواده ويدور نصف دائرة ليبتعد عن طريقهم، يتوقفون قليلا، ربما يتساءلون: إن كانوا يطاردونه أم يتجهون مباشرة إلى الحرس السود؟ ينفصل واحد منهم عن الجميع ويبدأ في مطاردته، جواده قوي، تضيق المسافة بينهما رغم جهد «جوفان» لتوسيعها، يتوقع أن يقوم بإطلاق النار عليه من الخلف، ولكن الفارس لا يفعل، لا يرفع حتى بندقيته، يمسك حبلا طرفه معقود، يديره في الهواء مستعدا حتى يلقيه عليه، لا يريد قتله، ينوي اصطياده كأنه حيوان هارب، يشعر «جوفان» بالغيظ ويحث جواده أسرع، لكنه يحس بالحبل وهو يحيط به، فارس بارع في اصطياد الماشية، يفلح في اصطياده، يضيق حوله ويشل ذراعيه، يأخذ في جذب الحبل، ويواصل الاقتراب، سيأخذه أسيرا، سيعذبونه ويقطعون أطرافه، ثم يهاجمون بقية زملائه ويقتلونهم جميعا، يحس بشيء يؤلمه، يغزه في جنبه، لا يفطن لوجوده إلا والحبل يضيق حوله، يتذكر فجأة أنه يحمل سكين المطبخ، السكين الذي كان يقشر به البصل، وضعه في جيب سرواله دون أن يدري، يواصل الرجل جذبه ليقتلعه من فوق الجواد، يمسك «جوفان» مقبض السكين بصعوبة، يضعها بين جسمه وبين الحبل المشدود، يدير نصلها بعيدا عن لحمه، قبل أن يفطن المطارد لما يحدث يقطع «جوفان»

الحبل الذي يشدهما معا، يرتد الفارس إلى الخلف في حركة مباغتة، ويبدو جواده كأنه يسبح في الهواء، يسقط راكبه على الأرض، في ضربة واحدة يتحرر جوفان من الحبل والمطارد معا، ويبدو الخط الحديدي لامعا، يبتعد عن كل مطارديه، وتحجبه صفوف من الأشواك البرية عن عيونهم، رفاقه متناثرون، يمسكون بنادقهم وظهورهم للطريق، من السهل اصطيادهم في أي هجوم مباغت، يصيح مناديا كل واحد باسمه، «المتمردون قادمون».. لا يهبط من على جواده، يسرع العمال الهنود بالهرب للحقول المفتوحة، يتجمع البقية حول جوفان الذي يهتف فيهم: إنهم يفوقوننا عددا، يجب أن ننسحب ونختبئ في الغابة، يسرع بالسير أمامهم، يعدون خلفه، يختبئون خلف الأشجار، تتناثر حولهم الطلقات، لكنهم يبتعدون، يتوغلون في الغابة فلا يمكن محاصرتهم، وأخيرا عندما يحل الظلام يتمكنون من الانسحاب والعودة للمدينة.

يتوقف عن الكلام ويصاب «ألماس» بالفزع، نصف رجاله كانوا على وشك الضياع، يهتف: لقد نجوتم بمعجزة، نحن في حاجة للكثير من المعجزات حتى ننجو من هذا البلد..

لا يبادر «جوفان» بالانصراف، لديه ما يضيفه، يحدق في الظلام، يستجمع شتات نفسه من أحداث اليوم، يقول فجأة: لقد رأيتهم؟ المزارعين الذين أخذوا من قراهم رغما عنهم، رأيت المكان الذي يحتجزونهم فيه، مررت به بسرعة ولكن أستطيع تحديده.

ينظر إليه «ألماس» دون أن يفهم ماذا يقصد، جميعهم يخضعون للأوامر، يقول: إنهم ليسوا من شأننا، نحن لا نطارد سوى المتمردين.

يقول «جوفان»: أعرف يا سيدي، ولكنك تذكر ماذا كان يفعل بنا الأتراك، كانوا يهاجمون القرى ويحتجزون الرجال، ويختطفون

الأطفال ليبيعوهم عبيدا، أنا نفسي قاسيت من ذلك، اختطفني أحد جنود «الإنكشارية» وباعني في سوق النخاسة، الفلاحون مساكين في كل مكان، نحن مثلهم، علينا أن نخلصهم ونعيدهم إلى أهلهم..

ينظر «ألماس» إليه مندهشا من طريقته في التفكير، في قدرته على ذلك، يقول له: أنت تعرف أننا لا نملك أن نفعل هذا، نحن هنا جزء من جيش ضخم، هم الذين يحركوننا، «شيزنو» هو الذي يصدر الأوامر.

لا يستسلم «جوفان»، يواصل الإلحاح: هذا جزء من حربنا يا سيدي، الجزء الذي يبدو واضحا، تحدث إلى هذا القائد الفرنسي، ستكون هذه نقطة في صالحنا جميعا، ستحسن صورتنا بينهم، لن يتعاملوا معنا بهذه الكراهية والعداء بعد ذلك..

يبدو مصيبا لحد ما، ولكن هل يفكر القائد الفرنسي بالطريقة نفسها؟ ينهض متحاملا على نفسه، يسير في الشوارع المظلمة إلى مبنى البلدية، لا يحب أن يقابل القائد كثيرًا، ولكنه يشعر أنه محمل برسالة خاصة، ينظر «شيزنو» إليه مستغربا، يشرح له الوضع، لا تساعده لغته الفرنسية كثيرًا، يحاول أن يوضح وجهة نظره، ولكن «شيزنو» يسأله بشكل محدد: هل الكولونيل جارثيا هناك؟

يرتج عليه، يقول: لست أدري يا سيدي ولكن هناك هؤلاء المزارعين الأبرياء..

يقول «شيزنو» بلامبالاة: أكره المزارعين، إنهم ليسوا أبرياء إنهم دائمًا جبناء، لن أفتح جبهة للقتال من أجل بضعة منهم..

يدير ظهره له قليلا، يدرك أن عليه أن يرفع يده بالتحية وينصرف، ولكن يجد نفسه يقول: إنهم يكرهوننا يا سيدي، لا يتعاونون معا

ولا يعطوننا أي معلومات، وقد يوشون بنا للعدو، عليهم أن يعرفوا أننا نقوم بعمل ما من أجلهم، لعلهم يثقون بنا بعد ذلك.

يتكلم دون أن يتوقف حتى ليبحث عن الكلمات، لا يبالي بلسانه المعوج، يحدق «شيزنو» فيه مندهشا، لا يعرف «ألماس» إن كان قد فهمه أم أنه مندهش من كلماته البلهاء! يقول: خذ ما تأخذه من رجالك فقط..اذهبوا، لا أريدك أن تخسر أكثر من نصفهم، أريد انسحابا آمنا..

ينصرف من أمامه، نجح في جزء من مهمته وعليه أن يتحمل وحده نتيجة المخاطرة، يدرك وهو يعبر الحواري المظلمة أنه على حق، لم يفعل «جوفان» أكثر من أنه أيقظ ذكريات «السخرة» والعبودية في ذهنه، هذا القائد الفرنسي يحارب فقط من أجل مجده الشخصي ولكن لا بد أن يكون هناك أمر إضافي.

يشعر «ألماس» أنه ليس في أفضل أحواله، جسده مجهد، استراحة المحارب دائمًا قصيرة، يجمع صفوف الجنود السود، يجهزون البنادق والذخيرة، يستعدون للسير خارج المدينة، يتنهد الأهالي في راحة، يستطيعون الآن التجول في الأماكن التي حرموهم منها، يمر السود بالقرى الخالية من الرجال، لم تتوقف النسوة بعد عن البكاء، يصعدون فوق التلال، يشير «جوفان» للطريق المختصر الذي ركض فوقه بجواده، يرجون ألا يكونوا قد أخذوا أسراهم ورحلوا بعيدا، يصلون في منتصف النهار إلى البقعة المحددة، يشير «علي جوفان» إلى معسكر المتمردين، عدد من الجنود يروحون ويغدون حاملين أسلحتهم، منتبهين، لا يريدون أن يأخذوا على غرة كالمرة السابقة، يحتجزون خلفهم منطقة تحيط بها أسوار من أغصان الأشجار المتقاطعة، خلفها توجد كتلة المزارعين،

يسلط الحرس عليهم بنادقهم من جميع الزوايا، كانوا مجرد أسرى لديهم، أكثر ضعفا من أن يرتقوا لمرتبة الجنود، يظل السود ساكنين حتى تطبق عليهم الظلمة فيصبحوا هم وهي سواء، بينما في أسفل التل يشعلون النيران ويطهون الطعام، رغم الحذر هناك إحساس بأمان كاذب، يقول «جوفان» بجدية: علينا أن نهاجمهم الآن.

يهتف «ألماس» به: أنت مجنون، ألا ترى عددهم وكمية السلاح الموجودة لديهم؟! نحن في ورطة حقيقية، لا نستطيع الهجوم، ولا نستطيع التراجع، ماذا سيقول عني هذا الفرنسي؟!

لا يتراجع «جوفان»، يقول: في أسوان، عندما كنت صغيرا أرعى الغنم، كانت الذئاب تهاجمنا، لم نكن نحن ولا الكلاب نستطيع إيقافها، لأنها كانت تندفع وسط قطيع الغنم وتقسمه إلى قسمين، فلا ندري عن أي نصف ندافع، ولا تدري الكلاب إلى أين تتوجه بالنباح! وكان الارتباك يصيب الجميع، الذئاب لا تنتظر الغنم حتى تشرد، إنها تقتحمها وتجعلها تتفرق جميعا، ثم تظفر بمن بقي مفردا منها، علينا أن نفعل ذلك الآن..

أي أحمق هذا، وأي مغامرة يحرضه عليها، يحاول أن يكون هادئا: نحن لسنا ذئابا وهم ليسوا غنما، بعددنا الصغير سنكون صيدا سهلا لهم، يقول «جوفان» مصرا: ما أهمية الحجم هنا، الظلام سيخفي كل شيء وسيجعلنا نظهر كالذئاب..

رغم غيظه من جداله، يدرك فجأة أنه على حق، لو انتظروا حتى يكشفهم الضوء فلن يهاجموا أبدا، سيعود خائبا ويعرض نفسه لسخرية «شيزنو»، يجمع الجنود حوله، يشرح لهم خطته هامسا، يحشون البنادق، ويركبون السناكي في مقدمتها، يندفعون جميعا هابطين من التل مباشرة

إلى قلب تجمع المتمردين، المكان الذي يشعلون فيه نارهم، قبل أن يصلوا إليهم بعدة خطوات يصرخون كذئاب جائعة، كأن أيام الحرب الطويلة قد أصابتهم بالسعار، يطلقون الرصاص في كل اتجاه، ويغرسون السكاكين في صدر من يعترضهم، يحملون جذوات النار ويقذفونها حتى تشتبك في خيامهم وأمتعتهم، لا يدري المدافعون كم عددهم، يرون فقط أجسادهم المندفعة، و يلمحون وجوههم السوداء على ضوء النيران المشتعلة، يتعالى الصراخ: نجرو.. نجرو، الرعب المقيم، يعتقدون أن ما يواجهونه هو فقط مقدمة جيش عارم، مباغتة أخرى، لا يتوقف السود، كلما وجدوا تجمعا اخترقوه وقسموه، حولوا حشدهم لأفراد منعزلين ومرعوبين، يتركون أمتعتهم وسلاحهم وجثث رفاقهم ويفرون، لا يرحم الظلام أحدا، يحاول بعض الجنود مطاردتهم ولكن «ألماس» يمنعهم من ذلك، لقد حقق الهجوم الغرض منه، حتى الحراس الذين كانوا يحيطون بالمزارعين قد فروا، يحطم السود الأسيجة التي كانت تحيط بهم، يصيحون، يعتقدون أن دورهم سيحين بعد أن هرب الجنود، ولكن «ألماس» يصيح فيهم. عودوا إلى قراكم..

ينظرون نحو السود في شك وتردد ثم يبدءون العدو، يجرون عبر السهل ويصعدون فوق التل، كان بينهم أكثر من طفل، يلتقط الجنود أنفاسهم أخيرًا، تظهر ابتسامة «جوفان» واضحة في الظلام، يشعر بالسعادة كأنه قد انتصر على كل الأتراك الذين تركهم بعيدا، يأمرهم «ألماس» بالابتعاد سريعا عن المكان قبل أن يعود الآخرون، وحتى لا يبقوا طويلا برفقة الجثث، لم يقتل أحد منهم، أربعة فقط أصيبوا بالجروح، يتلقى واحد منهم طعنة تخترق بطنه حتى ظهره، لا يستطيعون تركه خلفهم، يصنعون له محفة من أغصان الشجر ويجرونه بينهم، يتحامل الجرحى ويواصلون رحلة العودة، لا يستطيعون التخبط في

الظلام طويلا، يعبرون إحدى القرى ولكن قواهم المنهكة لا تمكنهم من الوصول إلى القرية الأخرى، يتجمعون تحت الأشجار الكثيفة ويرتمون على الأرض، يقول «جوفان» المنتشي أنه سيأخذ المناوبة الأولى، يستغرقون على الفور في نوم مؤلم، لا يشعرون ببرد الليل ولا بندى الصباح، ولكن الشمس الحارة توقظهم جميعا، ينظرون إلى بعضهم البعض، أجسادهم متخشبة ولكنهم أحياء وعطشى وجوعى، ينهضون وينفضون عن ثيابهم التراب ويمسحون بقايا الدم عن وجوههم، يكتشفون أن عشرات العيون تحدق بهم، نساء من القرية بجوارهن أطفالهن الصغار، يحملون أطباقا من الفاكهة النضرة وقناني المياه، ينظرون إلى وجوههم السوداء المتسخة وهم يبتسمون، يتحرك الجنود فلا يبدو عليهن الخوف، تتقدم فتاة صغيرة من «ألماس»، وتقدم له قنينة المياه، يتناولها ويشرب جرعات صغيرة ويمررها للبقية، تتقدم أكثر من امرأة، يضعن أمامهم ما يحملن، خبزا وجبنا وفاكهة وبعض زجاجات النبيذ، يتراجعن ببطء وهن يبتسمن، يبدأ الجنود في الأكل والشرب، كانوا في آمس الحاجة إلى ذلك، يكتشفون أن «بخيت»، الجريح الذي حملوه من أرض المعركة قد تيبست أعضاؤه، يحفرون له قبرا تحت أكبر الأشجار، يهيلون عليه التراب ويقرءون عليه آيات من القرآن، ثم يواصلون السير، هناك حرب ما تزال في الانتظار.

- ١٢ -

تتأمل «كارلوتا» حروف البرقية التي أمامها، زلزال آخر يهز عالمها، سطور صغيرة تعلن نهاية الحرب بين الشمال والجنوب، لم يعد الجار الأمريكي الغاضب مشغولا، يستسلم الجنرال «لي» قائد قوات الجنوب بعد سقوط مدينة ريتشموند بعد حرب سقط فيها مائة وستون ألف قتيل، ويسمح الجنرال «جرانت» للقائد المهزوم أن يحتفظ بسيفه وجواده، ينتهون من أمورهم الداخلية، ويوجهون أبصارهم إلى الجنوب، حدود المكسيك الشمالية المفتوحة أمامهم في ريو جراند، يتدفق عليها عشرات الجنود المهزومين، والعائلات المرعوبة، والأخطر من ذلك هي تلك الأسلحة التي سقطت من أيدي المهزومين، ستعبر الحدود وتتوجه إلى صدور الجميع، سيقع هذا الخبر صاعقا على «ماكس» ويفسد عليه رحلته، لو أنها أرسلت له برقية ربما يعجل هذا بعودته، لكن الأكثر أهمية هو أن يقوم المارشال «بيازين» بسد تلك الثغرة التي انفتحت عليهم فجأة.

تغلق على البرقية أدراجها، كانت مثل كل مساء تجلس في القلعة وحيدة، تكتشف أن الأخطار التي تهدد العرش، آخذة في التزايد، وعليها أن تتذكر خلو بطنها، وهذا الرجل الذي هرب طويلا، لا تريد أن تفكر فيه منذ أن سافر زوجها، تشعر أنها ستكون بلا حماية لو أنها قابلته بمفردها، رغم كل مخاوفها تشعر بحاجة للحديث معه، على الأقل

تأخذ رأيه في هذه البرقية الخطرة، ترسل إليه تستدعيه ليلحق بها، بعيدا عن العيون المحلقة، تقف أمام المرآة وقد أدهشها شحوب وجهها، كأنها لا تذوق طعم الشمس في هذا البلد الحار، روحها الشاحبة هي التي تطل عليها، وحدتها تصبغ وجهها، تسجنه وتزيد شحوبها، تغير ثيابها وتغير خططها، يصل «سمسن» فيجدها على الجواد في انتظاره في ساحة القلعة، مستعدة للانطلاق معا للغابة المجاورة بعيدا عن هواء الأروقة الخانق، تحس بهالة الذكورة التي تحيط به، ترى كم مرة مارس الجنس قبل أن يأتي إليها؟ هل امتلك القدرة على مقاومة سخونة النساء المحليات؟ كانت تعرف أنهن ينظرن إلى الجنس كفعل عادي من أفعال الحياة، يمارسنه بحرية وتدفق، لا يحيطونه بهالات معقدة مثلما يحدث في القارة العجوز، الجنس هنا طقس دافئ، مكمل لطقوس الحياة وليس استثناء منها.

لا يهبط «سمسن» عن جواده، يحني رأسه فقط محييا وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة، ينطلقان معا، بضع دقات من سنابك الخيل وتحتويهما خضرة الغابة ورطوبتها، لا يخففان من سرعتهما حتى والفروع المتدلية تلطم وجهيهما، تبحث عن مكان لم يصل إليه أحد، «ماكس» على الأقل، يلاحقها «سمسن» لا يسبقها ولا يتباطأ عنها، تشرئب الأوراق وتتشابك الأغصان وتختفي السماء، ما يحدث الآن لن يشاهده أحد حتى الملائكة، يتوقف بجواده خلفها ببضعة أمتار، ينتظر حركتها التالية، لا يسمع في الصمت المطبق إلا صوت لهاث جواديهما لا تتحرك، تظل ثابتة فوق جوادها حتى يفهم أخيرًا ما تريده، يهبط مسرعا، يتقدم ويضع يديه حول خاصرتها ويساعدها على النزول، تريده أن يلامسها، أن تشعر بحقيقة وجوده بجانبها، يستويان على الأرض أشد ما يكونان قربا، تشعر بجوع قارس، معدتها خاوية، ورحمها فارغ،

ينزل يده ويأخذ خطوة إلى الخلف، تحاول أن تجعله يفهم أنها لم تستدعه لمجرد النزهة أو الخلوة، تقول: هل كنت تعرف أن الحرب في أمريكا قد انتهت؟ يدهشها رده: المدينة كلها تتحدث عن ذلك، تحدق فيه حائرة، لم يحمل البرق الخبر إلا منذ ساعات، وحتى الآن هي حائرة كيف تبلغه لزوجها! ورغم ذلك يتبادله الجميع في الشوارع، يواصل «سمسن» الشرح: حتى قبل إعلان انتهاء هذه الحرب بدأ جنود الجنوب المنهزمون في التوافد، ليس الجنود فقط ولكن أسرا بأكملها، ينحدرون جميعا من الشمال حاملين ذكريات هذه الحرب المرعبة، لقد طور الأمريكيون العديد من الأسلحة الفتاكة، قنابل أكثر دمارا، ومدافع قذائفها أكبر وأدق تصويبا، وبنادق سريعة متعددة الطلقات، طوروا كل وسائل الموت، دون أن تتطور وسائل العلاج والتداوي، أصبحت معظم الجروح مميتة، لا براء منها، مات ما يزيد على نصف مليون إنسان، كانت حربا شاملة شنها الجنرال «جرانت» القادم من الشمال، لم تقتصر على ميادين القتال، لكنها امتدت إلى قتل المدنيين وحرق المزارع وتدمير المصانع، ماذا سيحدث لو انتقلت مثل هذه المدافع والأسلحة إلى هنا؟ أي مأساة ستحدث لو امتلكها أحد الأطراف؟ يمكنه أن يفني الطرف الثاني تمامًا..

يتوقف عندما يرى علامات الصدمة على وجهها، تشعر أنها لا تستطيع السير بمفردها، تمسك بيده وتتكئ عليه، ربما أخطأت في اختيار الموضوع، تتوقف وهي تقول له: أنت تعرف الكثير، كيف عرفت كل هذا وأنت لم تأت إلى البلاد إلا منذ فترة قصيرة؟

يقول: أنا أقيم في وسط المدينة، أستمع لكل ما يقولونه، وأعرف كل الأخبار في وقتها.

تسحب يدها برفق وتضعها على صدره، تقول: كان يجب أن أفعل مثلك، لا أعتمد على تقارير باردة تأتي من أصدقاء ألداء..

تشعر بضربات قلبه خلف سترته المزركشة، ترتجف هي أيضًا فتسحب يدها سريعا، يسيران بجانب بعضهما البعض، تزداد درجة تلامسهما، يقودها عبر عيون ماء منسابة، ويجمع لها باقة من أزهار بيضاء، يتحدث عن بلدهما البعيد، ومدنهما النائية وسط الضباب، الأماكن التي تعرفها منذ الطفولة، تضحك مثل طالبات المدارس وهي تسمع ذكرياته، تخلع قفازها وتترك يدها العارية في كفه، شيء ما يسري بينهما، نبضات متواصلة، لم تقترب من رجل أبدا مثلما تقترب الآن، السير برفقته أكثر حميمية من مضاجعة «ماكس»، حضوره فقط يدفئ خلاياها الباردة، تقول: ما دمت تعيش في المدينة، بينهم جميعا، ماذا يقولون عني هناك؟

يفاجئه السؤال يتراجع قليلا للوراء، ويصبح وجهه مائلا أكثر للصفرة، يحدق فيها بعيون فارغة، تقول وقد بدأت تشعر بالخوف: هل يكرهونني لهذا الحد؟

يدرك أن وجهه قد فضحه، تتبدد لحظة الدفء وتموت الرغبة، يسرع بالقول: لا أحد يجرؤ على كراهيتك، إنهم يعتقدون فقط أن مكانك ليس هنا، أنت ملكة من أعرق البيوت الملكية في أوربا، لا أحد هنا يفهم ذلك، إنهم فقط يشفقون عليك.

حتى الآن لا يوجد ما يؤلم، تعاود سؤاله، تهتف: ولكن لماذا الشفقة؟ كن صريحا وتكلم، الجهل مؤلم أيضًا!

يقول: إنهم يقولون إن كل ما تقومين به من أنشطة هو لأنك لم تنجبي بعد، ويشيع القساوسة ورجال الدين بين الناس أن هذا بسبب

جلالة الإمبراطور، بسبب مرض جنسي أصيب به عندما كان يزور البرازيل منذ سنوات.

تنهض واقفة، يختل توازنها ويمد يده نحوها، ولكنها تبتعد عنه، لا تريد لأحد أن يلمسها، لم تتصور أن يتوغل أحد في حياتها الشخصية لهذا الحد، أن تصبح تفاصيلها الخاصة مذكورة فوق الأرصفة، تتطلع إلى «سمسن» بوجه ممتقع، ينظر إليها مفزوعا، تقول: كل هذه أكاذيب، الكنيسة تكرهنا لأننا لا نطلق يدها في سرقة الناس وسلب أرضهم.

يقول بسرعة: أعرف، أنا أيضًا أكرههم، ذهبت في مهمة للفاتيكان وأعرف مدى دناءتهم، ولكني ما زلت عند رأيي، مكانك ليس هنا!

يجلسان على جذع شجرة ملقى على الأرض، شجرة شائخة عجزت عن الوقوف فانهارت في مكانها، يواصل الحديث ولكنها تبتعد، تغوص داخل نفسها، عليها أن تحسم الأمر، لا بد أن ينتفخ بطنها ويكون هناك وريث للعرش، ولكن هل يصلح هذا الرجل الذي يجلس أمامها لهذا الغرض؟ هل يمكن أن تفتح ساقيها لرجل غير زوجها؟ كانت تملك العديد من الأسباب المنطقية لتفعل ذلك ولكنها لا تريد أن تلوث دواعي السياسة جسدها، تدرك أنها و«ماكس» يسيران في طريق مغلق، يمكن أن يضيعهما سويا، ويضيع أيضًا حلم هذا العرش الذي جاءا من أجله، تلتفت إلى «سمسن» وتقول له فجأة: كم امرأة في حياتك، هل تعرف عددهن، أم مللت العد؟

يضحك في صوت جاف: كثيرات ولا أحد، قضيت عمري على ظهر الجواد أكثر مما قضيته على فراشي!..

تشعر بنبضات غريبة تغزو جسدها، ولكنها تصبح أكثر جراءة

وربما أكثر عدوانية، تقول: ألم تستحق واحدة منهن أن تهب لها جسدك وروحك..؟

يتردد قليلا، يريد أن يفهم لماذا يتحول الحوار لهذه الواجهة؟! يقول: ما زلت متأكدا أنني سأقابل هذه المرأة.. ربما جئت هنا من أجل ذلك..

يفعل كبقية الرجال، يحدق فيها ليرى تأثير كلماته عليها، من منهما يغوي الآخر؟ هل تنزلق إليه أم تحاول جره خلفها؟ الأمر يعود لها وحدها، هي التي ستأخذ هذا القرار وتتحمل نتائجه، ربما كانت تريده حقا، جائعة إليه بالفعل، ولكن دخوله إلى فراشها لن يكون سهلا، عليها أن تبقى إمبراطورة، ولكن كيف تبقى كذلك وجسدها خاضع تحته في الفراش؟ وهل يمكن أن تفعل ذلك بأقل قدر من المتعة حتى لا تكون الخيانة كاملة؟ تحتاج لقدر من الشجاعة حتى تستطيع أن تمضي في الشوط إلى نهايته، ترتجف وهو يتطلع إليها منتظرا ردة فعلها، تقول: أنا أيضًا جئت هنا لأفعل شيئا ما، وما زال عليّ أن أفعل الكثير، لولا أنني أصبحت فجأة وحدي..

يضع يده على يدها فيتسرب شيء من الدفء إلى روحها، يقول: لست وحدك، لن تكوني وحدك أبدا..

تمد يدها الأخرى وتضعها على وجهه، يرتجفان سويا، تقرب شفتيها وتمررهما على شفتيه بخفة، تنظر إلى وجهه فترى علامات المباغتة، ولكنه يفهم ماذا تعني هذه البادرة، تحس بأنفاسه تحيط بوجهها، يقرب وجهه أكثر، يريد أن يتأكد من معنى هذه القبلة الخفيفة، مجرد شكر أم رغبة في نقل العلاقة إلى مرحلة أخرى؟ تترك له الفرصة ليعاود الاقتراب ويدخل شفتيه بين شفتيها، تذوب صلابة جسده وتتحول

إلى دفء، تتعلق بعنقه، وتشعر بذراعيه يحيطان بخصرها، تأخذه إليه، تفتح شفتيها قليلا، تتركه يفعل بهما ما يشاء، يفعل ذلك جيدا، يتحسس صدرها، تعرف أنهما صغيران، لا يرضيان رجلا مثله، ولكنه يضغط عليهما، تشعر أنهما يكبران، لا يخصانها ولكن ينتميان لكفيه، تشعر بخفة روحها وتوشك أن تفقد الوعي، تتمالك نفسها بصعوبة وتبتعد عنه، تشهق وتفتح عينيها وتنظر إليه، تتأمل ملامحه الخشنة، لا يجب أن تصل معه الآن إلى آخر المدى، بنات الملوك لا يؤخذن في العراء، فوق الحصى والعشب الجاف، لا يُسمع في الصمت سوى صوت أنفاسهما، أنفاسها هي على وجه التحديد، ليس الآن، عليها أن تخرج نفسها من هذه الحالة، تخفف التوتر الذي يعلو، تتراجع وتبتعد عنه ببطء.

يركبان جواديهما في صمت، لا يجرؤان على نطق كلمة واحدة، لا بد أنها فقدت جزءا من نفسها، من شجاعتها وتصميمها، تشعر أنها ليست المرأة المكتملة التي تتهيأ لصنع إمبراطورية في عالم جديد، يصلان للقلعة، يهبط «سمسن»، ويحني رأسه نحوها، هناك كلمات عليها أن تقولها، موعد من أجل لقائهما الثاني، لكنها لا تفعل، لم تحسم أمرها حتى هذه اللحظة، تتركه يركب جواده ويتجه عائدا للمدينة التي تنهش لحمها.

تقرر أن تتناول العشاء وحدها، لكن جولة الغابة لا تفلح في فتح شهيتها، يحمل الخادم رسالة جديدة من «ماكس»، رسائله اليومية التي لا تتوقف، أحد مظاهر رحيله وابتعاده، لا شيء مهم، عواطف وأشواق وكلمات بائسة لا تعني له شيئا، في العادة تكتب له ردا حول كل ما فعلته في يومها، يحمل الرسول نفسه الرد بعد أن يتناول عشاءه ويتسلم جودا جديدا، ولكنها تتركه هذه المرة يعود خاويا بلا رد، مثل الخواء الموجود داخل رحمها، تشعر بالألم، كأن هناك حشرات تتوالد

بداخله وتنهش جدرانه من الداخل، تأوي إلى فراشها البارد، في الحجرة الواسعة التي تتلاطم الأغصان على نوافذها، لا يأتيها النوم إلا قليلا، تخرج من كابوس لتدخل في آخر، تستيقظ مع أول ضوء، وتسير حافية القدمين على البلاط البارد، وعندما يستيقظ الجميع تبلغ سكرتيرها أنها لن تذهب للمدينة، على الوزراء أن يجتمعوا وحدهم هذه المرة، يتخذون ما يشاءون من قرارات ثم يرسلونها إليها، ستوقع ما تراه مناسبا، لا حاجة للتعرض لنظراتهم الوقحة.

تتطلع للطريق الذي يفصل بينها وبين المدينة البعيدة، هؤلاء الناس يدركون أفضل منها، أن الطريق لملء بطنها مغلق مع «ماكس»، ويمكن أن يبقيها وفاؤها وإخلاصها له كالشجرة اليابسة، ربما كان «ماكس» مريضًا بالفعل، ولكن ربما أيضًا لم يكن كذلك، ما زال في الثلاثينات من عمره وهي في بداية العشرينات، لم يمارسا الجنس معا بدرجة كافية، مشكلتها الرئيسية أنها لم تستطع جذبه إلى فراشها لعدة ليال متوالية، من المستحيل أن تتصرف كبغي وتسعى خلفه من ليلة لأخرى، ربما لم ينم معها في ليلة الإخصاب المناسبة لها، ولكن ماذا لو وقف مرضه حاجزا وبين امتلاء رحمها، ماذا لو كان ابتذال نفسها ومطاردتها له دون جدوى؟ تظل جالسة منذهلة، زوجها ليس مريضا، فهو يشتهي كل النساء إلا جسدها، ويدفئ كل الأسرَّة إلا فراشها، تتذكر اللحظات الحميمية التي تربطها بماكس منذ أن وصلا إلى هنا، منذ الليلة الأولى وقد هجر فراشها، فضل أن ينام بين أجسادهن النحاسية، بعد ذلك ظلت نشوتها ناقصة، لم تصل معه إلى ذروة مكتملة، فكيف تحمل طفله إذا قدر لها ذلك؟

تقضي يومها نصف مغيبة، في حالة من الانتظار الدائم وعدم التحقق، تجد رسالة جديدة من «ماكس» في انتظارها، تتردد قليلا في قراءتها

لأنها لا تملك ردا، تقرأ كلماته، يحدثها عن اكتشافه لقصر جديد، أو بالأحرى خرائب قصر قديم سكنه قبله «هرناندو كورتيس» المستكشف الإسباني الذي غزا البلاد، وأصبح الحاكم المطلق لهذا العالم الشاسع الخضرة، كان قد أختار أكثر الأماكن سحرا ليبني فيها قصره، في منطقة «كورنافاكا» وسط حديقة وافرة الخضرة، يقول «ماكس» في رسالته: ما بقي من خرائب القصر هو شرفات ممتدة، وتماثيل عارية، ونوافير معطلة تغطيها أحراش من زهور الليلك، وتحيط به أشجار المانجو والبرتقال، ويمتد أمامه واد، وخلفه سلسلة من الجبال البركانية، تخترق بقممها الثلجية زرقة السماء، تخيلي هذا الوادي الذهبي وهو ممتلئ طوال العام بالزهور والثمار، حيث لا توجد مواسم.. تواصل القراءة وهي مذهولة، في أي عالم يعيش هذا الرجل؟ يريد أن يصلح هذه الخرائب ويقيم فيها، يعتزم أن ينفق ملايين أخرى من خزينة على وشك الإفلاس، فقط ليبتعد عنها أكثر، هذا الوصف المسهب للطبيعة لا يخدعها، هناك امرأة أخرى في هذا المكان، ربما أكثر من واحدة، ستسلب ما بقي من حيويته، وسيظل رحمها خاليا، ويبقى العرش بلا وريث، ويضيع الحلم بسبب نزواته، لقد نجح في أن يجعلها تشعر كما لو أنها امرأة جرباء، دائمة النبذ، ترد على الرسالة بكلمات مقتضبة، لا تستطيع أن تشاركه هذا الحماس.

لا يجب عليها أن تتهرب من «سمسن» أكثر من هذا، تعود لمقابلته مرة أخرى، ينطلقان معا إلى الغابة على الفور، لا تهتم بعشرات الهمسات والإشاعات التي تعرف أنها ستملأ أرجاء المدينة، تمضي معه إلى عمق الغابة، تترك جسدها يحتك بجسده وهو يهبط بها من على الجواد، تتركه يقبل باطن يدها، ويلامس وجهها بشفتيه وتزحف يده على صدرها، يرتجف جسدها بالرغبة، لكنه ما زال ينتظر منها أن

تقوم بالخطوة النهائية، تدعوه إلى فراشها، تستجمع قوتها وهما عائدان، والعتمة تخفي ملامح وجهيهما معا، تقول: موعدنا غدا لن يكون في ضوء النهار، ستنتظر حتى يحل الظلام، وتأتيك إشارة ضوء من نافذتي، ستجد بابا مفتوحا في الجدار الغربي، لا تثر أي ضجة وأنت تدخل، وسأكون في انتظارك..

لا تسمع صوته، لم يفق من صدمته بعد، تحققت فجأة أمنية كانت تبدو مستحيلة، لا يعرف كيف يتصرف غير أن يواصل السير خلفها متأخرا بعض الشيء! يودعان بعضهما دون كلمة، تحبس الدهشة أنفاسها، أخيرًا اتخذت قرارها ومدت له خيط الرغبة، تصعد إلى غرفتها وهي ترتجف، هل جازفت أم تأخرت كثيرًا؟ ولكن غدا سينعم فراشها بدفء رجل آخر، ويمتلئ رحمها ببذور طفل جديد، كانت واثقة أنها تمتلك رحما خصبا، يستطيع أن ينجب ملوكا وأمراء يكفون لحكم هذه القارة الإستوائية، جسدها ليس باردا ورحمها ليس جافا، الذين يعانون من الجفاف هم الذين يهربون من مضاجعتها وإخصابها، ليلة أخيرة ستقضيها وحيدة في فراشها البائس، ليست شبقة ولا مستثارة، لا تريد حتى التمتع بالجنس، لأن المتعة ستكون خيانة لزوجها الذي لا يتورع عن خيانتها، ما تريده فقط هو إنقاذ العرش!!

تحمل مصباحها وتسير حافية القدمين، لا تريد أن يرافقها أحد من الخدم، تخرج واحدا من الصناديق الذي جاءت بصحبتها من أوربا، لم تفتحها من يومها، هي في حاجة إليه الآن، تزيح الغطاء بأصابع مضطربة، تتصاعد منه نفحة من العطر، يهب على وجهها عطر جدتها المفضل، مكون من أفضل ورود إسبانيا، تتحسس ثياب النوم الحريرية والدانتيلا الشفافة، يتسرب إلى داخلها إحساس البرودة الناعمة، يقشعر بدنها بمتعة خفية، تخرج الأثواب وتفردها أمامها، ستلتف حول جسدها

وتبرز أفضل ما فيه، لم تجرؤ على ارتدائها حتى الآن، تتذكر شهقتها عندما أحضرتها جدتها قبل زفافها، اعترضت وهي تقول: جدتي، هذه الثياب لا تليق إلا بالعاهرات، تبتسم جدتها، تهز رأسها، تقول بخبرة عمرها الطويل: هكذا الرجال، يتزوجون الأميرات ويسعون إلى فراش العاهرات، حان الوقت لـ«كارلوتا» حتى تخرج من برودة جلدها القديم، هل سينطبق عليها لقب العاهرات التي يسعى الرجال إلى فراشهن؟ تخلع ثوبها وتبدأ في ارتداء الثياب واحدا بعد الآخر، تنساب أنسجة الحرير على جسدها، تبرز استدارة ثدييها وتماسك مؤخرتها ونحول قوامها، تلبس قمصان «الدانتيلا» المخرمة، ترى من ثقوبها لحمها العاري، شاحبا قليلا ولكنه حي، تواق وجائع، راغب ومتطلب، هل يمكن أن توقظ هذه الاثواب شهوة «ماكس»، أم أن رؤية جسدها كان كفيلا بإخماد شهوته؟ مضى الوقت، اختارت رجلها، ولم يبق إلا أن تختار ثوبها، ترصها على الفراش وتنام بينها، تحس بدفء التوقع، تشعر أن الغد غاية في البعد، لماذا لم تختصر الطريق وتدعوه الليلة لفراشها؟!

تستيقظ في الصباح وهناك خدر في جسمها، إحساس بالوخز كأنها قد مارست الجنس بالفعل، تتناول فطورها بمعدة خالية، وأذن مسدودة، لا تسمع ما يقال لها، تلتف الوصيفات حولها، يتحدثن ويغنين وينقلن آخر نمائم المدينة، تستمع فقط للإيقاع الذي ينبعث من داخلها، تنظر ناحية النافذة فتجد الشمس موجودة وساطعة أيضًا، فمتى يحل الظلام؟ ومتى يتم إشباع الرغبات التي تجيش في أعماقها؟ تحاول إضاعة الوقت في الحركة، تتجول في الحديقة، وتتصفح عشرات الوثائق التي توضع أمامها دون أن تقرأها، لا تضع توقيعا على أي واحدة منها، سيظل كل شيء معلقا حتى يأتي المساء. ولكن

قبل أن يحل الظلام بلحظات يرتفع الغبار ببطء، يتصاعد على الطريق الموصل من القلعة للمدينة، ينقبض قلبها عندما ينقشع الغبار، تظهر العربة الملكية التي خرج بها «ماكس» قبل عدة أسابيع، يظهر الحرس الذي كان يرافقه، يغطيهم تراب الجبال، عائدين جميعا دون إنذار مسبق، مبكرين عن الموعد الذي حددته مع «سمسن»، تهبط حرارة جسدها فجأة، تكتشف للمرة الأولى أنها ليست مشتاقة لـ«ماكس»، كانت تتمنى أن يتأخر قليلا حتى يحسم جسدها أمره، يهتز القصر كله سعيا لاستقبال الإمبراطور، لا بد أنه استطلع الغيب، قرأ نواياها وبادر بهذه العودة المفاجئة، أراد أن يقطع عن جسدها لحظة الشهوة العابرة التي اجتاحته، هل كانت تريد فعلا وريثا للعرش، أم أنها كانت أسيرة للحظة من الشبق والجوع والافتقاد؟ تظل جالسة حتى يسير ويقف أمامها، يزيل التراب العالق بثيابه ويمسح العرق الذي يغطي وجهه، ترفع رأسها وتتأمله، تقرأ ملامحه، تفكر في نفسها: يا إلهي.. لقد كان يخونني، يبدو هذا واضحا من النظرة الأولى، هناك امرأة ما خلف ذلك الرضا والإشباع اللذين يطلان من عينيه، ترغم نفسها على الوقوف وتمس خده بشفتيها، فقط لأن الجميع يراقبون كل حركة يقومان بها، يجلس متعبا، لا يبدو أنه قد أحس ببرودها أو لم يبال به، يشير للجميع بالانصراف، يتنهد وهو يقول: لقد رفض الرئيس «لينكولن» أن يتلقى رسالتي، رفض حتى أن يقابل المبعوث الذي أرسلته إليه، رغم أنني أرسلته فقط ليهنئه بالنصر..

كان مصدوما، يحس أنه اصطدم بجدار الشمال البارد، غير قادر على مواجهة الموقف وحده، يفاجئه سؤالها: ما هذا القصر الذي تنوي أن تسكنه في «كورنافاكا»؟ هل سننتقل من هذا المكان، أم أنه لك وحدك؟

ينظر إليها بعينين غائرين، ربما كان هذا آخر سؤال يتوقعه، لم يجبها، يدرك أنه مهما قال فلن يستطيع إقناعها، بعد صمت طويل تنهض من أمامه وتنصرف إلى غرفتها، الليلة ستضاء كل نوافذ القصر، وستبقى غرفتها فقط هي المظلمة، وسيأتي رجل تعيس الحظ، ينتظر طويلا في الظلام قبل أن يعود خائبا، ليلة باردة أخرى، ولن يأتي النهار إلا بمزيد من المشاكل.

لا تنام كالعادة، والمدهش أن «ماكس» لم ينم أيضًا، هل كان قلقا من عداء «لينكولن» الصريح، أم منها، الزوجة التي تجرأت أخيرًا وأعلنت عن شكها فيه؟ يذهب إلى المدينة ويعود، لعله لاحظ أنها امتنعت عن الذهاب لاجتماعات مجلس الوزراء، وبالتأكيد هناك من همس في أذنه بزيارات الكولونيل البلجيكي، وخروجهما إلى الغابة معا، يشعر أن شيئا ما قد تغير، لكنها لن تقول له كلمة تريحه بها، لا تسمع عن «سمسن»، ولا يأتي ليراها، رغم أنها كانت تنوي أن تتصل به وتخبره ألا يتأثر بما حدث، أن يواصل لقاءاته بها، ولكن لا مزيد من التعقيدات، عندما تحين اللحظة ستملأ رحمها كما تريد!!

يرسل «ماكس» مئات العمال إلى «كورنافاكا»، ما زال مصرا على مواصلة تجديد هذا المنتجع اللعين رغم كلفته الباهظة، كعادته الطفولية يتمسك دائمًا بما يريده، ويتعامل معها كأن شيئا لم يتغير، ولكنها تدرك أنه يتحين الفرصة ليسافر إلى هذا المكان، ساعتها ستقرر ما تفعله بجسدها، يجيء المارشال «بيازين» غاضبا كعادته، خاض الكثير من المعارك في مكان ما، تراجع الجمهوريون من أمامه دون أن يتركوا له فرصة للانتصار، ثم عادوا دون معاناة من هزيمة، معارك غير حاسمة ضد عدو مراوغ، يعرف أن قوته ستتزايد بفضل الأمريكان، مسألة وقت فقط قبل أن تتدفق الإمدادات من الشمال، يتقابل مع «ماكس» دون أن

يخفي تبرمه، يحتج على وجود الفيلق البلجيكي في المدينة، يهتف قائلا: لا يمكن الاحتفاظ بهؤلاء الجنود داخل المدينة، لم يأتوا من أوربا حتى يبقوا في حانات نيو مكسيكو، مكانهم في ساحة القتال.

تشعر بالغضب لأنه يريد أن يسلبها جنودها، الجنود الذين لا تشعر بالأمان إلا في وجودهم، لا تدري إن كان قد علم بالزيارات المتكررة لـ«سمسن» أم لا؟ لا يهم، تصيح في وجهه: إنهم مكلفون بمهمة أكبر، إنهم يؤمنون طريقنا للمدينة ويعدون جيشا من الأهالي، هذا الجيش هو الذي سيغير وجه الحرب ويعطي لهذه الإمبراطورية الأمل في الاستقرار.

لا يبالي بكلماتها: هراء، لو تكون جيش منهم فلن يحدثوا إلا الزحام، ولن يفسدوا إلا خطط القتال، وفي النهاية سينضمون إلى رفاقهم من الجمهوريين، لسنا في حاجة للمزيد من الخونة..

يقول ذلك بكلمات حازمة لا تترك لهما مجالا للنقاش، يصمت «ماكس» مكتئبا، «بيازين» دائمًا هو الأقوى، كل الظروف ضدهما، كانت تتوقع أن يقاوم «ماكس» أكثر من هذا، ولكنه يبدو أيضًا سعيدا بالتخلص من «سمسن»، هي الوحيدة التي تخرج خاسرة، سيذهب «بيازين» إلى معركته، و«ماكس» إلى قصره الجديد وتبقى هي على حالها، بعد أيام قلائل يأتي «سمسن» لوداعهما، يلقي عليها نظرة حائرة، ويمس بشفتيه الباردتين يدها الباردة، يستعد هو وفيلقه إلى منطقة «تاكامبورا»، لا تعرف أين تقع على وجه التحديد ولكنها بعيدة عنها، يبدو حائرا بين رغبتين، تشوقه للقتال، وتشوقه إلى جسدها، تجد فرصة لتهمس له: ستعود إليّ منتصرا، بيننا موعد مؤجل، أشواق مؤجلة، لم تشعر بعد أن فرصتها قد ضاعت، ينخلع قلبها وهي تراهم

يرحلون جميعا، و«ماكس» يتطلع في أثرهم بعينين باهتتين، ماذا كان يدور بخلده، هل يشعر بمدى الفقدان الذي تعاني منه؟! يغيب الجنود خلف الغبار المتصاعد، وتغادر هي المدينة الخانقة عائدة إلى قلعتها الباردة، تنعزل في غرفتها بينما يستقبل هو المهندسين العسكريين الذين سيذهبون إلى قصره الجديد، نزوته الجديدة، ويظل «بيازين» يختال في المدينة وحيدا، يجهز ترتيبات عرسه على الفتاة المكسيكية ذات الثامنة عشرة التي وضعت كل طموحها على كاهل المارشال الخمسيني.

تتواصل الحياة الباردة، لا تأتي إليها أي رسالة من «سمسن»، ربما انشغل بالقتال على الفور، ولم يعد لها مكان في وقته، كان عليها أن تجتهد أكثر وتفتح له طريقا سهلا إلى فراشها، تحس بالحسرة على فضيلتها التي لم تعد تطيقها، يحدث ما توقعته، بعد عدة أيام من زفاف «بيازين»، يقول لها «ماكس»: الحر هنا لا يطاق، والذباب أكثر مما ينبغي، سأذهب لقضاء بضعة أيام في «كورنافاكا».

لا يدعوها للذهاب معه، يريد أن يبتعد عنها، يتركها منبوذة في القلعة الباردة، وللمرة الأولى في حياتها تقوم بشيء لا يليق بها، تستدعي إحدى الوصيفات، مشهورة بنشاطها الجنسي الذي لا يتوقف، على الأقل أكثر شجاعة منها، فخورة بقدرتها على الدخول في علاقات متعددة مع رجال مختلفين في وقت واحد، كانت مخلصة فقط لجسدها، أكثرهن تواؤما مع العالم الجديد، كانت على علاقة بأكثر من ضابط من الحراس القريبين من زوجها، تستمع وتسمع وتنزع من الرجال سوائلهم وأسرارهم في الوقت ذاته، تكلفها أن تعرف السبب المباشر لذهاب زوجها بعيدا إلى هذا الحد، تعرف ذلك بعد عدة أيام، هناك امرأة كالعادة، لماذا لا تدهش؟! لم تكن الشكوك التي تساورها هباء، ولكن هل تستحق تلك النزوة هذه الكلفة الباهظة؟ المرأة المختارة ليست إلا

زوجة للرجل المشرف على حدائق القصر الجديد، زوجة شبقة لبستاني غافل، تدخل إلى جناح الإمبراطور من خلال باب صغير مفتوح على الحديقة، من المؤكد أن البستاني هو الذي أشرف على صنعه، ربما يشعر بالشرف لأن زوجته تشارك الإمبراطور فراشه كل ليلة، هل هي جميلة؟ وصيفتها تقص عليها وهي مستثارة، جميلة وساخنة بالتأكيد، وإلا ما فعل من أجلها كل هذا.. أن تشغل نفسها بشئون الدولة، تتقصى الأخبار عن تقدم الفيلق البلجيكي، لم يقاتل بعد ولكنه يواصل التقدم، تركب جوادها وتهرب وحدها لعمق الغابة، لعل «سمسن» يظهر فجأة، تتاح لها الفرصة لتعيد عرضها عليه، ولكن لا توجد في الغابة إلا ريح مرعبة لا تكف عن الصفير، وطيور لا تتوقف عن الطنين، تجلس وحدها، مخانة ومخدوعة، لا تدري ماذا تفعل، تعود وسط هدوء الليل، لا أحد يشعر بمدى حسرتها، لا بد أنهم يتحدثون من خلف ظهرها عن العشيقة الجديدة، تغلق أبوابها، وتكتب إلى «سمسن» رسالة: «عد إليّ ولو لبضعة أيام، سأفعل أي شيء حتى نصبح لبعضنا البعض، لا تبالي بالإمبراطور أو حتى «بيازين»، سأفعل أي شيء حتى نلتقي».. تختم الرسالة بالشمع الأحمر، تسلمها لواحد من الأتباع الذين تثق بهم، توصيه ألا يسلمها لأحد إلا «سمسن»، أن يموت حتى لا تقع في يد أحد آخر، يغيب عنها طويلا، تمضي أيام دون أخبار حتى يظهر «بيازين» غاضبا مربد الوجه، ربما لأنه اضطر لترك شهر العسل، يبدو متعبا، ربما بسبب قلة النوم، لم يكن جسد عروسه الصغيرة ليهدأ بسهولة، يتكلم فتتساقط ألفاظ الموت من بين أسنانه، يقول في صوت خفيض، ولكنها تسمع كلماته في وضوح: لقد تعرضنا لكارثة في «تاكامبورا»، تعرف أنه المكان الذي ذهب إليه الفيلق البلجيكي، الذين أرغموا «سمسن» على الذهاب إليه، ينتفض قلبها في عنف وهي تستمع إليه: لقد تعرض

الفيلق إلى كمين، تم حصاره داخل إحدى الغابات، أحاط به المتمردون فجأة من كل جانب، تصيح في رعب: هل قتلوا؟

يتحدث ببرود وهو يتخير كلماته، يعطيها المعلومات قطرة فقطرة وهو يتحدث عن مصير رجالها، الذين أرسلهم أبوها لحمايتها في هذه القارة المتوحشة، يقول ببساطة: مات البعض منهم، ذبحوا.. ولكن البقية وقعوا في الأسر، ما زالوا أحياء على الأقل..

تنتظر أن يكمل ولكنه يتوقف محدقا فيها، منتظرا ردة فعلها، تلتقط أنفاسها في صعوبة، تقول: و«سمسن».. القائد؟

يقول: لم يمت ولم يؤسر أيضًا، كان في الأمام مع بعض من ضباطه، أفلت من الفخ..

لا تدري بأي لهجة تقولها، ولكنها تختنق بالغضب، تصيح فيه: أنت فعلت بهم هذا، أنت قتلتهم، بعثت بهم إلى هذا الفخ، إنهم جنود جدد لا يعرفون تضاريس هذه الأرض، تعمدت أن ترسلهم إلى مصيدة مميتة، وكنت تعرف أن أحدا منهم لن يعود، أنت تتحمل المسئولية..

يرد عليها بصوت خشن: أنا مارشال فرنسا، ولا يمكن أن أقبل هذه الاتهامات..

تقول في تحد: سأرسل إلى الإمبراطورة «أوجيني» لأخبرها بما حدث..

لا يبدو أنه تأثر، يقول: ولائي للإمبراطور «نابليون»، هو الوحيد الذي يوجه إليّ أوامره، بعد إذنك يا سيدتي.

ويحني رأسه ويعطيها ظهره، ينصرف دون أن يأبه بغضبها، في ضربة واحدة يطيح بالفيلق الخاص بها، يجعلها تحت رحمته مرة أخرى،

تتلفت حولها، تشعر بالحاجة إلى «ماكس» ليشاركها في هذه المحنة، ولكنه بعيد، في فراش ناء مع زوجة بستاني ما، لا يوجد من يعزيها أو يأخذ بيدها، لا تدري كيف حال «سمسن» الآن، لا بد أنه يحس بالإهانة والهزيمة، فقد قواته وسلبت منه أسباب زهوه وقوته، هو الآن مجرد ضابط ضعيف لا مكان له في هذه الملحمة الشرسة، عليه الآن أن ينضوي تحت جناح «بيازين»، أمله الأخير هو أن يحرر رجاله، لا يستطيع العودة بدونهم، ولا أن يبقى بدونهم، لن يهتم برسالتها، حالته أصبحت أكثر ضعفا، وسلطتها كإمبراطورة وكامرأة لا تستطيع أن تنقذه من هذه المحنة، في المساء تجلس وحيدة وتكتب إلى أوجيني: «وجوه هؤلاء الرجال لا تفارقني ليلا ولا نهارا، كارثة تشبه الزلزال» ولكن الكلمات ليست كافية، تخرج من أموالها عشرة آلاف فرنك كاملة، هدية للجنود الأسرى، ترسلها عبر وسطاء لهم القدرة على عبور مرمى النيران، مغامرين وأنصاف لصوص، تعرف أن هذا سيثير غيرة الجنود الفرنسيين وغضب «بيازين»، ولكن هذا هو ما تريده بالضبط، هناك مخاطرة كبيرة ألا تصل أي من هذه الفرنكات لأي جندي، خاصة وأن هؤلاء الجمهوريين لم يكونوا إلا عصبة من اللصوص، ولكن لدهشتها تصل النقود كاملة، معجزة غريبة أكدتها رسائل الشكر من الجنود الأسرى، هؤلاء الجمهوريين الذين كانوا يعتقدون أنهم مجرد قطاع طرق، يتصرفون بنبل وفروسية كاملة، من المؤسف أنه لا توجد فرصة للتصالح معهم، ربما تكون هذه الفرصة الوحيدة لهزيمة «بيازين».

يعود «ماكس» من منتجعه، منتعشا ومشبعا، تكسو وجهه سمرة خفيفة تجعل عينيه أكثر زرقة، ينظر إليها مبتسما، يستمع إلى كلماتها في صبر، يتفهم حزنها وأسباب حسرتها ولكنه لا يقدم شيئا، لا يرسل من يبحث عن «سمسن» وينقذه من مهانته ويتيح له الفرصة ليسترد

شرفه، يبدو شاردا، ينظر إليها بعينين باهتتين، يقول: لقد اقترب عيد الاستقلال، عيدهم، أريد أن أشعر أنه يخصني، سأقف في شرفة القصر، وسيقفون في الأسفل، يتطلعون نحوي، لا أريد أن أكون وجها غريبا في بلد غريب، يجب أن أعطيهم شيئا..

يتحدث هامسا بطريقة غريبة، شيء ما قد تغير فيه، يدبر شيئا لا تعرفه، تتأكد من ذلك حين يبدأ في النزول إلى المدينة كل يوم، يعقد اجتماعات متواصلة مع الوزراء، يفعل ذلك بانهماك لا يتماشى مع طبيعته، يقترب سبتمبر رغما عنهم جميعا، تعلق الزينات على القصر الموجود في المدينة، وتمتلئ الشوارع بأغصان الشجر وعقود الغار، للمرة الأولى منذ فترة طويلة تخرج مع «ماكس» متجهين للمدينة في عربة واحدة، يرتدي الزي الرسمي، ويضع على صدره صليب قديسة «جوادلوب» التي يقدسها الجميع، ترى ما هو شكل المرأة التي تحتل فراشه، وهل يعطيها القدر الكافي من سوائل جسده حتى تتمكن من الحمل؟ يجلسون جميعا في بهو القصر ذي الشرفات، ويجلس المارشال «بيازين» في مواجهتها ومعه زوجته الصغيرة، جسدها لدن كبنات آوى، يتناثر على بقية المقاعد عدد من الوزراء والجنرالات، ويختفي «ماكس» في قاعة جانبية، ربما ليراجع السطور الأخيرة من خطابه، أمر غريب ألا تكون معه، تجلس وحيدة وفقا لترتيب لا تفهمه، يتبادلون الابتسامات وكلمات الود المتكلفة، زحام شديد ولكنها وحدها، يملأ البرد روحها، لا تدري ماذا سيقول «ماكس» في مثل هذا الوضع السيئ؟

يرتفع التصفيق في الغرفة حين يدخل، يسير مزهوا وعلى وجهه ابتسامة صغيرة، كان رجلا فاتنا، ولكنه لم يكن مقدرا لها، يمسك في يده طفلا صغيرا، ربما كان عمره عامين أو ثلاثة، يسير متعثرا ويتطلع

في كل لحظة إلى سيدة تسير خلفهما تمامًا، يتطلع الجميع إليهما في صمت ودهشة، تنظر حولها حائرة، يخفي «بيازين» ابتسامته، تصيبها حيرة قاتلة، تبدو المرأة أكبر سنا من أن تكون عشيقة لـ«ماكس»، يحمل وجهها الملامح الهندية التقليدية، بشرة سمراء تشوبها الشحوب، وثوبا فخما ولكنه عتيق، تسير رافعة الرأس، تتعمد ألا تنظر لأحد خاصة في اتجاهها، كذلك يفعل «ماكس»، يتجاهلها بصورة لا تستطيع أبدًا أن تغفرها له، وهذا الطفل الداكن اللون، هل هو ابنه من مكان ما؟! يا إلهي.. كلا، لا يوجد في ملامح الصغير أي إشارات أوربية، يشبه فقط ملامح الكابوس، يواصل السير حتى يخرج به إلى الشرفة، تتوقف المرأة بجوار الستائر المفتوحة، تعطي ظهرها لهم جميعا، أنظارها مركزة على الطفل الصغير، تشعر بحالة من الإهانة لم تمر بها من قبل، تتعرض لتجاهل ممض، الجميع يقرءون وجهها ويدركون مدى درجة جهلها، من جلستها ترى الطفل وترى المرأة ولكنها لا ترى «ماكس»، تسمع صوته فقط، يختلط بهتاف الجماهير المحتشدة أسفل النافذة، ماذا ينوي أن يقدم لهم؟ يتحدث بصوت واثق من نفسه، يقول بوضوح وبنبرة لا تنساها، الإمبراطورية ستصبح مكسيكية خالصة، لا حاجة للاستعانة بأي شخص آخر من خارج أرضها، لذا فقد اختار ولي عهده من الآن، تنهض واقفة، ينهضون جميعا ويتجمعون خلفه، تتقدم من الشرفة ولكنها لا تجرؤ على الخروج إليها، ترى وجوههم المحتشدة يتطلعون إليه بذهول، ينحني «ماكس» قليلا ويمسك الطفل من خاصرته، يرفعه عاليا ليراه الجميع، حتى تراه هي بالذات وتعرف أنه قد اتخذ قرارا لا تعرف ما الذي دفعه إليه، يعود للصياح: هذا هو ولي العهد الجديد، «جوستاف» حفيد الإمبراطور السابق «أتوربيد»، منذ الآن سأمنحه لقب الأمير، وسيقيم مع عمته داخل قصري، سأعيد العرش لسلالة أول إمبراطور حكم المكسيك.

يظل رافعا الغلام حتى يراه الجميع ويفهموا مغزى كلماته، يخيم الصمت، أخيرًا ينزل الغلام، يهرع باكيا ليحتمي بثوب عمته، ترتفع من أسفل بعض الهتافات، تقف مصدومة، يعرفون جميعا من أين جاء هذا الغلام إلا هي! تفتش في ذهنها بحثا عن الاسم، هذا الإمبراطور قد سقط قبل أن يجيئا إلى البلاد، أسقط الجمهوريون سلطته التي لم تدم طويلا، ورحلت أسرته كلها إلى الشمال، إلى أمريكا التي ما زالت تحاربهما، كيف عبر هذا الحفيد الحدود وجاء لينعم بهذا المنصب الذي جاءا ليدفعا حياتهما ثمنا من أجله؟ لا تدري متى توقف الخطاب! لا تسمع إلا صفير الرياح، لا ترى إلا أشباحا تتحرك أمامها، هل اقترب منها، هل سألها أحد شيئا؟ لا ترى شيئا غير عينين تحدقان فيها بثبات، نظرة مستمرة وثابتة ونفاذة تريد أن تنفذا إلى داخلها، العمة الغريبة تحاصرها بعينيها، تواجهها بعد أن أصبحت تشاركها في قصرها ومستقبلها، يبدو واضحا أن «ماكس» قد يأس تمامًا من جسدها، لم يعد في حاجة لاستخدامه، أو ينتظر أن يعطيه شيئا، تخفض رأسها، تتفادى العيون التي تراقبها بصرامة، تهبط وحدها في سراديب من الضباب لا تؤدي إلى أي مكان، تريد عربة تقلها بعيدا، عربة أخرى غير التي جاءت فيها، لا تريد أن تجلس مع الرجل الذي يأس من جسدها، ويئست هي من كل شيء فيه، يبحثون لها عن عربة أخرى، لا يشعر «ماكس» بانصرافها، عليه أن يكمل جولته في بقية المدينة ليحيّي الجماهير وبجانبه هذا الطفل الغريب، وتلك العمة الغريبة، يؤكد للجميع أنه ماضٍ في نقل السلطة بعيدا عن ذريته.

تركب عربتها وتبتعد عن هذه المدينة المجنونة التي لا يكف أهلها عن الصياح، تغلق النوافذ وتسدل الستائر حتى لا ترى أقواس الزينة فوق رأسها، تهتز في عتمة العربة، تشعر أن لهاث الخيول هو لهاثها،

صدرها ضيق ولا يوجد هواء كاف، لا تجرؤ على فتح النوافذ، تسمع أصوات نباح عالية، كلاب تعوي في فزع كأن هناك من يطاردها، يتسلل الرعب لداخلها، تزيح الستائر قليلا، تجري عشرات الكلاب بموازاة العربة، تسابق الخيول المفزوعة، تتداخل سنابكها مع اللعاب المتساقط من أشداق الكلاب، يطاردونها، المدينة كلها شامتة فيها حتى كلابها، تتجه العربة إلى القلعة الرابضة فوق التل، لم يعد لها مكان غيرها، رغم أنها لم تعد مكانها، تصعد بها الخيول إلى مكان اكتسب مسحة من الغرابة والخداع، عندما تهبط يفاجئها المطر، مطر ساخن في أيام سبتمبر الساخنة، ما أسرع ما يتحول التراب إلى طين، وتتحول البلاد من مملكة إلى مصيدة! تسرع إلى غرفتها دون أن تنتظر حملة المظلات، تغلق الغرفة وتغير ثيابها وحدها، لا تنتظر من يساعدنها على فك الأربطة المتداخلة، تمزق الأنسجة وهي تنزعها من فوق جسدها، تريد أن تتحرر، تدرك الآن إلى أي مدى تعاني الحيوانات داخل أقفاصها، تهوي على الفراش وهي تحس بالاختناق، تتذكر ما قالته لها جدتها ملكة إسبانيا: لا تبكِ مهما كانت الظروف، سوف تضعفك الدموع، فكري في الانتقام، إنه أكثر شفاء للنفس من البكاء، ولكنها تجهش عاليا في البكاء، لا يهمها أن يسمع الخدم المتلصصون خلف الأبواب صوت نشيجها، تبكي حتى تنهك تمامًا. يخيم الظلام عليها دون أن تجرؤ على إضاءة شمعة، ولا يطرق أحد بابها.

في الصباح تفتح باب غرفتها وتسمح للوصيفات بالدخول، لا تتبادل معهن كلمة واحدة، حتى اللواتي تعودن على صب الأخبار في أذنها، لا تسمح لهن بالكلام، يحممن جسدها ويضعن عليه المزيد من العطور، ويخرجن ثيابا جديدة لم تلبسها من قبل، ويضعن المزيد من المساحيق على وجهها، قناعا يخفي كل ما يضطرم بداخلها، تفيق

أخيرًا وتقول لهن فجأة: لا أريد أن أرى هذه المرأة، ولا أريد أن ألمح هذا الطفل في أي مكان..

تذهب واحدة منهن إلى خدم القلعة للتنسيق معهم، تسير في أبهاء القصر، لم يعد فيها هواء نقي، لدهشتها تجد «ماكس» جالسا على مائدة الإفطار، لا يتناول الطعام، ينتظرها، وربما آخرين غيرها؟ لا تعرف، تجلس أمامه في صمت، تتناول قليلا من الفاكهة لكن معدتها تتقلص، تسمعه يتحدث: أريد أن أوضح لك دوافعي حول ما حدث بالأمس..

تقول بصوت باتر: لك أن تفعل ما تريد، أنت الإمبراطور..

يبدأ في الحديث، لا تستمع إليه، تراقب فقط ما يدور خلف ظهره، في نهاية الرواق الممتد، تشاهد الغلام وهو يعدو عابرا الرواق من جانب إلى الآخر، تظهر المرأة وهي تعدو خلفه، تلاعبه، تطارده أم تحاول أن تخفيه عن بصرها؟! يحولان القصر إلى ساحة للعب، تصبح قطعة المانجو في حلقها شديدة المرارة، تسمع «ماكس» وهو يقول: كانت هذه العائلة تعيش في المنفى منذ أن مات جدهم الإمبراطور، هناك أخ أكبر لهذا الغلام أمرتهم بإرساله إلى فرنسا، لا أريد إلا هذا الصغير ليكون صورة أمام الجميع وأمام أمريكا، خاصة أمريكا، يجب أن يعرفوا أنني لا أرغب في العرش، أنا راغب فقط في استمرار النظام الإمبراطوري..

يظهر الولد مرة أخرى، يجري وهو يلتفت للخلف ضاحكا، تتبعه المرأة بعد قليل، تضحك أيضًا، يلعبان في قصرها، يمارس الولد حياته الطبيعية، وتبالغ العمة في تدليله، لا بد أنها تحصي عدد الغرف وما فيها من أثاث ورياش، ستستقطب ما تريد من خدم وحرس بجانبها، هي الأقرب إليهم وهي الغريبة القادمة من وراء البحار، لا تدري لماذا فعل

الرجل الجالس أمامها ما فعل، لماذا وضع دانة المدفع المتفجرة بجوار وسادتها؟ لم يكن ينقصها المزيد من الكوابيس، تشير له أن يكف عن الكلام وهي تتحسس معدتها، تخشى أن تتقيأ في الطبق الذي أمامها، يستعد للنهوض، يريد أن يتركها في هذه الحالة المروعة، تقول فجأة: أريد أن أرحل؟

يعود لمقعده، للمرة الأولى ترى علامات الفزع على وجهه، يقول: تريدين أن تتركينني، تريدين العودة إلى أوربا؟

هل كان لوجودها بجانبه هذه الأهمية؟ تريد هذا فعلا، ولكن فزعه يصيبها بالفزع، على الأقل تريد فرصة للتفكير، تقول: أريد أن أبتعد، ربما أقوم بجولة داخل البلاد، تمامًا مثلما تفعل، سأقوم بجولة لنحظى بالتأييد، سأتحمل عنك عبء واحدة من هذه الجولات..

تلهث، ينظر إليها ويدرك مدى تردي حالتها، يقول: نحن الآن في موسم الأمطار، الطرق موحلة والسير فيها بالغ المشقة..

تقول في إصرار: جلالتك.. إلى أين كنت تود الذهاب؟

يقول مستسلما: إلى فيرا كروز وجزيرة يوكتان، رحلة خطرة، أعرف أنك تريدين تقديم المساعدة، ولكني لست مستعدا للمجازفة..

تقول في حزم: أنا مستعدة، أخبر الفرنسيين حتى يؤمنوا الطريق، وأعلمني باليوم المناسب، وليكن هذا قريبا..

تحني رأسها مستأذنة، تتوجه إلى غرفتها لتحتمي بين جدرانها، لا تريد أن تتلفت حولها، تسمع صوت خطوات الطفل تدق على بلاط قصرها، تسرع في السير ولكن المحظور يقع، ينقض عليها الطفل، تجده فجأة بين ساقيها، واقعا كالسمكة الصغيرة بين تلافيف ثوبها،

مفزوعا ومثيرا للفزع، تكتم صرختها وتدور حول نفسها، يتشبث بالثوب ويصيح مثل صرصور الليل، ثم تظهر العمة، تواجهها بملامحها الحادة، وشعرها المعقوف إلى الخلف، تحدق فيها بغضب ولوم، وتنظر هي إليها بتبرم ومقت، تشير لها أن تأخذ غلامها، تظل جامدة في مكانها حتى يبتعدا عنها، تلتفت للخلف فتجد «ماكس» واقفا يراقب ما يحدث، تحس بساقيها رخوتين توشكان على الزحف على الأرض، لماذا أصبح فجأة بهذا العداء؟ ولماذا لم يجد غير صدرها يوجه له كل هذه السهام؟ لا توجد دموع لتذرفها فتكتفي بالتقيؤ، يمتلئ ثوبها بالبقع الصفراء، وتعبق الغرفة برائحة كريهة، تصرخ وتواصل الصراخ، تحاول كل الوصيفات خلع الثوب من عليها، وعندما يفشلن يبدأن في تمزيقه، كان الأمر مؤلما كأن الثوب قد التصق بجلدها، ينزعن شرائط الثوب فينفضح لحمها عاريا أمامهن، يلففنها بالملايات ويدفعن بها إلى الفراش، وهي لا تكف عن سبهم وإطلاق الصرخات.

يتم الإعلان عن الرحلة التي ستقوم بها، نظرا لانشغال الإمبراطور باستقبال وزير المالية الفرنسي، ستنوب عنه الإمبراطورة في زيارة مقاطعات البلاد، ستهبط شرقا حتى «فيرا كروز»، ثم تعبر الخليج إلى جزيرة «يوكتان»، وستصاحبها ثلة من الجنود الفرنسيين وسيلتحق بهم بعض الجنود المصريين لحمايتها من أخطار الطريق، وبعض الوزراء المتأففين، والسفير البلجيكي في نوع ما من الحماية الأبوية، ولا بد أن هذا جزء من تعليمات أبيها له، والسفير البريطاني أيضًا الذي لا يمكن أن يفوت مثل هذه الفرصة، لا بد أن يفتش ويكتشف الأماكن التي يمكن استغلالها.

في يوم مضطرب من شهر نوفمبر تبدأ رحلتها، تحت سحب قاتمة تبدو خلف التلال، وعدم مبالاة من المدينة التي تحكمها، تحت

حراسة فرسان فرنسيين صغار، لا يبدون قادرين على التصدي للفيالق المتمردة، لكنها تشعر بالسعادة وهي تدير ظهرها للقلعة التي لم تعد خالصة لها، وللمدينة التي لم تعد تحبها، تدرك أنها تواجه رحلة صعبة، انتهى موسم الأمطار ولكن الأوحال ما زالت عالقة بالطرقات، والأنهار ممتلئة حتى حافتها بالمياه، والغابات رطبة، والصخور غير مستقرة على حواف الجبال، لاتني تتساقط وتسد الطرقات، يحذرها الجميع، لا يعرف أحد أن مشقة الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لتهدئة نفسها المضطربة، لعل «ماكس» يفهم المغزى من وراء ابتعادها ويتخلص من هذه المرأة وابن أخيها، تعبر العديد من القرى المتناثرة وسط التلال، يستقبلها الهنود بوجوه صامتة، تفتح النوافذ وتلوح لهم بيدها لا أحد يرد عليها، لا يعرفون من هي ولا يبالون بذلك، تصعد سلسلة متعاقبة من الجبال، تلجأ إلى بيوت بعض الأثرياء لقضاء الليل، يستقبلها بعضهم بوجوه رسمية، دون حفاوة، ويودعونها بارتياح، حتى مدينة «بوبيلا»، المدينة التي شهدت عيد مولدها، تستقبلها ببرود لا حدَّ له، تمر عربتها في شوارعها شبه الخالية، تغمض عينيها وتتمنى لو أن «سمسن» كان معها، لعله يعوض بعضا من برودة هذه الاستقبالات، كأنها تخوض بحرا من الجليد، وتوشك روحها على التجمد، أين الحفاوة التي كان يتحدث عنها «ماكس»، ولماذا يولي الجميع ظهورهم لها؟ يأتي فيلق من الجيش الفرنسي ليعبر بها الطريق الجبلي إلى قرطبة، هذه أخطر مراحل الرحلة، سقط هذا الطريق في يد المتمردين أكثر من مرة، ولا بد من تأمينه جيدا، قبل الرحيل تقوم باستعراض الفرقة الصغيرة التي ستصاحبها، كولونيل فرنسي يرأس عشرة رجال، جنود صغار، بشرة بيضاء وشعر أشقر وعيون زرق، إضافة إليهم يوجد جنود أربعة، وجوههم سوداء، قامتهم طويلة ونحيفة ومشدودة، منتصبين وقد

كتموا أنفاسهم، كأن تمثال أباها القديم قد انقسم إلى أربعة، يبدون غير واقعين، تمامًا كما رأتهم للمرة الأول في «فيراكروز»، لا يجرؤ أحد منهم على التطلع نحوها، هل تخرج أنفاسهم سوداء بلون جلودهم؟ هل يلوثون كل ما يلمسونه بالسواد؟ بعيدا عن كل شيء يبدون جنودا حقيقين، يشعرونها بالأمان أكثر من الجنود الشقر، تعرف أنهم من مصر، جزء من كتيبة أرسلها الخديوي للحرب بجانبهم، لا تصدق أن حربهما الصغيرة قد اتسعت لهذا الحد، تطلب من الكولونيل الفرنسي أن يبقي هؤلاء الجنود الأربعة بجانبها دوما، من المؤكد أن صدورهم الصلدة ستمنع طلقات الرصاص من الوصول إليها..

يسير الأربعة بخيولهم حول عربتها، يظلون على هذا الدأب، محافظين على نفس المسافة، يمرون بالكثير من القرى المهجورة التي اختفى أهلها، أو أنهم لا يريدون الخروج لاستقبالهم، يتقدم موكبها رغم أن الريح أصبحت عنيفة، والوحول زلقة، وصخورا مجهولة تتساقط من خلفهم، سنوات متهاوية من الحب والذكريات، تتأمل وجوه الجنود الصامتة، هل يستطيعون إنقاذ عرشها، ولكن ما جدوى ذلك و«ماكس» يهوي كل يوم في هوة من الأخطاء، لا يتوقفون للراحة أو لتناول الطعام، يمكن أن يظهر المتمردون في أي وقت، ينحسر الضوء تدريجيا، ويصبح الهواء أكثر برودة، وما زالت المدينة تبدو بعيدة، ترتفع الوحول، وتغوص سنابك الخيل في طبقات من الطين، تتوقف في عجز، يهبط الجنود الأربعة دون أن يطلب أحد منهم ذلك، يدفعون عربتها من الخلف حتى يصعدوا بها فوق قمة المنحدر، تسمع صوت أنفاسهم، وهم يتحدثون بلغتهم الغريبة، يشجعون بعضهم بضحكات خشنة، تصبح الدنيا أكثر ظلاما، يتوقفون قليلا ليلتقطوا الأنفاس، يركبون خيولهم، تنحدر العربة بسرعة أكبر، تبدو لمحات من

أضواء مهتزة خلف الأشجار، نجوم غائرة في الطين، تقترب المدينة، يهلل الجميع، وتندفع الخيول بقوة على المنحدر وقد انتابتها حالة من النشوة الهوجاء، وعبثا يحاول الحوذيان شد اللجام، فجأة يخرج كل شيء عن السيطرة، يتعالى صراخ النسوة اللاتي يرافقنها، تحاول أن تكتم صرخاتها وتحافظ على كبريائها، ولكن الأمر يبدو على وشك التحول إلى مأساة، من السخف أن تموت هكذا وسط الطين والظلمة، تندفع العربة كأنها آلة طائرة، تنظر من النافذة الصغيرة، ترى الخيول التي كانت تجر العربة وقد انفصلت عنها، تعدو سريعا وتسحب معها السيور الجلدية التي كانت تربطها، تغيب في الظلام، تندفع العربة للمجهول، ينتظرها الموت في أسفل التل وسط حطام كل شيء، ترى واحدا من السود وهو يقفز من فوق جواده، يرتطم جسده بالعربة المندفعة قبل أن يتشبث بها، تبطئ العربة من سرعتها قليلا ولكنها لا تتوقف، تسمع صوت الارتطام الثاني، لا بد أن واحدا آخر قد قفز أيضًا، تبكي النساء حولها فزعات، يتوالى ارتطام الأجساد، تصبح هناك أربعة جياد بدون ركابها تعدو بجانب العربة، وأربعة جنود يتشبثون بحافتها لعل ثقلهم يبطئ من اندفاعها المميت، لا تتوقف إلا أسفل التل، لا تنقلب ولا تتحطم، يتشبث الرجال السود بها متحكمين في سرعتها، تميل على جنب، تنزلق «كارلوتا» على الأرض وتتكوم النساء الثلاثة فوقها، يصحن كدجاجات مفزوعة، توشك أن تموت تحتهن، لا يتحمل جسدها النحيل كل هذه الأثقال، لحسن الحظ لا يستمر الأمر طويلا، يمد الرجال السود أياديهم ويرفعونهن من فوقها، يخرجونها من العربة حيث تستطيع التقاط أنفاسها، تعاني من الأوجاع والرضوض ولكنها ما زالت حية، تتطلع حولها في الظلام، يصبح كل شيء هادئا فجأة، فقط لا يتوقف بكاء النسوة، تتأمل الجنود الأربعة

وقد أصبحوا كتلة واحدة، يقفون متساندين والأوحال تغطيهم جميعا، تلمح بالكاد بياض أسنانهم، رغم كل هذا الرعب ما زالوا قادرين على الابتسام، أنقذوا حياتها، رغم أن ما قاموا به كان محض جنون، تظهر أضواء المدينة أمامهم بوضوح، تريد التحرك مباشرة نحوها، ولكن الكولونيل الفرنسي يعترض، بدأت تضيق بهم، يقول: لا يمكن أن نسمح لجلالتك بدخول المدينة وأنت على هذه الحالة، فمهما حدث أنت الإمبراطورة..

كان محقا، ولكنها متعبة وغاضبة، تقول بصوت مختنق: لن نقضي الليل في هذا المكان..

يقول الضابط: سنذهب للمدينة، ولكننا لن نكشف عن شخصيتك، ستقضين الليل في أحد فنادق المدينة، وفي الصباح نكون قد تدبرنا أمورنا وأرسلنا في طلب عربة جديدة من «فيرا كروز»..

كلماته حاسمة ومنطقية، يبدءون مرة أخرى سعيا حثيثا للمدينة، يتنازل الرجال السود الأربعة عن جيادهم لها ولبقية النساء، يسيرون بجوارها والطين يغطيهم، دون صوت، أو تذمر أو تأوه، مخلوقات إسطورية متفردة خرجوا من حكاية ما، غير قابلين للنزيف أو الموت، شوارع المدينة خالية رغم أن الليل في أوله، يتناهى إليهم نباح الكلاب الساهرة، يتجهون إلى مكان تنبعث منه الأضواء ويعلو فيه الصخب، معلقا لافتة توضح أنه أحد فنادق المدينة، يدخلون دون جلبة إلى مكان عتيق ومتسع في الداخل، موظف الاستقبال مشغول بالصخب القادم من القاعة الخلفية للفندق حيث توجد الحانة، لا يلتفت إلى وجوههم كثيرًا، للمرة الثانية تطلب من الكولونيل الفرنسي أن يبقي السود الأربعة معها رغم هيئتهم المزرية، ينظر إليها مستغربا، أقصى ما يمكن أن يقدمه

لهم مكانا في حامية المدينة، في الحظيرة بجوار خيولهم، تصر على مطلبها، وجودهم بجانبها يشعرها بالأمان، ثلاث غرف خالية، واحدة لها، وأخرى للنسوة اللواتي بصحبتها، وغرفة أخيرة للجنود الأربعة، على الآخرين أن يذهبوا للبحث عن أماكن في فنادق أخرى أو في حامية المدينة.

لا تصدق أنها وصلت أخيرًا إلى مكان يؤويها، غرفة واسعة، فقيرة الأثاث، تنبعث من الأسفل ضجة سكارى لا يكفون عن الغناء، أغان فاحشة وبذيئة، ترتعد متأففة، ولكن ماذا يمكن أن يفعل السكارى غير ذلك؟ تغتسل وتغير ثيابها، لا تطلب مساعدة من أحد، تشعر أن انكسار العربة قد كسر هيبتها، منذ أن غادرت القصر لم تعد إمبراطورة، أصبحت ضائعة وسط هذا المدى الشاسع، بين هذه الأخلاط من الأجناس والبشر وألوان الجلود، تتذكر الجنود السود الذين قفزوا على عربتها، كانت حركة هوجاء ولكنها أنقذتها من التهشم، تستدعي إحدى وصيفاتها، تطلب منها أن تحضر السود الأربعة إلى غرفتها، لا تدري ماذا ستفعل معهم! لكنها تتدثر بمعطفها وتجلس على مقعد في مواجهة الباب، يقفون أمامها، لم يفعلوا أكثر من أنهم غسلوا وجوههم وأيديهم وما زال الطين يغطي ملابسهم، ليسوا مثلها، ليسوا مثلهم جميعا، لا يحملون صناديق أو حقائب، لا توجد لديهم ملابس بديلة، ولا يملكون أي نوع من الترف، تتملكهم الحيرة، لا يعرفون كيف يقفون أمامها! يجلس واحد منهم على ركبتيه، ويضع الثاني وجهه في الأرض، وينحني الثالث، قرود مضحكة، تكتم ضحكتها بصعوبة، كانوا قادمين من الشرق البعيد حيث يعبد الناس حكامهم ويعتبرونهم أنصاف آلهة، لا تملك الوصيفة نفسها من الضحك، أربعتهم طوال القامة، تغلب عليهم النحافة، ولكن أحدهم أكثر نحافة وصلادة من الجميع، جلده

مشدود على عظامه، عيناه قلقتان، غير ثابتتين في محجريهما، لا يفعل مثلهم، يظل واقفا، يتأمل ما يحدث، تتبين بصعوبة أنهم ليسوا مجرد كتلة سوداء، لكل واحد منهم ملامحه الخاصة، سوداء حقا ولكن مختلفة قليلا، عيونهم تضيء، وكذا أسنانهم، يبتسمون في حيرة ويتحدثون بفرنسية متعثرة، يخفف وجودهم من توترها، تتذكر طفولتها، في حديقة قصر أبيها، تشاهد القرود الصغيرة وهي تتقافز، يقف أمامها الآن أربعة من القرود الطويلة القامة، ليست مضحكة ولكنها تثير نوعا من البهجة خفية، تقول لهم: من منكم قفز على العربة أولا؟

يظلون صامتين لبرهة يحاولون أن يتفهموا معنى السؤال، لا تساعدهم لغتهم الفرنسية، تعيد السؤال ببطء مرة أخرى، يشيرون على الفور إلى القرد البالغ النحافة، يبدو عليه الفزع كأنه ارتكب إثمًا، ولا يجد الكلمات التي يبرر بها فعلته، تنهض وتقترب منه قليلا، يخفض رأسه في خجل، تبددت لحظة الشجاعة، لا يبقى إلا رجل خجول كأنه طفل، تسأله: ما اسمك؟

يفتح فمه ويحاول الكلام، يصدر صوتا لا تفهمه: آسي..

تطلب منه أن يكرر هذا الاسم الأجوف، يغمغم بحروف لا تسمعها جيدا، ولا تستطيع نطقها، أسماء الثلاثة الآخرين أكثر سهولة، نور وسالم وفرهان، اسمه فقط هو الذي تتساقط حروفه، قالوا فيما بعد، بلغتهم الفرنسية الرديئة، إنهم جميعا اندفعوا بعده، حالة من التهور دفعتهم للمشاركة، جنود غرباء من عالم بعيد، ولكنهم على استعداد لدفع حياتهم ثمنا لإنقاذها، تعود ببصرها للنحيف الأول، تردد الاسم لتتعود على ما فيه من هفوات، آسي، آسي، هل يمكن أن يكون لهذا الاسم معنى في لغتهم، أين تعلموا حس الاندفاع والتضحية بالذات؟ قبل

أن تعاود السؤال، ترتفع أصوات الغناء من قاعة السكارى مرة أخرى، يطغون على أصواتهم بغنائهم المتصل، على إيقاعات «لابالوما» التي يرقصون عليها في الشوارع، أيام أعيادهم وجنونهم، ولكنها تسمع اسمها بوضوح يتردد على ألسنتهم، تسير للنافذة وتفتحها، تريد أن تسمع ما يقولونه بوضوح، ليسوا سكارى إلى هذا الحد، لأن أصواتهم تنطلق منتظمة وفي إيقاع واحد:

«أوه..ماما شارلوت، وداعا أيها القلب العنيد..

غدا يرحل الفرنسيون، وترحلين معهم بالتأكيد..

تتوقف مذهولة، لا تتصور أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة من الإهانة، هل عرفوا بوجودها وأعدوا لها هذه الأغنية، أم أن هذه أغنيتهم الاعتيادية في كل مساء، دون أن تدري تنحدر الدموع من عينها، تكسو وجهها أمام الغرباء الأربعة، تشعر أنها قد عانت كثيرًا لتحصل على محبة هؤلاء الناس، تركت عالمها المرفه من أجلهم، وهم يواجهونها الآن بكراهية غير مبررة، لا جدوى من رحلتها، لا جدوى من وجودها في هذا المكان، يرددون الأغنية ويعيدون ترديدها، كأنهم في ذروة نشوتهم، يتأمل الجنود الأربعة وجهها المبلل في صمت، دون كلمة واحدة يندفع الجندي النحيل كعادته خارجا من الغرفة، يندفعون هم أيضًا خلفه، ليسوا بحاجة لاستئذانها، حالتها يرثى لها، وليس عليهم أن يروا دموعها، هؤلاء الجنود الغرباء رءوا أكثر مما ينبغي، وستشاع حكاية بكائها في كل مكان، لحظة ضعف قاتلة، ولكن الغناء يتوقف، تحل بدلا منه أصوات صراخ حاد، وشجار عنيف، شتائم وأصوات حانقة وصيحات ألم وتحطم أشياء، تغلق النافذة وهي ترتجف، لا تريد أن ترى أو تسمع، أشياء كثيرة حدثت بالنسبة ليوم واحد، يهدأ كل شيء

فجأة، لا أثر للغناء، ولا لأصوات السكارى، تسمع طرقا واهنا، تصدر صوتا خافتا من حلقها، يفتح الباب ويطل منه الوجه الأسود النحيف، هناك كدمة تحت عينيه، وخيط من الدم ينثال على جبهته، يفتح فمه، تخرج منه كلمات فرنسية متعثرة: لن تسمعي هذا الغناء بعد الآن..

يغلق الباب دون أن ينتظر ردها، كان يوما طويلا بحق.

في ظهيرة اليوم التالي تأتي عربة من مكان ما لتقلها بعيدا، يتعرف عليها بعض الأهالي، يلوح بعضهم ويهز البعض الآخر أكتافهم كأن الأمر لا يعنيهم، يتبعها الحشد الرسمي الذي لم تعد تستطيع التعرف على وجوههم، ولكن الجنود الأربعة يظلون بجانبها، تعرف ملامحهم وأسماءهم أيضًا، تعرف وجه «آسي» بالذات، ببقايا الدم الجاف على جبهته، والكدمة حول عينه، كلما نظرت نحوه يحني رأسه خجلا، ربما كانت بحاجة إلى حياة خشنة مثل حياته حتى تتخلص من الكوابيس التي تلاحقها، يصعد الموكب ويهبط حتى يصل إلى بداية قضبان السكة الحديد، يظهر القطار الذي سيحملها إلى «فيرا كروز»، تستطيع أخيرًا أن تستمتع بسفرة مريحة في رحلة غير مريحة، حذرها «ماكس» من هذه المشقة، ولكن من الأفضل أنها لم تستمع إليه، عليها أن تكف عن الأوهام، وتتعرف حقيقة العالم الذي يحيط بها، هل كان يستحق رحلتها الطويلة من أوربا لهذا المكان؟ المسافات تطوى والأشجار تتراجع، وتبدأ «فيراكروز» في الاقتراب، تشعر بالخوف من أن تجد جحيما آخر من الفشل في انتظارها، هذه المدينة شهدت الكثير من المعارك ضد أعوان «بنيتو خوارز»، وظلت تناصر الجمهورين بإخلاص، ولكن يبدو أن المفاجآت لا تتوقف، عند محطة «باسو دل ماكو» في وسط المدينة يقف مئات الأشخاص في انتظارها رافعين الأعلام، جمع من نساء المدينة يقدمن لها الزهور، أنيقات وجميلات، بشرتهن النحاسية

لامعة، يلبسن آخر طراز من القبعات الباريسية، ويحملن المظلات الصغيرة، تحملها عربة مفتوحة مزينة الزهور عبر شوارع المدينة، ترد روحها إليها، يميل السفير البلجيكي على أذنها ويهمس: قدومك للمدينة يساوي أكثر من قدوم جيش كامل، المدينة الأولى التي تراها سعيدة تحت حكمهما، تدخل في دوامة من الاستقبالات والحفلات الراقصة، تشعر أخيرًا أنها تشيع البهجة في كل مكان تذهب إليه، رغم أن ليل المدينة كان مرعبا، لزجا رطبا، عليها أن تختبئ خلف الناموسية بعيدا عن البعوض الذي لا يكف عن الطنين.

تبدأ زيارتها لـ«يوكاتان» في صباح حار وخانق، يزدحم الميناء بالناس والسفراء وطيور النورس، يشير الكولونيل الفرنسي إلى السفينة التي ستقلها للجزيرة، جميلة ونظيفة، ولكنها ترفع علم النمسا، تقول: ألا توجد سفن مكسيكية، يبدو عليه التردد، كأنها قد فاجأته بسؤال غير لائق، يشير إلى سفينة قديمة، تقف على مبعدة من الشاطئ، خجلى من الالتصاق باليابسة، لا ترفع علما، كأن شكلها المرزي كاف لتوضيح هويتها، تقول. إمبراطورة المكسيك لن تركب إلا سفينة مكسيكية، يقفون في جمود بينما تخوض في طين الشاطئ متجهة إليها، لا تغادرها نشوة بالاستقبال، لا يتبعها أي من السفراء، كانوا أكبر سنا وأكثر حكمة من أن يتبعوا قراراتها الهوجاء، ينقسم الجمع، يتبعها بعض الوزراء مضطرين، تقترب من السفينة وترى حديدها المتآكل بفعل الملح والصدأ، تدرك أنها أخطأت، ولكن لا مجال للتراجع، يقف القبطان مندهشا عند حاجز السفينة، لا يتوقع أن تتوجه إليه، أقصى ما يتوقعه هو نقل بعض جنود الحماية أو الأطعمة، ولكنه يجدها وخلفها صف من الوصيفات و الوزراء، أمر فوق طاقته.

رحلة أقل ما يقال عنها إنها مرعبة، موج رمادي متقلب، سماء

واطئة مليئة بالسحب والنوارس، وصوت المحرك البخاري يصم الآذان، تنبعث منه كمية هائلة من الدخان، والسفينة تتأرجح، ترتفع كأنها لا تلامس الموج، ثم تغوص حتى يرتفع الماء على سطحها، تؤخر السفينة النمساوية تقدمها حتى لا تتجاوز سفينتها العجوز. تتقلص معدتها وتشعر بالألم، تبتعد عن وصيفاتها وتميل على حاجز السفينة، يندفع سائل حارق من معدتها، لحظة ضعف أخرى، تؤكد أن اختياراتها كلها سيئة، تستدير وترفع عينيها الدامعة، يقف الجندي الأسود في ركن السفينة بجانب المدخنة، يتطلع نحوها بانتباه، لا يظهر على وجهه أي تعبير، أو ربما يوجد ولكنه غائب وسط جلده الداكن، يتابعها دوما كما يجب عليه، لا يحرجها ولا يقترب منها، لكن الوصيفات يندفعن ويعدنها إلى قمرتها، يغسلن وجهها ويغيرن ثيابها، وعندما تصل السفينة أخيرًا تنزل منهكة على درجها، تحملها العربات مع أتباعها إلى مدينة بيضاء كزهور الليلك، لم تر مدينة في جمال «مريدا» حتى في أوربا، ربما كانت أنظف مدينة في القارة كلها، الغزاة الأوائل من الإسبان استقروا هنا واحتفظوا بتقاليدهم الأوربية، يحيطون بها، يحتفلون بالدم الإسباني الذي يجري في عروقها، تنسى الرحلة البحرية المروعة، وقبلها الرحلة البرية الشاقة، تتواصل الحفلات وتحملها الخيول إلى الأدغال التي تحتوي على النباتات النادرة، ومزارع القنب، وإلى القرية البدائية «كامبشي»، وتبقى ساعات في بيت رئيس القبيلة، ثم تحملها الخيول إلى «أوكسمال» وبصحبتها نصف شباب الجزيرة، يركبون الخيول والعربات، إلى بقايا خرائب الأزتيك، تقف أمام أحد الأهرامات، تصعد فوق الأحجار لكنها تتراجع عندما يخبرونها أن على قمته معبدا كانت تقدم فيه الأضاحي من البشر، تمسك حجرا أبيض وترسم توقيعها، «شارلوت

غير المحظوظة»، في طريق عودتها تمر بإحدى القرى الهندية، ترى هنديا طويل القامة يقف فوق صخرة، يرفع يده عاليا ويحمل لافتة مكتوب عليها «فيفا ليوبولد الكبير»، تصيح في دهشة، هذا الرجل لم يخرج لتحيتها فقط، ولكن لتحية أبيها أيضًا، تركب السفينة وهي مجهدة وعلى حافة المرض، لكنها سعيدة لأنها اقتنصت هذه الجزيرة المنعزلة من قبضة الجمهوريين، حولت مشاعر أهلها واستولت على قلوبهم، تستند على أذرع وصيفاتها وتستعد لرحلة العذاب، لن تأكل أو تشرب شيئا حتى تصل إلى الشاطئ الآخر.

تعود السفينة أخيرًا إلى ميناء «فيراكروز»، يحيط بها الجميع، تشعر بحاجتها لنوم عميق لم تذق مثله منذ أيام، تتبدد مظاهر الفرح ويختفي الصخب الذي كان يملأ الشوارع، لا يبقى سوى الصمت، تقف امرأة أمامها وتبكي دون سبب، يتقدم الكولونيل الفرنسي، ويناولها مظروفا مغلقا، تنظر إليه مندهشة، لا يقدم تفسيرا، ينسحب من أمامها سريعا، ماذا يحدث؟ تنظر إلى الوجوه التي تحيط بها قبل أن تفض الخطاب، ينظرون نحوها بشفقة، تهتز الحروف أمام عينها، ولكنها تلمح اسم أبيها، وعددا من ألقاب التفخيم، ثم تجيء كلمة الموت، باردة ومباغتة ولا رد لها، مات الملك الحزين وهو يصارع المرض، ولا تعرف ذلك إلا بعد عشرة أيام كاملة، تشعر بالدوار وتوشك على السقوط، ولكن هناك يدا تمسك بها وتحملها بخفة، وجوه كثيرة تلمح من بينها الوجه الأسود النحيف وهو يسجيها على مقعد العربة، أصبحت بلا ظهر، لا يوجد من ينتظرها في الأرض القديمة، تعرف الآن لماذا كان الهندي العجوز يرفع اللافتة، الجميع كانوا يعرفون إلا هي، لا تعرف كيف سارت العربة، ولا كيف ركبت القطار! تتساقط دموعها دون أن تستطيع التحكم فيها، رحلة أشبه بالكابوس، لا ترى وجوها ولا

تسمع إلى كلمات، تنتقل مثل جثة حية من مكان لآخر، تهجع على فراشها دون نوم، ولا تدري كيف عادت إلى القلعة الباردة، ولا كيف استقبلت قبلات «ماكس» الباردة كقلعته! اختلطت كلمات التعزية بتهنئتها على ما قامت به، رحلتها منحت قبلة الحياة لعرشهما المهتز، يظل «ماكس» متفائلا كعادته، لا يدرك مدى الخسارة التي حلت بهما برحيل أبيها، كان أقدم ملوك أوربا وأكبر حليف لهما، استغل خبراته الدبلوماسية من أجلهما، لا يعلم «ماكس» أن ظهورهما قد أصبحت عارية، تتدهور صحتها، وتنسل طاقة الحياة من جسدها.

- ١٣ -

يقف السود على الشاطئ في انتظار القارب الذي يحمله عائدا إليهم، يضع قائدهم اليوزباشي «محمد ألماس» عددا من الحراس ويؤمن أسوار المدينة حتى يأتي ويتشارك مع بقية الجنود في استقباله، يصعد فوق تل مرتفع ليراقب الجزيرة الحجرية، وقلعة «سان خوان أولو»، لا يأبه الرجال بالانتظار الطويل تحت حرقة الشمس، هم أبناء الشمس، لكن الرجل الذي ينتظرونه قرر أخيرًا أن يخرج اليوم من مكمنه الحجري ويعود لمعسكرهم، هكذا قالت رسالته، أكد لهم أنه لا يتصور أن يبقى مع المرضي، برفقة الموت، طوال هذا الوقت، لم يصدق «ألماس» أنه يفتقده مثل بقية الرجال، رغم أنه كان يضيق به كثيرًا، يفتقد غناؤه، ترتيله للقرآن، ترانيمه الكنسية، تعليقاته اللاذعة، جهله باللغة الفرنسية.

يرى «ألماس» حركة عند حافة الجزيرة، يظهر قارب الدورية الفرنسية الذي يطوف بين الجزر الصخرية، يستدير ويتوجه نحو الشاطئ، لا يظهر منه غير رءوس حرس الفرنسيس، يقول «العاصي» في خيبة: لو كان «الأفندي» معهم لنهض واقفا، لن يرضى بالنوم أمامهم، يصبح الضوء شحيحا، تنسحب الحمرة من الأفق ويبقى اللون الرمادي، يرسو القارب على مسافة بضعة أقدام منهم، وقبل أن يتحرك أحد ينهض شبح يرتدي

البياض، يصيح بصوت مجلجل: مثل «أليعازر» ينهض من بين الموتى أعود، هل يفتقدني أحد؟

ترتفع أصوات الجنود مهللة، يقذفون الطرابيش الحمراء عاليا في الهواء، يندفعون نحو القارب ليساعدوه على النزول، يظل «ألماس» واقفا في مكانه، يتابعهم مبتسما، يستدير القارب عائدا للجزيرة تاركا «مظلوم أفندي عبد الأحد»، يقف نحيفا وشاحبا بين الرجال، يرفعه الجنود من على الأرض، يقذفونه في الهواء فيوشك أن يظل محلقا، يبدو كأنه لم يسترد صحته بعد، ولم تتأكد عودته للحياة، ولكنه يبدو مستسلما وراضيا بما يفعلونه به، يصيح «ألماس»: ستقتلونه يا وحوش، اتركوه يتنفس، لا يتركونه، يحملونه ويرفعونه أمامه، يهبط «ألماس» ويستخلصه من أيديهم ويحتضنه في مودة، يكتشف كم أصبحت عظامه هشة وضعيفة، يجلسه بجانبه فوق الصخرة، يبدأ الجنود في الرقص، بفرح وعفوية تتحرك أقدامهم في رقصة «البشاري»، لا يتمكنون من أدائها بإيقاع جيد مع هذه الأحذية الضخمة، لا بد من خلعها حتى يدوروا بأقدامهم الحافية وهم يطرقعون أصابعهم، يضحك «مظلوم أفندي» ولا يكف عن التصفيق، يتوقف الرجال فجأة، ينقصنا شيء مهم، يهتف العاصي، فيصيح الرجال: المريسة، يقفز إلى حلوقهم ذكرى طعمها، ويشمون رائحتها المائلة للعفونة، المشبعة بروح الكحول، رائحة القرى المعزولة وسط الهضاب الحمراء وتفرعات الأنهار، «المريسة» وحدها هي التي ستجعل لهذا الاحتفال طعما، يرفع «ألماس» يده مهدئا الجميع، كان قد فكر في الأمر قبلهم جميعا، منذ أن أخبره «بو علام» بموعد عودة «مظلوم أفندي» يقول: لكم ذلك، إنها جاهزة وتنتظر من يشربها..

يجهزون محفة يحملون عليها «مظلوم أفندي»، يربطون مقعدا

فوق عارضتين من الخشب، يزينونها بالريش والسعف، محفة تليق بملك أفريقي متغطرس، يجلسونه رغم اعتراضه ويحملونه على أكتافهم، يصيحون ويغنون وهم يسيرون في شوارع البلدة التي تغرق في الظلام، يطل قمر خجول من خلف الجبال، يبدو صف البيوت المواجه للمعسكر مضاء، خاصة تلك الحانة الصغيرة المندسة بينها، هذا هو المكان الذي يتوقف أمامه «ألماس»، يتركهم يسيرون ويراقب المرأة العريضة الصدر وهي تتنقل بين الموائد.

ليست المرة الأولى التي يراها، ولا التي يقف فيها هكذا وهو يتابعها، دون أن يدري أصبحت جزءا من دورته اليومية في هذه المدينة، تقابلا في ليلة مثل هذه، والقمر ينير فقط نصف وجهها، والبحر يمتد خلف ظهرها، لا يعرف اسمها ولا من تكون، ولم يجرؤ قبلها على أن يتحدث مع امرأة، يدرك أنهن يخافونه ويرفضونه ويدركون أنه قائد هؤلاء السود، يبدو ظلها غامضا وهي تقف تتأمل حركة الموج، كأنها شبح انبعث من خلاله، يقترب منها بجواده، لا تسمع صوت خطوات الجواد ولا تتحرك، يقول بصوت خافت حتى لا يزعجها: من الخطر وقوفك في هذا المكان، وفي هذا الوقت. تلتفت نحوه دون أن يبدو عليها الخوف: من الذي يمكن أن يخيفني؟ لم أفعل أكثر من أنني كنت أراقب الموج. يرى قامتها العالية وشعر رأسها الكث وصدرها العريض المفتوح، يقول: في الظلام لا يوجد فرق بين الأصدقاء والأعداء، ربما تأتي رصاصة طائشة من أي اتجاه، تقول: لم يكن المكان هكذا قبل أن تجيئوا أنتم، أنا لا أخاف من الرصاص الطائش، ولا من الرجال الذين يحدقون في صدري، يبعد عينيه، كانت وقحة بعض الشيء، يقول في حزم: غير مسموح بوقوفك هكذا، سأحرسك حتى تعودي إلى بيتك، يبدو حازما، لا تملك إلا أن تبدأ في السير ويتبعها هو بجواده، تسير

ببطء وبلا مبالاة، لا بأس بمؤخرتها أيضًا، يقتربان من صف البيوت التي تطل على المعسكر، كلها مظلمة ما عدا ضوءا خافتا يصدر عن الحانة، تلتفت نحوه وهي تقول: اسمع، أنا لا أحبكم كثيرًا، ولكني لا أحب أتباع «بنيتو خوارز» أيضًا، إنهم حفنة من اللصوص، أردتك أن تعرف هذا قبل أن تمضي، تدخل من باب الحانة ويظل واقفا للحظات قبل أن يلوي عنان جواده وينصرف، ولكنه يجد نفسه عائدا إليها في ظهيرة اليوم التالي، يراقبها من بعيد وهي تتنقل بين الموائد، يظل واقفا مترددا حتى ترفع رأسها وتنظر في اتجاهه، تضع يدها في وسطها وتثبت نظراتها عليه، تتساءل عما يفعله هنا، يريد أن يتراجع، لكنه لا يقاوم إغراء رؤية وجهها في ضوء النهار، يترجل عن جواده ويتقدم إلى داخل الحانة، كانت صغيرة ونصف معتمة، يتسلل إليها شعاع غير مباشر من ضوء النهار، ينعكس على الزجاجات المتراصة، تتأمل خطواته المترددة، تقول مشجعة: هيا تقدم.. لا يوجد هنا من يعض الرجال، يرى وجهها بوضوح، ملامحها ضخمة قليلا ولكنها متراصة في تناسق، لا يستطيع أن يتجاهل صدرها العريض، ووهج الرغبة الذي يشع منه، لا بد أن هذا ما يسكر رواد حانتها أكثر من الخمر، تسأله ماذا يريد أن يشرب؟ يشعر بالخجل ويقول مترددا: أريد شراب «المريسة»، عيونها أكثر اتساعا، تشعره أيضًا بالارتباك، كان متزوجا من ابنة عمه، وعرف قبلها القليل من نساء القرية وبغايا المدينة، لكنها المرة الأولى التي يقابل فيها امرأة حقيقية، صوتها قوي وجسدها واثق من نفسه، تحتل الفراغ الذي يحيط بها وتتحرك فيه براحتها، تشير إلى صف الزجاجات المرصوصة فوق الأرفف، تقول: عندي كل أنواع الأشربة لا يوجد شراب بهذا الاسم، اجلس وخذ نفسك حتى تتذكر الاسم جيدا، يخلع الطربوش، يمسح العرق الذي تجمع على جبهته، تجلس على مقعد مقابل له تقول وهي

تبتسم: هناك مشروب مهم في هذه الحانة يدعى «إيزابيلا» عليك أن تتذوقه أولا؟ عيونها واسعة كعيون البقر وبنية كقلب البندق، ولكنها أكثر مكرا من أي شيء، يقول: أي نوع من المشروبات هذا؟ تقول ضاحكة: هذا هو اسمي يا سنيور، تضع أمامه كوبا صغيرا فيه سائل أبيض، لا يريد أن يبدو مترددا أمامها، يرفع الكوب ويتجرعه في دفعة واحدة، كان ماء، هل تسخر منه؟ تقول: والآن حدثني عن ذلك المشروب الغامض؟ يتحدث عن جنوده السود الذين يستعدون للاحتفال، وهم في حاجة إلى مشروبهم الخاص، الأنبذة والكحوليات لا تجدي معهم ولا تؤثر في أدمغتهم الصلبة، يريدون «المريسة» مشروبهم المحلي، الوحيد الذي يشعرهم بدفء بيوتهم البعيدة، قد لا تحب رائحته ولكنها هي التي تثير نشوتهم، يتوقف قليلا ثم يبدأ بشرح كيفية إعداده،، يقول شارحا: نحن في حاجة أولا لصنع أرغفة سميكة من دقيق الذرة، ونتركها تحت الشمس حتى تجف تمامًا، ثم ننقعها بعد ذلك في الماء، ستقولين إنها مسألة عبثية، ولكن هكذا يجب أن يتم الأمر، علينا أن نتركها في الماء حتى تتخمر ثم تصفى، بعد ذلك تكون جاهزة للشرب، تهتف مستغربة: أي نوع من الخمور هذا؟! هكذا أنتم الرجال تدير رءوسكم الأفكار الشاذة والمشروبات الغريبة، يقول راجيا: أريدك أن تعاونيني، لا نستطع القيام بذلك داخل المعسكر، نحن في حاجة إلى مكان مثل حانتك، وسأدفع المقابل، تظل تحدق فيه، تحاول أن تستوعب ما قاله، تهدف مندهشة: خمر من خبز الذرة، مشروب خال من الجمال!! سأساعدك لأجل حراستك لي في الليل ومرافقتي للحانة، رغم أنني لا أفهم، وأجده غريبا، سأدع بعض النساء تخبز الأرغفة، وسأنقعها لك في مؤخرة الحانة، وعليك أن تمر عليّ لاحقا، يخرج من جيبه عددا من الفرنكات ويضعها أمامها، تقول: إنها تكفي مؤقتا، ولكن

قبل أن أعد لك شرابك القبيح عليك أن تتذوق شرابنا الجميل، تصبح ودودة لدرجة لا يتوقعها، تتناول زجاجة من على الرف وتعرضها أمام عينيه: هذه «تيكيلا»، خمر مقطرة من زهور الزنبق، سأدعك تتذوقها. تصب كأسا صغيرة، رائقة بلا لون، ولكن مذاقها لاذع، تطفر الدموع من عينيه ويسعل بشدة، تطلق ضحكة رائقة تملأ فراغ الحانة، تقول: عليك أن تشرب بجانبها بعض العصير، تضع ثلاثة أكواب صغيرة أخرى، تصب في الأولى عصير الليمون المائل للخضرة، وفي الوسط تعيد ملء كأس الـ«تيكيلا»، وتصب بعضا من عصير الطماطم الأحمر في الكأس الثالثة، تقول: هذه هي ألوان علم المكسيك، وهكذا يجب أن يكون الشرب، يشرب الليمون أولا، ثم الـ«تيكيلا»، ويتبعها بعصير الطماطم، طعم الشراب ما زال حادا، ولكنه يتحمله دون دموع أو سعال، يشعر بدفء ناعم يتسلل لعروقه، تبدو المرأة أكثر بهاء، يدخل بضعة زبائن، يجلسون على مبعدة منه، يرمقونه بحذر واضح، عليه أن يمضي، ربما ليستعيد قدرته على مواصلة السير من جديد، ينهض واقفا ويضع المزيد من الفرنكات على المنضدة المستطيلة، تعطيه ابتسامة أخرى، لم ير مثلها من قبل.

يتغير شيء ما في هذه الأرض الغريبة، يشاهد مشاكسات الجنود دون أن يعبأ بها، يستمع إلى تقارير ضباط الحراسة دون مناقشة، تبدو المدينة غاية في الأمان، يبتعد الأعداء الذين يهددونها، ولا يسمع طلقة واحدة طوال الليل، ولا يموت أحد، لا يبتعد عن الحانة كثيرًا، يعود إليها بعد يوم واحد، تبدو كأنها تنتظره، تأخذه إلى أعلى، فوق سقف الحانة، تتراص أرغفة خبز الذرة تحت الشمس، مستديرة وسميكة، قمتها مشرئبه لأعلى كنهود ضخمة، تحيط به المرأة وتملأ الفراغ من حوله، تمنعه حتى من رؤية الجبال التي تحيط بالمدينة، يرى وجهها

وصدرها العريض فقط، تقول له محذرة: لن يأتي جنودك للشرب في حانتي، أليس كذلك؟ لا أريد شقاقا بينهم وبين زبائني من أهل المدينة؟ يقول: سنحتفل بعيدا، داخل المعسكر، بعيدا ولكن على مدى عينيك، تقول بخبث: هل هناك عرس ما، هل تنوي الزواج ثانية؟ أنت بالتأكيد متزوج في بلدك البعيد بأربعة نساء على الأقل! تنظر إليه وتحاول النفاذ إلى أعماقه، يتملكها فضول لمعرفة أي شيء عنه، يستجيب لها، يستجمع كل معرفته بالإسبانية ليجيبها، تقتحم لغتها لسانه، تختلط بالفرنسية وبلغة الجسد ويكونان معا لغة قابلة للتفاهم، يهبطان على الدرج، تقوده إلى مخزن في خلفية الحانة وتشير إلى برميل ضخم، تقول أنها اشترته خصيصا حتى تنقع فيه الأرغفة، امرأة عملية، تدير الحانة ورءوس الزبائن بمفردها، تعرف أن هذه المدينة تقوم على حركة المال وليس على صراعات السياسة، يتخيل رجاله السود عندما يحصلون أخيرًا على مشروبهم المفضل، ستهدأ نفوسهم وتقل منازعتهم ويذوب الحنين للديار البعيدة، تجف الأرغفة بعد يومين آخرين، تصبح متكورة ومفعمة ببهجة خفية، تأخذ بعضا من دفء الشمس وتخزنه بداخلها، حان وقت نقعها في البرميل الضخم، تحذره وهو ينحني لالتقاط الأرغفة: حذار.. أن تتوسخ حلتك العسكرية، لا تنس أنك القائد، تتناثر ذرات الذرة على صدره، ولكنه يرصصها فوق ذراعيه، تهبط خلفه وقد حملت المزيد من الأرغفة، يمتلئ البرميل الضخم عن آخره ويخلو السطح، تصب عليها الماء فتبدأ الأرغفة في التقلص، تنبعث منها فقاقيع ممتلئة بالهواء، يقفان وكتفها يلامس كتفه، تفعل ذلك ببساطة ودون تعمد، تظل في حالة تلامس معه، تميل عليه وتزيل بيدها ذرات الطحين الملتصقة بحلته العسكرية، تمر بشفتيها بصورة عابرة على شفتيه، تبتعد وهي تطلق ضحكة مبهجة، تواصل الأرغفة الذوبان، ولا

تكف الفقاقيع على التصاعد، يسير نحو المعسكر وينام مفتوح العينين، يعود إليها في اليوم التالي، تقبل شفتيه في مودة، وعندما يجلسان معا أمام البرميل، بعيدا عن الزبائن، تقول له إنه يذكرها بحبيب غائب، بحار شارد حمله الموج ذات مرة، ورغم أنها تقف في انتظاره على شاطئ البحر في الليالي المقمرة إلا أنه لم يعد حتى اليوم، يبدأ النقيع في التخمر، يجلسان معا، ملتصقان تقريبا، يبعث التلامس البهجة في داخلهما، تنبعث من النقيع الرائحة الثقيلة التي لا يطيقها سوى الغاوي والشرِّيب، تقول «إيزابيلا»: لا أتصور كيف يمكن أن يطيق أحد رائحة العفونة هذه، ستجعل زبائني يهربون من الحانة، هل أضع عليها بعضا من ماء الورد؟ يصبح من الضروري بدء عملية التصفية، يوضع النقيع في مقطع رقيق من القماش حتى يتسرب السائل المصفى ببطء، نقاط متتابعة لا تتوقف، لونها أبيض مائل للصفرة، يمسك بيدها متسائلا: هذا الرجل الذين تنتظرينه بجانب البحر، لماذا تنتظرينه؟ ماذا تريدين منه؟ تصمت قليلا كأنها تستعيد ذكراه، تقول: ماذا أريد منه، ماذا أريد من كل الرجال الذين أعرفهم؟ أريد أفضل ما فيهم إذا كان موجودا، الصدق الذي نادرا ما يتحقق، الرجال كاذبون بالسليقة، لا يقولون الحقيقة حتى وهم يعترفون أمام القس، لا يصبحون صادقين إلا وهم يضاجعون امرأة، في لحظة ممارسة الجنس، تنام عقولهم، وتخضع أجسادهم لرغباتهم الدفينة، المظلمة أحيانا، ربما لا تعرف ذلك، ولكن كل امرأة بداخلها مومس، وكل رجل بداخله قواد، وهم يجيدون إخفاء ذلك حتى تأتي لحظة الذروة، يكشفون كل رغباتهم المحرمة في غمار النشوة، لحظات صدق قصيرة، يعودون بعد ذلك إلى كذبهم وخداعهم، ويتحول مرحهم إلى كآبة بالنسبة لي!! هذا الرجل كشف لي ذات نفسه، ورآني عارية من الداخل، دون خجل ولا تظاهر، مارسنا الحب معا بقسوة ومتعة وألم،

ووصل داخلي إلى مناطق لم يصلها أي رجل، يستمع إلى كلماتها مندهشا، يقول لها: بعد ذلك لم يعد أحد يجذبك إلى فراشه؟ تقول: أنا لا أحتاج جذبا يا عمري، أنا أختار رجالي، وأعرف اللحظة التي أكشف فيها أقنعتهم، تتوقف عن الكلام وهي تلهث، تشعر أنها قالت أكثر مما ينبغي، ولكنها تستمتع بإثارته، لا يبدو أنها لا تبقي على أي جزء من فراشها لهذا الغائب، يتوقف قلبها على جانب، ويستمر جسدها الذي لا يشبع في جانب آخر، تميل عليه وتقبله طويلا، يحس بشفتيها طرية ودافئة، تملأ مغرفة من السائل الأبيض وتقدمها له، كان طعمه جيدا، ولكنها لم تتخمر كفاية تقول: دعه يأخذ وقته في التخمر وتعال إلى فراشي، دعني أعرفك على حقيقتك.

يقول لها: ليست لي حقيقة، كل ما أعرفه أنني منذ أن جئت إلى هنا وأنا أحاول الهرب من الموت، كوابيس هذا البلد ترافقني، هذه التلال المتباعدة، هي مجرد ممر ضيق يحف به الموت من كل جانب، تفزع من كلماته، تتساءل. هل هذا مجرد كابوس؟ لا يرد على سؤالها، ولا تكف «المريسة» عن التقاطر، يصمت قليلا ليستعيد ما حدث: كان هذا واحد من أيام تلك الحرب العبثية التي لا تنتهي، لم نكن وحدنا، خرجنا بصحبة «الفيلق النمساوي»، قالوا لنا إنهم جنود مرتزقة، محترفو حروب، تجمعوا من مختلف أجزاء الإمبراطورية النمساوية لمؤازرة الإمبراطور، نلتحق بهم، أنا ومعي مائة من جنودي السود، بينما كانت أعدادهم بشعورهم الشقراء أقل منا بقليل، لا يجمعنا سوى الأرض التي نقف عليها، كانت مدينة «مادلين» نقطة التحرك، لا شيء يجمعنا غير ذلك، لا اللغة ولا الدين ولا طريقة التفكير ولا حتى لون البشرة، يقودهم ضابط يدعى البارون «كوديللي»، لا يكف عن مضغ التبغ والنظر من أعلى، تنضم إلينا مجموعة من الخيالة الفرنسيين بقيادة

الكولونيل «مارشال»، مهمتنا أن نسير في طابور طويل ونطهر الطريق من جيوب المتمردين، وصولا إلى هنا في «فيراكروز»، لا أشعر بالراحة لهذه المسيرة، كنت أشم رائحة العدو من كل مكان حولنا، يرى رجالي كشافتهم وهم يحومون فوق التلال، يراقبون الطابور ويحصون عدد الجنود، أخبرت القائد «مارشال» بذلك حتى يأخذ حذره، رغم ذلك واصلنا المسير حتى وصلنا إلى مدينة صغيرة. عند الظهيرة، أخبرتنا العيون أن العدو ينتظرنا عند مكان يدعى«باسو دي فاكروز»، بمحاذاة النهر الأبيض، نهر ريو بلانكو أنت تعرفينه بلا شك، تقدمنا حتى فوجئنا بنيران العدو تنصب علينا عبر النهر، قام القائد «مارشال» بنفسه باختراق النهر بصحبة عشرين فارسا، استطاع الوصول إلى الضفة الأخرى، وعبرنا النهر من خلفه، مات جندي نمساوي وجرح ثلاثة من رجالي، ترك الأعداء السواتر التي يحتمون خلفها وتراجعوا، عبرت بقية القوات النهر بمساعدة قوات الخيالة والقوارب، سار الطابور لمدة ساعة أخرى دون أن نقابل أي مقاومة، كان علينا أن نتجه مباشرة إلى «فيراكروز»، ولكن هذا البارون النمساوي المجنون أصر على الذهاب إلى مكان آخر، قرية صغيرة قالوا له إن خيالة المتمردين يختبئون فيها، أحرق جنوده بعض البيوت دون أن يجدوا شيئا، ظلت بقية البيوت مغلقة في وجوهنا، لم نصادف إلا قس البلدة، وكما يقول «كوديللي» فقد رفض القس أن يدلي بأي معلومات عن مكان العدو، ولكن «علي جوفان» وهو واحد من المعاونين لي أكد لي أن القس رفض بالفعل أن يعطي معلومات، ولكنه حذرنا من السير في الطريق المباشر إلى «فيرا كروز»، يبدو أن هذا البارون لم يسمع أو لم يصدق، وكان علينا المرور في غابة كثيفة الأشجار، عبر ممر ضيق وطويل، نحن في مقدمة الطابور يتبعنا الفيلق النمساوي، لم تكن غابة هادئة، كانت جحيما، وفجأة انهالت

علينا الطلقات، مطر من رصاص مميت يحاصرنا من الجانبين، سقط جندي بجانبي بعد أن أصيب في رأسه، لم أتبين وجهه، صرخت في الجميع لنضم أطراف الطابور، أريد أن أقلل من الخسائر، ولكني رأيت القائد الفرنسي «مارشال» نفسه يسقط أمامنا صريعا، نحاول أن نبادلهم إطلاق النار، ولكن حملة المدافع السريعة جميعا يموتون، يتساقط رجالي من حولي، وتبدو نهاية ممر الموت بعيدة، نهرع إليها خافضي الرءوس، أذلاء مهزومين، ننجح أخيرًا في الخروج، أصيح بالجنود أنه لا يمكننا العودة دون جثة القائد والأسلحة التي سقطت منا، لكن لا أحد يجرؤ على العودة، خاصة والنمساويون يتساقطون من خلفنا، يموت إثنا عشر رجلا من جنودي دفعة واحدة، ويموت ضعفهم من النمساويين، ويسقط ثلاثة منا في الأسر، رغم ذلك يتهموننا أننا هربنا وتركناهم، اتهمونا بالجبن، ولكني اتهمت قائدهم أنه كان يعرف أن هناك فخا ومع ذلك قادنا إليه، لم يبال بتحذيرات القس، وحتى بعد أن خرجنا من هذا الممر كنا خائفين، لا نريد أن يعاود العدو هجومه علينا، أمرنا القائد الفرنسي البديل بالانسحاب فورا، لا وقت لدفن الموتى، حتى جثة «ماريشال» تركناها وسط الدغل، مع بقية جثث القتلى وأسلحتهم، نسير تحت شمس حارقة دون قطرة من ماء، عطشى ومنكسرين، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لجيش، يبدأ الرجال في التساقط من الإعياء، يصرخ بعض الضباط في القائد أن يتوقف من أجل بعض الراحة ولكنه كان يريد الوصول إلى مدينة يحتمي بها، لا ينجو الرجال من العطش إلا بعد أن يتبولوا في فم بعضهم البعض، أما أنا فأفضل الموت قبل أن أتذوق بول رجل آخر، أعرف فيما بعد أن قائد المتمردين قد قطع آذان رجالي وصنع منها قلادة سوداء ودامية علقها على رقبته، حتى هذه اللحظة ما زال الموتى الذين بلا آذان يطاردونني!!

تراقبه «إيزابيلا» صامتة، تترك له الفرصة له حتى يريح نفسه مما يثقلها، تظل أصابعها متداخلة في أصابعه، تنهض وتجذبه معها، يصعدان فوق درج متآكل إلى غرفة فوق الحانة، بها نافذه كبيرة مغطاة بزجاج ملون، تنفذ منه أشعة تلون كل قطعة من أثاث الغرفة البسيط، فراش واسع يلونه ضوء أزرق، ومرآة صفراء، ومقعد أخضر، وصوان ملابس وردي، عندما ترقد عليه يتلون جسمها النحاسي بكل أطياف الألوان، يبدو مشدودا مشعا بالرغبة، تقول: لا تجعلني أنتظر، اخلع ملابسك، يظل واقفا يغمره الخجل دون أن تغادر ذاكرته مصيدة الموت، تسلط عليه عينيها فيحرك أصابعها المرتبكة ويبدأ في فك أزرار سترته، يتمدد بجانبها فتأخذه في أحضانها، يستند أخيرًا إلى صدرها العريض، يلامس خده ثدييها، تأخذه بكامل جسدها، تجعله يغوص في دفئها، يغمض عينيه دون كوابيس، تقول له: لا تتحرك دعني أقوم بكل شيء، تذوب رائحة «المريسة» والبارود والدم، لا يبقى إلا عبق جسدها، يتضوع بين ذراعيها، لا تدعه يهدأ، تريد أن تروي كل ظمأه وتشبع كل جوعه، لم يمر بتجربة مثل هذه، ولم يقابل امرأة تستمتع بجسدها وتحرص على الاستمتاع بجسد الآخر مثلما فعلت، تقول له: هل ارتاح جسدك أخيرًا؟ ينظر إليها في امتنان ويضغط على يدها، تقبل يده وتقول: أنا أشفق عليك أنت ورجالك لما فعلته وأعرف أنك تعاني، ولكنك تحارب في الجانب الخاطئ، ينظر إليها يقول: إنها الحرب، لا مكان للخطأ والصواب، يوجد فقط منتصر ومهزوم، حي أو ميت، تقول له: هذه الحرب ستهزمكم جميعا، ستحول الجميع إلى وحوش حقيقيين، يدرك وهو عائد إلى المعسكر، أن العالم قد تغير من حوله، يرى الجنود جالسين وهم ينظفون أسلحتهم، انتظارا لجولة جديدة من القتال، يتأمل البيوت التي تحيط بالمعسكر، هل يعرفون هم أيضًا أنهم يحاربون في الجانب الخاطئ؟

يفيق على ضجة الجنود وهم ينزلون محفة «مظلوم أفندي» في وسط المعسكر، يبدو شاحبا على وشك أن يفقد وعيه، ولكنه للدهشة يشاركهم الصياح بقدر طاقته، يقفز فجأة وقد استعاد شبابه، يدورون جميعا حول برميل المريسة، قام الجنود بجلبه من الحانة بعناية بالغة، لا يخفون دهشتهم من فكرة القائد العبقرية، يعرف أن «إيزابيلا» تجلس في انتظاره ولكنه ضائع وسط الضجة ومظاهر الفرح، يكشفون الغطاء عن البرميل، تتصاعد رائحة «المريسة» العبقة مختلطة بماء الورد، يسكبونها في أوعية من القصدير، تستمر رقصة البشارية، وينشغل البعض بإشعال النار من أجل إعداد الشواء، يجلس «مظلوم» بجانب القائد وهو يلهث، يتجمع الجنود حولهما ضاحكين، لا وجود للانضباط، هذه ليلة للمرح. يقول سالم: لم تخبرنا يا «مظلوم أفندي» ماذا فعلت مع راهبات المستشفى، يشرق وجهه، يقول: كنت رجلهم المدلل، وكن لا يكففن عن الحومان حولي، يسأله «ألماس» مندهشا: لماذا؟ يقول في ثقة: من أجل لغتي الفرنسية، ينفجر الجميع في الضحك، يقدمون له وعاء «المريسة»، يهتف متأففا: لن أتذوق هذا المشروب العفن، ليس أقل من النبيذ، مشروب سيدنا المسيح، ينهض العاصي، يعدو نحو خيمته البعيدة، يعود حاملا زجاجة داكنة، يتأملها مظلوم منبهرا، نبيذ فرنسي فاخر، لا يشربه إلا مارشالات الحرب، يهتف: من أين أحضرتها؟ يقول العاصي: شراب الإمبراطور شخصيا، كانت مكافأة لي لأنني دافعت عن شرف الإمبراطورة، وأنا أحتفظ بها منذ ذلك الحين، يقول ذلك بفخر وزهو، ينهض مظلوم، يربت على كتفه: ومع ذلك تعطيها لي، هذا كرم منك، يقول العاصي: إنها ليست بلا مقابل، ستغني لنا كل الأغاني السودانية التي تعرفها، يهلل الجنود في مرح، كانوا في شوق حقيقي لسماع صوته، يقول مظلوم: كان بودي لولا أنني

المدينة بعيدة، والمعسكر محصور بين البحر الساكن، وبيوت المدينة المتراصة، والحانة هي الوحيدة التي ينبعث منها الضوء، هل جاءت الرصاصة من هناك؟ «ألماس» هو الوحيد المشغول بطرح الأسئلة، والجميع يصرخون في لوعة وغضب، تتعالى الصيحات من أفواههم، قتله المجرمون، أهل المدينة الخونة، جئنا نحميهم وهم يكرهوننا، تندفع جماعة نحو خيامها، يعودون حاملين البنادق وأحزمة الطلقات، يصرخون بكلمات أفريقية غاضبة، يتناثر من أفواههم رذاذ «المريسة» وقد ازدادت أنفاس العفونة، هل نفذت امرأة الحانة وعيدها وأضافت إليها زجاجات الـ«تيكيلا»، يعصف بهم الغضب العارم فيعوون كالحيوانات، ينجح «ألماس» في الوقوف أخيرًا، يصيح فيهم، يضع كل قوته في صوته: توقفوا، لن يغادر أحد أسوار المعسكر، لا أحد يستمع إليه، يتركون الجثة ملقاة، مفرودة الذراعين، متوجهة بوجهها نحو السماء، يندفعون صارخين في اتجاه البيوت المظلمة الساكنة التي تبدو بريئة بينما يختبئ القتلة بداخلها، يهرعون من باب المعسكر في اتجاه الظلام، يسرع «ألماس» خلفهم صائحا، يشير للضابطين القريبين منه أن يمنعوهم، لا شأن لنا بالمدنيين، كل ما نستطيعه هو أن نشكو للفرنسيين ليقوموا هم بالبحث عن القاتل، ولكن الكارثة تقع، يتوقف «ألماس» مذهولا، يسمع صوت صراخ النسوة، وطلقات الرصاص، أصوات مختلفة من الطلقات، هناك من يتبادل إطلاق النار مع جنوده، تزداد صرخات النساء ارتفاعا، تختلط بأصوات الأطفال الفزعة، ودمدمات الرجال الغاضبة.

كم واحد أصيب، كم قتيلا سقط؟ الظلام يخفي كل التفاصيل، نساء نصف عاريات يجرين في الشوارع، يتعثرن ويسقطن، دمدمات لاهثة كأصوات الحيوانات، تتحول المدينة إلى غابة مظلمة، لا توجد

إلا روائح الدم والبارود، ظلمة لا تجوس فيها إلا أرواح المغتالين، يرتفع الضجيج في الحانة حيث توجد المرأة التي أعدت «المريسة»، صوتها صارخًا، يهرع «ألماس» نحوها، يندفع الزبائن السكارى من الباب هاربين في كل اتجاه، يصطدمون به دون أن يتوقفوا، ترتفع طلقات من الداخل، ويخرج الجنود صائحين، يخيل إليه أنه يعرفهم ولا يعرفهم، هيأج قاتل، يدخل من باب الحانة المزدوج: لا زبائن، مقاعد مبعثرة ومناضد محطمة وكئوسا متكسرة ومرايا مشروخة، جسدها ملقى على الأرض، ينتفض في حركات لا إرادية، يحاول التمسك بأهداب الحياة التي تغادره، تشهق يائسة وتحاول أن ترفع رأسها ولكن لا يصدر عنها إلا آهة واهنة ثم تهدأ، يرتخي جسدها على الأرض، يتحول إلى جسد غريب، ساكن خامد بلا حركة ولا بهجة ولا رغبة، تنطفئ كل الألوان التي كانت تشع منه، ترتدي الثوب نفسه الذي رآها به في آخر مرة، ولكنه ليس ثوبها، عقصة الشعر وأحمر الشفاه وزينة العينين، أشياء لا تخصها، حتى هذا الجرح الموجود تحت ثديها الأيسر والذي يتدفق منه الدم، وينساب ببطء على بلاطات الحانة المتربة الناعمة الزلقة، لا شيء يشبهها، لا يمكن أن تتحول امرأة مثل هذه إلى جثة، وأن تجد الحياة سبيلا لمغادرتها، هي والأفندي الراقد في المعسكر، جثتان غريبتان، يجلس على ركبتيه ويلمس وجهها، ما زال دافئا، سيبقى معها هذا الدفء، لن يغادرها حتى وهي القبر، يتأمل عينيها المفتوحتين من هول المفاجأة، وفمها الذي كان يشهق، هو الذي قتلها، هو الذي صنع «المريسة» التي حولتهم لحيوانات.

يخرج إلى عرض الطريق، يشاهد الرعب الذي يسود المكان، النساء والأطفال والعجائز المرعوبين، والأشباح السوداء تجوس

بينهم حاملة البنادق، حاملة الموت، يصيح بأعلى صوته: توقفوا، أيتها الذئاب المسعورة، يفرون من أمامه عائدين إلى المعسكر، تاركين موتى وجرحى مجهولين، يظل واقفا عاجزا عن الحركة، يلتفت ويعود للحانة ببطء، يحس أنه يكره هؤلاء الجنود ويكره هذه البلاد ويكره كل هذا الكم من القتل، يريد أن يبكي وحدة بجانب جثة المرأة الوحيدة التي أحبها.

عام ١٨٦٦م

ـ ١٤ ـ

يرحل «ماكس» إلى منتجعه البعيد، وتلزم غرفتها حتى تتعافى روحها، وعندما تجيء رسالة الإمبراطور «نابليون» من خلف البحار، تبقيها مغلقة، لا تريد ولا تجرؤ على فتحها، فلتظل في انتظاره حتى يعود، تجلس بين اليقظة والذهول، لا تريد أن تشرك نفسها في تفاهات القصر، ولا تسمع شيئا عن المدينة، حتى عندما يعلنون عن وصوله، لا تتحرك من مكانها، يقتحم هو غرفتها حاملا الرسالة اللعينة بعد أن يفض أختامها الحمراء، تبدو كأنها مزينة بالدم، يهتف بصوت محتقن: إنه يريد التخلي عنا، يريد أن يسحب كل جيوشه من البلاد، وهو يوصيني ـ الآن فقط يوصيني ـ أن أنشئ جيشا محليا، ذلك الجيش الذي وقف الوغد «بيازين» ضد إنشائه..

تحاول أن تفيق حتى تستوعب كلماته اللاهثة، ينتقل إليها إحساسه بالرعب، يبدو أكثر شحوبا من أي وقت، يجلس على مقعد بجوار فراشها، تنسى كل ما مر بها معه، تشعر أن العالم يوشك على الانهيار، يواصل القول: إنه يتعلل بأن الأمور في أوربا مضطربة، ونذر الحرب تخيم على الجميع، «بروسيا» تهدد «فرنسا» بالحرب كل يوم، وهو في أمس الحاجة إلى جيشه..

تحاول أن تمتص شعوره بالرعب، تهدئه: لن يجرؤ على فعل ذلك، هناك اتفاقية بيننا، لن يرحل أي جندي إلا بعد أن يسود السلام المكسيك

تمامًا، وحتى بعد ذلك، ستبقى الفرقة الأجنبية لمدة ثلاث سنوات أخرى.. تجعله كلماتها يفيق إلى نفسه، يبدو أنه قد نسي في غمرة فزعه الاتفاق الأساسي الذي قادهما إلى هذا المكان، إلى هذه المصيدة، الإمبراطور العجوز يمارس عليهما نوعا من الخديعة، تواصل القول: لقد أرسل لنا رسالة، سنرسل له رسالة مثلها، نحدد موقفنا بوضوح، إنها مجرد أزمة وسنعبرها معا.

ينصرف من أمامها مسرعا، يسعى لمقابلة المبعوث الذي حمل الرسالة، على الأقل ما زال يشاركها في التمسك بهذا الحلم، لمسة من التفاؤل وسط هذه الكآبة، عليها أن تفيق من أمراضها وتتمسك بأطراف قوتها، كان بحاجة إليها ليدافع عن عرشه، عرشهما، حتى لو رحل الفرنسيون يمكنهما معا النجاة بدونهم.

ولكن الأمور تأخذ في التدهور، يفقدون ولايات الشمال، أمريكا التي تكرههما دون سبب واضح تملأ الحدود بالجنود المرتزقة والأسلحة، ضاعت الموانئ التي تطل على الطرف الآخر من البلاد، لم تعد لهما صلة بشواطئ المحيط الهادئ، لم يقدم «بيازين» أي سبب أو تعليل لهذا التراجع المهين، طامع آخر في هذه الإمبراطورية، من يستطيع أن يوقف طموح زوجته الصغيرة ولهيب جسدها؟! يصبح «ماكس» مريضا دائمًا، كأن زوجة البستاني تمتص طاقة الحياة من داخل بدنه، و«كارلوتا» غاضبة دائمًا منه، مشفقة عليه، شاعرة بالضياع الذي يحيق بهم جميعا، يهجم المتمردون على «سونورا»، حلم الفضة الذي كان نابليون يريد اقتناصه، يقتنصه المتمردون ويقتلون ثلاثة وسبعين فرنسيا، ضربة هائلة للكبرياء الفرنسي لم يستطع «بيازين» مواجهتها، هل يمكن أن يؤجل هذا نية الانسحاب أم يعجل من وتيرته؟ يتصرف «نابليون» كعادته بطريقة غريبة، لا يرد على الرسالة التي

يرسلها «ماكس»، ولكنه يرسل مندوبا فوق العادة يقول إنه يحمل خلاصا من الأزمة.

تدخل غرفة «ماكس» فتجده نائما يغمر العرق وجهه، تعطي تعليماتها للجميع ألا يوقظه أحد، ولكنها لا تملك إلا أن تعود لغرفته مرة أخرى، تشاهد جسده وهو ينتفض، يريد أن يتخلص من الكوابيس التي تطبق عليه، تهزه أكثر من مرة حتى يفيق، ينظر إليها كأنها امرأة غريبة، لا يريد أن يقابل أحدا، لكنه كان يجب أن ينهض، مصيرهما كله معلقا بهذه المقابلة، تساعده في ارتداء ثيابه، تشاهد جسده العاري وضلوعه البارزة، كان في حاجة لأن يستعيد شبابه الذي يهرب منه، تحس به وهو يدير ذراعيه حولها ويضمها إليه، كان هشا، يتشبث بها، تشعر برغبة حارة في البكاء، تكتشف أنه بعد أن مات أبوها، لم يبق لها إلا هذا الرجل، أقاربها من الملوك والأمراء الذين يمتلكون أوربا البعيدة لا يعنون لها شيئا، عليها أن تنقذ هذا الرجل النائي حتى تنقذ نفسها، يسيران معا في الممرات الطويلة، كتفها يلاصق كتفه، لم تكن لتتركه يمضي إلى هذه المقابلة وحده.

يقف المبعوث الفرنسي في انتظارهما، على وجهه ابتسامة غريبة، قصير القامة، عيناه جاحظتان كضفدع، لا يبدو ودودا، يتحدث بفرنسية متكلفة، يضع أمامهما المرسوم الذي أرسله إمبراطوره العجوز، يقول مؤكدا: ربما كان هذا هو الأمل الوحيد لخلاصنا جميعا. يفرد المرسوم على منضدة الاجتماعات، تمر عيناها على السطور بسرعة، تصيح في فزع: هذا تنازل عن العرش، هل يطلب منا الإمبراطور أن نتنازل عن عرشنا..

يقول المبعوث في صفاقة: إذا أردنا أن ننجو..

يتراجع «ماكس» من أمامه، لم يعد قادرا على الوقوف، يجلس على أحد المقاعد ويركز بصره على الغابة عبر النافذة، يظل المبعوث واقفا قليلا، ثم يقول: ربما عليّ أن أنصرف الآن وأترك لكما الفرصة حتى تتخذا القرار..

ولكنها تصيح في صوت حاسم: لا ضرورة للانتظار، إليك القرار منذ الآن، نحن نرفض التنازل عن العرش..

يقف الرجل وهو يردد بصره بينها وبين «ماكس»، يريده أن يتكلم، ولكنه لم يكن قادرا على ذلك، يحني قامته ويتركهما وحيدين، كما لم يكونا من قبل، يمر بذهنها في لمحة سريعة تاريخ أجدادها وجداتها الذين تنازلوا عن عروشهم، بسبب الخوف أو حتى بسبب العشق، الإحباط الذي عاشوا فيه بعد قيامهم بهذه الخطوة والاكتئاب الذي حل على قصورهم العتيقة، كأنهم قد بتروا جزءا من أعضائهم، ما زال «ماكس» يجلس منذهلا، لا يدري كيف تدهورت الأمور إلى هذا الحد؟! تجلس أمامه على ركبتيها، تهتف من حرقة قلبها: التنازل عن العرش لا يقوم به إلا عجوز مخرف أو أحمق، لا يتناسب مع شاب ما زال في الرابعة والثلاثين من عمره، ممتلئ بالحياة والأمل، أنت مسئول عن مصير هذا البلد، وتحمل خطورة هذا المنصب، نحن لم نتخل عن موقفنا ضد الأعداء، فكيف نتخلى عن العرش؟! هل تذكر جدي الخامس ملك فرنسا؟ لقد دمر نفسه عندما تنازل عن العرش، حكم على نفسه بالعجز وعدم الكفاءة، الإمبراطور لا يملك الحق أن يتخلى عن سلطته، سيظل إمبراطورا مهما حدث، حتى ولو كان لديه فقط ستة أقدام من الأرض، الإمبراطورية لا تعني شيئا بدون إمبراطور، وأنت يا حبيبي لست مجرد إمبراطور، أنت رسول الحضارة الأوربية لتنقذ هذا البلد وتعيد بناءه، لا يمكن أن تعود إلى أوربا حيث لا يوجد

من يحتاج إلى الحضارة أو البناء، لا يمكن أن نعود مهزومين بينما هذا البلد المسكين في حاجة إلينا.. تتوقف عاجزة عن التقاط أنفاسها، تستنفد كل ما عندها من كلمات، يرفع وجهه وينظر إليها، تمتلئ عيناه بالضوء، تشعر أنها أوقدت النار الخابية بداخله، يقول في ألم: ولكننا ننهزم بالفعل، المارشال «بيازين» يترك مناطق بأكملها ليدخلها المتمردون دون طلقة واحدة، الفرنسيون ينفضون أيديهم منا، لو أنهم يبقون قليلا حتى نكون جيشا من المحليين، لو أجدنا تدريبهم فيمكن أن ننجو جميعا ولكنهم لا يعطوننا لا الوقت ولا الفرصة، يتركون «بيازين» يحاصرني بأطماعه، يجب على «نابليون» أن يوقفه قبل أن نسقط جميعا..

لا يريد التنازل، ولا العودة مهزوما إلى أوربا العجوز، ولكنه يبحث عن طريقة للخروج من النفق الذي يخوضان فيه، تتأمل عينيه القلقتين، ربما كان جسده ينتمي لنساء أخريات، ولكن لا بد أنه يغمض عينيه في لحظات الذروة، يدرك أن هذين العينين تخصانها وحدها، لحظات الألم والوجع والاحتياج، تخصها وحدها، يجب أن تنقذ عينيه قبل أن تمتلئا بالدموع، تقول فجأة: سأرحل أنا إلى أوربا، سأذهب إلى نابليون وأخبره بكل هذه التفاصيل، سأتوسل إليه إذا لزم الأمر، سيعرف كم أن هذا العرش مهم لنا، سأطلب منه أن يؤخر انسحاب جيشه، عليه فقط أن يسحب «مارشاله» التعيس حتى تستقيم الأمور، سألح في الطلب والتوسل ولن أترك له فرصة للرفض، دعني فقط أذهب إليه.

يدير عينيه في ملامحها، يمسك بوجهها بين راحتيه، ربما ليتأكد أنه لا يتوهم، وأنها تعني الكلمات تخرج من فمها، يهمس: ستسافرين وحدك إلى فرنسا؟!.. ستقومين بهذه التضحية من أجلي.. تقول وهي على وشك البكاء: من أجلنا يا حبيبي، من أجلنا..

تبكي وهو يحتضنها، لم تكن ستذهب لأحد في هذه القارة البعيدة، لا لملك بلجيكا الجديد،أخيها الذي بدا متحفظا بعد موت الأب، وقام بسحب دعمه التقليدي، ولا لشقيق زوجها الذي أرغمهما على التنازل عن كل شيء، يقبلها، شفتاه باردتان، لا وقت للعواطف، وربما لا عواطف، يقول: ربما يكون هذا هو الأمل الأخير، ربما تنجحين في إقناعه، سأعطيكي ما يكفي من الذهب، سأسحب من الخزانة احتياطي الذهب الذي يغطي العملة الورقية، الأمر يستحق أن نغامر بكل شيء.

يجلسان ورأسيهما متقاربتان، يدبران خطوات الرحلة، من سيصاحبها؟ من ستقابل؟ ماذا عليها أن تقول لأوجيني، لنابليون ولبابا روما، لا تنوي الذهاب لبلجيكا حيث يوجد أخوها الملك، ولن تذهب للنمسا حيث عائلته وأخيه الإمبراطور، ذاهبة فقط لإنقاذ العرش الذي يخصهما، رحلة خيالية، ومقامرة غير مضمونة، ولكن رحلتهما الأصلية لهذه الأرض لم تكن أكثر من مقامرة، يعدها بأن كل شيء سيتغير، سيتخلص من هذا الولد وعمته الأفاقة، سيكون لهما ولي عهد من صلبهما معا، تحتضن جسده النحيل، وتؤكد له أنها ستعود سريعا، فور أن تنقذ العرش من أجل هذا الوليد الذي لم يتكون بعد، ولكنه قادم.

مرة ثانية، عليها أن تتجه جنوبا، نحو الشرق، من جديد، تعود للطرق التي سارت عليها من قبل، تجف الوحول وتصبح الطرق سالكة، لكنها تظل غير آمنة، تودع وصيفاتها من نساء القصر، سأعود بعد ثلاثة أشهر، تعدهم بذلك رغم أنها تلمح ظلالا من الشك في عيونهن، تسافر سريعا بلا زينة ولا هتاف، يتبعها بعض ممن يتظاهرون بالإخلاص لها، ولكنها تعرف أنهم يريدون فقط العودة إلى أوربا، يبدو «بيازين» مندهشا، لا يدري ماذا يفعل! أخفيا خطة السفر حتى اللحظة الأخيرة،

ولا بد أنه سيهرع الآن لإرسال برقيات عاجلة إلى سيده، يحذره من قدومها، يمتد الطريق أمامها بكل ما فيه من مخاطر وعقبات، نوافذ العربة مغلقة دوما، يجب أن تصل إلى «فيرا كروز» في أسرع وقت، وأن يتواصل وقع السنابك بلا توقف، تنام وتستيقظ وتستمر الرحلة، تتصاعد رطوبة الوديان الخانقة، ويتسرب رماد البراكين من خلف ستائر العربة، تصل إلى أول السكة الحديد، القطار الذي سيقودها مباشرة للميناء، منفذ للخلاص، لا تنسى الوجوه التي استقبلتها، ليسوا أقل حفاوة ولكنها متعجلة، لا تقبل أي حفلات أو دعوات للتكريم، ينظر الضباط الفرنسيين إليها كأنها ذاهبة لغزو فرنسا، في أعماقهم كانوا يريدون السفر برفقتها، لا يعرفون أنها ذاهبة هناك لمنعهم من الرحيل.

تتوقف في منتصف السجادة الحمراء التي تقودها للسفينة، ترى عددا من الجنود السود، كعادتهم يقفون منتصبين ومتجهمين، تتذكر فجأة الأربعة الذين قفزوا فوق عربتها، تحاول تذكر الاسم الصعب للجندي الذي رافقها إلى الجزيرة، الذي وقف بجانبها وهي تبكي أباها، الذي حملها قبل أن تتهاوى على الأرض ووضعها في عربتها، لا يستطع القائد الفرنسي أن يخفي دهشته وهي تترك الذين يحيطون بها من المسئولين وكبار القادة وتقترب من صف الجنود السود، تتأمل ملامحهم عن قرب، رائحة عرقهم لا تطاق، تضع منديلا معطرا على أنفها وتقترب أكثر من ملامحهم المتشابهة، لماذا خلقهم الله بهذا التطابق؟! تبحث عنه، تتوقع أن يبرز لها من بين وجوههم،لا تراه، ولكنها تتعرف على وجه آخر، أو يخيل إليها ذلك، تهتف به: أين آسي.. أريد آسي..؟!

تتذكر اسمه فجأة، يزم الرجل شفتيه الضخمتين وينظر إليها عاجزا، تظل تردد عليه الاسم حتى يتقدم القائد الفرنسي وقد ظن أن هناك خطأ ما، يسألها برقة: معذرة يا مولاتي، قولي لي ماذا تريدين؟

تهتف: إنه واحد من الجنود السود الأربعة الذين تعلقوا بعربتي، ورافق رحلتي إلى يوكان، اسمه آسي، أو شيء مثل هذا، هذا الجندي رفيقه ويعرفه جيدا.. يتطلع إليهما الجندي بشفتين مزموتين، يحاول أن يبدو متماسكا، ولكنه يرتجف، يتوجه الضابط إليه، يأمره أن يجيب عن السؤال، يقول أخيرًا بصوت مرتعد: إنه في السجن.. في قلعة سان خوان..

يشير بعينيه إلى القلعة الحجرية الرابضة فوق جزيرة صغيرة بالقرب من الشاطئ، يسأله الضابط: هل كان منهم؟

يومئ الجندي برأسه موافقا، يلتفت القائد نحوها وهو يقول: إنها جريمة جماعية ضد بعض الأهالي، هو وأخرون من الجنود السود ألحقوا العار بشرف الجيش الفرنسي، لقد أدين وهو في السجن الآن..

تشعر بالصدمة، تتذكر جسده النحيف الصلب، لا يوجد في وجهه سوى شفتين ضخمتين وعينين واسعتين، تعرف أنه جندي مرتزق، قادم من مكان متوحش، لكنها لا تتصوره قاتلا، رحلتها لا تحتمل التأجيل، ولا يجب أن تعتمد على مصير قاتل، ولكنها تتوقف، يهولها حجم الجريمة الموجهة ضده، تطلق السفينة الواقفة في انتظارها صفارتها، تتذكر لحظات الأمان التي أحستها في رحلتها الشاقة وهو بجانبها، هي الآن على وشك القيام برحلة أكثر مشقة، تلتفت للقائد وتقول بصوت محدد: أريده حارسا مرافقا لي، سيرحل معي إلى أوربا، أريده معي في باريس، حتى يعرف الإمبراطور «نابليون» أن الجميع معنا، حتى السود.

بالتأكيد لا تعي ما تقول، سبب تافه، وحجة لا تقنع طفلا، ولكن لم تنس أنه أنقذ حياتها ورد إهانتها وواساها في موت أبيها، تريد أن تفعل شيئا يفك أسره، تقامر على براءته، تفكر، ربما بصوت عال، إنها جريمة

جماعية، ربما شارك في القتل، وربما لم يفعل، تحدق بحدة في القائد الفرنسي، يشعر بالحصار الذي تفرضه عليه، يقول محرجا: مولاتي، لا أستطيع أن أفرج عنه بينما بقيتهم في السجن..

تقول بصوت عال: افرج عنهم كلهم إذن، في الحرب تقع كثير من التجاوزات، نحن لسنا أكثر نبلا من أعدائنا، ولكن على الأقل نعرف من يحارب بجانبنا، هذا أمر إمبراطوري إن لم تكن تعرف..

لا تريد أن تجادله أكثر من ذلك، الآذان كلها تتنصت عليها، لا بد أنها سمعت بعضا من كلماتها الحادة، لا تريد أن تثير فضيحة قبل أن ترحل، تدير له ظهرها وتسير إلى السفينة التي تنتظرها، يجب أن تنجح في مسعاها مع «نابليون»، حتى لا يناقشها قادته بمثل هذا الصلف، تصعد إلى سلم السفينة وهي ترتجف، ينحني القبطان أمامها، لا تراه، تقف مستندة إلى حاجز السفينة، تدب الحركة في البحارة وهم يستعدون للرحيل، وتنكمش وصيفاتها على جانب من السطح، تنظر للقلعة الحجرية الجامدة، وطيور النورس التي تحوم حولها في حلقات، ربما كان عليه أن يبقى في السجن حتى تعود، حتى تمتلك القدرة على إخراجه من السجن رغما عنهم، يسألها القبطان الإذن بالرحيل، لكنها ترفض الرحيل، يبتعد مندهشا، ربما يعتقد أنها تعاني من لوعة فراق المكان، هي خائفة بالفعل، لا تشعر بالأمان، تغمض عينيها لعل «فيراكروز» تختفي من بصرها، تفتح عينها فتجد المدينة موجودة، والسفينة واقفة، والسلم الذي يربطها بالأرض لم يرفع بعد.

ثم تراه قادما من بعيد، ظلا أسود شاحب، يشير له القائد الفرنسي أن يتقدم نحو السفينة، يتركونه يفعل ذلك وحده، يزداد اقترابا، وجسده النحيف يوشك على التكسر قبل أن يلمس سلم السفينة، يظهر وجهه

الأسود وكأنه لا يوجد فيه شيء حي إلا عينيه،، ثيابه متسخة، معفرة بتراب السجن، يصعد فوق درج السلم بصعوبة بالغة، توشك روحه أن تزهق مع كل خطوة يصعدها، لم يكن قاتلا بالتأكيد، يسرع بعض البحارة ليساعدونه على الصعود، يسير بينهم مترنحا، لا يدري لماذا أخرجوه من السجن، ولا لماذا صعدوا به إلى هذه السفينة؟!

ـ ١٥ ـ

تحتل الشمس فناء قلعة «أولوا»، لا وجود للظل، يلتصق السجناء بالجدران الخشنة، لا أحد يريد العودة لظلمة الزنازين، يتنفسون لفحات الهواء الساخن التي يلقي بها البحر، ويراقبون النوارس وهي تنطلق في حرية، لايمل «علي جوفان» من مراقبتها وهو مستند للحائط، في كل لحظة يحوم طائر مختلف، ترحل جميعها ويبقون هم أسرى السور الصخري، يتحدث «العاصي» بكلمات كثيرة عن أيام الغابة، لا يريد أن يستمع ولكن ليس هناك شيء آخر، يقول: في الغابة لا توجد مثل هذه الأسوار، بالطبع لا توجد أسوار، لا يوجد إلا الأسود التي لا تكف عن أكل الوعول، يرفع رأسه ويراقب ما يحدث في نهاية الساحة، الضابط الفرنسي «أندريه» مساعد آمر السجن، يدخل من الباب الحديدي والجندي الحارس يغلقه خلفه، برفقته امرأة فارعة الطول، تلبس تنورة منفوشة سوداء، تتناسب مع الوشاح الأسود الذي يغطي رأسها وجانبا من وجهها وجزءًا من صدرها المرتفع، يشعر بالجوع، شهور مرت دون أن يرى أنثى، ولكنها الآن تخطو بنعومة وسط فناء سجن مليء بالرجال الجوعى، يسير الضابط بجانبها ويده على مقبض سيفه متأهبا، ويحف ثوبها بالرمل ويثيره، يتجهان نحوهما، يسلط الضابط عينيه عليه بوجه عابس، يزداد تجهمه كلما اقترب، يتراجع بعض السجناء ويلتصقون بالجدران، هناك عقاب سيقع على رأس أحد ما، لكن

«جوفان» لا يتحرك من مكانه، وكذلك «العاصي»، يحدقان معا في قدمي المرأة، لا يظهر إلا جزء صغير من وجهها، يقف الضابط أمامهما وقد باعد بين ساقيه، يشير نحو «جوفان» ويقول للمرأة: هذا هو..

تتقدم المرأة خطوة، تتأمل وجهه قليلا، تقصده هو على وجه التحديد، تقول شيئا من بين أسنانها، لا يفهم الكلمات ولكنها تطل عليه بكراهية، تحرك فمها وتجمع لعابها، يفاجأ بسائل يندفع من فمها، بصقة كبيرة تغمر وجهه، يحاول «جوفان» أن ينهض ليلطمها على وجهها، يضع الضابط يده على مقبض سيفه، و يمسك «العاصي» بذراعه، تندفع الكلمات من فمها، تفرغ ما في صدرها من شحنات الانفعال، تضم قبضتها وتلوح بها أمام وجهه، توشك أن تهوي عليه، لكنها قبضة صغيرة لا خطر منها رغم أنها مشحونة غضبا، يشير لها الضابط برقة أن تتوقف، يلمس ذراعها حتى تسير أمامه، لا يفهم «جوفان» كلمة واحدة مما قالته، يمسح لعابها من على وجهه ويتطلع لـ«العاصي»، هو أيضًا لا يفهم شيئا، تخرج المرأة والضابط خلفها، ويعود صمت الظهيرة القاتل.

من هذه المرأة؟ ولماذا جاءت فقط لتبصق عليه؟

ينهض أحد السجناء من الركن الآخر للفناء، أسير حرب مكسيكي دخل السجن منذ أيام، لم يتبادل «جوفان» معه إلا كلمات قليلة، ينظر إلى «جوفان» ساخرا، كأن المرأة قد انتصرت له، يشير إلى آثار البصقة التي ما زالت موجودة، ينطق كلمات بالفرنسية، ينهض «جوفان» ويسأله في لهفة: من هذه المرأة، ولماذا فعلت بي ذلك؟

يقول الجندي بفرنسية متعثرة: هل تحاول التنصل مما فعلته؟! تقول أنك قتلت زوجها، جاءت هنا فقط لتبصق عليك وتسبك لأن هذا كل ما تقدر عليه الآن، ولكنها تعدك بالانتقام فور خروجك من السجن..

يظل «جوفان» غير فاهم، منذ أن جاء إلى هذه الأرض وهو يقتل، وفي هذه الليلة بالذات كان واجبا عليه أن يقتل، من أجل أن يطفئ حرقتهم جميعا، الوجوه التي كانت تبرز وتغيب أمامه وأمامهم، لم تكن تخص إلا قتلة لا يستحقون سوى القتل، يدرك أن «المريسة» قد زادت من توحشهم، شراب الغابة حتما يعود بهم للغابة، لكن جثة «مظلوم أفندي» الملقاة بجانب النار التي تخبو، هي خديعة، خيانة من أهل المدينة الذين يدافعون عنهم كل صباح ويغتالونهم في الليل، وبعد ذلك كله يقبضون عليهم ويدخلونهم السجن، يضعون الذين حاربوا بجانبهم، في القلعة نفسها التي يضعون فيها أعداءهم.

في الليل، في ظلمة الزنزانة، يشعر أن البصقة ما زالت تغطي وجهه، قناع لا يستطيع انتزاعه، يجلس «العاصي» بجانبه، يسمعان صوت بعضهما في الظلام، يقول «جوفان» مستغربا: لا أفهم، كيف عرفت هذه المرأة بالتحديد أنني الذي قتلت زوجها، الوقت كان ظلاما والجميع كانوا يصرخون، يطلقون النار علينا ونحن نبادلهم الطلقات.

يقول «العاصي»: الفرنسيس قوم في منتهى الغرابة، لم نفعل سوى أننا نفذنا أوامرهم، جئنا هنا لنقتل أهل هذه البلاد، ولم نفعل أكثر من ذلك، فلماذا وضعونا في هذا السجن القذر؟!

يتمتم «جوفان» مفكرا بصوت عال: ربما كنت أنا القاتل، وربما كان ريحان أو الزبير، أو حتى مرجان سودان، لقد نلنا جميعا أحكاما مخففة ما عدا مرجان سودان هو الذي حكم عليه بالإعدام قبل أن يتم تخفيف الحكم.

يتذكر «جوفان» تلك المحاكمات، ثمان من الجنود السود يقفون خلف القضبان دون أن يفهموا شيئا من التهم الموجهة إليهم، لا يعرفون

لماذا يصرخون ويصيحون ويشيرون إليهم متوعدين! يكتشفون كم الكراهية التي يكنها لهم الجميع، لا يعرفون مقدار الحنق الكامن في نفوسهم إلا بعد أن أصبحوا خلف هذه الجدران المظلمة، يحدثه «العاصي» حائرا: إنهم يكرهوننا، يعتقدون أننا قتلة، مرتزقة، جئنا لنعاون الفرنسيين على احتلال هذا البلد وقتل أهلها، لست أنا القاتل الوحيد، الجميع هنا قتلة، الفرنسيون، النمساويون، البلجيك، جيوش المرتزقة التي تعيث فسادا في هذا البلد..

لا تظهر المرأة بعد ذلك، يرى فقط الضابط «أندريه» وهو يسير معتدا فوق السور المحيط بالفناء، يمسد شاربه وهو ينظر نحوه، هل نال مكافأته منها لقاء البصقة التي غمرت وجهه؟ ماذا كان يعمل زوجها وما هي هيئته، وهل قتلته وحده؟ يتذكر أنه لم يطلق رصاصا، غرس فقط سكين بندقيته في بعض الأجساد في البيوت المواجهة للمعسكر، عندما أصبح هو وبقية الجنود بينهم لم يعودوا يرونهم، لا يسمعون فقط سوى صراخ النسوة وبكاء الأطفال وحشرجات الرجال، أين كانت هذه المرأة وقت حدوث المذبحة؟ لماذا وقع اختيارها عليه؟ لا جواب، ولكن هذا دأب السجن، يسيطر على الذهن هاجس واحد، تصبح هذه المرأة هي شاغله الأعظم، ربما يكون قد قتل زوجها بالفعل، ولو عادت سيتحمل بصقتها الثانية في سبيل أن تمده بالمزيد من المعلومات، ينتهز فرصة النزهة ليذهب إلى الأسير السجين، يتحمل نظرته الساخرة، يقول له بفرنسية متعثرة: هذه المرأة، هل ذكرت اسم زوجها، أو اسمها، هل قالت أي تفاصيل عما حدث..؟

يهز الرجل رأسه: فقط كانت تسبك.. يسكت «جوفان» قليلا، ثم يقول فجأة: هل يمكن أن تعلمني لغتها.. لغتك؟

يقول الأسير ساخرا: تريد أن تتعلم الإسبانية حقا؟ هل تريد أن تسمع كلمات السباب بإذنيك، لو فعلت ماذا ستعطيني مقابل ذلك؟

يقول «علي جوفان»: سأتدبر أي شيء تريده، سأعطيك الأطعمة التي يحضرها لي زملائي..

يقول الأسير تحديدا: لا أريد سوى أكياس التبغ..

يجلسان معا في الفناء وسط الهواء الساخن، يمسك «باريثيو» الجندي الأسير بعصا صغيرة ويبدأ في رسم علامات غامضة على الرمل، أول الحروف التي ترسم أمامه، تتكون من بين ذرات الرمل قبل أن تتحول إلى كلمات، قريبة من لغة الفرنسيس ولكنها أكثر ضجة، يتعرف ببطء على بعض كلمات السجناء، تتضح أمامه ملامحهم الغامضة، يعرف كيف ينطق أسماءهم ويتكئ على مخارج الحروف، يأخذ «باريثيو» منه كيس التبغ وصرة الفواكه الطازجة ومزيج الكاكاو الذي يرسلها له زملاؤه من الخارج، ويظل ينتظر عودتها للمرة الثانية دون أن تحضر، يستطيع أن يكتب بحروف غير منتظمة اسمه على الرمل، اللغة الأولى التي يكتبها، لم يتعلم كتابة العربية، ويردد الفرنسية كالببغاء، ولكنه يعرف الآن كيف ينطق هذه اللغة ويرسم علاماتها في الوقت نفسه، يبدأ في محاولة الكلام مع بقية الجنود الأسرى، يتغير شكل السجن، ويتغير العالم أيضًا، يكتشف «علي جوفان» أنه وبقية الجنود السود قد هبطوا هذا البلد مثل خفافيش عمياء، خاضوا رحلة صعبة وهم يقاتلون في الجانب الخاطئ، ينفذون أوامر الغرباء، ويحاولون قهر إرادة أصحاب البلاد، يقتلونهم ويحرقون قراهم دون سبب، من أجل الفرنسيس الذين يشبهون الأتراك، يمتص الإهانات وكلمات النقمة ويواصل التعلم، يفتح من خلالهم ثغرة على هذا العالم، عالمهم البعيد النائي الذي لا يلتقي

به إلا في لحظة الموت، هل كان «الماس أفندي» يعرف كل هذا؟ تزداد درجة المعرفة والألم في الوقت ذاته، لا تحضر المرأة ولكنه أصبح يعرف عنها الكثير، على الأقل يعرف أنها كانت محقة عندما بصقت على وجهه، يراقب الضابط «أندريه» وهو يتجول فوق السور، يتحمل نظراته الساخرة، ما مدى معرفته بهذه المرأة، هل هي عشيقته، هل دفعت له الثمن من أجل أن يقودها إلى هنا، أم أنه خدعها وأشار على أي واحد من الجنود السود وبالمصادفة كان هو هذا الشخص؟

تصبح اللغة أسهل، يتحدث لسانه ببعض الكلمات، يكون جملا بسيطة، يشرح لهم أنه ليس عبدا رغم لونه الداكن، لكنه جاء من بلدة في جنوب مصر تدعى «أسوان»، نقطة الارتكاز التي يقاس منها العالم، كما يقول العجائز في بلدته، وحيث تحفر تواريخ الملوك على الحجر الصلد، كان يرعى الغنم عند جلاميد الصخر عندما اختطفه الأتراك واستولوا على أغنامه، أخذوه ليعمل في «السخرة» قبل أن يصبح نفرا في الجيش، جاء إلى هنا لأنه كان يجب أن يجيء، لا أحد يعصي الجهادية وإلا كان مصيره القتل، يستمعون له باهتمام، يتخلون قليلا عن نظراتهم المعادية، لا يدري إن كانوا قد فهموه أم لا ولكن الحديث باللغة ذاتها يذيب جانبا من العداء، يراقبه «العاصي» وهو يقترب منه، وهو يعطيهم طعامه وتبغه، ما زال يرفض التحدث بلغة أخرى، يكفيه ما تعلمه من الفرنسية، لا يمكن أن تتحمل خلايا عقله لغة إضافية، ولكن الأيام تمضي بطيئة والمرأة لا تفكر في العودة مرة أخرى.

يأتي يوم المعجزات غير المتوقعة، يفتح الضابط الفرنسي باب الزنزانة وينظر إلى وجوه المصريين الثمانية، يطلب منهم أن يتبعوه، ينهضون جميعا في تراخ، ليس هذا وقت الفسحة أو الخروج للشمس، لا بد أن هناك عقابا جديدا سيوقع عليهم، يهمس له «العاصي» منفعلا

ومغتاظا: إنهم يضطهدوننا دونًا عن بقية السجناء، الشمس لم تشرق بعد وها هم يجرجروننا من الزنزانة، كأنه قد نسي ما يوجد فيها من كآبة، يعبرون الفناء في صمت وبخطوات رتيبة، ضابط من أمامهما وعدد من الحراس يحيطون بهم، يدخلون في الممرات الرطبة المطلة على البحر، لا يأتون إلى هنا إلا للعقاب، يشير لهم الضابط فيقفون صفا واحدا أمام حجرة آمر السجن، «جارديان دي بريسون»، يدخل الضابط أولا ثم يسمح لهم بالدخول، يقف الجنرال الفرنسي خلف مكتبه، هذا وقت مبكر لتواجده، يضمون أقدامهم ويأدون التحية، يهز رأسه ويتأملهم دون ابتسامة وبقليل من الاشمئزاز، يقول أخيرًا: لقد أصدرت إمبراطورة المكسيك أمرا بالعفو عنكم، ستتسلمون الأشياء التي تخصكم وتنصرفون إلى كتيبتكم..

هكذا ببساطة، وبكلمات قليلة ينطق بالشيء غير المتوقع، بالمعجزة، يتجمدون من فرط الدهشة، يشعر «جوفان» بحلقه جافا، لا يجرؤ على الحركة أو إصدار أي صوت، لا ينظر حتى لزملائه خوفا من أن يتراجع الآمر عن كلامه، ولكنه لا يفعل، يشير لهم في ملل أن ينصرفوا من أمامه سريعا، يستديرون بخطوات مرتبكة، يتبادلون نظرات الحيرة، هل انتهى الكابوس حقا؟! أليس من الغريب أن تسمع الإمبراطورة العظيمة عنهم وأن تهتم لأمرهم؟! يواصلون السير دون كلمة واحدة، دون إحساس طليق بالفرح، ما زالت جدران السجن مطبقة على أرواحهم. في حجرة مجاورة لباب السجن يجد كل واحد منهم لفافته، ثيابه القديمة وطربوشه ومهماته العسكرية وسلاحه، يخلعون ثياب السجن المخططة، وتغمرهم الرجفة وهم يفردون الثياب مرة أخرى، ثيابا بيضاء وطرابيش حمراء وأحزمة جلدية وأحذية سوداء، سيعودون جنودا مرة أخرى، آدميين، تتغير هيئتهم في لحظات، الثياب متسخة بعض الشيء

وأجسادهم غير نظيفة وأحذيتهم ليست لامعة، ولكنهم قد تبدلوا، ينفتح باب القلعة، فيجدون أنفسهم خارجها في مواجهة زرقة البحر ولفح الهواء وبياض النوارس الشاهق.

يحملهم قارب خشبي للشاطئ القريب، يتركون لهم مهمة التجديف، يشمون رائحة العالم الحقيقية، خليطا من روائح اليود والأسماك وغازات البراكين والبارود، يبدو أن المعارك لم تتوقف منذ أن دخلوا للسجن، يضعون أقدامهم أخيرًا على الشاطئ الرملي، الآن يتنهدون في ارتياح، يستطيعون الكلام واحتضان بعضهم البعض، عادوا جميعا من داخل الجحيم، يفكر «جوفان» فجأة أنه يتنفس الهواء نفسه الذي تتنفسه تلك المرأة الغامضة، ويقف مثلها على نفس الأرض، لن يعود بحاجة لانتظارها، سيقوم بالبحث عنها، في مدينة صغيرة مثل هذه لا يمكن أن تختبئ امرأة مثلها، ولكن ما جدوى البحث عنها؟ بصفة أخرى؟ بشكل غامض يشعر أنه قاتل، لا يذكر كيف قتله ولا يعرف وجهه! وربما اختاره الضابط لها بفعل المصادفة، يتقدم منهم ضباط فرنسيون، يصيح واحد منهم: آتنسيون.. يقفون معتدلين يعود الضابط للصياح: آسي، فليتقدم خطوة للأمام، ينظر «جوفان» إلى «العاصي» الذي يقف بجانبه، يبدو حائرا، هل غيروا رأيهم؟ قارب السجن قد اختفى، هل سيرغمونه سباحة، أم أن هناك سجنا آخر؟ يعاود الضابط الصراخ، آساي.. بروجري.. تقدم، يعرف الضابط الاسم ولكنه لا يعرف الوجه، جميع السود أمام عيونهم سواء، لا يجد «العاصي» بدا من التقدم خطوة للأمام، يتأمله الضابط قليلا، مستغربا ومندهشا، يدفعه حتى يسير أمامه، يستدير للبقية وهو يصيح: مارش.. عودوا لمعسكركم.. يسير «العاصي» في عكس الاتجاه الذي يسير فيه الآخرون، نحو الميناء حيث توجد سفينة ضخمة تطلق صفارتها من بعيد.

يتجه «جوفان» مع بقية السجناء إلى المدينة، تبدو الخيام البيضاء لمعسكرهم على الطرف الآخر من الخليج، تم نقله إلى منطقة معزولة بين البحر وصخور الشاطئ في محاولة للبحث عن مكان آمن، يرى وجوه زملائه من جنود الحراسة وهم جالسون في أماكنهم عند زوايا المعسكر، لا يوجد إحساس بالخطر في هذا الوقت من النهار، من الداخل ترتفع أصوات الجنود نصف العراة، الحياة متواصلة، هم وحدهم الذين توقفت حياتهم خلال الفترة الماضية، تتعالى صيحات الدهشة عندما يقتربون، يهرعون إليهم: كفارة يا زول، تتلقفهم الأيدي، تتوالى الأحضان ولمسات الكتف والعناق والقبلات، يندفع الجنود وهم بينهم إلى الخيمة التي يجلس القائد في مقدمتها، يجلس مستندا إلى بندقيته، يراقب الجنود القادمين وعلى وجهه ابتسامة، يبادلهم التحية دون أن ينهض من مكانه، يبدو متعبا وقد تضاعف عمره، لم ينس بعد أنهم كانوا السبب في فقدانه لامرأة عمره، يصطف الجنود فيأمرهم بالجلوس أمامه على الأرض، يتأمل وجوههم، يريد أن ينسى أنهم ذات ليلة تحولوا إلى وحوش، يطيل التأمل في وجه «جوفان» على الأخص، يقول: اعتقدت أن هذه الحرب اللعينة ستنتهي قبل أن أرى وجوهكم، سنقضي سنوات طويلة قبل أن نتخلص من تأثيرها، كيف حال السجن؟ هل كان أكثر ترويعا من الحرب التي نعيشها؟

تتداخل أصواتهم وهم يصفون ما حدث لهم، ولكن «جوفان» يقاطعهم صائحا: لقد أخذوا «العاصي»..

يهز القائد رأسه: هذا العبد المحظوظ، هو السبب في الإفراج عنكم، سيسافر لحراسة الإمبراطورة في رحلتها لأوروبا..

يواصل القول وهو يحدق في وجوههم المتعبة: تطورت الأمور

كثيرًا بعد دخولكم السجن، أصبحنا وحدنا مسئولين عن حراسة هذه المدينة الواسعة، انسحبت بقية القوات إلى الداخل ولم يبق إلا نحن، نراقب الأسوار والأسواق ومحطة القطار وأحياء المدينة المكتظة، لذلك كان علينا أن نستخدم الخيول، من كان منكم لم يتدرب عليها لا بد أن يبدأ من الآن، انهضوا الآن، اذهبوا وتناولوا الطعام.

في الليل يرقد «جوفان» على الأرض المليئة بالحصى، أخيرًا يتمكن من رؤية النجوم وهي تتألق وتخبو، منذ ساعات قليلة كان يعتقد أن نهايته ستكون وسط أحجار هذه القلعة المتعفنة، الآن يستطيع أن يحلم بانتهاء هذه الحرب اللعينة والعودة إلى قريته في أسوان، يبتعد عن الناس الذين يكرهونهم، يعود حيث لا حرب ولا قتال، في الصباح كان هناك جواد أسود له غرة بيضاء في انتظاره، هذا هو الجواد الذي اختاره له القائد، يضع السرج على ظهره، يمتطيه دون مساعدة من أحد، يحمحم الحصان محتجا، يلكزه حتى يسير، يرغمه على السير ببطء وسط خيام الجنود النائمين، يسرع قليلا عندما يخرج من المعسكر، يشعر بالهواء يملأ صدره، يسرع الجواد متجها إلى شاطئ البحر، يبدو الموج رماديا وغاضبا، وتظهر قلعة «أولوا» بين الضباب الهش، خفاش جاثم على صدر الموج، يسرع الحصان أكثر مما يطيق، يخيفه غضب البحر، يعيد «جوفان» جذب اللجام، يقوس الحصان جسده ويدفعه من فوق ظهره، يسقط سقطة هائلة ويتناثر الماء حوله، يتماسك حتى ينهض واقفا، يبصق الماء المالح والرمل، لم يكن الحصان واقفا ولكنه كان في انتظاره داخل المعسكر، لا يبالي بسخرية الجنود الذين استيقظوا، يعاقبه القائد بدوره، كأنه لا يكفيه ما لاقاه داخل السجن.

تبدأ مهمة القيام بالدورية في شوارع المدينة، يتجول في ضوء النهار، ينشغل دائمًا بتأمل وجوه النساء في الأسواق، اللواتي يبعن ويشترين،

يراقبهن من بعيد حتى لا يصيبهن الرعب، يقف فوق جواده يستمتع بشراب جوز الهند، يتابع المتعجلات والمتجولات، يحاول قدر طاقته أن يبقى غير منظور، ولكن الصدفة تبخل عليه فلا يراها،ربما لم تكن مخلوقة نهارية، ينتظر في مضض حتى يأتي دوره في دورية الليل، يطوف الأماكن التي تجمع محلات النساء والخمارات الضيقة والمطاعم، حتى أماكن السهر، لم يبق إلا أن يبحث داخل المنازل التي تضع على أبوابها مصابيح مضاءة طوال الليل، منازل النساء الجاهزات لاستقبال أي نوع من الرجال ما داموا يملكون أي نوع من النقود، بيزوس، فرانك، شلن، عليه أن يتقبل حقيقة أنها تعمل مع هاتي النسوة، يحتويها الليل كما تحتويهن، ولكنه لا يجرؤ على دخول أيٍّ من هذه البيوت، ولا حتى دخول الخمارات والبارات المفتوحة، الأعداء هم جزء من رواد الليل، لا يوجد حد فاصل بين البحث عن المتعة وإثارة القتال، هدوؤهم خادع ومؤقت،لكن من الممكن الانقلاب عليه في أي لحظة، لكنه لا يتوقف عن الطواف، عن تأمل وجوههن لعله يعثر على ملامحها، الكثيرات منهن يبادلنه التحديق في وقاحة، ولكن المساحيق الثقيلة لا تترك له فرصة للتعرف على ملامحهن الحقيقية، ربما غادرت هذه المدينة ورحلت إلى أخرى، لا يدري بالضبط لماذا يواصل البحث عنها؟ كم من يوم مر عليه وهو يفكر فيها داخل السجن، وكم مر عليه وهو يبحث عنها! تعلم الإسبانية ليتحدث معها، وركب الخيل بحثا عنها، احتلت حياته وهو على وشك أن ينسى ملامحها.

تخطر بباله فكرة مجنونة، احتمال أخير، يتلكأ طويلا على شاطئ البحر، في مواجهة القلعة الحجرية، يراقب حركة القوارب الخارجة منها والذاهبة إليها، تمر أكثر من ليلة قبل أن يراه، ولكن إحساسه يصدقه، يشاهد قاربه الصغير وهو يهتز فوق الموج المظلم، يمسك بالمجاديف

بحار عجوز، ويجلس الضابط «أندريه» في الطرف الآخر، يتبين «جوفان» ملامحه رغم الظلام، يراقبه وهو يقفز إلى الشاطئ، هل هو قادم من أجلها؟ يهبط «جوفان» من على جواده يتبعه عن بعد، يسير الضابط إلى «الزجالو» الحافل بالمقاهي الساهرة وموسيقى «الماريمبا» التي لا تنقطع، يراقب الراقصين قليلا ثم يواصل السير، يدخل في شارع ضيق خلف المقهى، يجازف بالسير بمفرده في أحشاء المدينة، يتبعه إلى داخل الدرب وهو يقود جواده ويقبض على بندقيته، يسد الدرب بيت متعدد الأدوار يعلق مصباحا على بابه، هل جاء الفرنسي للمرأة نفسها، أم أنه لا يرتبط بواحدة بعينها؟ يرتعد «جوفان» وهو يقف مستندا على الجدار المواجه للباب، هل يمكن أن تكون في الداخل، نائمة مع الضابط في فراش واحد؟ لا يوجد سبب غير ذلك لبقائه طويلا، الأفضل أن يبتعد، تكفيه متاعبه السابقة مع الفرنسيس، ولكنه لا يبتعد، يظل واقفا تحت ندى الليل، يسمع الموسيقى والضحكات وتأوهات النسوة تنبعث كلها من داخل المنزل، مختلطة بأصوات الكلاب التي تنبح من بعيد، يدخل رجال ويخرج آخرون وهو ثابت في مكانه، كم امرأة في الداخل وكيف يتحملن كل هذا القدر من الزبائن؟ رجال تبدو عليهم مظاهر الثراء، يدقون الباب بطريقة معينة، هناك أيضًا زبائن من النساء، يسرن متخفيات تحت نقاب أسود، ولكنهن يحفظن أيضًا طريقة الدق على الباب. وأخيرًا يظهر الضابط خارجا، يتحدث مع امرأة ما، تبعث من الداخل دفقة من الموسيقى مختلطة بضحكات النساء، يرتجف «جوفان» من البرد، لم تكن هذه المرأة التي يبحث عنها، ولا هذه هي الوقفة التي تليق به، يسرع بالاختفاء في ظلمة الزقاق، يراقب الضابط وهو يبتعد، يغلق باب المنزل لتعود العتمة من جديد، لا يتابع الضابط، كان متعبا، يعود للمعسكر وهو يرتجف، ويستلقي دون نوم ودون أن يرى النجوم.

لم ير المرأة بعد، ولكنه يوقن بشكل أو بآخر أنها داخل المنزل، هذه نهاية بحثه المتعب، ولكن هل يجرؤ على الدخول والسؤال عنها؟ يخرج من المعسكر في الليل، يترك حصانه ولكنه يحشو بندقيته، يسير مسلوب المخ، يوشك أن يقدم على مجازفة قد تعيده إلى السجن، يصل للميدان ويدخل منه إلى الدرب الضيق، يعترض طريقه الباب الخشبي والمصباح المضيء، يرتجف ولكنه لا يسمح لجسده بالخوار، الباب الخشبي محفور عليه وجوه جاحظة الأعين وفاغرة الأفواه، تعويذة لمنع دخول الغرباء، يدق عليه بالإيقاع نفسه الذي سمعه بالأمس، ينتظر متحفزا لعدة دقائق قبل أن يفتح الباب، تبدو خلفه المرأة التي كانت تتحدث مع الفرنسي بالأمس، تنظر إليه في استغراب وتسرع لتغلق الباب، لكنه يدفع بجسده للداخل ويمنعها، تصيح المرأة غاضبة: ماذا تريد، نحن لا نستقبل أمثالك؟

لكنه يصبح بالفعل داخل المنزل، يستمع إلى موسيقى يعزفها جيتار في مكان ما، ويشم خليطا من عطور قوية مختلطة برائحة ممارسة الجنس، يرى امرأة ترقص عارية، وواحدة تعري ساقيها أمام زبون ما، وأخريات، تفيق المرأة عند الباب من ذهولها وتبدأ في الصراخ، يبعدها من أمامه وهو يقول: أبحث عن امرأة..

تصرخ في وجهه: ليس لدينا امرأة لك..

يرفع البندقية حتى تلمس جبهتها، ترتد للوراء، تخيفها أكثر نظرة عينيه المحتقنتين بالغضب، يخطو إلى داخل البهو، تراقبه النسوة بعيون مرعوبة وهو يتفحصهن، يبحث عن الوجه الذي يعرفه خلف أقنعة الأصباغ، لا توجد امرأة تشبهها، يرفع البندقية إلى أعلى حتى لا يخيفهن أكثر من ذلك، سيظهر الرجال الذين يحرسون المكان في أي

لحظة، وعليه أن ينتهي سريعا من بحثه، يصعد على الدرج الخشبي للأعلى، يفتح أبواب الغرف المغلقة، تختلط صرخات النساء بدمدمات الرجال وهم يدارون مؤخراتهم العارية، يسمع أصواتا قادمة من أسفل السلم، ولكنه يواصل التقدم، لا يبالي بالأجساد العارية ولا الصرخات أو الشتائم التي تلاحقه،يسرع باقتحام الغرف الأخرى، تضيئها كلها مصابيح غازية خانقة، وتتوسطها أسرَّة مزينة بالشراشب والدانتيلا الحمراء، من الصعب تمييز وجوه النسوة المضطجعة أو التي ترتعد من النشوة، كم تغير النشوة من ملامحهن! يشعر باليأس من وجودها أيضًا في هذا المكان، يسير من غرفة إلى أخرى كالمنوم، تمتلئ الطرقة بالنساء الخائفات والرجال الغاضبين، يفرون سريعا حين يرون وجهه المكفهر والبندقية التي في يده، يسمع صياح الرجال له أن يتوقف، يدخل الغرفة الأخيرة ليجد امرأة وحيدة، تجلس في فراشها، نصفها الأسفل عارٍ، مسترخ وممدد ومنهك، كأنه لا ينتمي إليها، يغلق الباب ويقف أمامها صامتا ويرخي بندقيته، ترفع رأسها وتنظر إليه دون أن يبدو عليها الخوف، لا تتحرك حتى لتغطي نفسها، لا حاجة لها لتتأمله طويلا، تتعرف عليه منذ أن دخل الغرفة، تقول له بصوت جاف: ماذا تريد؟

يواصل التحديق في وجهها ليتأكد أنها هي، ثم ينظر إلى مثلث الشعر الأسود المكشوف في أسفل بطنها، يقول وكأنه يلهث، يحاول أن يفرغ كل ما في صدره قبل أن يرغمه أحد على التوقف: لقد بصقت على وجهي، اخترتني أنا بالذات حتى تحمليني ذنب كل ماحدث وتتهميني بقتل زوجك، لم أقتله.. كلا.. لا أعرف إن كنت قتلته أم لا! كانت هناك فوضى، كنا غاضبين، سكارى بفعل «المريسة».. أنت لا تعرفين تأثير «المريسة»، وأنا لا أعرف زوجك، ولا أعرف من أطلق علينا الرصاص، لا أريد أن أعتذر، هذا بلا فائدة، أريد فقط أن أعوضك..

يسمع صوت أقدام مسرعة قادمة عبر الممر، تعلو دمدمات رجال غاضبة، تقول المرأة: أنت لست رجلا حتى تعوضني، أنت مجرد قاتل، أرى أنك قد أفلت حقا من السجن، لكنك لن تفلت بفعلتك..

يدوي طرق عنيف على الباب، تبدأ مفاصله في التخلخل عن موضعها، ينفتح الباب وتبدو وجوه ثلاثة من الرجال الغاضبين، تلمع في أيديهم سكاكين طويلة، يوجه بندقيته نحوهم ويرفع الزناد، سيقتل منهم واحدا أو اثنين قبل أن يتمكنوا من قتله، تظل المرأة جالسة عارية، والمثلث الأسود بارز للعيان، تقول في لهجة حاسمة: لا أريد مذبحة في غرفتي..

يدمدم أحد الرجال: لقد اقتحم البيت وأزعج الجميع، يجب أن يعاقب..

يعيد «جوفان» زناد البندقة ويجذبه من جديد، هذه هي كلمته، لا يشعر بالذعر، أدى مهمته فقط، تقول المرأة دون أن تتحرك من وضعها: إنه واحد من القتلة، لم يفعل بي شيئا، فقط قتل زوجي وتفوه ببعض الكلمات التافهة، اتركوه، لا أريد أن يأتي زملاؤه لينتقموا منا كما فعلوا من قبل، اتركوه يذهب..

يعترض أحدهم وهو يهز السكين: لا يمكن أن يتهجم علينا ونتركه يمضي سالما هكذا..

تنهض أخيرًا، تضم الثياب حول جسدها وتخفي عريها، تقترب منه وتدفعه في صدره، تقول في حدة: ارحل عن غرفتي، في المرة القادمة التي أراك فيها سأقتلك بنفسي، دعوه يخرج..

يعلو صوتها حادا وآمرا، يفسحون له ممرا بينهم وهم يتنفسون في غيظ، لامجال للبقاء، عليه أن يرحل في هذه اللحظة، لا يخفض بندقيته،

يظل يوجهها لهم وهو يتراجع بظهره، الطرقة خالية تقريبا، يهبط الدرج تتابعه أنظار النسوة المرتعبات، المرأة التي استقبلته ما زالت ملتصقة بالحائط، لا أحد يصدق أنه يوشك على الخروج دون أن يقتل أحدا أو يسال دم، يخرج من البيت ويغوص في الليل، تقوده الدروب الملتوية إلى شاطئ البحر، يجلس في مواجهة الموج والقلعة الصامتة، لن يستطيع الوصول إليها بعد ذلك، عليه أن يكف عن هذه المحاولة العبثية، يكفي أنه قال لها الكلمات التي اختزنها في صدره طويلا، يظهر أمامه فجأة نصفها العاري الذي اختزنه في ذاكرته، النصف الأخطر، ظاهرا وواضحا للجميع، لا تبالي بتغطيته، لا تأبه به ولا بهم، لا تحتقرهم فقط ولكن تحتقر جسدها أيضًا، كأنه لا يخصها، يخص من يدفع من الزبائن، رأسها فقط هي التي تحس بكيانها، هي التي تتكلم وتفكر بمعزل عن النصف العاري والمثلث الأسود، يستلقي على الأرض ويتطلع للنجوم المتناثرة في ظلمة السماء، لا شيء يفعله بعد ذلك، ولن يجرؤ على العودة إلى هذا البيت. ينهض متعبًا ويعود إلى خيمته الصامتة وسط المعسكر.

هل عرفت المدينة كلها بما حدث بالأمس؟! يبدأ صباحه بهذا السؤال، لا أحد يعرف اسمه، ولا أحد يعرف حكايته، ستنحصر الحادثة بين جدران هذا البيت، خاصة وأنه لن يقترب منه مرة أخرى، تتغير ورديته ويعود مرة أخرى لضوء النهار، يركب جواده ويراقب أسواق المدينة، يخرج أحيانا عن مساره المحدد في «الزجالو» ليقترب من الحي الذي يوجد فيه البيت، لا يدخل إلى الدرب، يكفيه أن يعلم أنها في هذا المكان، وحدها أو مع رجل آخر، مرتدية نصف ملابسها أو عارية، ولكنها ليست هي المرأة التي فكر فيها كل هذه الأيام، التي يشعر أنه مدين لها بذنب زوجها، فكر أن يعاود الذهاب إليها بشكل

مختلف، يغير ثيابه ويحمل نقوده ويتصرف كزبون، ولكن هل يقبلونه، هل ترضى بمضاجعته، هل تطيق لمساته وهي تعرف أنه قاتل زوجها؟ كل ما فعله أنه قال شيئا يخفف به من إحساسه بالذنب، ذنب غامض، لكنه قوي بداخله، أصبح يشعر أنه يخوض في مدينة مختلفة لأنه يفهم كلماتها ولأن هذه المرأة تشده إليها.

ثم رآها مرة أخرى، في ضوء النهار،خارج جدران البيت، مرتدية ملابسها كاملة، وسط السوق المزدحم، تقف هادئة أمام أحد الباعة، تشتري وشاحا أرجواني اللون، يرى شفتيها تتحركان ولكنه لا يسمع صوتها، تتكلم قليلا وتترك البائع يتكلم ويلوح وربما يقسم، كما يحدث دائمًا في كل مساومة، لا تغادر وجهها الابتسامة الحزينة المنكسرة، تخفي الثياب جسدها كله، ترتفع حتى تغطي رقبتها وتنخفض لتخفي كعبيها، شعرها مشدود للوراء، يكشف عن عنقها وجانب من وجهها، خالٍ من أي مساحيق، رائق وصغير الملامح وفيه بعض من الطفولة، مثل أي فلاحة من قريته عندما تهبط إلى السوق، يهبط من على الجواد، يداري نفسه خلف بضائع الباعة ويستمر في مراقبتها، هذه أفضل مرة يراها فيها، ولا يريد أن يفسدها، تنتهي من الشراء وتلف الوشاح حول كتفيها، ينعكس اللون على وجهها، كأن شعاعا قد أضاءه، تسير بتؤدة، لا تتلفت حولها كثيرًا، ماذا كان شكل زوجها، هل كان يصاحبها إلى السوق ويضع ذراعيه حول كتفها؟ أقدامها صغيرة، تنقلها فوق الأرض متجنبة الحصى الصغير، لا تهتز ولا تحرك نفسها كثيرًا، منظرها لا يوحي بأقل من امرأة متزمتة لا تريد أن تلفت الأنظار إليها، تتوقف أمام عربة تبيع الفاكهة، يبتسم لها البائع وهو يقطع أنواع الثمار المختلفة ويضعها في طبق من أوراق الموز، تجلس على أحد المقاعد الحجرية وتأكل في شرود، يمر جنود من الفرنسيس، يتطلعون نحوها ويصدرون أصواتا

عالية، لا يبدو أنها تراهم، تبدد عهر الليل، ولم يبق منها إلا أرملة وحيدة، شاردة الذهن، تفرغ من الطعام، وتظل ممسكة بورقة الموز الخالية، تحدق فيها بحزن، لا تتصور أنها انتهت، ربما هذا كان طعامها الوحيد لهذا اليوم، تنهض وتواصل سيرها بنفس الشرود، لكنها لا تتعثر في أحجار الطريق، يبدو أنها تحفظها، تقف قليلا لتراقب القطار القادم، يثير الضجيج والدخان، تراقب نزول المسافرين، تنتظر أحدا لا يجيء، تسير خلف مقاهي «الزجالو»، وتنسل إلى الدرب الضيق، انتهت نزهتها، يركب «جوفان» جواده ويكمل نوبة حراسته.

يوقظه أحد طيور النورس في صباح يوم رمادي، يصدر صرخات خافته وهو ينام على قمة خيمته، وعندما يحس بحركته يفرد جناحيه ويرتفع محلقا، يتابعه «جوفان» وهو يزيح آثار النوم من عينيه، يسير إلى مركز المعسكر حيث يوجد الماء، البعض يتوضأ لصلاة الضحى، والبعض يكتفي بغسل وجهه ورأسه، وهناك أكثر من واحد يحلق شعر زميله، يستعدون بعد ذلك لطابور الصباح، يبدو اليوم باردا وتمتد غلالة من الضباب الهش من حافة البحر حتى التلال، رغم ذلك يلمح طيفها، قوامها الطويل النحيف كعود غاب، ووشاحها الأرجواني، تقف بعيدا عنهم جميعا، تحوم حولها النوارس، ربما لم تكن هي، لم تكن إلا وهما خرج من خياله، لكنه لا يستطيع أن يبعدها عن ذهنه وهو يقوم بطابور الصباح، والبكباشي «ألماس» يتفحص أسلحتهم ويكلفهم بالمهام المنتظرة، والضباط يصرخون فيهم، عليهم أن يذهبوا حتى يتسلموا واجبات دوريات الليل، الليلة الماضية تمر بهدوء، لذا يسود المعسكر حالة من التراخي، ويبقى الظل الأبيض الشاحب يراقبهم من بعيد، ينتظر «جوفان» متلهفا للخروج مع المجموعة الذاهبة لغرب المدينة، ما إن يخرج عن المعسكر ويغيب عن عين الضابط المناوب، حتى يتحدث

مع زميليه، يقول لهما إنه سوف يلحق بهما، يتبادلان تعليقات ساخرة حوله ولكنهما يتركاه يمضي، يسرع عدوا في اتجاهها، بعد خطوات قليلة يتأكد أنها هي، وأنها تقف في انتظاره، تتباطأ خطواته وهو يقترب منها، ثم يتوقف محبوس الأنفاس، ترفع قناع «الدانتيلا» الذي يغطي وجهها، لم يكن بالصفاء الذي رآه عليه بالأمس، فيه كدمات زرقاء وبعض التورم، يبدو واضحا أنها قضت ليلة سيئة مليئة بالمتاعب، قبل أن يتكلم تبادره بالقول: هل كنت تتبعني في السوق بالأمس؟

يفاجئه السؤال، يقول وكأنه يعتذر. لم أعتقد أنك رأيتني..

تقول: كيف يمكن أن تغفل امرأة عن رجل يلاحقها؟

تسكت قليلا لتلتقط أنفاسها، يريد أن يسألها عما حدث لوجهها، وعن سبب حضورها! يعتقد بشكل غامض أن هناك رابطا بين الاثنين، لا يبدو أنها متعجلة في الكلام، تغرق في الصمت وهي تتأمل جلده الأسود، لعلها تسال نفسها لماذا جاءت إلى هنا؟ ترفع رأسها فجأة وتقول له بصوت آمر: اتبعني، يسير خلفها، تفصلهما خطوتين، لا يجرؤ على السير بجانبها، تسبق خطواته كأن هناك مهمة عليها أن تؤديها، تقوده خلفها بعيدا عن بيوت المدينة المأهولة، يسمع صوت أنفاسها اللاهثة، لكنها لا تتوقف ولا تبطئ، ترتقي إحدى التلال المكسوة بالخضرة، يصعد خلفها، يسود صمت مطبق على المكان، لا يخدشه إلا صوت الريح، أشجار باسقة وكثيفة، وخلفها يبدو المكان ممتدا ومغطى بالعشب وحافلا بالصلبان، صلبان حجرية من مختلف الأحجام، مثبتة في الأرض، محفور على كل واحد منها كلمات سوداء صغيرة، شاهد مثلها في بلدته أسوان عندما زار مقابر النصارى، تسير المرأة بينها وهي تمسك طرف ردائها، يتبعها لاهث الأنفاس، لا يوجد سواهما

في المكان، الطيور بعيدة، والسحب عابرة، تتوقف أمام أحد القبور، أحجاره مبللة ببقايا ندى الصباح، والصليب الصخري له لون الطحالب، تتسلق عليه النباتات وتحيط به باقات من زهور ذابلة، ترسم المرأة علامة الصليب على صدرها، تنحني وتلمس الشاهد الحجري بأطراف أصابعها، أطرافها طويلة ونحيفة وشاحبة ومطلية بحمرة باهتة، كأنها تستأذن الراقد تحت التراب لأنها اصطحبت رجلا غريبا، قرأ حروفا من الكلمات المحفورة، وأرقاما من التاريخ، تنهض وتلتفت إليه بوجه جامد، تقول: اعتذر له، اجثو على ركبتيك واعتذر له.

نظراتها صارمة وصوتها حاد، يمكن أن يستدير ويتركها لتصرخ وحدها في هذا الفراغ، لكنه يجلس على ركبتيه، يحس برطوبة العشب وهي تتسلل إلى سرواله، يحرك شفتيه ويعتذر بالعربية ثم يستدرك ويتحول للإسبانية، يفعل ذلك بجدية، تحدق في شفتيه التي تتحرك، تقول: في دينكم.. هل لديكم كتاب مقدس؟

يومئ «جوفان» برأسه: أجل.. القرآن..

تقول: قل شيئا منه..

لم يكن يحفظ منه إلا القليل من الآيات، وكلها بالعربية، آن لهذا الميت أن يفهم كلمة واحدة منه! يرفع صوته مرددا الآيات بصوت عالٍ حتى تقتنع أنه يفعل ذلك حقا، تتابعه باهتمام وقد استأثر بسمعها إيقاع الكلمات غير المفهومة، تجلس على حافة القبر، يظل هو في مكانه لا يحاول النهوض، يزداد هبوب الرياح وتصبح أكثر برودة، ترتجف ويرتجف هو أيضًا، تقول: عندما وقفت أمام فراشي في تلك الليلة، ماذا تعني حين قلت أنك ستعوضني؟

ماذا كان يعني وقتها؟ يحاول أن يستعيد في داخله نص الكلمات

التي قالها، والتي لم يكن مرغما على قولها: أردت أن أقول أنك لست مرغمة على العمل في هذا البيت الذي تعيشين فيه، لا أعتقد أنك تحبين هذا العمل؟

يقول ذلك بسرعة حتى لا يشعرها بالإهانة، تستمع إلى كلماته وتحدق فيه مليا، تمد يدها وتنزع الخمار الذي كان يغطي وجهها، تفك أزرار ثوبها وتكشف عن صفحة صدرها، يبدو مثل وجهها مليئا بالخدوش والكدمات، تحدق في عينيه، تقول: تعني مضاجعة الرجال، هذا ما فعلوه بي بالأمس، هذا ما يفعلونه بي دوما!

يقول. هل هو الضابط الفرنسي؟

تقول في قرف: هو أو غيره، أنت لم تجب عن سؤالي اللعين..

يقول مترددا، رغم أنه لم يفكر في ذلك من قبل: ربما أستطيع مساعدتك إذا غادرت هذا البيت، أنا أملك مرتبا، أستطيع مساعدتك حتى تستقلي بنفسك..

تحدق فيه طويلا كأنها تعيد تقييم عرضه، تقول ببطء: هل تريد أن أكون عشيقتك وحدك..؟!

يهز رأسه نافيا: لم أفكر في ذلك قط، أردت فقط أن أعوضك عن فقدان زوجك، لا أعرف إن كنت قتلته أم لا، ولكني لا أريد أن يهان جسدك أكثر من هذا.

تحدق فيه وعيناها تبرقان، يتبعها من جديد، تقول كأنها تخشى أن يسمعها أحد: لا يجب أن نتحدث في هذه التفاصيل أمام قبره، وسط هذه الصلبان، لا أريد أن أغضب الموتى!

يهبطان التل معا، يجلسان بعيدا عن الريح، في مكان أكثر دفئا،

طلباتها بسيطة، بيت صغير تستأجره، ومصروف لمعيشتها، وفرصة لراحة جسدها الذي أجهدته قسوة الرجال، يتأملها طويلا ثم يوافقها، أسرع وأغرب اتفاق يتوصل إليه اثنان من الغرباء، بشكل أو بآخر يرتبطان معا في رباط واهٍ وضعيف، ولكنه يتم غزله بينهما كخيوط عنكبوت دءوب، لا يوجد من ينتظره في جنوب الوادي البعيد، لا زوجة ولا أهل، لا جذور حقيقية في أي مكان، ولا أحد يعلم إلى أي مصير ستؤول إليه هذه الحرب، يسألها عن اسمها فتقول: «ماريانا»، يخبرها باسمه، ويؤكد عليها أن تحفظه، عليهما الآن أن يفترقا، يذهب هو لاستكمال نوبة حراسته، وتعود هي للبيت اللعين حتى تجمع ثيابها، ربما يسعفها الحظ ولا تعود إليه مرة أخرى.

تتفرق الطرق وتصغر المدينة، يتقاطع طريقهما ومصيرهما، تختار بيتا صغيرا وبعيدا عن بيت المتعة و«الزجالو» ومعسكر السود، يقع في نهاية شارع مليء بالبيوت المتشابهة والأطفال ذوي الرءوس الحليقة، فناء صغير وغرفتان في الأعلى، تملكه امرأة يهودية من أصل روسي، تؤجره للأشخاص الوحيدين، يتقابلان في المساء، بعد أن ينتهي من ورديته، ويذهبان إليها معا، يسيران متجاورين في الشارع المؤدي للتلال، تجلس السيدة الروسية داخل منزل لا تضيئه سوى شمعة واحدة، تحصي الفرنكات في حذر وتحسب في ذهنها قيمتها عندما تتحول إلى «بيزوس»، يشعر بحزن عابر وهو يرى نقوده التي جمعها بالدم بين أصابع الروسية المعروقة، أخرجها هذا الصباح من الحفرة السرية الموجودة تحت فراشه، ولكن هذا لا يجعله يتراجع، يراها تديم النظر إليه، مندهشة وحائرة، امرأة صغيرة ومهانة تبحث عن مأوى آمن، لا تريد منه إلا ما لا تقدر عليه، تعرض كل ما تملكه من مال، تريد أن تنفقه في شراء الأثاث وبعض الثياب، يطلب منها أن تبقيها معها، من

يدري ما يحدث في قادم الأيام، تتركهما العجوز لتحضر المفتاح، تترك بقايا الشمعة تنير المكان، يرى نور الشمعة منعكسا في حدقتيها، تقول في صوت خافت: أنت قادم من بلد بعيد حتى تحارب، وليس من أجل رعاية أرملة وحيدة، لماذا تفعل ذلك، لست ملزما بشيء، أنا نفسي غير متأكدة أنك قتلت رجلي..؟!

تجعله كلماتها الأخيرة يشعر ببعض الراحة، رغم ذلك فهناك شيء غامض في داخله، إحساس، واجب، شعور بالندم، إحساس بالذنب، يجعله يقف بجانبها، لا يريد شيئا في المقابل، فقط يريد أن يعرف أكثر عن هذا الرجل الذي لم يعد موجودا، يسألها: زوجك الذي ذهب، كيف كان، هل كان جيدا بما يكفي؟

تقول: الموتى دائمًا هم الأفضل، كان رجلا لا بأس به، ليس الذي حلمت به وأنا صغيرة، ولكنني تركت بلدتي على حافة «نهر الفراشات» وتبعته إلى «فيراكروز»، كانت لنا لحظات من المتعة والحزن، ودائما ما كنا نفتقر للمال لذلك لم ننجب أطفالا، المهم أنني كنت أعتقد أنه عندما يتركني فلن أجد رجلا آخر غيره وهذا ما حدث..

يصبح الجو حميما بعض الشيء، تتقارب المسافة المتباعدة بين عالميهما، يقول رغما عنه: وهذا الضابط الفرنسي الذي جاء بك للسجن؟

تقول ببساطة: مجرد زبون.

يقول: لماذا أشعر أن بينكما علاقة خاصة..؟

تقول: كان يتردد على المنزل أكثر من بقية الزبائن، ولا يختار من النساء أحدا سواي، أرجو ألا يبحث عني ويعثر على مكاني هنا، رغبته هذه تشعرني بالخوف..

تعود المرأة وتسلمها المفتاح، تمت الصفقة وأصبح المكان يخصها، بدت الشمعة على وشك الذوبان، وأصبح يرى ملامحها في صعوبة، ظلا صامتين، كل واحد يقيم الكلمات التي انطلقت منهما، انطفأت الشمعة وساد الظلام، ينهض واقفا، تأخر وقت عودته للمعسكر، عليها أن تغلق بابها وتقضي ليلتها وحيدة مع جسدها للمرة الأولى منذ ليال عديدة، يسير في الشوارع الخالية إلا من الكلاب والسكارى، يقابله بضعة جنود من الدورية السوداء، يركبون الخيول في طوافهم المضني حول المدينة، يسألونه في حيرة عن سبب تأخره وتعريض نفسه للخطر في الشوارع المعادية، لا أحد يجرؤ على السير وحيدا في مدينة، ليس فيها أصدقاء ولا رفقة ولا أماكن للسهر، لا يجيبهم بشيء، يمضي في طريق المعسكر، يشعر بالتعب وهو يقترب من خيمته أخيرًا، يبرز أمامه فجأة جنديان، يقفان منتصبان ويسدان الطريق بينه وبين مدخل الخيمة، ويمسكان بنادقهما متقاطعة أمامه، يقول أحدهما: أمرنا القائد بتوقيفك حيث أنت، ستبقى في مكانك حتى يحضر القائد في الصباح..

يبدو أمرا صارما وغامضا، يحاول أن يسأل أو يلح، يوجد خطأ ما، كل ما فعله، الأيام التي قضاها مع المرأة وهو يساعدها في البحث عن سكن، فعل ذلك كله خارج واجباته العسكرية، يتحول الجنديان إلى جسمين من صخر، يقفان أمامه في جمود، لا يسمع سوى صوت وشيش البحر، وعواء الكلاب البعيدة، يوشك «جوفان» أن يسقط من الإعياء، ولكنه لا يريد أن يبدو متخاذلا وخائفا أمامهما، ماذا سيقول له القائد، وكيف سيتصرف، هل سيعيدونه للسجن مرة أخرى؟! سيكون هذا أخطر عقاب ينزل به، أن يتم الفصل بينهما في الأرض التي يقيمان عليها معا، ظل واقفا وهما مثله، لا حدود لتحملهما، هذا ما ساعدهما على البقاء صامدين في هذه البلاد، تمضي لحظات الليل بطيئة، تختلف

الأصوات، تصمت طيور الليل وترتفع جوقة الضفادع، ثم تبدأ ذرات الليل في التساقط في مياه البحر، وتبدأ النوارس في الحومان، كأنها تزيح بخفقات أجنحتها بقايا ذرات الظلام.

ينفخ البروجي «نوبة صحيان»، تفتح أبواب الخيام وتظهر وجوه الجنود الشعثاء، يسيرون بعيون نصف مغمضة لمكان المياه، لا يلحظون وقفته المتصلبة، تتعالى الصيحات من كل مكان، ويستدير «جوفان» ناحية خيمة القائد المغلقة، هل يمكن أن يخرج قبل أن تشرق الشمس؟ لا يهم، يستطيع أن يواصل الوقوف، لن ينهار أمامه، أمام أي أحد، جزء من إرادته أن يبقى واقفا، وتأتي البغال حاملة الطعام، وتحمحم الخيول وتدس رءوسها في كومة الشعير، يزعق «البروجي» من جديد، تنتظم الصفوف الشعواء، ويفتح باب الخيمة ويخرج القائد، يسير بخطواته العسكرية المعتدلة، يستعرض الصفوف ويأخذ التمام من بقية الضباط، ويشير للدوريات حتى تبدأ تحركها إلى المدينة، يتحرك الجميع، حتى الحارسين يبتعدان منهارين داخل الخيمة، لا يبقى إلا هو واقفا في مواجهة القائد، يقترب منه متمهلا، ينظر إليه ممتعضا، يهتف به: ماذا تحسب نفسك، بطل أفريقيا، هل تريد العودة للسجن مرة أخرى؟ لقد جئت هنا كجندي وليس زير نساء، من هي هذه المرأة، هل هي عشيقتك؟ كيف تعرفت عليها؟

يقول «جوفان» في إيجاز: لقد قتلت زوجها..

تتبدد نظرات الغضب وتحل منها نظرات عالية الحيرة، يقول: وكيف تأمن لها بعد ذلك، إنها تستدرجك، ولن تتوقف حتى تقتلك، ستفعل ذلك بالتأكيد..

يحاول أن يشرح، ولكن صوت القائد يرتفع فجأة وهو يهدر بالكلام:

لا أريد أن يتم اكتشاف جثة أحد جنودي داخل ماخور، ولا أريدك أن تشوه وجه الكتيبة بأكملها، لا شأن لك بهذه المرأة، لو قابلتها مرة أخرى سأعيدك للسجن.

عليه أن يضم كعبيه معا ويهتف موافقا، لكنه لا يفعل، يقول: أنا لا أقابلها إلا بعد أن تنتهي ورديتي..

يواصل القائد الصياح: وقتك كله ملك للجيش، أنت جندي، الجندي لا يذهب بقدميه للأعداء، أنت خارج الحدود، لا وقت لك، ولا أصدقاء، ليس عليك أن تكون ساذجا لهذه الدرجة وتثق بشيء، خاصة لو كان هذا الشيء امرأة أنت أحرقت قلبها، أنت معاقب، ستبقى هكذا ثلاثة أيام، واقفا دون طعام ولا شراب.

لايملك إلا أن يقول: تمام يا فندم..

ينصرف القائد مبتعدا، يجيء حارسان جديدان، يشعر «جوفان» بجسده مخدرا، يوشك أن يغمى عليه من شدة القهر، تبدأ حرارة الشمس في الازدياد، يعود جنود وردية المساء، يدخلون خيامهم للنوم بعد أن ألقوا عليه نظرة عابرة، يعرفون جميعا قصته ولا أحد يرثي له، يقاوم الانهيار، تهب ريح ساخنة من ناحية البحر، تتحول حبات العرق إلى أشواك تغزه، تتخلى عضلات جسده عن تجمدها وتبدأ في التراخي، يتغير الحارسان دون أن تتغير وقفته، يشعر بخفة جسده كأنه يوشك على التطاير، وسط هذا الإنهاك يرى طيفها وهي تعبر المكان، تمر على الطريق المرتفع المطل على المعسكر، ثوبها الأسود وقامتها الطويلة النحيفة، يستمد القوة من رؤيتها فيشد جسده، لا بد أنها أحست بطريقة غامضة بما يحدث له، ذهبت وعادت فخفت حدة الشمس قليلا، عيناه وحدهما تتحرك، تتبعها وهي تخطو غير عابئة بالتراب الذي يثيره ثوبها،

ولا الحصى الذي تتعثر به، يشعر أنها في حاجة إليه، مثلما هو في أشد الحاجة إليها، في بلاد موحشة مليئة بالسجون والعقاب، تنصرف يائسة عندما يحل الظلام، ويسقط هو منهارا على الأرض، يسمع صياح الحراس ويحس بكعوب البنادق تغز جسدا لا ينتمي إليه، يدلقون عليه المياه ويحاولون رفعه وإيقافه، دون جدوى، يغوص في ظلمة مؤلمة، تأخذه إلى أعماق لا يتخيل أن يذهب إليها، لكنها هناك، لا تستطيع الظلمة أن تحتوي شوقه إليها، لم تكن تبكي من أجله، تبتسم له وقد خلعت ثوبها، تمامًا كما رآه داخل هذا البيت، دون ابتذال، تخف حدة الألم، ويتمكن من فتح عينيه، يجد نفسه مبللا، يقطر الماء من جسده المتصلب، مقيدا إلى عمود خشبي، يجب تنفيذ الأمر الذي أصدره القائد حتى ولو كان فاقدا للوعي، يرفع رأسه وينظر إلى خارج المعسكر لكنه لا يراها، تصاب باليأس من خلاصه، يسمع صوت أحد الضباط وهو يصيح: انتهت العقوبة..

يتجمع الجنود حوله ليفكوا عقدة الحبال، يقطعونها بالسكاكين، يهوي جسده، يصطدم بالأرض دون إحساس بالألم، جسده كله مخدر، يسمع صوت القائد وهو يأمر: خذوه لخيمته، نظفوه وقدموا له حساءً دافئا..

لماذا تركوه إذن يقف على حافة الموت ما داموا يرغبون في إنقاذه، يحملونه ويسيرون به سريعا، يضعونه داخل الخيمة ويخلعون عنه ملابسه المبللة ويلفون جسده بالأغطية، يعطونه ماء فيلفظه، ويرفض أيضًا حفنة من السكر، يظل مستلقيا على الأرض فريسة للآلام التي تهاجمه، يستعيد جسده الإحساس بعد ساعات طويلة، الألم حتى ولو كان مبرحا يعني بقية من حياة، لا يدري كم يوما مر عليه، يرى الجو من فتحة الخيمة وقد تحول إلى اللون الرمادي، يظل عاجزا عن الحركة،

ولكنه يتمكن من رفع رأسه، يرتكز على ذراعيه وينظر عبر الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر، بعيدا.. بعيدا.. تقف هناك، ظل أسود باهت توشك على الاختفاء، رغم الرؤيا الغائمة، وعينيه الكليلة يتأكد أنها واقفة من أجله فقط.

تغيب الشمس وتعود، تلقي بضوئها فوق وجهه فيفتح عينيه، باب الخيمة مرفوع والقائد يقف أمامه، يتطلع نحوه بوجه جامد، يغزه في صدره بالعصا التي يمسكها، يتأكد أنه مستيقظ، يقول: ربما لن تنجو بحياتك في المرة القادمة، الجهادية قاسية في عقابها..

يحاول «جوفان» أن ينهض ليقف منتصبا ولكن القائد أشار له أن يبقى مكانه: أنت معفي من القيام اليوم، ولكن من الغد عليك أن تقف «زنهار» أمامي!..

يتركه ويمضي، لا يستطيع النهوض إلا في اليوم التالي، يجلس ولكنه غير قادر عن المشي، عضلات ساقيه متصلبة، عليها أثار غائرة من القيود، يحضر له رفاقه بعضا من الخبز والجبن الفرنسي الجاف الذي لم يستسغه أبدا، يلتهمه ويحس بمدد من الحياة يتدفق داخل جسده، يجلسون حوله قليلا، يحدثونه عن اللحظات التي فقد فيها الوعي، كانوا يتحسسون قلبه كل لحظة ليتأكدوا أنه لم يفارقهم، القائد نفسه كان مشفقا عليه، ولكنه لا يستطيع التراجع عن قراره، يسألونه عن هذه المرأة فلا يجيب، يريد أن يعرف فقط من الذي أوصل أخباره إلى القائد، من الذي تلصص عليه وجمع كل هذه المعلومات، يدرك أن كل واحد هو عين على الآخر، هكذا الأمر في مصر، وهكذا الأمر هنا، لا غضاضة ولا غضب، ينصرفون إلى أعمالهم، تتفرق دوريات الحراسة في أرجاء المدينة، ويظل جالسا يراقب حركة الشمس وينتظر ظهورها.

لا تظهر إلا قبل نهاية اليوم، موعدها المعتاد، تسير بلا ظل، تقف في مكانها، لا تريد أن تلفت أنظار أحد، ولكنها متأكدة أنه يراها، يحس بوجودها، يتحاوران عن بعد، دون صوت ودون أن يتمكن أحدهما من رؤية ملامح بعضهما، يتبدد الألم من جسده تدريجيا، وتظل هي واقفة حتى يهبط الظلام ويحجب الرؤيا بينهما، يستلقي فيرى النجوم، بعيدة ومتألقة، كعينيها الحائرتين الممتلئتين بالأسئلة، تعود دورية النهار وتخرج دورية الليل، تذوب قشرة الهدوء التي تغلف المدينة، تعود أصوات الرصاص لتكسر صمت الظلمة، المتمردون يهاجمون، وعليهم أن يقضون الليل ساهرين على الأسوار، يحاربون الظلال التي تخرج من الغابات فجأة وتطلق النار بكثافة وتعود لظلمة الغابة، لم يسقط قتلى، لكن المهاجمين يريدون تذكيرهم أنهم موجودون وأن الخطر ما زال قائما، يستنفر جميع من في المعسكر ولا يتركون أسلحتهم، لا أحد ينام، للمرة الأولى يشعر «جوفان» بالعجز بينما يتحرك الجميع من حوله، يأتي بعض الجرحى من اشتباكات الليل، يحكون عن رعب الليلة الفائتة، حاول المتمردون أن يهبطوا من التلال واعتلاء سور المدينة، غمرهم الجنود بالنيران فردوا عليهم، ظلت المعركة محتدمة حتى بدت أنوار الفجر، واضطروا أن يسحبوا قتلاهم ويلوذوا بالفرار، تمتلئ الخيام بالمعطوبين، بالوجوه المربدة والمتعبة، ولكن «جوفان» يستطيع أن ينصب طوله أخيرًا، يسير ببطء وسط أرجاء المعسكر وسط الجرحى، لم تكن الإصابات قاتلة، ولكنها أصابت عشرة من الجنود بالعجز، يحضر الأطباء الفرنسيون، يحيطون الأذرع المصابة بالضمادات ويستخرجون الشظايا من السيقان الجريحة، هجوم هذه المرة كان كبيرا وقاسيا، انتشرت الأخبار أن الجمارك تعمل بشكل جيد، سفن كثيرة تفرغ بضائعها، وهناك كثير من النقود تملأ خزائنها،

أصبحت المدينة غنيمة ثمينة، يريد المتمردون الاستيلاء عليها، أو على الأقل الحصول على جزء من كعكتها، يقومون بهذا الهجوم العنيف تحفزهم رغبات الطمع، يصمد الرجال هذه المرة، ولكن ماذا عن المرة القادمة؟ المدينة مهددة بالسقوط، من الضروري أن يعود إليها بعض من القوات التي غادرتها. لو سقطت «فيراكروز» فسوف تنقطع صلة هذه الجيوش بالعالم الخارجي.

يجد نفسه فجأة في مواجهة القائد، ضاقت رقعة المعسكر فأصبح يلتقي به كثيرًا، يسأله في صوت باتر. هل شفيت، لا أقصد جسدك، ما أصابه شيء لا يذكر، أقصد ما حدث لعقلك؟

تمام يا فندم.. هذا ما يقدر على قوله..

يقول ألماس: تذكر وأنت تركب جوادك وتقوم بدوريتك، أن هذه المدينة في حرب، وهي مليئة بالعيون والجواسيس في كل مكان، كلها تراك وتراني وترى الآخرين، لا أحد يفلت، وليس لأحد الحرية أن يفعل ما يريد، لقد أردت أن أبعدك عن الشوارع أكثر من ذلك، ولكن الرجال يتساقطون، وسيكون الهجوم التالي أكثر عنفا..

لا يصدق «جوفان» أذنيه، اعتقد أنه سيبقى سجينا داخل المعسكر لأيام طويلة، لم يغادر الألم جسده بعد، ولكنه ينصب قامته ليثبت أنه جاهز، سيخرج غدا مع دورية الليل، يتركه ليستعد وقد تغير كل شيء حوله، يسير بخطى ثابتة، لا يأبه، يتناسى آثار الحبال الدامية في جسده، ولكنه لا يقدر على ذلك طويلا، يستلقي على الأرض، يبقي على طاقته حتى يخوض معركة الليل، عند الغروب، يلمح ظلها الأسود وهي تعبر المكان، يرتعد من فرط الترقب والتوق، يقف في صف «الدورية»، يحس بالعيون تراقبه وهو يعطي التمام، يتحسس رقبة الحصان، يحمحم

قليلا حين يمتطيه ثم يسترخي من تحته، تتكون الدورية من عشرة جنود، يقفون رافعين البنادق المحشوة إلى أعلى، يسيرون جميعا خارج بوابة المعسكر، يتفرقون في اتجاهات مختلفة، يبتعد عن «الزجالو»، وعن الدرب الذي يؤدي لبيتها، يتجه نحو التلال البركانية السوداء، يحس بالفراغ البارد يحيط به، هدوءًا مريبًا، من الممكن أن يخرج رجال العصابات عند أي منحنى، هل استطاعوا التسلل إلى المدينة؟ هل تحولوا من أشباح عابرة إلى وجود مقيم؟ من المفترض أن يسير في نصف دائرة حول المدينة ليلتقي ببقية الخيالة، بعد أن يمسحوا أرجاء المدينة، ثم يسيرون معا إلى أبراج الحراسة، لا يستطيع أن يواصل الدورة، يحس أن ظلمة المدينة أشد كثافة من العادة، ظلمة بلا عودة، مثل المنوم يستدير سائرا في عكس الاتجاه، للدرب المؤدي إلى بيتها، يترجل من على الجواد ويدق على الباب، بعد لحظات تفتح كوة صغيرة وتبدو خلفها عينان دامعتان، تشهق في فرح وتسرع بإزالة الرتاج التي تسده، تفتح الباب وتتعلق برقبته، يتهدج صوتها وهي تهتف: يا إلهي الرحيم، كم كنت خائفة ألا تعود إليّ، كنت سأكون وحيدة وميتة بدون وجودك، لا تفعل بي ذلك مرة أخرى.

تغمر وجهه بالقبلات، يحس بشفتيها طرية ودافئة، بدموعها وهي تغمر وجهه، يجلسان معا على أريكة نصف متكسرة في أحضان بعضهما، يحسان بمدى حاجتهما للدفء والتلامس، بشدة جوع كل منهما للآخر، هنا يوجد أمان ومحبة، وفي المعسكر لا يوجد سوى العقاب، تقول: استمع جيدا إلى ما أقوله، أريدك أن تقضي الليل معي، بين ذراعي، أريد أن أستيقظ في الصباح وأنت بجانبي.

يضحك في مرارة: أنا مجرد جندي، إذا لم أعد سيعتبرونني هاربا، سيبحثون عني ويضعونني في السجن.

تقول في ثقة: لن يصلوا إليك وأنت هنا، معي في هذا المكان..

لا تتصور أن كل شيء مكشوف، لا تعرف شيئا عن العيون الخفية المندسة في أركان المدينة الصغيرة، من المؤكد أنها ترصده الآن وستنقل أخبار هذا اللقاء الصغير، لكنها تظل متشبثة به، جسدها يلتصق به دافئا وراغبا، هل يمكن أن تكون هذه المشاعر مجرد خدعة، وأنها تتحين اللحظة التي ستقوم فيها بقتله؟! يتأمل رأسها وهي مستكينة على صدره، وهي تعطيه شفتيها كلما أراد، وهي تضم يديه وتضغطهما إلى صدرها، لا حاجة للحوار بينهما، يتحاوران عبر خلايا جسديهما، يصهل الحصان في الخارج كأنه يذكره بما ينتظره، ولكنه لا يريد أن يترك هذا الجسد المتلهف، تقول له: لا تأت إليّ إلا بعد أن ينسدل الظلام، لن أتفوه عنك بكلمة واحدة، ولكنك عليك أن تأتي دوما، أن تجد وقتا حتى ألمسك وتلمسني، حسبت أنني لن أستطيع ذلك دون أن يقشعر بدني، ولكنه يرتعد الآن من أجل لمساتك.

يصهل الحصان مرة أخرى، وينفتح الباب في عنف، ويظهر الضابط الفرنسي «أندريه» وهو يصيح غاضبا: هل حسبت أنك ستهربين مني؟

ينفصلان عن بعضهما في سرعة، تصيح في رعب: كيف وصلت إلى هنا؟

يركز بصره على «جوفان»، يصيح في انفعال: ماذا تفعل هنا أيها الزنجي..؟

يبدو واضحا أنه قد تناول أكثر من كفايته من الشراب، وبات على استعداد لفعل أي شيء، يقف «جوفان» محاولا أن يكون هادئا، لا يريد الدخول في أي شجار، خاصة مع ضابط فرنسي، يقول: يحسن أن تنصرف يا سيدي، هذا منزل خاص، ليس لك ولا للآخرين.

تزيد الكلمات من جنون الضابط: ماذا تقول، بعد أن طفت المدينة كلها بحثا عن هذا البيت اللعين، لو كان هذا خاصا فلماذا أخبرت زميلاتها في الماخور عن مكانه؟ أنت الذي عليك إطاعة أوامري، أنا قائدك وأنت سجيني، آمرك الآن أن تذهب من أمامي ولا تثر أعصابي..

لا يتحرك «جوفان» من مكانه، لا يتراجع، يظل واقفا ليمنع من وصوله إليها، تقف «ماريانا» خلفه محتمية به، تهتف بالضابط: أمض أرجوك، لم أخبر أحدا عن مكاني إلا لواحدة فقط من صديقاتي، لم أتصور أن يصل إليك أو إليّ أحد، لم أعد كالسابق ولن أكون.

يقلب الضابط نظره بينهما، يمد يده إلى مقبض السيف: العاهرة لا تتوب، تغير فقط زبائنها، والآن تريدين أن تكوني العاهرة الخاصة لهذه الحثالة السوداء، لن تتمكني من ذلك، سأزيحه من أمامي.

يرفع السيف عاليا، لا يدري «جوفان» إلى أين يتجه نصله الباتر، يرفع البندقية فوق رأسه ويتلقى عليها ضربة السيف، يدوي صوت اصطدام المعادن، يهمس «جوفان»: يكفي هذا.. انصرف أرجوك..

يواصل الضابط الصراخ: أنت تتحداني أيها الأسود..

يتراجع خطوة للوراء ثم يهوي بضربة مفاجئة، يبتعد «جوفان» ولكن ليس بالسرعة الكافية، يمرق طرف السيف عابرا صدره، يمزق ثيابه ويقطع جزءا من جلد بشرته، كأن جسده كان ينقصه المزيد من الجروح، يتراجع مندهشا ومذعورا، يوجه البندقية ناحيته، ويصيح للمرة الأخيرة: اذهب، أرجوك.. يزداد هياج الضابط، ربما بسبب خيط الدم الذي انبثق من صدر خصمه، وربما لأنه اعتقد أن الجندي الأسود لن يقدم على إطلاق النار، وأن طعنة واحدة ستخلصه من هذه

المشكلة، يوجه سن السيف نحوه ويندفع صارخا، يدوي صوت طلق ناري، يتردد الصدى في سكون الليل، يتوقف الضابط مذهولا ويسقط السيف من يديه، ترفع «ماريانا» رأسها في خوف، ويحاول الضابط أن يقوم بخطوة أخرى في اتجاه الجندي ثم ينبطح فجأة على وجهه، ترتطم رأسه بالأرض، وتبدو في ظهره فتحة الثقب الذي خرجت منه الطلقة، ينتفض جسده للحظات قبل أن يسكن تمامًا، تسقط البندقية من يد «جوفان»، يسود السكون فجأة على المكان، تكف «ماريانا» عن النشيج وقد أصابها الذهول، ويجلس «جوفان» بجانبها على الأريكة، يحدقان معا في الجسد الساكن أمامهما، ينتظران أن ينهض وينصرف، ولكنه يظل متشبثا بالأرض.

- ١٦ -

تقف «شارلوت» على حافة السفينة، يبدو أمامها لسان ممتد من الأرض، تحوم حوله نوارس لا تهدأ، يرتجف قلبها، تخفت ضجة المحيط ويحيط بها هدوء المتوسط، البحر الذي تألفه، تظهر معالم ميناء «سانزير» الفرنسي، بداية المقامرة الأخيرة، يتزين بالرايات التي ترفرف، لكنها رايات تخص «البيرو»، وليست المكسيك، لم يعتن أحد من المسئولين باختيار الراية الصحيحة أو بعمل استقبال لائق لها، رغم أن سفن الحرب قد أبحرت من هنا قبل أن تفتح نيرانها وتنزل جنودها على شواطئ المكسيك، تحول ميناء الصيادين الصغير إلى مدينة مزهرة بفضل سفن المؤن التي تواصلت على مدى ثلاثة أعوام، وها هي تأتي إليه لتخوض معركتها الأخير، ويا لها من بداية، في أسفل سلم الباخرة يقف عمدة المدينة في انتظارها، بزيه الرسمي والعلم الذي يلتف حول صدره، لا شيء يمت بصلة لإمبراطور فرنسا ولا لزوجته «أوجيني»، الصديقة الحميمة كما كانت تعتقد، كأن عشرات البرقيات التي تحمل أنباء قدومها لم تصل إلى أحد منهم، بقية المستقبلين هم السفير المكسيكي وعدد من المنفيين القدامى، وأطفال يحملون زهورا ذابلة، تشعر بحرقة وهي تهبط سلم الباخرة وراية «البيرو» فوق رأسها، دوار البحر ما زال يهز جسدها، تحاول التماسك، يريدون هزيمتها حتى في أتفه التفاصيل، لكنها لن تسمح بذلك، ليست صيدا سهلا، يحني

العمدة رأسه أمامها، ويقبل السفير «ألمونت» يدها، يعرض العمدة عليها أن تنتقل إلى قصره، لتأخذ قليلا من الراحة بعد هذه الرحلة الطويلة، ولكنها ترفض، تريد قطارا سريعا يقودها مباشرة إلى الهدف.

تجلس في مقصورة القطار ويجلس السفير في مواجهتها، تلمح «آسي» بوجهه الأسود وهو يقف قريبا من الباب متأهبا لحمايتها، يتحدث السفير عن أوربا المضطربة وما يحدث فيها: كيف تلقت النمسا، بلد زوجها، هزيمة مروعة في معركة «سادوا» على يد بروسيا، القبضة الحديدية الصاعدة في وسط أوربا، وكيف يرتعد الجميع خوفا منها حتى فرنسا! تشعر بالشفقة على «ماكس» عندما تصل إليه تفاصيل هذا الخبر، خاصة أن الهزيمة قد طالت الأسطول الذي كان قائدا له، أوربا العجوز تترنح، ولو كتب لمملكتها الجديدة النجاح لكان هناك أمل في التدخل لإنقاذها، لا يكف السفير عن الثرثرة: الإمبراطور «نابليون» أيضًا مريض، يعاني من وجود حصوة في مرارته، وهو عائد للتو من «فيشي» دون أن تساعده مياهها المعدنية كثيرًا، أصبح رجلا هزيلا وعصبيا، لم يبق أمامها إلا «أوجيني»، الوحيدة التي لم يصبها الوهن، ولكن هل يمكن أن تفعل لها شيئا؟ لم تكن الصورة وردية، ولم تكن تتوقع أن تكون كذلك، ولكن ليس عليها أن تغرق في الإحباط فور وصولها.

ما إن يتوقف القطار في إحدى المحطات حتى ترسل برقية أخرى إلى «نابليون»، تؤكد فيها أنها وصلت إلى فرنسا، مبعوثة من زوجها الإمبراطور، لتناقش معه الأمور الخاصة بالمكسيك، كلمات قليلة ولكن حازمة ومحددة، وفي نهاية الرحلة، عندما وصلت إلى «نان»، كان هناك رد من «نابليون» في انتظارها: «أنا مريض الآن، لست في وضع يتيح لي استقبالك، أرجو أن تبدئي بزيارة أخيك الملك في بلجيكا وعندما

تعودين أكون قد تعافيت من مرضي»، تدرك أنه يلعب على الوقت، يحاول أن يؤجل لقائه بها، ليست راغبة في زيارة بروكسل، ولا تريد أن تترك له فرصة للتأجيل، ترسل برقية أخرى: «سأكون في باريس في اليوم التالي»، يواصل القطار رحلته، تأمر حارسها الأسود أن يرافقها مثل ظلها، تصل إلى محطة «جار دي أورليانز» فلا تجد العربة الإمبراطورية في انتظارها، ولا حتى سجادة حمراء تحت قدميها، ليس إلا الدموع المحبوسة في عينيها وهي تخطو فوق الرخام العاري، تبتلع غضبها وكبرياءها وتقبل بالنزول في الجراند أوتيل، كان سفير المكسيك قد حجز لها الطابق الأول بأكمله، ولكن هذا لا يزيل غصتها.

أخيرًا في اليوم التالي يظهر رجال الحاشية الفرنسية، اثنان من الجنرالات العجائز، جاءا للاعتذار، ذهبت العربة الملكية إلى محطة أخرى بطريق الخطأ، وفرش السجاد الأحمر في الممر الخطأ أيضًا، يحملان خطابا من «أوجيني»، تسألها فيه أسئلة غير ضارة: متى ستكون فارغة لتقابلها، وكم يوما ستبقى في باريس؟ سؤال غير لائق، ستبقى إلى الأبد، حتى يستجيبوا لما تريد، ردت عليها قائلة: إنها جاهزة لمقابلتها في أي وقت، لا تذوق النوم للحظة واحدة، تحترق بينما يتسمون جميعا بالبرود، تتأمل الجندي الأسود الذي يقف عند باب غرفتها، هو أيضًا لا ينام، لا يدري بما يدور من حوله ولا يملك إلا السير خلفها، حتى وهي تهبط في صباح اليوم الثالث لملاقاة الإمبراطورة أوجيني، تشعر أنه سيساعدها على مواجهتها، تجيء أخيرًا لزيارتها في الفندق، تتوقف وتتأمل جمال «أوجيني» الباذخ في حسرة، ترتدي ثوبا صيفيا وقبعة مليئة بالزهور، آخر موضة في باريس، تشعر «شارلوت» بالسواد الذي يحيط بها: أثوابها مجعدة ومطوية داخل صناديق السفر، تصغر «أوجيني» بخمسة عشر عاما كاملة، ولكنها تبدو بجانب هذه الإلهة الأوربية شبحا

باهتا، تتبادلان قبلات أخوية، باردة بعض الشيء، تأخذها إلى جناحها، تنظر «أوجيني» إلى «آسي» وهي تمر به في وقفته المنتصبة، تقول في سخرية: هل كنت تقرئين رواية كوخ العم توم؟

وقت غير مناسب للسخرية، خاصة وهناك عرش على وشك الضياع، تذكر «أوجيني» في بداية حديثهما بأنها هي التي تبنت الحملة على المكسيك، هي التي صنعت بلدا مواليا لها هناك، لا يمكنها أن تتخلى عنه، لو سقط عرش المكسيك فلن يكون لفرنسا أي نفوذ في العالم الجديد، ستستولي أمريكا على كل مقاليد الأمور وتزيح كل ما هو فرنسي، تؤكد «شارلوت» على كل كلمة: يريد زوجي ثلاثة أشياء لا بديل لها، أن يرحل المارشال «بيازين»، وأن يبقى الجيش الفرنسي ثلاث سنوات أخرى، وأن تقدم فرنسا للمكسيك قرضا آخر من الفرنكات..

لا ترفض «أوجيني» عرضها ولا تؤيده، تتهرب، تتحدث عن هزيمة النمسا التي أضعفت موقف فرنسا في أوربا، وأن عليها أن تحشد كل قواها لمواجهة «بسمارك»، تحاصرها «شارلوت» في سؤال محدد: سأقنع الإمبراطور «نابليون»، متى يمكنه أن يقابلني؟

تتنهد «أوجيني»: للأسف يا صديقتي، إنه مريض جدا وملازم للفراش معظم الوقت في «سان كلود».. تكذب وتتهرب، ترد «شارلوت» في إصرار قاطع: سأقوم بزيارتكما غدا..

تنتهي الزيارة فجأة، تبدو «أوجيني» مصدومة، تشعر «شارلوت» بانتصار مؤقت، تقول للجندي الأسود:

اصطحبتك معي في هذه الرحلة حتى تكون تميمة حظي، فهل تكون كذلك؟

تكتب لزوجها: «هناك أمل يا حبيبي، ضعيف ولكنه يستحق المغامرة»، سلة الفاكهة التي أحضرتها «أوجيني» بلا طعم، وباقة زهورها أيضًا سريعة الذبول، تستيقظ مبكرة، قبل أن يهرب «نابليون» من قبضتها، ترحل إلى «سان كلود» في يوم حار، في حالة من الهيستريا التي لا تهدأ، تركب عربة مكشوفة تقودها الخيول، بصحبتها ثلاث من السيدات، يبدين كالقرويات أمام الأناقة الفرنسية المبالغ فيها، ويجلس الجندي الأسود بجانب السائق، تتناهى إليها هتافات متفرقة، ولكنها لا تسمع سوى صدى أصواتها الداخلية، تردد في سرها الكلمات التي ستقولها لنابليون، تتحكم في نفسها وهي تهبط من العربة، وتخطو فوق السجاد الأحمر، وتسمع ضجة حرس الشرف، يقف في استقبالها ولي العهد الصغير، يحمل زهورا ويضع علم المكسيك حول وسطه، ليس علم البيرو، النسر الذي يحمل الثعبان في مخالبه واضحا، يأخذها من يدها إلى حيث تنتظرها «أوجيني» بابتسامتها الساحرة، يخيل إليها أنها ستنجح رغم المظهر الرث والثوب المتجعد، تتلاحق أنفاسها من شدة الإثارة، هذه الخطوات ستحدد مصيرها، تطلب «أوجيني» منها أن ترتاح قليلا لتسترد أنفاسها، لكنها تريد فقط أن تقودها إلى الإمبراطور.

تجده جالسا في مكتبته الصغيرة، تحيط به الكتب من كل جانب، تكتشف كم أصبح عجوزا، كبر عشرين عاما على الأقل من آخر لحظة رأته فيها! ولكن هناك شيئا غامضا ومريبا، تخطو إلى عالم ليس عليها أن تدخله، خيوط غير مرئية، كخيوط العنكبوت، خادعة ومتشابكة، تحيط بها، تجعل ثيابها أكثر ضيقا، والهواء أقل نقاء، أصوات خافتة تضج وتتداخل في رأسها، تتلفت حولها، هناك فخ في مكان ما، نصبه الإمبراطور العجوز وزوجته الجميلة، تنحني أمامه فيحني رأسه،

لا يستطع أن يخفي ألمه، يبدو مريضا حقا، ولكنه يمنحها فرصتها الأخيرة، تبدأ في الحديث بسرعة قبل أن ينتهي وقتها، تحدثه عن وضعهما العسكري السيئ، وتطلب منه مطالبها المحددة، أن يستدعي «المارشال» الذي سبب لهما المتاعب، أن يعطيهما القروض اللازمة لدفع رواتب الجنود، وأن يبقي على قوات الحملة لمدة ثلاث سنوات أخرى، ترسم له صورة عاطفية عن ناس المكسيك الذين ما زالوا يؤمنون بفرنسا، ولو انسحبت القوات فإن المشروع الذي سينقذ بلدا يسكنه أربعون مليونا مهدد بالانهيار، لمجرد عدة تهديدات أمريكية، يستمع إليها ويحدق فيها بعينين مطفأتين، لا ينبعث منهما أي بريق، تدرك فجأة أنها تحدثه عن موضوع سقط تمامًا من ذاكرته، أخيرًا تسمع صوته المرتجف: «كلنا مهددون يا سيدتي، هزيمة النمسا أضعفتنا جميعا أمام بروسيا المتنمرة، كنت أعتمد على التحالف معها لمواجهة أطماع بسمارك، الآن لا أجد من يعيد هذا التوازن، المعارضة تهاجمني، يقولون إن أفضل مارشالات فرنسا، وقسما كبير من جيشها على الجانب الآخر من المحيط، بعيدين عن الوطن الذي يحتاج إليهم، والمؤسف أن بسمارك يعرف ذلك»..

يصمت وينظر إليها، رجل تعيس يتحدث إلى سيدة تعيسة، ذهب وهج الأمل الذي كان يشع منهما، طمره غبار الزمن وكثرة المشاكل، بدا عجوزا أكثر مما ينبغي، تنثال على وجنتيه الدموع، لا تدري إن كان يبكيها أو يبكي نفسه، تتراجع من أمامه، أهي كذبة أخرى؟ دموع التخلي الأخيرة التي ذرفها الأحبار وهم يسلمون المسيح حتى يصلب، هل سيتركها، سيسحب كل قواته؟ تتوسل إليه: سيدي، فرنسا تمتلك الجيش الأفضل في أوربا، لا يمكن أن تفعل بي ذلك، أنا وزوجي نتوسل إليك أن تنقذنا!

يتنهد قائلا: لست وحدي صاحب القرار، سأستشير حكومتي، ولكن حتى ذلك الوقت، لا أستطع أن أرسل جنديا أو أدفع فرنكا واحدا..

لا تتمالك نفسها، تصيح: سيدي أنت تتخلى عنا، تدفعنا للانتحار بعد أن دفعت بنا إلى هذه المغامرة.

يرمقها بنظرة غريبة، تراقبه وهو يتحول، تتبدد ملامح الصديق القديم، وتحل بدلا منها ملامح أخرى لعجوز شرس وأناني، يقول في صوت بارد: تحملي مصيرك يا سيدتي..

يفتح الباب وتبدو «أوجيني»، اللحظة المناسبة لإحكام الفخ من حولها، يظهر خلفها الخدم وهم يحملون صواني عليها كئوس من عصير البرتقال، تتقلص معدتها على الفور، تنظر في رعب إلى «أوجيني» وهي تحمل كأس العصير وتتقدم نحوها، والإمبراطور المنهك يترقبها بنظرات غريبة، ماذا يوجد في العصير؟ تسمع صوتها كالفحيح: اشربي.. ماذا يريدان أن يفعلا بي؟ ماذا يوجد في هذا الكأس؟ هل هناك سم في العصير؟ هل يريدان التخلص مني؟ تصرخ في فزع تزيح يدها التي تحمل الكأس، تبدأ بالعدو، أين ذهب الضوء؟ يتحول القصر إلى ممر مظلم يقودها إلى ممر أشد ظلمة، أين المهرب؟ تصرخ باحثة عن منفذ للضوء، عن مصدر للهواء، تصرخ: يا آسي.. يا آسي، لا أحد يستمع أو يحس بها، تشعر بالاختناق وتوشك أن تهوي، وقبل أن تصل للأرض تشعر بذراعين تمسكان بها، تمنعانها من الارتطام، ولكنها لا تستطيع منعها من الغوص في الظلمة، تهتف متوسلة: خذني بعيدا يا آسي، أنا أختنق، اذهب بي إلى مكان فيه هواء..

يحملها بين ذراعيه للعربة، يحميها من الخواء الذي يحيط بها، يجعلها تضطجع على المقعد، يوشك أن يذهب إلى مقعده بجوار

السائق ولكنها تتشبث بملابسه وتصرخ: لا تذهب، لا تتركني للشياطين التي تحيط بي، كلها تحمل وجه «نابليون».

كيف تحول الملائكة في فرنسا إلى شياطين بهذا القدر من الخداع؟ صداع هائل يمسك بتلابيب رأسها، ولكن رغما عنها تغوص في الظلمة، تصارع الشياطين حتى لا تحملها وتغرقها في المحيط.

تفتح عينيها أخيرًا، تتلفت حولها، تجد نفسها راقدة على فراش يشبه فراشها، «ماكس» غير موجود، هو دائمًا غير موجود، وحيدة في غرفة واسعة، ستائرها مسدلة، ومصباح صغير واهن الضوء، غرفتها داخل الفندق، في مدينة غريبة أعلنت عداءها لها، من الذي أحضرها إلى هنا؟ من الذي خلصها من قبضة نابليون؟ هل ما زالت تحلم أم أن هناك حقيقة صادمة أخرى في انتظارها؟ ماذا يمكن أن تكتب لـ«ماكس»؟ ليس أكثر من كلمتين، فشلت، فشلنا معا، تجلس في الفراش خائرة القوى، الغرفة تدور بها ولكنها تلمح ظل شخص آخر، يقف منتصبا بجوار الباب، يرتدي البياض، كيف جرؤ على الدخول إلى هنا؟ كيف جرؤ على رؤيتها وهي نائمة؟ تعتدل في الفراش أكثر، هل هو أحد أتباع «نابليون»؟ تتعرف على ملامحه رغم العتمة، آسي، الأسود الغريب الذي يظهر لها دائمًا، الوحيد تقريبا الذي رأى دموعها وأدرك مدى انكسار روحها، يقف متجمدا في مكانه رغم أنه رآها وهي تتحرك في الفراش، هل كان هو الذي أحضرني إلى هنا؟ تحدق فيه قليلا، ملامحه ليست ظاهرة وسط العتمة، ولكن حمدا لله أنه موجود، وللمرة الاولى منذ أن جاءت إلى هذه المدينة تشعر بالأمان، لا تريد أن تفزعه، تقول له في خفوت: اقترب، ينظر حوله ليتأكد أن نداءها له وحده، يقترب بخطوات مترددة، تبدو ملامحه واضحة قليلا، ولكن الظلمة تتداخل في سواد بشرته، تقول: لماذا دخلت غرفتي وأنا نائمة، من سمح لك بذلك؟

صوتها خافت ولكنه حازم، يرتج عليه ويرتد إلى الوراء قليلا، يقول بفرنسيته المتعثرة: لا أحد، لم تكوني نائمة يا مولاتي، كنت مغشيا عليك، وخشيت أن...

تنتظر أن يتم جملته ولكنه لا يفعل، تقول: كنت تخشى أن أرحل؟ كم مرة وقفت على حافة الموت وأنت تراني؟ لعل وجودك بجانبي ليس فألا طيبا..

لا تدري إن كان قد أدرك مغزى السخرية في كلامها، ليس مهما، تقول: هل تعرف من أنا؟

يبلع ريقه، يظل صامتا لبرهة، ثم يقول مترددا: أنت مولاتي الإمبراطورة..

تقول: إذا غادر الفرنسيون المكسيك هل ستغادر معهم؟

يصمت قليلا محاولا أن يفهم السؤال، يقول: لست أدري، ولكني لست فرنسيا، أنا من الغابة..

تفكر.. إن هذا القرد الآدمي قد ذهب بعيدا، تقول آمرة: قبل قدمي إذن.

يقترب أكثر من الفراش، ينظر للغطاء الحريري بحثا عنها، كانت مخفية، يظل مترددا لا يدري أين يجدها، لا تتحرك، تعطيه الأمر وتتركه يتصرف، ينحني ويقبل الغطاء، تأمره في ضيق: أزح الغطاء وقبلها..

تتسلل البرودة إلى جسدها، تحس على جلدها بملمس خشن وخالٍ من الدفء، ترتجف وتسحب قدمها بسرعة، تخبأها تحت الغطاء، كانت إمبراطورة، ليست مجنونة، تهتف به: قف خارج الغرفة، لا تسمح لأحد بالدخول، ولا تطع إلا الأوامر التي أقولها.

لا تعرف كم من الوقت مر عليها، ولا تدري إن كان نهارا أم ليلا! مهما كان عليها ألا تستسلم، ما زال هناك من هو على استعداد لأن يقبل قدميها، حتى «نابليون» كان خائفا منها حتى وهي تتوسل إليه، يدرك أنها ملكة فتية، ستبقى موجودة بينما يغوص هو في تلافيف الزمن.

تنهض في اليوم التالي، مليئة بالحيوية والنشاط، سيكون يوما مختلفا، وسيكون مصيرها مختلفا، تخرج من الغرفة، يقف «آسي» منتصبا في مكانه خارج الباب، لا يحاول النظر إليها مباشرة، تهرع السيدات المرافقات نحوها في لهفة، عشرات العربات تقف أمام الفندق في صف طويل، الجميع يريدون مقابلتها، منذ أن رقدت في الفراش وهم ينتظرون: مديرو بنوك ومستثمرون وتجار أراضٍ وخبراء مناجم وأصحاب مصانع وعشرات الأفاقين، لا يعرفون أنها تَسير فوق خط رفيع، تنصت إليهم دون أن تسمع، يريدون منها الكثير ولا أحد يمد يده لينقذها، حتى زوجة الإمبراطور السابق «إليشيا إيتروبيد» جاءت تطالب بعودة ابنها، لم يكفها أن «ماكس» في لحظة طيش كاملة قد عينه وليا للعهد، تجلس الآن أمامها دون أن تأذن لها، مدعومة من سفير في أمريكا، تصرخ «شارلوت» فيها: لماذا نحتاج لابنك،أنا وزوجي ما زلنا صغيرين ونستطيع أن ننجب الاطفال الذي نريدهم؟

ليس هناك من يريد أن يعيد الولد إلى هذه الأم الفظيعة أكثر منها، ولكن ولاءها لزوجها يمنعها من التصريح بمشاعرها الحقيقية، تدرك في غمرة انشغالها أن رحمها ما زال خاليا، ربما لو أنقذت العرش فسوف يستعد زوجها لملئه ولو بدافع الامتنان، عليها أن تتخلص من الذين يحاصرونها قبل أن تبدأ جولتها الثانية، لن تعترف بهزيمتها بهذه السهولة، ترسل إلى «أوجيني» معتذرة عن نوبة الضعف التي انتابتها بالأمس، تتعلل بالتعب والإحباط، أمور لن تتكرر، تريد العودة الى

«سان كلود» في زيارة عمل، أن تقابل أعضاء الحكومة، ربما تستطيع إقناعهم بوجهة نظرها، تبدو رسالتها عاقلة وحكيمة، تدبر لها «أوجيني» موعدين مع وزيرين، وزير الحرب والمالية، يبدآن حديثا طويلا لا تطيقه، لا يجادلها وزير الحرب طويلا، قرار الانسحاب قد اتخذ ولا جدال حوله، ولكن وزير المالية يبدأ حديثه باتهامات مضادة، يصف المكسيكيين بأنهم غير أمناء، غير أهل للثقة، وغير شاكرين للجميل، قدمت فرنسا لهم أكثر مما ينبغي، بينما لم يفعلوا شيئا على مدى أربعة أعوام، لكن «شارلوت» لا تستسلم، تصيح فيه أن رجال البنوك الفرنسية هم السبب في وقوف بلادها على حافة الإفلاس، أخذوا من الفوائد أضعاف الدين، تمامًا مثلما فعل رجال الحرب الذين حفروا حفرة الغزو، وانفجرت الدموع من عيني «أوجيني» وهي تتابع المشاجرة، ترتمي على الأريكة مغشيا عليها، تنظر إليها «شارلوت» وهي متأكدة أنها تتظاهر بذلك، ولكنها تثير حالة من الفزع وتلفت الأنظار بعيدا عنها، يقتادونها بعيدا وهي تواصل الصراخ.

المزيد من المقابلات الفاشلة، تواجه المسئولين ولكن عقولهم مغلقة، وعندما حضر وزير الخارجية ليسلمها قرار الإخلاء الفوري لكل القوات الفرنسية رفضت أن تتسلمه، يجب على «نابليون» أن يأتي بنفسه ليسلمه لها، ولكنه كان قد سافر إلى «شامب شالون»، ويأمل عند عودته أن تكون قد رحلت، ولكنها لا ترحل، تظل في انتظاره أسبوعا كاملا، أسوأ أسبوع مر عليها، تنجح في نهايته في إرغامه على زيارتها في الفندق، تقف أمامه متماسكة وقد قررت ألا تصرخ فيه، ولكنه يضع على وجهه قناع الشيطان، لا تؤثر فيه المطالب ولا التوسلات، تقدم له العديد من المقترحات، يتأملها وهي تحترق، والكلمات تغلي بداخلها وتنفجر صاعدة إلى فمها، قبل أن يتكلم كانت تعرف ماذا سيقول!

طريقته الشيطانية نفسها، فرنسا لن تقدم مزيدا من التضحيات من أجل المكسيك، عليها ألا تعتمد بعد ذلك على أي أوهام، كلمات قاضية، تنساب من فمه مثل فحيح الأفاعي، تصيح فيه: جلالتك متورط في هذا الأمر مثلنا تمامًا، وعليك ألا تعتمد أنت أيضًا على الأوهام..

ينهض واقفا، يعتمد على عصاه ويحني رأسه قليلا، ينصرف دون كلمة وداع، انتهى كل شيء، يجب أن تغادر هذا البلد الذي تحكمه الشياطين، تكتب إلى «ماكس»: «لا فائدة، فعلت المستحيل الذي يمكن أن يفعله آدمي، ولكن نابليون ليس آدميا».

في اليوم التالي تجمع أتباعها وأمتعتها، يركبون القطار المتجه إلى إيطاليا، لن تذهب إلى أي مكان إلا لقلعتها القديمة في ميرامار، لا تبالي بالحفلات التي تقام على شرفها، ولا المدافع التي تنطلق تحية لها، ولا لملوك نابولي الذين خرجوا لاستقبالها، ليست إلا امرأة حزينة، تلقت الهزيمة في باريس، زوجها ينتظر النجدة، وهي تهرب من القتلة الذين أطلقهم نابليون خلفها ككلاب مسعورة، قلعتها القديمة ستكون المخبأ الذي تحتمي فيه من الجميع، تستعيد بعضا من الأيام السعيدة التي ضاعت، تنظر إلى عبدها الأسود، يقف منتصبا بجانب الديوان الذهبي الذي تجلس فيه، تؤكد على نفسها، أنه بشكل غريزي سيتلقى عنها أي طعنة أو رصاصة مارقة، لا تطمئن إلا حين تنزل من القطار وتجد عربتها القديمة في الانتظار، يركب الأسود في مؤخرة العربة، متشبثا بها كما تعود أن يفعل، تراقب النوارس بعيون قلقة، وتختبئ عندما تلمح فلاحا ينظف بندقيته، حيل نابليون لا تنتهي، سيحاول الوصول إليها حتى خلف جدران ميرامار، يبدو البحر صامتا، تقف أمواجه ساكنة في انتظار عودتها، تظهر «ميرامار» في موقعها الفريد، هي أيضًا تنتظرها، سجاد أحمر يكسو أرضها، متكسرا وصاعدا فوق الدرج، يقف الخدم

في صفين لتحيتها، بينهم وجوه لم ترها من قبل، لعلهم جمعوهم على عجل من مكان ما، يحملون زهورا نصف ذابلة، تترك العربة وتعدو إلى حديقة القصر، الزهور الوحشية التي أحضرها «ماكس» من خط الإستواء تحتضر، تسير إلى البيت الزجاجي الذي يحتوي على نباتاته النادرة، ما زال قائما، تنعكس على جدرانه بقايا شمس غاربة، ولكنها حين تفتح الباب، تفاجئها رائحة العفونة المنبعثة من الأوراق، ذبول وموت، تمشي ببطء وسط صفوف النباتات، تتذكر كلماته وهو يحدثها عن الزهور النادرة: التاتان ترون، أكبر زهور العالم وأجملها، أغصان جافة وأوراق سوداء ملتوية، الأوركيدا، الروزميز، زهور الزنجبيل، الشجيرات القزمة، الزنابق والأقحوان، السحلبيات،كلها جامدة، غارقة وسط أحواض من الماء الآسن والطحالب الخانقة، تخنقها روائح العطن، تخرج مندفعة من بين جدران بيت الزجاج، يبدو حزينا كحزنها على «ماكس».. «نابليون» هو الذي دمر ذلك الفردوس الصغير، لم يتوقعا هذا المصير ولم يستحقاه، تعود مرة أخرى إلى داخل القصر، تتداخل طرقات حبها وزواجها ولا تعرف إلى أين تقودها قدماها، تصل أخيرًا إلى القاعة الرئيسية حيث تم زفافها، نظيفة وخانقة، تصرخ في رئيس الخدم، لا تريد خدما جددا، ربما دسهم نابليون، ولكنها لا تتذكر أيا من وجوه الخدم القديمة، تصيح فيه أن يطردهم جميعا، لا تريد أحدا، يتركونها وحدها، تبحث تحت السرير وتوصد الباب جيدا، تحاول أن تعطي جسدها المجهد بعضا من الراحة، ولكن ذهنها لا يكف عن الدوران مثل طاحونة الهواء، يتحول كل شيء في داخله إلى طنين متواصل، تغلق عينيها أخيرًا.

تنهض مفزوعة، يطبق عليها الظلام والصمت، أين ذهب الجميع، هل تركوا المجال مفتوحا للقتلة؟ تخرج من غرفتها وتعدو في الطرقات،

كيف صدق هذا الغبي أنها تريد طرد الجميع؟! الطرقات خالية، أين ذهب عبدها الأسود؟! حتى ظلها فقدته، تسير حافية القدمين في طرقة مظلمة باردة، عارية في مواجهة قتلة «نابليون»، من المؤكد أنهم يختبئون في مكان ما، خلف الأرائك أو الطنافس واللوحات المعلقة، ليس إلا صوت الريح تهب من البحر، باردة كحد السيف، تلتف حولها وتوشك أن تقلعها، ورقة خريفية ساقطة، تسير مرهفة الآذان، من الخطر أن تبقى بين جدران أربعة حيث يمكن رصدها، لكن الطرقات مليئة بظلال أشباح هائمة، كل حفيف يثير الرعب، ثم يحدث الذي تتوقعه، يظهر أحد القتلة، ظل باهتا في نهاية الردهة، قاتل مؤكد الوجود، يتقدم نحوها وهي تعدو مفزوعة، كل الأبواب مغلقة في وجهها حتى غرفتها، تتقطع أنفاسها فلا تملك إلا أن تقف مستندة للحائط حتى لا تنهار، يواصل الشبح الاقتراب، تسمع صوتا يهمس بفرنسية ركيكة: مولاتي، تستدير فجأة وتتعلق بعنقه، وتشم رائحة عرقه الغريبة، عبدها الأسود يخرج من حيث لا تتوقع، هل كان هو الشبح أم أنه بدد كل الاشباح؟ تتشبث به وهي ترتعد باكية، يظل واقفا متصلبا لا يدري ماذا يفعل، ولكنها تشعر بجسده الصلد، يسند جسدها ويدعم وجودها بعد أن انهار كل شيء، لا يقدر على احتضانها أو التخلص من ذراعيها، تريد التوقف عن البكاء والتماسك ولكن الهلع يفكك خلايا جسدها ويباعد بينها، تقول: خذني إلى غرفتي...

تظل عاقدة ذراعيها على عنقه مثل طفلة صغيرة، لم تجرؤ على فعل هذا مع أبيها، لم يتح لها فعل هذا مع أي أنسان إلا عبدها الأسود! يحاول السير، ولكنها تتشبث بعنقه، يضع يده حول جسدها ويحملها بين ذراعيه، يرتجف هو أيضًا، تسربت رجفتها إلى جسده، تحس بذراعيه تحملان جسدها كحيوان أليف، بلا وزن تقريبا، يدفع باب

الغرفة ويدخل في عتمتها، لا ترى ما حولها ولكنا تدرك أنه يقودها للفراش، يضعها برفق، ولكنها لا تفك ذراعيها من حول عنقه، منذ أن قبلت «سمسن» في الغابة المطيرة لم تقترب من رجل لهذه الدرجة، لم تشم رائحة جسد بهذه القوة، تخترق رائحة جلده أنفها مباشرة، لا مسحة من عطر، رائحة الذكورة التي تختلط فيها الشهوة بالعطن، عبق الدنس الأول، الذي لم يغادر جسد الإنسان منذ أن طرده الله، غواية بدائية تغري بالخضوع رغم النواهي، يحاول فك ذراعيها في رفق، ولكنها لا تتخيل أنه سينفصل عنها، سيبتعد وسيتركها وسط هذا الفراغ، عرضة لكل أنواع القتلة، تقول من بين دموعها: لا تتركني..

يكف عن فك ذراعيها، ويظل مقوسا جسده فوق الفراش مائلا نحوها، لكن ما يحدث داخل جسدها يزيد من اضطرامها، تواصل خلايا جسدها التفكك، كأنها لن تستعيد زمامه مرة أخرى، لم تتناول طعامها منذ فترة، يمنعها الخوف من أن يدس قتلة «نابليون» السم فيه، ولكنها الآن كانت أكثر جوعا للملامسة، حتى يستعيد جسدها تكوينه برغباته وصبواته، بلا خوف من السقوط ولا إحساس بالخطيئة، يظلان بهذا الوضع حتى يسكن جسدها تمامًا، تعرف فجأة ماذا تريد؟ ماذا كانت دائمًا تريد؟ تهمس: انزع عني ثيابي!..

يرتج جسده فزعا، تسمع صوته يغمغم: مولاتي..لا أستطيع..

تهمس بطريقة أكثر حزما: افعل ذلك..

تزيد رجفته عن رجفتها، يقول: يمكنني أن أستدعي الوصيفات، لا بد أنهن في مكان ما..

تقول في حدة: لا أريد أن يقترب القتلة مني، اخلع عني ثيابي، مزقها إذا لم تستطع!..

لا تدع العتمة ولا ملامحه السوداء فرصة لها حتى ترى ملامح وجهه، ينتقل الفزع إليه، ويحل عليها قدرا من السكينة والإرادة، يصارع خوفه وتردده، تحس بكفه على بطنها، ترخي ذراعيها من حول عنقه، تستعيد هدوءها وسيطرتها، تتحرك أصابعه، تتداخل وسط عقد وتلافيف الأربطة، يلهث مرعوبا كأنه يحمل عبء الغابات على كتفه، يطول ارتباكه دون أن يجد منفذًا إلى جسدها، لا يجرؤ أن يقلبها أو يبحث عن مكان آخر، تهتف به في حدة: مزقها، يدمدم متوجعا، أشبه بحيوان استيقظ جوعه فجأة، يقبض على ثيابها، على بعض من جلدها، لا تصرخ، ولا تتأوه، تشعر بجسدها ينجذب في يده، توشك أن تطير في الهواء، كأنها ستظل في سجن هذه الثياب إلى الأبد، تسمع صوت التمزق، ترتفع يده وفي قبضته قطعة من صديرتها، يتسلل هواء بارد إلى جسدها، يهوي بأصابعه ويمزق قطعة أخرى، تصبح طبقات الأقمشة أضعف من أن تقاومه، مثل طفل يفض الأغلفة الكثيرة التي تلف قطعة الحلوى، لا تتحرك ولا تصدر صوتا، تخشى أن يسيء فهم أي صوت ويحسبه اعتراضا، تصبح أنفاسها أكثر خفة، يتوقف لينتظر ردة فعلها، ولكنه حين يشعر باستسلامها الصامت يواصل التمزيق من جديد، يلقي المزق خلف ظهره، تتناثر قطعا من فستانها وثيابها الداخلية، يتوقف حين يرى جسدها عاريا أمام عينيه، تتذكر درس الكنيسة في كل أحد حول الخطيئة التي حرمت الجميع من الفردوس السماوي، ولكن الآن ليس هناك من يردعها، مات أبوها، ولم يعد زوجها موجودا، والله أبعد ما يكون، عادت تأمره من جديد: لا تخلع ثيابك، افعل مثلي، مزقها من على جسدك..

لا تترك عينيه جسدها العاري، يخيل إليها أنه لا يسمعها، لكنها ترى أصابعه تتحرك كأنه مغيب عن وعيه، يصل لمرحلة لا يمكنه التراجع

عنها، تنزاح ثيابه ليظهر جلده الأسود، تسمع حركته وصوت أنفاسه ولا تراه بوضوح، يصبح كتلة غائمة في العتمة، تقول آمرة: اصعد إلى الفراش، لا يقاوم ولا يتردد، تحركه ذكورته وغرائزه الدفينة، يهتز السرير وهو يحاول الصعود دون أن يلمسها، لا يزال يتصور أن هذا غير ممكن، تفرد ذراعاها وتلفها حول رقبته مرة أخرى، دون موانع هذه المرة، جلدها المرتجف، شبه الجاف، يلتصق مباشرة بجسده الصلد، تجذبه نحوها حتي يغطيها تقريبًا ويكتم أنفاسها ويضغط ضلوعها ويسحق ثدياها لايحتوي فخذيها، في هذه اللحظة ليس هناك غير فعل الشيء الصائب، إرضاء الجوع الذي طال أمده، انتزاع جسدها من الإهمال والتجاهل والجفاف ومده بفيض من عصارة الحياة، تتخلل مسامها ريح دافئة، من عمق الغابات الإستوائية، وتسري في عروقها مياه شلال متدفق، حيث لا أشجار تموت، ولا زهور تذبل، وتتوهج الخضرة إلى الأبد، ترى جلده الأسود، وهو يغمر جسمها الشمعي فتنهار آخر الموانع، تهتف به: تعامل مع جسدي كما يستحق، كما تتعامل مع زنجياتك داخل الغابة، يقول: إنهن لسنا مجرد زنجيات، إنهن آلهات للخصوبة، يصبح أكثر خشونة، لا يحاول أن يرضيها بقدر ما يريد أن يفرغ التوتر الذي يضطرم بداخله، أن يخضعها لمشيئته ويستخلص من جسدها الباهت اللون ما يريده، إرضاؤها هو شيء ثانوي بالنسبة له، مثل كل الإناث، في كل صنوف الحيوانات، وكما خلقهن الله، على خلاياها أن تستجيب لرغباته، تدع غرائزها الأساسية تقوم بفعلها، وتعطي للذكر متعته المصفاة، خضوعا مطلقا يظل مختبئا في أعماقها، تتركه يحرك جسدها كما يريد وفق إيقاعه واشتعال رغبته، وإرضاء لتلك الدمدمة الحيوانية التي تصدر عنه، حتى تظفر بمكافأتها الأساسية، يمتلئ رحمها، هل يمكن أن يمتلئ الرحم التي ظل فارغا

أبدا؟ الآن وفي هذه اللحظة تتدفق داخلها حياة جديدة، عندما تفلت منها آهة مرتفعة تتذكر «ماكس»، المسكين «ماكس» الذي يسكن في بروده العالم، تصرخ وهي تشعر بالامتلاء، تتسع عضلاتها وتشتد كأنها توشك على التمزق، تقبض بيديها وساقيها على جسده الرابض فوقها كحيوان ضاري، كانت دائمًا تتجنب الرقص في القاعات المذهبة، في العتمة ترقص الآن رقصتها الحقيقية، تهدأ أنفاسها شيئا فشيئا، تحس بالشبع، أخذت كفايتها من إكسيره وليست في حاجة للمزيد، تظل راقدة تحته، مستسلمة لثقل وزنه، غير قادرة على التقاط أنفاسها، ولكن لا تريد لدفئه أن يرحل عنها، يخور مثل حيوان بري يبحث عن مثوى للراحة، ينهض عنها ببطء، تتشبث به، تريده ملتصقا بها، يندس تحت غطائها وينام على وسادتها، لو جاء قتلة «نابليون» الآن، فسوف يقتلون امرأة راضية، تقول له في هدوء وهي تمسح العرق المتجمع على صدره: كان لا بد أن نلتقي على هذا الفراش، لأننا متشابهان، الفرنسيون جلبونا معا إلى عالم غير عالمنا وطلبوا منا أن نلعب أدورا خارج حياتنا ولا تخصنا، أنت جعلوك قاتلا وأنا إمبراطورة مزيفة!..

تغمض عيناها وتغوص في عتمة دافئة، نوم عميق بلا كوابيس للمرة الأولى منذ سنوات.

الكوابيس فقط تأجلت حتى الصباح، حتى تخترق أشعة الشمس أستار الغرفة وتعري كل التفاصيل وتجفف ما يتبقى من عرق النشوة، تستيقظ «شارلوت» فجأة وهي تدرك أن هناك شيئا خاطئا ولزجا يلتصق بجسدها، وسادتها مبتلة، وشعرها أشعث دون غطاء، وجسدها عارٍ دون قميص ولا سروال، ترى ذراعا أسود يحيط بجسدها، يحيط نهديها مباشرة، ذراعا صلدا كجذع شجرة، وجسدا آخر، كتلة فاحمة من السواد يرقد وسط الشراشف الناصعة، وصوت أنفاسه الثقيلة تتردد عاليا، تشهق

في رعب، كيف حدث هذا؟ ومن أين جاءت تلك السوائل التي بين ساقيها؟ تصيح بكل ما في صدرها من حنق، تهوي بقبضة يدها على صدره حتى يفتح عينيه فزعا: انهض أيها الأسود النجس، كيف دخلت غرفتي ودنست فراشي، كيف تجرؤ على اغتصاب جسدي؟!

يقفز من فوق السرير، وينحني ليستر عورته، قرد ضخم لا يستحق أقل من القتل، يبحث عن ثيابه، ترى مزقا من ثيابها ملقاة في كل مكان، وعلى جسدها العاري خدوش أظافره، وعلى صدرها المحتقن الثديين آثار أسنانه، هذا الحيوان ترك علاماته عليها، كانت وحدها فريسته طوال الليلة الفائتة، تقف أمامه في منتصف الغرفة، عارية وهو عارٍ، تصفعه على خده فيميل بوجهه قليلا، تصفعه على الناحية الأخرى، تواصل صفعه حتى تتصلب أصابعها، لا تلمح على وجهه الأسود أي أثر للصفعات، لا يجرؤ على رفع وجهه إليها، تصرخ وهي تشير إلى باب الغرفة: اخرج، لا أريد أن أراك مرة أخرى، سيقتلك زوجي.. كلا أنا الذي سأقتلك..!!

يحمل ثيابه ويخرج مسرعا، تبحث عن شيء تستر به عريها، تعيد إسدال الستائر، لا تريد ضوءا، أي ضوء سيجرح جسدها المتعب، لا تريد الاقتراب من الفراش الذي ما زال يحمل رائحته، عليها أن تكتب لـ«ماكس» بكل ما حدث، عليه أن يعرف منها قبل أن يخبره الآخرون، تمسك الورقة مترددة، تكتب: اغتصبني وحش آدمي، وضع بذوره في رحمي رغما عني.. تتوقف عن الكتابة، وماذا لو وقع الخطاب في يد أعوان «نابليون»؟ تمزقه إلى قطع صغيرة، وتجذب حبل الجرس، بعد قليل تسمع دقات خافتة على باب الحجرة، ثم تدخل بعض الخادمات، تصرخ فيهن: دنس.. أشعر بالدنس أريد أن أستحم، أحضرن كل سوائل التنظيف وكل أنواع العطور، أغسلن جسدي، لا تتوقفن عن غسله..

يزلن قطع الثياب الممزقة دون سؤال، تستدعي رئيس الحرس، تأمره أن يحبس عبدها الأسود في قبو القصر، في مكان بعيد عن أي ضوء، ربما تقتله العتمة المتواصلة، رغم كل شيء تشعر أن جسدها لم يتخلص من رائحته، أصابعه السوداء موسومة على جسدها، تجلس في الحمام المعطر الملحق بغرفتها، تطلب من الوصيفات أن ينصرفن، تتحسس بطنها في قلق، هل امتلأت؟ لو حدث هذا وتكوَّن في داخلها مخلوق أسود نجس، ماذا ستقول لزوجها إمبراطور المكسيك، ولأخيها ملك بلجيكا، ولأخ زوجها إمبراطور النمسا، وابنة عمها ملكة إنجلترا؟! ماذا يحدث عندما تنفتح مغاليق بطنها ويبدو هذا المخلوق الشائه ببشرته الداكنة؟ تصرخ وهي جالسة في الماء، تعرف أنهم جميعا خلف الجدران يسمعون صوت الصرخات، الخدم وقتلة نابليون على السواء، أين كانوا بالأمس؟

- ١٧ -

التلال البعيدة ظل أسود يربض على حافة الأفق، والنجوم خابية معلقة في السماء، وشاطئ البحر لا يكف عن التآكل ولكن المدينة موجودة، في الصحو والظلمة، في الزهو والانكسار، كل باقٍ في مكانه، عليه وحده أن يرحل، يتخفى، يلوي عنان جواده ويدخل في ظلمة الحواري، يصبح الضوء محرما عليهما معا، يتسلل «جوفان» و«ماريانا» في حذر، بعيدا عن مسارات دورية الليل، يريدان فقط الوصول حافة التلال، يحملهما الجواد معا، صوت حوافره خافتة، ولكنهما يسمعانها كدوي الرعد، توشك أن توقظ الجميع، تصبح المدينة خانقة، لا توجد فيها نسمة هواء صالحة للتنفس، ضجة قادمة من أحد الحانات، ضحكات السكارى مختلطة بموسيقى «المارمبا»، يحث جواده مبتعدا عن الضجة، تتشبث يداها بظهره، تلتمس منه أمانا لا يشعر به، إلى متى يمكن أن تبقى الجثة مخفية قبل أن تفوح رائحتها؟ يدرك أنه يترك خلفه كل شيء، يقطع صلاته بالرجال الذين عبر المحيط معهم وحارب بجانبهم، يفقد الطرق بينه وبين قريته الصغيرة على شاطئ النيل، يمضي الآن منفردا إلى أرض مجهولة لا تخصه، وأناس يعرف أنهم يكرهونه، على الجواد ألا يتوقف حتى لا يجرفه الحنين، يلتقطان أنفاسهما قبل أن يمرقا سريعا عبر ساحة مضيئة، لا يتجول فيها إلا بعض السكارى والغانيات، يفضل الدخول وسط خرائب البيوت التي خلفتها

الحرب، فئران مذعورة وبنات آوى، يستمعان بحذر إلى صوت طلقات متفرقة، أو حمحمة أحصنة الدورية، يديران ظهريهما للبحر والمدينة، يبحثان فقط عن نهاية السور، نهاية الكابوس الذي يعيشانه، عندما سقط الضابط الفرنسي ظلا عاجزين عن الحركة، يصهل الحصان ليذكرهما أنه لا جدوى من الصمت، تمد يدها وتتشبث بيده، كما تتشبث الآن بظهره، يقول مغمغما: يجب أن أذهب الآن وأسلم نفسي لهم..

لن ينقذه أحد من قبضة الفرنسيس، هذه المرة سيدخل سجنهم دون أمل في الخروج، لا يترك يدها، تهمس خائفة: هذه المرة لن يسجنوك، سيقتلونك، لا أريدهم أن يفعلوا ذلك، ليس بعد أن أصبحت لي..

لن تتكرر معجزة إنقاذه، لن يظفر بعفو آخر، لكنها تتشبث بعنقه، تدس جسدها البارد المرتجف بين أضلاعه، يسمعها همسها في أذنه: سنهرب من هذا المكان، لا مكان لنا في هذه المدينة.. يزداد خوفه، عالمه الضيق محصور هنا، في المكان الذي يحارب فيه والآخرون من حوله، غير صالح للعيش في العراء، يهمس هو أيضًا رغم أنه لا أحد يسمعهما: لا مكان لنا في أي مكان..

تكتسب قوة مفاجئة، تستيقظ إرادتها في مواجهة عجزه ويأسه، تظل تحتويه بجسدها، تؤكد عليه: لا شيء يربطنا بهذا المكان، أنت من أرض بعيدة وأنا من مدينة مختلفة، سنرحل بعيدا، إلى مدينتي وأمي الوحيدة في «تلاكوتلبان»، علينا فقط أن نجتاز التلال والغابة حتى نصل لحافة نهر الفراشات، بعدها سنصبح في أمان..

تدعوه للهروب، بعيدا عن جثة الفرنسي التي تملأ بصره، لو أنه فقط ينهض بمعجزة ما ويختفي من أمامه! يؤكد على نفسه أنه لن ينجو هذه المرة، وحتى لو لم يقتلونه، ستنتهي الحرب ويرحل الجميع ويتركونه

يتعفن داخل سجنه، يركز بصره على شفتيها التي تتوسل، وعينيها الممتلئتين دمعا، أي شيء ستقوله أفضل مما ينتظره، هذه الجثة تقف حائلا بينه وبين عالمه القديم، تتركه دون رابط سوى هذه المرأة، دون مكان من الأرض إلا بجانبها، مهما كان المكان الذي ستقوده إليه، سيئا ونائيا، فلا يوجد غيره، لا تنتظر «ماريانا» حتى يجيب، لا وقت تضيعه في التفكير، خرجت من قريتها مع رجل وستعود مع آخر، لا يهم، لم يعد هناك أي شيء مهم سوى النجاة، تهتف: سأجمع ثيابي، إنها قليلة على أي حال، سنرحل في هذا الظلام..

يتساءل في بلاهة: وهذه الجثة؟

تقول في قوة: فلنتركه يتعفن، إنه يستحق ذلك..

وهكذا تركب الجواد خلفه، لا تحمل إلا صرة ثيابها، يجتازان طريقا مجهولا في ظلمة الأحياء المتشابكة، يصلان إلى نقطة الحراسة القوية في نهاية السور، يعرفها جيدا لأنه كلف بالمناوبة فيها أكثر من ليلة، وكانت لديه أوامر محددة، إطلاق النار على أي ظل متحرك، يهبطان من فوق الجواد، ويسيران بحذر بين ممر صخري، تحت آخر أبراج الحراسة مباشرة، تتعثر في الأحجار النائتة ويفلت منها صوت تأوه، يصيح صوت أجش من فوق البرج: من هناك؟ صوت «كوكو سودان»، يعرف صوته الأجش وغناءه السيئ، غناء أهل «كردفان»، يدوي صوت طلق ناري، يصطدم بالصخور ويطلق شررا يضيء الظلمة، يمسك بشدة بلجام الجواد الذي يصهل ولكنه لا يهرب، من حسن الحظ أنه جواد حرب، متعود على صوت الطلقات، يظلان جامدين بينما تدب حركة قلقة في أعلى البرج، بعد فترة يواصلان التقدم محنيي الرءوس، تدوي رصاصة أخرى أبعد عنهما، ثم يسود الصمت، لا يبالون كثيرًا بالذين يغادرون أو يهربون، يترقبون المدخل الذي يمكن أن يباغتهم منه أي أحد.

في الظلمة يبدآن صعودا شاقا بين صخور وعرة، تحت نجوم شحيحة الضوء، يتحسس صدره، الدم جاف والجرح سطحي ويستطيع السير بلا نهاية، فقط لو يدري إلى أين يذهب، «ماريانا» متعبة، يبتعدان، تقف الصخور حائلا بينهما وبين البرج، يرفعها ويضعها على الجواد، يدوران في الطريق الصاعد، فرصة النجاة الوحيدة هي الوصول للجانب الآخر من التل قبل أن ينقشع الظلام، لا مجال للتوقف، تزداد برودة الهواء، تشير «ماريانا» إلى فجوة مظلمة، تقول: سنظل ندور في الظلام حتى ننهك تمامًا، يمكننا أن نختبئ في هذا المكان لبقية الليل..

يقول في قلق: وإذا لحقوا بنا؟

تؤكد: لن يشم أحد رائحة عفن الفرنسي إلا بعد مرور عدة أيام..

يقتربان من الفجوة المظلمة، يفاجئهما صراخ الخفافيش وهي تندفع صارخة من داخل الكهف، يصهل الحصان مذعورا، ثم يهدأ كل شيء، في الداخل يلتف كل منهما بجسد الآخر ويرقدان مفتوحي الأعين، يدرك أنه الآن يهرب من حياته المليئة بالقتل، يحرك شفتيه دون صوت، يتعهد بينه وبين نفسه أن جثة الفرنسي ستكون آخر ضحاياه، سيترك حياته حتى تسيرها هذه المرأة، يغمض عينيه ويلف ذراعيه حولها أكثر.

ينهضان جائعين، أعضاؤهما باردة ومتيبسة، ضباب رمادي ينام على حواف الصخور، وسماء باهتة غير موجودة، وحصان يحاول عبثا اقتناص العشب، هذا الضباب سيؤخر المطاردين قليلا، ينحدران على الجانب الآخر من التل، يبحثان عن طريق بعيد عن المألوف، رجل وامرأة وجواد وكون مفتوح يخفي الضباب معالمه، سيظلان هكذا لا يدريان ماذا ينتظرهما، تتعثر وتتشبث به ولا تشكو، تنهار الصخور

من تحت أقدامهما، وينزاح الضباب ببطء، يذوب مع أشعة الشمس، وتمتد في الأسفل غابة مطيرة وفيرة الخضرة يشقها نهر فضي، مشهد عظيم لم يتصور أن يراه، تبتسم للمرة الأولى وتقول لاهثة: هذا هو «نهر الفراشات» الذي سيقودنا إلى مدينتي، مدينتنا..

تبدو المياه بعيدة، يفصلها عنهما عوائق من الأحراش المتراكمة، يقول متمنيا: لو استطعت الاستحمام في هذا النهر، سأكون أنظف إنسان في هذا العالم!..

تسحبه من يده وهي تقول: سنستحم معا..

تحيط بهما أنفاس الغابة الرطبة، يخف وهج الشمس الحار وسط خضرة الغابة الكثيفة، يصهل الجواد في جذل، يلتقط ما يروقه من عشب وورق نضر، لكنهما ما زال جائعين متعبين، لا يظهر بعد ما هو صالح للأكل، يشرب ثلاثتهم من نبع صغير ينحدر بين جذور الشجر، ماء بارد ممتزج بطعم الخضرة، يواصلان السير في اتجاه النهر، يرتاحان قليلا وتقول له: عندما يفيض هذا النهر كانت مياهه تصل إلى باب بيتنا، تلاحقهما أصوات الطيور، الغابة آمنة حتى الآن، ولكن هل توجد حيوانات مفترسة تنتظرهما في مكان ما؟ تسير بثقة من تعرف طريقها، كأنها ولدت داخل غابة مطيرة، سيرا طويلا ومتعبا، لا يوجد ثمر يؤكل، فروع جافة وممتدة كالحبال، ملتوية حول بعضها، جذوع ضخمة وأغصان متشابكة، تمنع وصول الشمس لأعماق الغابة الرطبة، يجلسان مجهدين، تطبق عليهما الظلمة من جديد، تقول «ماريانا»: سنشعل نارا ونقضي الليل هنا..

تبدو شاحبة الوجه، توشك أن تفقد وعيها من فرط الجوع والإعياء، يبحث «جوفان» عن أغصان جافة، يصنع كومة منها ويغطيها بورق

الشجر الجاف، ينتقي حجرين ويضرب بعضهما البعض كما علمته «الجهادية»، بعد عدة محاولات يشتبك الشرر في الأوراق الجافة، حين يهبط الظلام يكون لديهما نار مشتعلة، تنام على صدره، متعبة ومنهكة ولكنما معا يمتلكان حياتيهما.

يسمعان صوت حركة من بين الأغصان، هل هناك من يتبعهما؟ تلتصق «ماريانا» به، يمسك البندقية ويشد الترباس، يتوجه بعينيه إلى مصدر الصوت، ماذا يختبئ في عمق الغابة السوداء؟! بعد فترة تظهر عينان لامعتان، تتبعها رأس صغير مدبب، تهتف «ماريانا» في رعب: إنه ذئب، يرد في سرعة: لن يقترب منا ما دامت النار موقدة، شكله مختلف عن ذئاب قريته، أكبر حجما وأكثر قوة، لا يبدو أن نارا مرتعدة مثل هذه يمكن أن تردعه، يعوي، كأنه يستدعي بقية القطيع، يقترب بحيث لا يفصلهما سوى ألسنة اللهب، ولو أنها انطفأت فلا أحد يدري ماذا يحدث، يقول لـ«ماريانا»: اختبئي خلف ظهري، يرفع البندقية ويحدق طويلا في عينيه، تلمع بشدة، تحاول أن تخطف بصره أو تنومه، لا مجال للخطأ، عليه أن يصرعه من طلقة واحدة، رغم أنه يتمنى أن يتركهما ويذهب بعيدا، ولكن لا يبدو ذلك، يدور الذئب حول النار، يبحث عن فجوة ينفذ منها إليهما، يتابعه بالبندقية، يركز «جوفان» بصره على مساحة بيضاء من بطنه، يطلق النار، يتحرك الذئب مبتعدًا ولكن الرصاصة كانت أسرع، تخترقه، ينقلب على الأرض، وترتفع قوائمه إلى أعلى، ترتجف في الهواء ثم تسكن، تتنهد المرأة في ارتياح، ينهض واقفا، ينزع «السونكي» الموجود في مقدمة البندقية، تهتف «ماريانا» في فزع: ماذا ستفعل؟

يخطو فوق النار وهو يقول: هذا الذئب كان ينوي أن يأكلنا، سنأكله نحن أولا

من فرط رعبها لا تستطيع الاعتراض، كما لا يقاوم جسد الذئب الرخو ذبحه ولا سلخه، يفتح «جوفان» بطنه ويغوص بسكينه، يخلص الكبد من الأغشية التي تحيط به، ينتزعه من جوفه داكنا ولا معا، يتلوى كأن به بقية من حياة، يهتف بها وقد سال ريقه: في أسوان بلدتي، نأكل كبد الذئب حتى نطرد الأرواح الشريرة، ونخلص أجسادنا من مس الجن..

يجهز مكانا وسط النار، يعلق الجسد المسلوخ حتى تنتشر رائحة شوائه في الغابة، تبعد عنهما بقية الذئاب والحيوانات، تراقبه المرأة والحصان وهو يتقلب عاجزا فوق اللهب، يأخذ من النار لونها الذهبي، يصبح الكبد مقددا وداكنا، في طعمه بعض من المرارة، تمضغه «ماريانا» بسرعة حتى تتخلص من طعمه، تريد فقط أن تضع شيئا في معدتها، يأكل «جوفان» ببطء، يتذكر أباه وهو يناوله أول قطعة كبد للذئب في حياته، كأنه يعطيه رقية ضد كل أنواع المس والجنون، ولكنه لا يحميه من الخطف والاستعباد، يقول له: من الصعب يا ولدي صيد الذئب لأنه أذكى الحيوانات، وهو يشم رائحة بول الإنسان، ورائحة ذرات البارود الكامنة في البنادق، يواصلان تناول فصوص الكبد، يستعيدان بعضا من طاقة الحياة، تعاود الالتصاق به، يحترق جسد الذئب ببطء فوق النار، ينتشر الدخان الكثيف عبر الأشجار الساكنة، يكون ستارا يختبئان خلفه حتى يظفرا ببعض من النوم.

يواصلان السير في الصباح حتى حافة النهر، يبعث فيهما مشهد المياه اللامعة أملا في النجاة، يسيران في موازاة ضفته، تبتعد الغابة عنهما تدريجيا، يذهب الغطاء الذي كانت تمنحه لهما، يركبان الجواد متلاصقين، تحتضنه من الخلف وتنام برأسها على ظهره، الجواد هو الوحيد الذي يمضي دون أن يحمل هم المطاردة، تقشعر أمواج النهر،

كأنها أجنحة فراشات لا تكف عن الرفيف، تقول له: إن النهر اشتق اسمه من هذه الظاهرة، لم يعد الطريق لهما وحدهما، يظهر الفلاحون وهم يجرون أبقارا محملة بعيدان الذرة، ويفرد الصيادون شباكهم على صفحة النهر، تتواصل الحياة في دعة، دون قتل أو مطاردة، لكنه يقول في قلق: لن نستطيع الوصول إلى بلدتك وأنا بهذه الثياب، أنا في حاجة لثياب واحد من هؤلاء الفلاحين..

يحس بيدها وهي تشد على صدره، يسمع صوتها متوترا: أنت لا تنوي أن تقتل فلاحا آخر..

يقول: لقد عاهدت نفسي أن يكون الفرنسي آخر من أقتل، لا يمكن احتساب الذئب بأي حال..

تنام برأسها على ظهره: أنت على حق، يجب أن نجد حلا، لا بد أن هناك حلا ما..

تمتد الحقول وتظهر بيوت متناثرة، منحدرة مع المدرجات الخضراء، حمائم بيضاء متناثرة على عش أخضر، يرمقهم الفلاحون المتناثرين في الحقول، لا أحد يتحدث إليهم، ولكن من المؤكد أن منظره سيثبت في أذهانهم عندما يأتي عسكر الفرنسيس، يهبط من فوق الجواد، يكتشف أنه طوال هذا الوقت يرتدي طربوشه، يخلعه ويضعه في جراب الحصان، سيكون هكذا أقل إثارة للريبة، يوم آخر من السير المنهك، في نهاية اليوم يجدان أنفسهما أمام كنيسة صغيرة، يرتفع برجها عاليا، تهبط «ماريانا» من فوق الجواد، ترسم بأصابعها علامة الصليب على وجهها وصدرها، أخيرًا تجد مكانا آمنا، تدق الباب بالحلقة المعدنية، يقول «جوفان»: ليس عليك ذلك، لن يقبلوا بي..

تواصل الدق حتى يفتح الباب، يظهر من خلفه قس عجوز، يرتدي

مسوحا بنية داكنة، ينظر إليهما مستغربا، تبادر «ماريانا» بالهبوط على ركبتيها أمامه، تتشبث بيده وتهوي عليها بالقبلات، لكن القس يظل مسلطا عينيه على الرجل الأسود برفقتها، تهتف متوسلة: أنجدنا يا أبي، نحن متعبان وجائعان، ونحتاج لمأوى لهذه الليلة..

يردد القس بصره بينهما متسائلا: من أين جئتما، وإلى أين أنتما ذاهبان؟

تقول «ماريانا»: نحن ذاهبان إلى بلدتي «تلاكوتلبان»، القريبة من هنا، عند منحنى النهر، ولكننا لا نستطيع الدخول إليها ونحن في هذه الحالة..

يقول القس: هذا ما يبدو، مهما كان سبب رحلتكما معا فلا أستطيع أن أمنعكما عن بيت الله، هناك غرفة يمكن أن تنامي فيها، يلتفت نحوه، لا يسأله من هو، ولا ما هي علاقته بهذه المرأة، يشير فقط إلى مؤخرة الكنيسة: هناك مكان لجوادك في الحظيرة، يمكنك أن تقضي معه الليل، هيئ لنفسك فراشا، تأكد من إغلاق الباب من الداخل، يمكنك دخول الأبرشية من الباب الموجود في الحظيرة..

يسير «جوفان» إلى خلفية المبنى، يقبل القس ضيافتهم في سهولة، لا يلقي أي أسئلة شخصية، الحظيرة صغيرة ودافئة وبها الكثير من العشب، ليس نضرا ولكنه صالح لإطعام الجواد، يجتاز الباب الصغير إلى داخل الكنيسة، يحس بالرهبة وهو يشاهد الشموع المشتعلة ويشم رائحة البخور، المرة الأولى التي يرى فيها كنيسة من الداخل، وفي مقدمتها تمثال لأم تحمل طفلها، وخلفهما صليب خشبي ضخم، وحولهم دائرة من الشموع المشتعلة، وأيقونات ملونة معلقة على الجدران، تجلس «ماريانا» فوق مقعد خشبي وقد ضمت يديها، تبتهل وتبكي، تتطلع إلى

الأم وابنها في ضراعة، يجلس قريبا منها، لا يدري ماذا يفعل، ولكنه يحس بالأمان، أخيرًا وجدا ملجأ في هذا العراء الممتد، ولكن يقلقه أنه لا يعرف أين اختفى القس العجوز؟ «ماريانا» غائبة في عالمها، يجد نفسه يردد في خفوت آيات القرآن، لم يكن يحفظ منها الكثير، يعيدها أكثر من مرة، يظهر القس من باب جانبي، يشير لهما أن يتبعاه، يقودهما إلى حجرة صغيرة، فيها سرير صغير، ومنضدة عليها شمعة مضيئة، ورغيف من الخبز، وطبق فيه قطع من الجبن، يقول للمرأة: ستنامين هنا وحدك، وسينام رفيقك في الحظيرة، تذكرا أن هذا بيت الرب، وعليكما احترامه..

يغادر الغرفة، يكتفي فقط بهذا التحذير، يجدا نفسيهما جالسين، ينظر كل واحد منهما للآخر وهما يلتقطان أنفاسهما، خرجا للتو من رحلة الموت، وأمامهما منضدة عليها خبز وجبن وماء، يقول فجأة: لماذا ذكرت له وجهتنا؟

تقول: لم أكن لأكذب عليه، إنه قسيس، وسيحفظ سرنا، الرب يلزمه بذلك..

لا يصدق حكاية الرب كثيرًا، ولكنه يصمت، يتقاسمان الرغيف وقطعة الجبن وجرة الماء، توشك الشمعة الوحيدة أن تنطفئ، ينهض، لا يريد أن يغضب القس الطيب، يعد فراشه من القش الجاف ويستلقي عليه، خشن بعض الشيء، لكنه مريح ودافئ، يغمض عينيه، يسمع صوت حركة خافتة، يحس بجسدها وهو يندس بجانبه، تنام على ذراعه وهي تغمغم: لن أفعل أكثر من ذلك، فهذا بيت الرب وهذه مجرد حظيرته، لكن لا أستطيع النوم وحيدة بعد الآن، ضع ذراعك الضخمة فوقي وتنفس في شعري ودعني أنام..

جسدها نحيف ومقرور، لا يستحق كل ما مر به، تلتصق فيه بمؤخرتها التماسا للدفء، يحس بنفسه وهو ينتصب، ولا بد أنها أحست بذلك أيضًا لأنها زادت من التصاقها به، فليغفر لهما الرب معا، لأنهما كانا في آمس الحاجة لهذا التلامس حتى يستطيعا النوم.

في الصباح بعد أن يتبدد الضباب وتظهر الشمس يجدهما القس في انتظاره أمام باب الكنيسة، ينظر إليهما في دهشة، كان يعتقد أنهما سيسرعان في الهرب، ولكن المرأة تمسك بعباءته وتقول بجدية: زوجنا يا أبتاه..

ينظر إليها القس في استنكار: ولكنكما تبدوان مختلفان، غريبان تمامًا..!

تقول: نحن رجل وامرأة، مسيحيان مخلصان، لا نريد أن نعيش في الخطيئة، لا نريد أكثر من رباط الرب المقدس!..

تمد يديها إلى أذنيها وتخلع قرطيها، تدسهما في يده قائلة: هذه هديتي للأم العذراء، سيسعدنا أن تبارك زواجنا..

تقبض يد القس على القرطين، يصمت «جوفان» مذهولا، يقول القس: أنتما في حاجة إلى خاتمين، وإشبين وإشبينة..

تقول: أنا أملك الخاتمين، والباقي عليك أنت يا أبي..

ينظر إليهما قليلا، تحاصره المرأة برغبتها القوية، لا يعرف شيئا عن الرجل، ولكن واجبه ألا يتركها تقع في الخطيئة، الله يعلم ماذا حدث في ظلمة الغرفة بالأمس؟! يقول: علينا أن ننتظر البستاني وزوجته خادمة الكنيسة..

يضع القرطين في جيبه ويعود إلى الداخل، يجلسان في الانتظار،

يقول «جوفان» مذهولا: أليس هذا خطأ؟ أنا مسلم، أنت تعرفين ذلك..!!

تقول: كان هذا قبل أن نهرب معا، أنت الآن «روبرتو»، كاثوليكي مخلص وترغب في الزواج بي، إذا سألك القس قل فقط إنك موافق، وستمضي الأمور بسلام..!!

تمد يدها لصدرها، تخرج كيسا صغيرا كان معلقا حول رقبتها، وتخرج منه خاتمين متماثلين، يقول: من هذا الروبرتو؟

تقول: إنه الاسم المحفور على الخاتم، اسم زوجي الراحل، سيكون اسمك منذ الآن، وستكون زوجي بدلا منه، أمام الرب وجميع الناس، لست الثاني ولا هو الأول، أنت زوجي دائمًا..!

لهجتها حازمة، هذا هو الطريق الوحيد المفتوح أمامهما، غير ذلك لا يوجد إلا الموت، يقبل رجل عجوز وبجانبه امرأة أكبر منه سنا، تقول «ماريانا»: حضر خادما الكنيسة، هيا نتزوج قبل أن يفوت الوقت..!

يدخلون جميعا إلى الكنيسة، وعندما يخرجان لا يكون هناك شيء قد تغير، غير أن عقدا إلهيا قد تمت مباركته، وخاتما عليه اسم غريب يحيط بأصبعه، وطريقا عليهما مواصلة السير فيه، ونهرا ممتدا يأخذ في الانحناء ويقودهما لمنتهى الرحلة، يشع وجه «ماريانا» بالسعادة، تقول: بدأت أشم رائحة بلدتي..

تبدو المياه ساطعة أكثر من العادة، تتقافز على صفحتها أسماك فضية، يخب الجواد سريعا، يجتاز بهما الحقول ويصعد التلال ثم يدور مع انحناءة النهر، يتساءل «جوفان»: إن كانت المطاردة قد انتهت، وأن الفرنسيس لن يستطيعوا ملاحقته إلى هذا المكان؟ ينظر إليهما الفلاحون الذين يسوقون الأبقار، ترفع «ماريانا» يدها وتلوح لهم

ضاحكة، يهتفون جميعا «بوناسيرا سنيورتا»، يتأملون وجهه الأسمر بقليل من الاستغراب، ولكن دون استنكار، هؤلاء هم الناس الذين سيعيش بينهم، يشبهون الفلاحين في قريته البعيدة، يقومون بالأعمال الشاقة ذاتها، ويمسكون الزرع باليد الحانية نفسها، يتنهد في ارتياح، ذات لحظة سيلقي بالبندقية في هذا النهر، وسيتعلم كيف يمسك سكين «المانشو» ويحصد عيدان الذرة كما يفعلون، تقول له: لم يعد لنا ماضٍ، سنحافظ على سرنا معا، لم يكن زوجي السابق من هذه البلدة، لذلك لن يلح أحد بالسؤال عنه، منذ الآن أنت رجلي، ليس لي رجل آخر، وعليك أنت أيضًا ألا تنظر إلى امرأة أخرى..

تبدو بلدتها مثل حلم، نهر منساب أمامها، وغابة تحيط بهما من الخلف، وخط من جبال رمادية مرسوم عند الأفق، تمتد على سفحه حقول محتشدة برءوس عيدان الذرة، بيوت البلدة متراصة في دوائر حول الميدان حيث توجد الكنيسة والنافورة، لكنها ليست بيضاء، مثل البلدات الأخرى، كل بيت له لون مختلف، كقوس قزح، تقول مبتهجة: هذه هي البلدة الوحيدة الملونة، كل بيت له لون ثابت، وعندما يهدم يعاد طلاؤه بنفس الألوان، عدد البيوت ثابت أيضًا، ستمائة بيت، حتى المواليد والوفيات ثابتة، نحن أيضًا يا «روبرتو» سنثبت في هذا المكان ولن ينتزعنا منه أحد..

تفتح أبواب البيوت، تخرج نساء يتبعهن أطفال، يتطلعون إلى الجواد السائر، تحاول النسوة التعرف على صورة الفتاة الصغيرة التي كانت تسعى في شوارع القرية منذ سنوات قليلة، ويتابعهم رواد الحانة وهم يمسكون كئوس الـ«تيكيلا»، ويتأملهما الجزار الذي كان يهم بقطع الخنزير إلى نصفين، تواجههم «ماريانا» جميعا بوجه جادٍّ، بلا تجهم ولا ابتسام، تريد أن تفرض رجلها الجديدة على الجميع،

دون أن يناقشها أحد، يتوقف الجواد أمام بيت صغير بلون البرتقال، تهبط وتمد يدها لتقوده، تطرق الباب قليلا ثم تدفعه بيدها حتى ينفتح، ويدخلان معا..

فناء خالٍ ومظلم، مقعد طويل مغطى بأغطية ذات خيوط ملونة، تنادي «ماريانا»: يا أمي، لا يجبها أحد في البداية ثم تظهر امرأة عجوز من جوف الظلمة، جدائل شعرها رفيعة ومزينة بالخرز الملون، عيناها ضيقتان تحيط بهما التجاعيد، تحدق فيهما قليلا، تهرع «ماريانا» وتحتضنها بشوق وقد طفرت الدموع من عينيها، لا تستطيع الأم أن ترفع عينيها عن الرجل الذي يرافقها، تبتعد قليلا عن حضن ابنتها، تقول لها: متى أصبح وجه زوجك أسود إلى هذا الحد، هل هو رجل آخر؟

تضحك «ماريانا» وتقول متظاهرة بالمرح: إنه الرجل نفسه يا أمي، شمس «فيراكروز» تركت فقط أثرها على وجهه.

تشهق الأم وتواصل التحديق فيه، يثبت «جوفان» أمام نظراتها، تبدو غير مرتاحة للونه، لا تجرؤ على الاقتراب منه، تتراجع وهي تغمغم: لا بد أنكما جائعان ومتعبان، تنسحب من أمامه، تغيب «ماريانا» أيضًا عن عينيه، يقف حائرا في ساحة المنزل، يلتفت إلى باب البيت المفتوح، يجد جمعا من الأطفال والنساء ينظرون نحوه، يتأملون حركاته بعيونهم البراقة، ويغلق الباب في وجوههم، هل يمكن أن يألفوه ويألفهم، هل يمكن أن يحدث هذا قبل أن يأتي الفرنسيس؟ تأتي الأم حاملة أطباقا من الطعام البارد، وتأتي «ماريانا» أيضًا ببعض ثياب جافة، تنظر الأم نحوها بنظرة ثاقبة، ترد عليها في صوت قاطع: أعرف أنها ملابس والدي، نحن في حاجة إليها..

تنسحب الأم، وتضع «ماريانا» الثياب أمامه، تجلس بجانبه، وتضع

بعض الطعام في فمه، انتهى الكابوس، للحظة ينسى التوتر والخوف، ويحس بلمس أصابعها، لا يعرف نوع الطعام، ولكنها تهبه شفتيها في قبلات خاطفة فيصبح طعم كل شيء أجمل، لا يعرفان لأي سلطة تخضع هذه البلدة، لا يهم قبل أن يكون جنديا كان فلاحا، وسيعود فلاحا من جديد، يواصلان تناول الطعام، يتوقفان، رغم جوعهما الشديد، ليتبادلا قبلات خفيفة، تمسك بيده حتى ينهض معها، تقول: تعال، يجب أن نزيل من على جسدك آثار المطاردة..

تخرج من البيت وقد بدأت ظلمة الليل في الهبوط على البلدة، تصبح الشوارع خالية ومقفرة، تظل ممسكة بيده ويعبران الطريق معا، يتجهان إلى حافة النهر، يدخلان في تلافيف من الأعشاب والشجيرات الصغيرة التي تخفي الشاطئ، تهمس له: هذا هو مكاني السري، طوال سنوات طفولتي وأنا أستحم في هذا المكان، تبدأ في خلع ثيابها، يتلفت حوله ثم يراقب عريها مبهورا، يهتف: ألم يكن أحد يراك ؟ تقول: ربما لم يرني أحد، وربما رآني الجميع، المهم أن يأخذ جسمي نصيبه من برودة الماء، تغوص بكامل جسدها، ثم ترفع رأسها وتبعد خصلات الشعر عن وجهها، لا يملك إلا أن يخلع ثيابه هو أيضًا، كان يعشق الاستحمام في النيل مثلها تمامًا، وكان له مكانه السري، للمرة الأولى ترى عريه كاملا، تتأمل جسده الأسود المتناسق، أطرافه طويلة، مثل شجرة متهدلة الأغصان، يراها تحدق فيه، يحاول أن يخفي عورته بكفيه، تبتسم لخجله، يتذكر أنها تركته، تركت الجميع، يرون عريها في بيت الدعارة، يكتشف أن الماء أكثر برودة أكثر مما يظن، وأن الأرض رخوة مليئة بالطحالب، يسعى سريعا إلى أحضانها، يتلامس عريهما للمرة الأولى، يكتشف أن الأمر كان يستحق هذه الرحلة المتعبة، الجرح الذي في صدره قد تجلط، بقية ضئيلة من ألم تغز صدره، ولكنه يرتاح

على صدرها، يحس بنهديها وهما يلتصقان به فيزول الألم، يجد نفسه مأخوذا بسحر ملامستها، ينساب النهر بين جسديهما، يذوب الغبار الذي تراكم عليهما من الطريق، يزول الدم المتجلط وتتبدد رائحة الذئاب، يقبلان بعضهما برغبة ونشوة، ويشعران بخفة جسديهما، تدور حولهما الأمواج، تشاركهما النشوة، يقول مندهشا: أليس من الغريب أن أضمك بين ذراعي، وأنا لم أرك إلا مرة واحدة، والأغرب أن يغفر جسدك لي؟! تلتصق به أكثر، تريد التوحد معه، تقول: الرجل يحب بعينيه، جزء بسيط من حواسه، ولكن المرأة تحب بجسدها كله..

تزداد الظلمة والبرودة، يخرجان من النهر وهما يرتعدان، يعودان للمنزل مبللين، ويصعدان سلما ضيق الدرج، تقوده إلى حجرتها القديمة، غرفة صغيرة مليئة بعرائس وشيلان ومراوح ملونة، وسرير صغير، ومرآة ملتصقة بالجدار، أشياء كثيرة لم يبالي برؤيتها، يكفيه جسدها العاري وهو يضوي من فرط الرغبة، يتسع الفراش على صغره لجسديهما معا، يتحمل حركتهما المتواصلة، تملأ تأوهاتهما الغرفة الصغيرة، يكتشف أن جسده لم يعد يخصه، إنها تستخدمه كما تريد، توقظ في داخله خبرات ورغبات لم يعلم عنها شيئا، تتحرك فوقه بخفة، يسمق نهداها لأعلى، ويشرئب شعرها، وتغمر جسده بنبضات متتابعة مبهجة، يغوص «جوفان» في دفء لا توجد فيه مطاردات، يقطع علاقته بعالمه القديم، ويدخل منتشيا إلى عالم جديد، تنام على صدره وهي تسترد أنفاسها، ويغمض عينيه وهو يمسك ثديها، ويغمر الغرفة ظلام دافئ، هكذا سيكون الأمر دائمًا في أرضه الجديدة.

يسود البلدة ظلام هادئ، وتنام الحمائم على أسطح البيوت، ويسكن السمك في أعماق النهر، ولكنه سكون خادع، تخترقه أصوات من صهيل الخيل وصياح خشن، ومعاول تهوي على باب المنزل حتى

يتحطم تحت وطأتها، ينهض مفزوعا، تبحث «ماريانا» عن شيء تغطي بها عريها، ولكن خطوات غليظة تدق الدرج، توشك أن تسقطه، صوت يصيح: أيها الأسود، اخرج إلينا، هل عرف الفرنسيس الطريق إليه؟ لكن القادمون يصرخون بالإسبانية، يدفعون باب الغرفة حتى يسقطونه على الأرض، يطلقون صيحات ظافرة وقد عثروا عليه، خمسة من الجنود يرتدون زي المتمردين، لا يتركون له فرصة للمقاومة، ينقضون عليه، يجذبونه من الفراش ويجرونه على الأرض، يحاول دون جدوى أن يقاومهم، تصرخ «ماريانا» وهي تتشبث به، يدفعونها بعنف، يسحبونه على وجهه هابطين الدرج، خارج البيت يقف المزيد منهم، خمسة آخرين، رجال ضخام فوق جيادهم، يلقونه أمامهم، تحمحم الجياد وتحرك سنابكها، توشك أن تركله، يصيح واحد منهم: أيها المتوحش، كيف تأتي إلى منطقتنا بعد كل ما أحدثته جماعتك من خراب، كم واحدا قتلتم منا؟ لا قدرة له على الكلام، يركله جندي في جنبه بحذائه الضخم، يستيقظ أهالي القرية، يتجمعون حولهم في دائرة واسعة، يسمع صوت صراخ «ماريانا» من الداخل، هل يضربونها أم يغتصبونها، يتقدم الرجل الضخم الثاني، يدوس على جسده بجواده، تنغرس في بطنه، يواصل الرجل الصياح: جئت طلبا للعقاب، وستعاقب نيابة عن بقية المتوحشين من رفاقك.. من الذي وشى به؟ قس الكنيسة، لم يبتلع الكذبة؟ لم يرض بالقرطين؟ يتقدم اثنان من الجنود، يوجهان بنادقهما نحو رأسه، ولكن الرجل الثالث يرفع يده رافضا: لا نريد له موتا سريعا، لن نسهل عليه الأمر، سنترك على جسده علامات لن ينساها، يمد يده إلى سرج حصانه، يخرج سوطا يلوح به في الهواء، يفعل الآخرون مثله، يخرج كل واحد منهم سوطا، يفرقعه في الهواء، يهبطون من فوق جيادهم، يحيطون به دون منفذ للهرب، يهوي أولهم على جسد «جوفان» العاري،

وهو يصيح: هذا من أجل قتلى «مادلين»، يشق السوط جلد ظهره مثل لسع النار، يتأوه في صوت مكتوم، تعاجله الضربة الثانية، يصيح الثاني: وهذه من أجل قتلى «بوبيلا»، وتهوي الضربة الثالثة: وهذه من أجل «قرطبة»، تتوالى أسماء المدن السبع التي حاربوا فيها، يتحول جسده إلى مزق دامية، حارب في بعض من هذه المدن، لم يفعل غير أنه أطاع الأوامر، لم ير وجوه الذين حاربهم، ولا يعرفهم، ولو أرخى بندقيته قليلا لقتلوه هم، يتقطع لحمه وتستنزف ماء الحياة من جسده، يزحف على الأرض، غير قادر على تفادي السياط، التي تلاحقه، تهوي على ظهره ورقبته وذراعيه وساقيه، يحتاج الأمر لمعجزة حتى يتوقفوا قبل أن يلفظ أنفاسه، يقبض بأصابعه على الأرض، يود لو تنشق الأرض وتبتلعه، تمنحه هبة الموت بلا ألم، لم تعد هناك أصوات غير صوت السياط وهي تشق الهواء ثم تشق ظهره، يصل الألم إلى درجة تشل إحساسه، يكف جسده عن المقاومة، يرقد هامدا ثابتا في مكانه، تهوي السياط دون ردة فعل منه، يتوقفون وقد أصابهم التعب والكلل من كثرة الضرب، سكن جسده ولم تعد هناك إثارة في جلده، يقول أحدهم: مات؟ يرد عليه الآخر: سيموت. يركبون خيولهم وينصرفون جميعا، ينفض أهل القرية من حوله، يغلقون أبواب بيوتهم في صمت، يتركون الجسد الدامي ملقى على الأرض، ملطخا بالدم والطين، ساكنا تمامًا، والقمر يلقي على جسده ضوءا شاحبا.

-١٨-

ينطلق القطار المتجه إلى روما بلا توقف عبر البلدات الصغيرة، لا تجرؤ «شارلوت» على النظر من النافذة، لا تريد لأحد أن يرى علامات الدنس على وجهها، أو يشموا رائحة النجاسة التي تنبعث من جسدها، لا تكف عن الارتجاف، تريد أن تعترف بتلك اللحظة القاتلة من الضعف، أن تبكي بحرارة وتبتهل بصدق من أجل الغفران، «بابا الفاتيكان» هو وحده القادر على تطهير روحها الخاطئة، وتخليص جسدها من سموم «نابليون»، منذ الصباح وهي لا تكف عن الصراخ في جميع من يحيطون بها في القصر، تصيبهم بالرعب وهي تتحرك كالمحمومة في الأروقة، تريدهم أن يحضروا ثيابها ويجهزوا حقائب السفر، تريد عربة خاصة في القطار، وجناحا ملكيا في أحد فنادق روما، وإرسال كمية من البرقيات إلى الفاتيكان وبقية السفارات، لا تتحمل الانتظار، ولا تطيق جسدها، جسدا ملوثا لم يعد يخصها، تهرع مسرعة لتقفز للعربة التي ستقلها للمحطة، يصيبها هتاف الذين خرجوا لوداعها بالرعب، ربما كان القتلة مندسين بينهم، لا تتناول طعاما ولا شرابا على القطار، السم يمكن أن يأتي من أي مصدر، تكفي تلك البذور الملوثة في داخل رحمها، تبتعد زرقة البحر، وتتراجع الجبال والغابات، وينفث القطار دخانا كثيفا لا ينجلي إلا بعد بضعة ساعات، عندما تظهر بيوت روما: سقوف كأبية من القرميد الأحمر، وتماثيل من رخام مبتورة الأعضاء،

وجوهها مليئة بالبثور، وعيونها فارغة، لا شيء نقيا في هذه المدينة إلا نوافير المياه التي لا تكف عن التدفق، تحملها العربة إلى فندق عتيق وسط المدينة، أمامه ثلاث نوافير وبقايا معبد قديم، تلتقط أنفاسها وتعلن للجميع أنها في سبيلها لمقابلة البابا، لا.أحد يعرف الغرض الحقيقي الذي جاءت من أجله.

في اليوم التالي تنتبه «روما» لوجودها، تمتد الأبسطة الحمراء على درج الفندق، ويأتي الحرس السويسري الخاص بالبابا بثيابهم التي صممها مايكل أنجلو، يقفون أمام الفندق، ويقبل الدبلوماسيون والمغامرون وملوك المنافي وتجار الصكوك، يتجمعون في البهو الذي يكسوه مخمل عتيق مترب، يريدون مقابلتها ولو لدقائق، يسعون لتقبيل يدها الملوثة، وأطراف أصابعها التي كانت ترتجف وهي تنغرس في لحم العبد الأسود، تعلن «شارلوت» للجميع أنها لا تستطيع مقابلة أحد قبل أن تقابل البابا، لا قدرة لها على مواجهة شمس روما الساطعة، ولا الزحام الذي يمكن أن يخفي القتلة، تستقبل فقط «كرادلة» الفاتيكان، يريدون ترتيب تفاصيل المقابلة الموعودة مع البابا، يرددون عليها بلا كلل: «البابا مريض، من فضلك يا مولاتي، لا تثقلي عليه»، يتوسلون مثل الأطفال وهي تسأل نفسها: هل يعني هذا أنه فقد قدراته، هل أثر المرض على قدرته للغفران؟ تستمع دون تعليق، وتعتصم في غرفتها دون نوم، تمسك بالقلم للمرة العاشرة، ولا تستطع أن تكتب إلى «ماكس»، يبدو بعيدًا في أرض بعيدة، حتى أنها لا تستطيع أن تتذكر ملامح وجهه، لا تستطيع أيضًا أن تقترب من أي طعام لأن عملاء نابليون يملئون المدينة، تشعر بالعطش الشديد وهي تراقب آنية الماء والشراب ولا تستطيع أن تمسها، وعندما يأتي الصباح تجد نفسها مجهدة تمامًا، لم تذق لحظة من النوم أو الراحة، لا ترتدي فقط ثوب الحداد الأسود، ولكنها

ترى هالات السواد مطبوعة حول عينها، لا تستطيع أن تخفيها، تشعر بجسدها مضطرما ولا بد أن أصابعه السوداء قد تركت آثارا أخرى عليه، ترتدي قبعة سوداء كبيرة تخفي ملامحها، أنثى عنكبوت ضخمة تهبط فوق درج من رخام أبيض، يرفع الحرس رماحهم إلى أعلى لتحيتها، وتقف العربة المزدانة برسوم «البابوية» في انتظارها، كل شيء يشي ببهجة لا تفهم مبررها، ومرح لا تشعر به، تمضي العربة في خيلاء، ويرفع الناس قبعاتهم، يحيون امرأة بائسة لا يرونها، لا يعرفون مدى الحزن الكامن في أعماقها، تزيح الستائر وتتطلع لإحدى نوافير الماء، خيوط رائقة ترتفع عاليا تتخللها أشعة الشمس، رذاذ مضيء يحمم تمثالا عاريا لإحدى حوريات البحر، سرينية خرجت لتغوي أدوسيس في متاهته، تناديها أيضًا، تحدد مصيرها، نجاة أو موتا، لا يهم، تصيح في السائق ليتوقف، تصهل الخيول محتجة وتحدق فيها الوصيفات مندهشات، تفتح الباب وتهبط مسرعة، تسير إلى حافة النافورة وتميل عليها، تحدق في الماء الذي يترقرق، تغرفه بكفيها، تحاول الشرب فيسيل الماء على وجهها وثوبها، تشرب كما تشرب حورية البحر كل يوم، ماءً نقيا دون سموم، لم تصل إليه أصابع «نابليون» بعد، ستشرب هكذا كل يوم، لن تترك نافورة حتى تشرب منها، يهبط أفراد الحرس من على خيولهم، يراقبونها في صمت ودهشة وهي تستدير عائدة للعربة، تأمر السائق بمواصلة السير، مبللة ولكن مروية، هاربة من محاولات التسمم، تدق الأجراس، تتوافق مع دقات قلبها، توقف العربة مرة أخرى وتعبر ساحة القديس بطرس سائرة على الأقدام، كان عليها أن تعبرها على ركبتيها، لعل هذا يطهرها قليلا، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك، خاصة أمام «الكرادلة» الذين يقفون بأرديتهم القرمزية في صف واحد، يغمغمون بكلمات لاتينية وهم يصافحونها،كأنهم يتمتمون

بصلوات وتعاويذ مجهولة، يختلط العطر بالبخور وهي تخطو وسط أبهاء «مايكل أنجلو»، تطالع رسوم «الفريسكو» للملائكة وهم في صورة أطفال بأجنحة صغيرة، والقديسين بوجوههم المعذبة، لا مكان لشياطين «نابليون»، هذه الأسوار العالية والصلبان المرفوعة ستمنع دخولهم، يرافقها الكردينال «أنتونيللي» سكرتير البابا، يقول بصوته الخافت الذي يوحي بالتآمر: سيستقبلكم نيافة البابا بعد أن يفرغ من قداس الصباح..

تسمع التراتيل قادمة من مكان ما، وتشم رائحة اللبان والبخور، تجلس مجهدة على أحد المقاعد، تود لو تستلقي على الأرض وتستغرق في نوم عميق، لا يتركون لها الفرصة، يتوافد الكرادلة ويصطفون في جوانب القاعة، يتطلعون إليها وهي جالسة في المنتصف، تحس بنظراتهم تخترقها، هل يقرءون علامات السواد على جسدها؟ ترتفع الهمهمات، ترى البابا بقامته الضخمة وعباءته المزركشة وهو يدخل القاعة، البابا «بيوس التاسع» الذي باركها من قبل أكثر من مرة، ولكنها لم تكن يائسة مثل هذه المرة، ترتمي على الأرض فجأة وهي تشهق، تمسك بأطراف ثوبه محاولة أن تقبلها، تحس بقبضته وهي تمسك بذراعيها ليساعدها على النهوض، يبدو وجهه عجوزا ومليئا بالتجاعيد، ينتمي لزمن آخر، يتركها فقط تقبل خاتمه، تشهق بالبكاء، تحدثه بالإسبانية والفرنسية والألمانية، لا تدري بأي لغة يمكن أن يفهمها، يأخذها من يدها، يظل صف «الكرادلة» واقفين جامدين، سحابة قرمزية عابرة، يدخلان إلى غرفته الخاصة، ليس معهما أحد، لا تستطيع الوقوف في مواجهته، تخر على ركبتيها وتهتف من أعماقها: في قلبي سواد يا أبتي، وفي روحي دنس، طهرني وباركني..

لا يفهم ماذا تقصد، وكيف له ذلك؟! لا يترك لها الفرصة لتتحدث،

لتحكي له عن خطيئتها، يتحدث هو وحده، عن بلد بعيد عبر المحيط، عن الأخطاء التي وقع فيها زوجها، أفكاره الليبرالية التي جعلته يبتعد عن الكنيسة ويحرمها من ممتلكاتها، لدرجة أنها لم تعد ترسل له الخراج الذي تعودت الكنيسة الأم عليه، تفطن فجأة أنه يتحدث عن النقود، هو أيضًا يتحدث مثلهم، لا يدري أنها تحترق، تتوسل إليه أن يستمع إليها، يؤكد لها أنه ليس ضدها، ولا ضد زوجها، بل إنه يصلي لهما كل يوم، يصعب عليها مهمة الاعتراف بهذه الثرثرة، تريد فقط أن تقول له إنها فعلت ذلك لأنها خائفة لحد الموت من قتلة نابليون، وهذا بالضبط ما دفعها لأن تأخذ العبد الأسود إلى فراشها، لم ترغب في الجنس حقا ولكنها كانت تبحث عن لحظة رفقة تنقذها من الوحدة، وعن دفء يعيد الأمان إليها، لكنه لا يريد أن يستمع، تصرخ عشرات الأصوات بداخلها، لكنها لا تصل إليه، تقول فجأة: أتوسل إليك يا أبتي، أنا متعبة وأريد مكانا أنام فيه، وجائعة وفي أمس الحاجة لطعام آمن أتناوله!..

يبدو البابا مهتزا، تظهر عليه علامات الخوف دون مبرر، كأنها تتحدث بلغة غير مفهومة، لماذا لا يحس بالألم الذي بداخلها، تتجول في الغرفة، تتكلم وتصيح تريد أن تخبره بالسبب الحقيقي الذي جاءت من أجله، يفتح الباب ويدخل الكاردينال أنتونيللي، يحاول أن يهدئها، سنصلي لك جميعا، تصرخ فيه: لست في حاجة للصلوات، لا أستطيع العودة للفندق، ولا أريد العودة إلى «ميرامار»، أنا بحاجة إلى مأوى هنا خلف هذه الأسوار..

في الفندق يوجد طعام مسموم، وقتلة مختبئون تحت أسرّة النوم، وفي أسفل «ميرامار» هناك القبو الذي يوجد بداخله العبد الأسود، فأين يمكن أن تذهب؟! ينظران إليها في فزع فيثيرانها أكثر، ما تطلبه

إنساني وبسيط، لماذا يعاملانها كإمبراطورة وهي في حقيقتها مجرد امرأة مفزوعة. البابا كان مفزوعا أكثر منها، لا يرى فيها إمبراطورة لبلد كاثوليكي ضخم فقط، ولكنها أيضًا تمت بصلات قرابة من الدرجة الأولى لكل ملوك أوربا، امرأة بهذه المكانة لا يمكن أن يرفض لها طلب، يقول أخيرًا: لا تقلقي يا ابنتي، سنجد لك مكانا بيننا، سيجهز لك «الكاردينال أنتونيللي» مكانا مريحا، سنضعك في أكثر الأماكن أمانا في الفاتيكان..

يلتفت نحوها ويحني رأسه بابتسامة باهتة، كأنه فعل كل ما في وسعه، تقول في توسل: ولكني أريد أن أعترف لك يا أبتي، ما زال السواد يسكن في داخلي، ولن أتحرر منه إلا بالاعتراف..

يقول في عجلة: فيما بعد، أنت هنا والوقت ما زال أمامنا، أما الآن فورائي مواعيد مسبقة..

يسرع خارجا كأنه يعدو، تنزلق العباءة من فوق كتفه فلا يتوقف، يطلب منها «الكاردينال» أن تتجول بين أروقة الفاتيكان حتى يجهزوا لها الغرفة، تخرج فتجد المرافقين في انتظارها وهم شاحبو الوجوه، يسيرون بها إلى غرفة روفائيل، فنان النهضة الكبير، لوحات متصلة تغطي كل الجدران، قادة وقديسون ومزيد من مشاهد الأسلحة والحروب، من الذي أدخلها إلى هذا المكان، يلمح الكاردينال علامات الانزعاج على وجهها، يدخل بها سريعا إلى كنيسة «سستين»، يشير إلى السقف الذي قضى «مايكل أنجلو» أربع سنوات في رسمه، تتوقف مبهورة أمام قصة الخليقة، توشك الأجساد المرسومة فوق الجدران أن تتحرك، تبدو كلحظة الخلق قبل أن يلحقها الدنس، قوية وفتية وينبعث الضوء من داخلها، يقول الرجل: عندما رسم «أنجلو» هذه الأجساد كانت عارية

تمامًا، كان عاشقا للجسد البشري بكل تفاصيله، ولكن البابا لم يتصور أن تعرض هذه العورات المكشوفة على جدران الكنيسة، استدعى الرسام رافائيل وأمره بتغطيتها جميعا، انظري إليها، أصبحت مغطاة الآن دون هاجس للخطيئة..

تشعر أنها في حاجة لمن يغطيها، الثياب التي ترتديها ليست كافية، كانت بحاجة لرداء يلتصق بنصفها الأسفل، يلغيه من الوجود، يشير الرجل إلى الحديقة الموجودة والتي تحتوي على المزيد من تماثيل الرسل والقديسين، تشعر أنها لا تستطيع أن تواجه ضوء العالم الخارجي، يكفيها هذا الضوء المعتم، تجلس في أحد الأركان وتأمر الجميع أن يتركوها وحدها.

تبقى ساكنة لفترة طويلة، ذاهلة عن كل ما حولها، يأتي الكاردينال ليقودها إلى مكان نومها، أعدوا لها مكانا داخل المكتبة، به سرير ضيق، وأغطية بيضاء لها شراشف ومناشف ومصابيح من الشموع، ورفوف لا تنتهي من المخطوطات القديمة، يتحرك الجميع حولها كالأشباح، تأتي راهبات من الدير الملحق بالفاتيكان، يعرضن عليها الطعام، يأكلن قبلها من الطبق نفسه حتى تطمئن، تأكل قليلا، تناولها واحدة منهن كوبا من اللبن، كان دافئا ومسكرا، تقول بصوت هامس: سيساعدك هذا على النوم، لم تكن هذه العذوبة لتخدعها، تصر على أن تشرب الراهبة منها أولا، تتناول منه بالفعل رشفتين، تراقبها «شارلوت» قليلا ثم تأخذ منها الكوب، طعمه لذيذ وكانت في أمس الحاجة إليه، مثل طعم اللبن الذي كانت تتناوله وهي طفله، لماذا تخلت عنها طفولتها كلها؟ أين ذهبت أمها الضاحكة وأبوها الحزين؟

تجلس على حافة الفراش، تتذكر أنها يجب أن تكتب لـ«ماكس»

الآن، البابا لا يجد وقتا ليستمع إليها، ربما يستمع هو ويمنحها غفرانا هي في آمس الحاجة إليه، تطلب منهم أوراقا ودواة، لا تدري إن كن قد أحضرنها أم لا، يحل الظلام على الغرفة فجأة، وتطفئ ريح غريبة كل أضواء الشموع، تختفي ثياب الراهبات البيضاء، وكعوب الكتب الجلدية، تحس بدفء وخدر يدبان في أطرافها، يغرقها على مهل في ظلمة عذبة، لا يهم الوقت مهما طال، لن تغادر أبدا هذا المكان الآمن، ولكنها حين تفتح عينيها لا تجد نفسها فيه، تتبين ببطء، ورغم الصداع الشديد الذي يخترق رأسها أنها نائمة على فراش مختلف، في غرفتها المستأجرة داخل الفندق العتيق، في الفراش الذي عجزت على النوم فيه من قبل، والذي يختبئ القتلة تحته،كيف حدث هذا؟ ومن الذي أخرجها من مكمنها الآمن؟ لا يوجد هنا من يمكنه حمايتها، حتى العبد الأسود ليس موجودا! تنهض من الفراش، لا تكاد تخطو حتى تحس بالغرفة تدور بها، تهوي على الأرض، جسدها مخدر وأطرافها رخوة، يستيقظ عقلها ولكن جسدها ما زال مغيبا، لقد تم خداعها، البابا مارس عليها الخديعة بنفسه، تظاهر بقبول استضافتها ثم تخلص منها سريعا، تركها للقتلة دون أن يأبه حتى بسماع اعترافها، تصرخ كالمجنونة، لا يهم فليأت القتلة الآن، تواصل الصراخ، يفتح الباب وتدخل وصيفاتها، هل كن معه، هل شاركن في مؤامرة تخديرها، هل يسهلن أيضًا وصول الأعداء إليها؟ تصرخ: خذوني إلى ميرامار في الحال، أخرجوني من هذه المدينة الخادعة.

إذا كان البابا قد فعل ذلك، فمن يمكن أن نثق فيه في هذا العالم الواسع؟ كل شيء إذن مباح، تشعر بطعم المرارة، مرارة لا تنسى، إمبراطورة المكسيك المعتوهة التي تم التخلص منها، أضحوكة روما التي تبحث عن مأوى وطريقا للخلاص.

تجمع أمتعتها على عجل، لا تتوقف حتى لتأخذ جرعة من ماء النوافير، فقدت روما ضياءها وتسللت العتمة إليها، تشهق في راحة والقطار يبتعد، يتخلص جسدها تدريجيا من آثار المخدر، ولكن روحها لا تتعافى، تحدق بشك في كل ما يحيط بها وترفض أن تتناول أي شيء، الراهبات يشاركن في الخديعة فما بال خدم القطار! تصطك العجلات بالقضبان الممتدة، ويكون الدخان سحابات سوداء، تلوث أجنحة الطيور، لا تعرف ماذا ينتظرها، ولا إلى متى ستتواصل رحلة الهرب؟! والمكسيك تزداد كل يوم ابتعادا، تغفو فتوقظها الكوابيس، تهبط من القطار فتجد العربة في انتظارها، والوجوه المريبة في كل مكان، كيف أصبح العالم معاديا لهذه الدرجة؟! تظهر «ميرامار» فوق التل، تحيط بها أشجار السرو، كلما غادرتها عادت إليها وهي في أسوأ حالٍ، الحديقة تزداد ذبولا، والبحر يفقد زرقته، يصبح كالرصاص المنصهر.

تصرخ في الوصيفات وهن يقمن بإعداد حمامها، لا أحد يعرف ماذا يوجد في هذه المياه، ولا تلك الزيوت العطرة التي يضفنها، تصرخ فيهن أن يتركنها وحدها، ترى الخوف في عيونهن جميعا وهن ينسحبن، تطلب رئيس الحرس، يقبل مرتابا من حدة مزاجها، تسأله مباشرة: أين حارسي الأسود؟

يقول مترددا: كما أمرتني بالضبط، ملقى في القبو..

تصرخ فيه: كيف تتركونه طوال هذه المدة، أحضروه إلى هنا..

يرتج على الحارس ويتراجع من أمامها، تدرك الآن فقط أن هذا الأسود هو الوحيد الذي ليس طرفا في المؤامرات التي تحاك ضدها، وعندما يأتي القتلة سيكون وحده القادر على صدهم، تظل واقفة في مكانها حتى تراه داخلا من باب الغرفة، عاريا إلا من سروال يلتف حول

وسطه، عيناه حمراوان ومتعبتان، لحيته طويلة، وشفتاه ضخمتان مثل كل الحيوانات الجائعة، ولكن وجهه منتفخ من أثر الكدمات، وصدره العاري ممتلئ بالجروح، تغطيه بقع من الدم الجاف والأوساخ، رائحته غير محتملة، تهتف في سرها: آساي.. آساي.. ما كان جدوى هذا كله، يظل واقفا جامدا، لا يدري ماذا ستفعل به هذه المرة؟! كيف يمكن لحيوان قادم من أعماق الغابة أن يفهم ما الذي يعتمل بداخلها، وما الذي تمر به من عذابات، كيف سعت للغفران وانتهى الأمر بخداعها؟! لا تريد أن ترى تلك النظرة التي تطل من عينيه، خاصة وهي لا تعرف سببها، من فرط الحنق أو الإحساس بالذنب، تقوده إلى الحمام الملحق بغرفتها، تجلسه في المغطس البيضاوي الذي أعدته الوصيفات، يلوث سطحه الأبيض اللامع بالأوساخ العالقة به، يغوص جسده في الماء الدافئ والسوائل المعطرة، تتأمله مثل كائن غير بشري، غير قادر على مواجهتها أو النظر إليها، ينتظر دائمًا أن تقوم بالخطوة الأولى، لا تذكر أنها قد حممت نفسها من قبل، يكفيها أن تجلس مسترخية في الحوض اللامع، وتقوم الوصيفات بكل شيء، كانت أكثر أهمية من أن تحمم نفسها، ولكنها تفعل ذلك الآن مع عبدها الأسود، تحممه كما لم تفعل أبدًا، تشعر أنها منومة، واقعة تحت تأثير تعويذة ما، ربما آثار مخدر «البابا» ما زال في جسدها، تصب الماء الحار على رأسه، تسمع دمدماته عندما يمس جروحه، تسأله: هل تتألم كثيرًا؟ يقول مترددا: هؤلاء الحرس عاملوني بقسوة بالغة، تقول: أنا الذي أمرتهم بذلك، أردتك أن تعرف أنك عبدي وأنني سيدتك، تذوب الأوساخ ويظهر جسده ناصعا بلون الأبنوس، يلفه شيء وهج، بعض من ضيائه الداخلي، من دنس الرغبة، تضع عليه المزيد من المنظفات، لا عطور، لا تريد أن تشوه رائحته، يداري عورته في خجل وهي تجففه، ترتجف هي أيضًا

ويفور رحمها بعصارة الرغبة، هذا الطقس، طقس الاستحمام الحميم لم تمارسه مع «ماكس»، هل كان ليسمح به؟ هل يمكن لجسده الشاحب أن يفاجئها كما يحدث ويفعله بها الجسد المتفحم؟ مرة أخرى تقوده إلى فراشها، لأن هذا هو الفعل المنطقي الوحيد، إذا كان البابا ذاته يمارس الخديعة والراهبات يقمن بدس المخدر فكل شيء مباح، يجلس في فراشها، تحيط به الملاءات الحريرية وأهداب من الدانتيلا، تختفي جروحه الصغيرة، وتتوارى الإهانات، تنزلق على جلده بنعومة، تغلق عينيها وتفتح له كل خلاياها، جسدها مشروخ وروحها منشقة، وليس غير دفء الشهوة يعيد لها الالتئام، تتلمس جسده، نحيفا ولكنه صلد، تلتصق به وتتغطى بجسده، تجعله حائلا بينها وبين العالم الذي يعاديها، يخترق دفئه أحشاءها، تستطيع أن تبقي ملتحمة به هكذا إلى بقية العمر، ليست في حاجة لشفقة أو اعتراف أو غفران، تهتف به: كن خشنا معي، أطلق الروح الحرة التي بداخلي، يتذكر فجأة أنها أهانته كثيرًا، هي خاضعة تحته الآن، ولكن يمكنها أن تأمر بقتله إذا بلغت أوج ذروتها، يقبل جسده المخاطرة، لا وقت للحسابات، حيوان الغابة الجائع يعوي بداخله، يستفز غرائزه، يحيطها بأنفاسه ويملأ فمها بلعابه، يحط عليها بثقله فتوشك أن تغوص في ظلمة جسده إلى الأبد، ثم يرتفع فتري سماء لم ترها وتبزغ نجوم مضاءة للتو، يستمد جسدها الخابي وهجه من فرط رغبته وتوقه وحيويته وشهوته ولهاثه الحيواني ورفضه لقيد العبودية، تندمل جروحه فجأة ويصرخ فيها: لن تذليني بعد ذلك، أنت مجرد جسد جائع، وأنا لم أعد عبدا، أنا جندي يغزو جسدك، لا تستوعب كلماته، ليس مهما، احتكاك جلودهما أكثر أهمية، تشعر بالألم وهو يجذب شعرها، يحاول أن يخلعه من جذوره، تهتف به أن يترفق بها، لا يفعل، يبدو كأنه يصارع التماسيح وسط نهر فوار، لا يتزحزح من فوقها، كأنه

مكانه الطبيعي، لا يهدأ إلا بعد أن تفقد وعيها، يشعر بالخوف ولكنه يواصل تحسس كامل جسدها حتى تستيقظ من جديد.

تتذكر أنهما يوشكان على الموت جوعا، لا أحد يجرؤ على دخول غرفتها، يضعون الطعام بالقرب من بابها، تهبط عارية، تحضر ما تجده منه وتطعمه بيدها، يكفيهما القليل، والرغبة المتوقدة تعوض ما يتبقى، تسترخي أخيرًا بين لفائف الفراش، عارية ومشبعة كما لم تكن من قبل، متحررة من أي خجل زائف، تقول له: لا تلمسني، تأملني فقط بعينيك، تأمل كل جزء من جسدي، أريدك أن تستوعب جسدي كله، حتى تظل تراني حين لا تراني، تشعر فعلا بوهج عينيه، حيوانها المفضل يحيطها بعينيه، تشعر بخلايا جسدها ترتعد تحت نظراته، يدب فيها جوع جديد، دبيب نمل في عروقها، وميض لاسع، تطلب منه أن يبعد عينيه ويلتصق بها، برودة الوحدة لم تعد تليق بها، هذا الدفء الإستوائي هو وحده القادر عليها، تنام على صدره وتغمض عينها، تقول: تحدث إليّ، لا تدع الصمت يأخذك مني، يبدأ في الغمغمة بفرنسيته الرديئة، تقول: هذه اللغة تنزلق من على لسانك، لا تناسبك، تحدث بلغة الغابة، يحرك فمه ويصدر أصواتا غريبة، يغير الصوت من شكله، تشعر أنه يبتعد رغم التصاقها بجلد صدره، تسمع دقات قلبه وهي تتسارع، يتكلم بشكل متواصل، يتوقف ليشهق، ثم يواصل الكلام في انفعال، لا تعرف أن كان سعيدا باستعادة لغته القديمة أم أنه يتألم من ذكرها، تقول: هذه الكلمات..لا يمكن أن تكون ارتجالية، هل لها معني؟ يقول: إنها حكاية، طقس.. ربما، عن امرأة وطائر، هكذا الأمر في الغابة دائمًا، تتساءل: امرأة كنت تعرفها؟ يقول: ربما، في الغابة لسنا عبيدا إننا آلهة لكل النساء، يواصل الحديث بلغته، يتوقف قليلا كل فترة ليشرح لها المعنى: كانت هناك امرأة وحيدة تسعى في الغابة وهي تحمل فأسا،

لم تكن ذاهبة للقاء عشيقها، العشق لا يستلزم فأسا، لكنها تريد أن تقطع شجرة، كانت امرأة قوية الجسد وفاحمة السواد، قطعة من الليل، توقفت أمام شجرة باسقة وبدأت تهوي على الجذع.. أرجوك لا تفعلي ذلك، تتلفت حولها، لا تدري من أين يأتي الصوت، لكن المرأة لا تأبه بالتحذير، تظل تهوي بالفأس على الجذع حتى يبدأ في الترنح، تظهر صاحبة الصوت أخيرا، ليست إلا مجرد طائر، كبير بعض الشيء، وريشه مليء بالألوان البراقة، ولكنه مجرد طائر يتحدث، لا يهم، في الغابة يتحدث الجميع، البشر والحيوانات والنباتات، يكرر الطائر قوله: لا تقطعي الشجرة، بين غصونها، هناك عشي وفيه أفراخي الصغار، لا يقوون بعد على الطيران، لكن المرأة قوية، تحتاج لأغصان الشجرة حتى تصنع سقفا لكوخها، ووقودا لطهي طعامها، وفي النهاية كان هذا التحذير من طائر.. مجرد طائر، تقول له متحدية: حاول منعي إذا استطعت، وتعود لتهوي على جذع الشجرة من جديد، يتوسل الطائر كثيرًا فتهدده بالفأس..

تسمع «شارلوت» أصوات ضربات الفأس وهي تملأ الغرفة من حولها، تهمس في خفوت: هل نساء الغابة بهذه القسوة؟

يصمت قليلا ثم يقول: الغابة قاسية على الجميع، علينا أن نتعلم كيف ننجو من فخاخها كل يوم، تميل الشجرة قليلا، يحاول جذعها أن يقاوم، ولكن غصونها الثقيلة تقودها للأسفل، يهوي العش، تتناثر الأفراخ التي تسكنه، صغيرة وضعيفة ولا يكسوها سوى الزغب، تصوص وتحرك أجنحتها في عجز، يصيح الطائر: لن تفلتي بهذا، ترد المرأة بلامبالاة: ماذا تستطيع أن تفعل، هل ستقتلني؟ وتواصل تقطيع الأشجار، تصنع منها حزمة كبيرة وتحملها فوق رأسها، وعندما تعود

في اليوم التالي لتأخذ حزمة جديدة، لا تجد الطائر، ولكنها ترى بقية الأفراخ متناثرة حيث سقطت، تجدها ميتة..

يهتز جسدها كأنها على وشك البكاء، يسألها في قلق: هل أتوقف؟

دون أن تدري تذكرها امرأة الغابة بنفسها، طموحها القاتل، وتلك الأنفس التي لا تكف عن التساقط من أجلها في ذلك البلد البعيد، تتماسك وتطلب منه مواصلة الحديث رغم لهجته الأفريقية المرعبة: تمر أيام كموج النهر، تضاجع المرأة رجالا عديدين، لا ترفض أحدا منهم كما يليق بامرأة فتية، تعاشر الرجال كما تأكل وتشرب، حتى حملت من واحد منهم، شخص عابر لا تعرفه تحديدا، ولم يكن ذلك مهما، لم تكن في حاجة لأن تمتلك رجلا حتى تظفر بطفل، المهم أنها ستمتلك ما في بطنها، ثمرتها الوحيدة، كانت ولادة متعبة حتى أنها رأت الموت يقترب منها، ولكنها بمساعدة نساء القبيلة نجت وظفرت بوليد جميل، عيناه مضيئتان كنجمتين، كانت سعيدة به، تحس برعدة منشية وهي تلقمه ثديها، وتحمله معها حتى عندما تذهب للنهر، كانت تضعه وتذهب لجلب الماء، أو تنشغل بالطهي، لم يكن يبكي كثيرًا، ولكنها في هذا اليوم بالذات سمعت صرخاته، وحين التفت مفزوعة، وجدت الطفل بين مخالب الطائر وهو يطير به مبتعدا، كان الطائر كبيرا بعض الشيء، وريشه مليء بالألوان، ومخالبه قوية، بكت المرأة وأخذت تعدو خلفهما وهي تتوسل، ولكن الطائر ظل يبتعد حتى اختفى عن بصرها..

تصرخ فيه أن يكف، هذه ليست حكاية من الغابة، لكنها كلمات جارحة، تغور في ذاكرتها، تروي تفاصيل حياتها على نحو مغاير، هكذا تم حرمانها من عرشها وزوجها ووريثها، ذات لحظة اعتقدت

أنها امتلكت كل شيء حتى ضاع كل شيء، أحاطت بها طيور «نابليون» الجارحة، لا يوجد أمان، حتى وهذه الغرفة مغلقة، وهذا العبد الذي يفرض سطوته على جسدها، لا أمان، تسمع أصوات القتلة وهم يتدافعون خارج الغرفة، لا رغبات تحركهم غير غريزة القتل، يزيحون الخدم والحرس عن طريقهم، ويقتحمون الغرف المغلقة حتى يتوقفون أمام غرفتها، الغرفة التي تشربت فيها قطرات متعتها الوحيدة، يزيحون صواني الطعام الموجودة أمام الغرفة، يقتحمون الباب رغم أنها قد أغلقتها بالرتاج، يتخلخل تحت ثقل أجسادهم، ينهض «آسي» بسرعة ويبحث عن شيء يرتديه، وعن شيء يقبض عليه في يديه، لا سلاح، يقف عاريا وفي يده شمعدان من الفضة، ينخلع الرتاج، وينفتح الباب فجأة على مصرعيه، تظل جالسة فوق الفراش، عارية كما هي، لا جدوى من المقاومة، يظهر القتلة جميعا، يسدون فتحة الباب، يحجبون أي أمل في النجاة، يزوم عبدها الأسود، لا يتقدمون، يتمهلون ثم يظهر من بينهم وجه مختلف، يشبه أخاها الأصغر «فليب»، ولكنه ليس هو، قناع متقن، ملامحه أشد خشونة وجسده أكثر ضخامة، هل انضم هو أيضًا للقتلة، يقول لها: لا بأس عليك يا أختاه، اقتحمنا الغرفة لأنك ترفضين فتح بابها ولأن معك متوحشا من الغابة، كان يكذب، أقنعة القتلة متشابهة دوما، تصيح فيه: اقتلني هنا، لا أريد الموت تحت أقدام «نابليون»، يبتسم ابتسامة شاحبة، كاذبة: جئنا لنأخذك إلى بروكسل، وافق أخونا الملك على رعايتك، ستتلقين العلاج اللازم هناك، يكذب، تعرف جيدا إلى أين سيأخذونها، هذا ليس أخي، وإلا لماذا اقتحم غرفتي، يكذب، تقول: كيف عرفتم أنني هنا، على هذا الفراش؟ يقول: بابا روما أرسل لنا خطابا غريبا، دعينا لا نضيع الوقت، ارتدي ملابسك، ودعينا نتحدث في القطار، خدعة، فخ جديد، من العبث أن يبقى أخوها

هادئا هكذا وهي بهذا العري تقول: لن أذهب معكم، تلتفت إلى «آسي» وتصيح فيه: لا تدعهم يأخذوني، دافع عن سيدتك، يتقدم ويقف أمامهم وهو يلوح بقضيب الفضة، يظل واقفا، يمنعهم من الاتجاه نحوها، يحاولون إزاحته من طريقهم، ولكنه يعترضهم، يلوح أمامهم بالعمود الفضي فيهاجمونه بكعوب البنادق، يشتبكون في قتال ضار، تمتلئ الغرفة بأصوات الحيوانات وهي تزوم وتهدد وتتأوه، تتناثر بقع الدم في كل مكان، وتهوي أجسادهم، يقاومهم جميعا، ويتلقى الضربات من كل جهة، لكنهم أكثر من طاقته وأقوى من قوته وأعتى من قدرته، يسقطهم جميعا، ترى وجهه المضرج بالدم قبل أن يسقط فوقهم، أكان حتما أن يتم الأمر بهذه الضراوة؟ تعرف أنها معركة خاسرة، القتلة لا يترددون، ويقول الذي يشبه «فليب»: لم يكن هناك داع لكل هذا القتال، الآن سترتدين ملابسك ونمضي معا في سلام، ولكنها تهتف وقد تحشرج صوتها: لا أريد الذهاب إلى بروكسل، أريد العودة إلى بيتي في المكسيك، تبدو عليه ملامح من الأسى، يتجه نحوها ويتناول يدها، سآخذك إلى أي مكان تريدين فقط دعينا نبتعد عن كل هؤلاء الجرحى، تلتف بالملاءات حتى تخفي عريها، ترى الجندي الأسود وهو يتابعها بعينيه، عاجزا عن النهوض، يمد الرجل الذي يشبه أخيها يده نحوها وهو يقول في هدوء: هيا بنا يا أختاه.

عام (١٨٦٧ - ....) م

نفوس ومصائر

- ١٩ -

«مسكينة شارلوت»، آخر كلمات يرددها وهو يقف في مواجهة كتيبة الإعدام، عليه ألا يرتعد، لأنه يخشى من عيونهم المتحفزة أكثر من فوهات البنادق، لا يبالي بقطرات المطر، سينسون كل شيء ويتذكرون هذه البادرة من الضعف، ما زال الإمبراطور، حتى وطابور الموت المكون من سبعة جنود يصطف أمامه، يحملون بنادق بمسورتين، أربع عشرة رصاصة، تكفي واحدة فقط لتخترق قلبه، وتنتهي هذه المأساة الهزلية، لماذا لا يضغطون على الزناد الآن؟ أربع سنوات من الصراع لا تستحق لحظة انتظار زائدة، عرش لا طائل من ورائه، في البداية يقبله على مضض، وها هو يوشك أن يفقد حياته في مقابله، الجري وراء الوهم أشد إنهاكا لأنك لا تقبض إلا على فراغ، ينصب الفرنسيون له فخا جميلا، ثم يفلتون قبل أن يطبق عليه وحده، الآن يغسل «نابليون» يده من دمه، وتتعلل الجميلة «أوجيني» بشيء عن سوء الطالع، بينما يقف هو فوق أرض موحلة تحت سماء مكفهرة، ينتظر رصاصة الرحمة، لماذا لم ينتبه عندما وصلته برقية «شارلوت» الأخيرة؟!: «لا فائدة».. كلمة قاطعة تحدد المصائر، «نابليون» العجوز يعاني من ذهان الشيخوخة، مثل آلهة «الأولمب» لا يستجيب للتوسلات، بينما يصاب «مارشالات» الحرب بالفزع، ترتج الأوسمة على صدورهم ويهرعون إلى سفن الهرب يتبعهم جنودهم، لكنه يتماسك، لا يتصور أن رحيلهم سيبعث بالسكينة في

أعماقه، لا يجري فزعا في أروقة القصر كما كانوا يتصورون، يشعر أنه أصبح حرا، أخيرًا سيتخلص من كل الوجوه الفرنسية التي كانت تحاصره، لن ينازعه مارشال أو وزير، لن يتهمه المتمردون بعد اليوم بالخائن الأبيض القادم من خلف المحيط، سيجلس على العرش ويدير إمبراطوريته الجديدة، ما يحتاجه هو جيش محلي قوي، لحظتها سيتمكن من التفاوض مع «بنيتو خوارز»، سيكون رحيل الفرنسيين بداية اتفاق يرضي الجميع، رحلت جرثومة المرض، ولكن برقية أخرى تداهمه، كلمات موجزة عن مرض زوجته، يسافر طبيب يدعى «ريدل» خصيصا ليعالجها في بروكسل، من هو هذا الطبيب؟ يسأل طبيبه الخاص مندهشا: يرد عليه دون مواربة: إنه مدير مصحة «فيينا» للمجانين؟ يتغير وجه «ماكس» ويخيم عليه ذهول صامت، أي جنون قادها إلى ذلك الجنون؟! تتأكد المخاوف التي أحس بها منذ آخر برقية يائسة أرسلتها إليه، لا يندهش عندما يقف «بيازين» أمامه، يستمع إلى كلماته بهدوء مبالغ فيه، «تلقيت أمرا من إمبراطور فرنسا بالانسحاب من كافة الأراضي المكسيكية.. مهمتنا انتهت يا سيدي»، الجنرال المخادع الذي تلقى كل الهزائم يتركه الآن ليدفع الثمن وحده، يواصل كلماته: أمرني الإمبراطور أن نطلب منك المغادرة بصحبة الجيش إلى فرنسا، يشعر بالغضب يتصاعد في داخله، يصرخ فيه: أنا إمبراطور هذا البلد، لست مجرد طرد تحملونه معكم، لا يأبه «المارشال» بغضبه، يقول: المقصود هو حمايتك من غضب الناس، لم يتعود «ماكس» منه إلا على هذه الإهانات الخفية، والتذكير الدائم بفضل الجيش الفرنسي، يقول له بأدب جم: لا حاجة لي بحمايتك يا سيدي، تكفل أنت فقط بحماية نفسك، يتركه واقفا وينصرف من أمامه، لن يشاهد وجهه مرة أخرى وهذا أفضل ما في الأمر، لا يشاهده بعد ذلك إلا بشكل عابر، وهو

يسير على رأس قواته في مقدمة الاستعراض الأخير للجنود الفرنسيين وهم يغادرون المدينة، يراقب خروجهم من خلف ستائر نافذة القصر، تدق الطبول، وتسير طوابير من جنود زرق في شوارع صامتة، لا أحد يهتف، فقط بضع نساء وحيدات يلقين الأزهار على الجنود، يودعن كل العلاقات العابرة، فرنسا كلها ستكون علاقة عابرة، يهتف عندما يختفي آخر جندي منهم: أخيرًا أنا حر، سيعيد اكتشاف أناسه الجدد، يترك لهم الفرصة ليعرفوا أنه ينتمي إليهم أولا، يفعل ذلك بشكل عملي، يطرح نفسه من جديد على مجلس البلاط، الأعيان والقساوسة والوزراء، يريد شرعية جديدة بعيدا عن أسنة حراب الفرنسيين، شرعية وطنية خالصة، يترك لهم القصر والمدينة ليأخذوا قرارهم دون ضغوط، البعض منهم صوت ضد بقائه إمبراطورا، ولكن أغلبية الأصوات طالبته بالبقاء، صحيح أن كل وزير من حكومته كان يملك صوتين، هم الذين رجحوا بقاءه، أغلبية مشكوك فيها، لكن هذا الأمر يدفع بالدموع إلى عينيه، سأموت فداء لهذا الوطن، دون أن يدري يطرح على نفسه فكرة الموت، يقوى داخله هاجس أنه لن يغادر هذه البلاد حيا، من الأفضل أن «شارلوت» الحزينة قد هربت مبكرا، لكنه لو أراد العودة إلى أوربا فلا يوجد له مكان هناك، أخوه إمبراطور النمسا على وجه خاص لا يريد عودته، لا يريد لأحد أن يصارع أولاده على العرش، ومن المؤكد أن أوربا كلها تتحدث عن زوجته المجنونة، لكنه يقف في مواجهة «خوارز»، كل واحد منهما يملك جانبا من شعب المكسيك، عليه أن يعمل حتى يرجح كفته، يتقدم الجنرال البلجيكي «سمسن»، يهتف به: امنحني شرف قتالهم في معركة فاصلة، سأقتل الآلاف وأسر مثلهم وأريحك منهم جميعا، قائد منفوش كالديك الرومي، قادم من بلجيكا حيث لا يكفون عن التبول، وهنا لا يكف عن الكلام، لا ينسى أنه كان

يطارد زوجته، لا يعرف إن كانت قد استجابت له أم لا! ولكنه كان لحوحا كذبابة، رغم ذلك عليه أن يضع مشاعر الغيرة جانبا، يستجيب له، يعطيه أفضل الخيالة وبقايا المرتزقة الذين بقوا في البلاد، كان المتمردون قد استولوا على أماكن جديدة، يندفعون في هوس لملء كل مكان يخلوا من الفرنسيين، كان البلجيكي مغرورا أكثر مما ينبغي، ينصب المتمردون له فخا مرعبا، يلتهمه ويلتهم رجاله، وكل الطنطنة حول النصر المؤزر، كان الأمر بعيدا قليلا عن النهاية.

يأتي إليه جنرالان مكسيكيان من أشد الموالين له، يتوسلان إليه: كن قائدا لجيشك يا مولاي، يكفي أن تكون في مقدمة الجيش حتى تتضاعف شجاعة الجنود، هكذا يدفعون به إلى مقدمة الصفوف، فكرة رومانسية، تلائم المزاج الانتحاري الذي يسيطر عليه، لم يحارب ولم يتدرب ولم يتواجد على الأرض من قبل، كان قائدا لواحد من أقوى أساطيل البحر، فهل يجديه القتال على الأرض؟ عليه أن يقود الجميع إلى المقامرة الأخيرة، يذهب إلى المتمردين قبل أن يأتوا إلى العاصمة، قبل أن يحاربوه في عقر داره، حيث كل شيء متهرئ، والمدينة مليئة بالثغرات التي يمكن أن ينفذوا منها. الحل أن يقود الجميع، يضمهم حوله، يحاول أن يسد الثغرات ويضم أطراف جروحها المفتوحة لعل جسد الدولة يتعافى قليلا، يسير للجبهة الأكثر تقدما، إلى «كويرتيرو»، بلدة في الجنوب، خطوط المواصلات مفتوحة بينها وبين العاصمة وبين فيراكروز، التلال التي تحيط بها تهددها دائمًا، لو استطاع أن يمنعها من السقوط فسوف يمنع عرشه أيضًا، هكذا ببساطة يأخذ كل ما بقي من جيشه، المتطوعين والمرتزقة، سيكون قريبا من فيراكروز، حتى إذا انتصر، وإذا تماثلت «شارلوت» للشفاء يكون في انتظارها، ولكن في اليوم الأول من وصوله يأتي إليه واحد من القادة، ألماني قادم من

بروسيا، يقول له في صوت باتر: لقد اخترنا الموقع الخاطئ يا مولاي، هذا موقع لا يمكن الدفاع عنه، كان هو الذي اختاره بنفسه، يشير إلى التلال التي تحيط بالمدينة، هذه التلال ستحمينا، ولكن الألماني يرد عليه: إذا استطعنا أن نمتلكها، ولكن ليس لدينا الرجال ولا المدافع التي تمكننا من ذلك، كأنه يختار أن يهزم نفسه بنفسه، عليه أن ينسحب، يبحث عن موقع أكثر تحصينا، ولكن قبل يقوم بأي فعل يكون أتباع «خوارز» قد وصلوا بالفعل وأحكموا حصارهم على المدينة، يعلون بمدافعهم فوق التلال ويضعونه أمام مصير محدد، معركة محتومة عليه أن يخوضها مهما كانت نتيجتها.

لا يتأخر المتمردون كثيرًا، يبدءون هجومهم الشرس في منتصف الليل، يسمع صراخ الحرس كأنه قادم من عالم آخر: اقتحم الأعداء خطوطنا الأمامية، يكتشف أنهم كان لديهم المعلومات الكاملة حول مواقع الاستحكامات، خيانة كاملة وربما كانت متوقعة، يرتدي ثيابه على عجل ويركب جواده، لا مجال للمقاومة، ولا طريق للهرب، يعرف الأعداء نقاط الضعف في خطوط الدفاع، ويسدون منافذ التراجع، تنطلق نحوه رصاصة مباشرة من بندقية مجهولة، تخترق عنق الجواد الذي يمتطيه، يهوي به إلى الأرض، يحيط به المتمردون وهم يصرخون، سقط الخائن الذي خرب البلاد، لا يدري لماذا لم يقتلوه في هذه اللحظة نفسها؟! كان صيدا ثمينا كفيلا بإنهاء الحرب، يأخذونه إلى القصر الذي استضافه من قبل، تحول فجأة إلى سجن، اختلفت الغرف وأصبحت عارية من الأثاث، في حركة عبثية تحول الإمبراطور إلى سجين! لا يوجد في غرفته إلا فراش صغير ومنضدة ومقعد خشبي وجرة ماء، يختفي كل الذين كانوا يحيطون به وينتظرون أوامره، حتى «خوارز» لم يأبه بالقدوم إليه، يتركونه لساعات وأيام طويلة منزوٍ في أحد أركان الغرفة، لا يسمع

إلا صياح الحرس، كأن العالم بأسره قد نسي وجوده، لم يحضروا له طعاما، ولم تسمح له نفسه أن يطلب شيئا، لم يكن ليترك لهم فرصة لإذلاله، تمضي ثلاثة أيام من الجوع والصمت، يبدأ بعض من السفراء في زيارته داخل محبسه بعد أن كان يستقبلهم في قصره، يأتي السفير النمساوي في مؤخرتهم جميعا، يقول له: أرسل الإمبراطور «جوزيف فرانز» رسالة إلى أمريكا يطلب منها التدخل من أجل إنقاذك، على الأقل لم ينسه أخوه ولم تنسه عائلته، ولكن شيئا لا يتغير، الغرفة الضيقة تطبق عليه، والحرس يصرخون في الخارج، يسمع عن مناشدات وتوسلات من دول أوربية، لكن يبدو أن «خوارز» لا يستجيب، لم تدع الحرب الضروس التي نشبت بينهما مجالا للرحمة، يجيء اليوم الذي حددوه لمحاكمته، يصرون على فضحه أمام الجميع، الخائن الذي جاء به الاحتلال وأشعل نيران الحرب الأهلية، يرفض الذهاب إلى المحاكمة، إن كانوا مصرين على قتله فليفعلوا ذلك دون مزيد من الجلبة، لكن الحرس يرغمون جسده الواهن على السير، يتحرك بينهم أشبه بشبح، لحيته الشقراء قد استطالت، وأصبح جلده بالغ الشحوب، وتبددت الزرقة من عينيه، قارب جسده على التلاشي، يصبح مظهره لا واقعيا، يبتعد درجة عن وجوده الحي، لا تحضر المحاكمة إلا امرأة واحدة هي زوجة القاضي الجنرال الذي كان يحاكمه، تفضل بقية نساء المدينة البكاء في صمت داخل بيوتهن، حكم الإعدام كان متوقعا، يبدو «ماكس» هادئا وهو يستمع إلى الاتهامات، ليس أقل من الخيانة العظمى، يتحقق الهاجس الذي كان دائمًا ما ينتابه، لن يغادر هذه البلاد حيا.

في صباح يوم الإعدام يرتدي حلة الإمبراطور المزركشة، ويعلق كامل أوسمته، ويصعد أخيرًا إلى ساحة الإعدام فوق تل الأجراس، تمامًا كالسير إلى تل الجلجثة، بصحبته آخر جنرالين أصرا على البقاء

معه، الوحيدين اللذين لم يهربا، يتم اتهامهما أيضًا بالخيانة ويحكم عليهما بالإعدام، كان التل موحلا، زلقا، مثل اليوم الذي دخل فيه هذه البلاد، وعندما يصل إلى القمة، يرى طابور الإعدام في انتظاره، ستة جنود والقائد المكلف بهم يصبحون سبعة، يرتدون الزي الأزرق والأحزمة البيضاء، يقف أسقف المدينة الأب «ثوريا» يرتدي السواد ويقرأ من إنجيل صغير، يتلو عليه صلاة صغيرة، ينتصب «ماكس» في لحظة الشجاعة الأخيرة وقد فرد صدره، يتلقى آخر دفقة من الهواء النقي، يتقدم قائد طابور الإعدام، يتمتم قائده ببعض من كلمات الاعتذار، إنها الأوامر يا سيدي، يرد عليه «ماكس» في صوت يحاول أن يكون متماسكا: أنت جندي وعليك أن تؤدي واجبك، يمد يده في جيبه، يخرج سبع قطع ذهبية، يعطي واحدة لكل جندي، يقول في صوت خافت: صوبوا جيدا، لا أريد أن ترى أمي وجهي مشوها، الأمر الأخير الذي يتمكن من إصداره، يرفع القائد ذراعه ليعطي الأمر بإطلاق النار، ولكن صوت «ماكس» يعلو وهو يقول: أنا أغفر للجميع، وأصلي من أجل أن يغفروا لي أيضًا، وأرجو أن تجلب دمائي السلام لهذه الأرض، فيفا مكسيكا.. كم أنت مسكينة يا «شارلوت»! تنطلق الرصاصات الست في وقت واحد، في هذه اللحظة تعبر إحدى السفن المحيط متجهة إلى شواطئ المكسيك، تحمل أقفاصا مليئة بالعصافير والطيور الملونة، كان الإمبراطور قد أمر باستيرادها حتى يطلقها في الغابة المحيطة بقلعته، وطوال الرحلة لم تكف عن إطلاق أصوات من التغريد المتواصل التي كان يحلم أن ينام عليها.

لم تسمع «شارلوت» صيحته الأخيرة، رغم أنها كانت تنتظرها، تنتظر الفرصة التي تعود فيها إليه، لا تغادر رائحة الغابة المطيرة أنفها، ولا يغيب عن عينيها المشهد الذي كانت تطل عليه من قلعة

«شابولتبك»، تطمئن نفسها في كل لحظة: سيأتي ليأخذني، سأنتظره لستين عاما قادمة، يضيق عالمها الخاص، لا يتجاوز غرفة صغيرة نصف معتمة، لم تعد قادرة على مواجهة الضوء، ولا الأصوات العالية، لا تعرف أن أوربا كلها كانت تتابع إعدام الإمبراطور، هي وحدها التي لم تعرف، كان «نابليون» يحاول إخفاء الأخبار حتى تنتهي الاحتفالات التي تقيمها باريس بمناسبة المعرض العالمي، لا يرد أن يزعج ضيوفه من الملوك والأباطرة، لكن الخبر يتسرب رغما عنه في ليلة الافتتاح، كان جالسا على العرش، يحاول أن يخفي أمراض جسده الواهن، و«أوجيني» بجانبه كأجمل ما تكون، ولكن الملوك وبقية الوفود بدءوا ينسحبون في صمت، أخذت القاعة تخلو تدريجيا منهم، وبدا أن شبح الإمبراطور القتيل يخيم على المكان، حتى «أوجيني» نفسها لم تستطع أن تحبس دموعها.

في نفس اللحظة بدأت «نوفارا» سفينة الأسطول النمساوي التي كان يقودها «ماكس» رحلتها إلى «فيراكروز» لتحضر جثمان الإمبراطور القتيل، ولم يكن الأمر سهلا، فقد رفض «خوارز» تسليمه إلا بعد أن تعترف النمسا به بسلطته كرئيس للمكسيك، وكان على الإمبراطورية النمساوية العجوز أن ترضخ له، ترحل السفينة عائدة به حتى يظهر البرج الأبيض لقلعة «ميرامار» التي غادرها منذ ثلاث سنوات ونصف السنة وهو على قيد الحياة، لا تعلم «شارلوت» أن جثمانه يعبر المحيط، تعرف فقط أن القطار حملها رغما عنها إلى بروكسل، تحدق في مدينة طفولتها بعيون غائرة، لا تستطيع التعرف على أي من معالمها القديمة، تداخلت سنوات عمرها القصيرة في بعضها البعض، لحظات من بروكسل تمحوها لحظات أخرى من ميرامار وتطغى عليها لحظات من مكسيكو، طبقات متداخلة في ثنايا مخها، صور آخذة في الاضمحلال،

يصف لها طبيب فيينا الشهير «ريدل» المزيد من المساحيق والسوائل المهدئة، لعلها تعود إلى حالتها الطبيعية، لكنها تنسحب منهم إلى عالمها الداخلي، يقدم الطبيب تقريرا لأخيها الملك حتى يتركونها على هواها، لا تغلق عليها أبواب أي غرفة، ولا تمنع من التجول داخل القصر، ويجري التنبيه على الخدم أن يخفوا كل أنواع الجرائد بكل اللغات، وهكذا تبدأ في التجول بمفردها في طرقات القصر، شبح يسير على قدمين، تستعيد خطوات طفولتها، تستغرق في الضحك وهي تقف أمام تمثال الغلام الذي لا يكف عن التبول، ترى أناسا يشبهون إخوتها، يتحدثون بكلمات لا تفهمها، لكنها تنجذب دائمًا للتمثال الفرعوني المنحوت من البازلت الأسود، تندفع في جسدها عصارات فوارة وهي تتأمله لساعات، تصرخ في الخدم أن يزيلوا عنه الغبار، يجب أن يبقى لامعا دائمًا، كأنه على وشك العودة للحياة، تأمرهم أن يحضروا الماء والصابون، ستقوم وحدها بتنظيفه، تنساب عليه خيوط الماء والصابون، كما ينساب الدم داخل الشرايين، لكنه لا يتحرك ولا يتجسد لها، تخرج إلى شرفات القصر، لا يوجد بحر، لا شيء يربطها بشواطئ المكسيك البعيدة، ولكنها تلمح شيئا مختلفا، يبرز شخص ما من بين أجمة الأشجار الملتصقة بالسور، يعدو فوق العشب وهو يلوح لها، يريدها أن تنقذه من الفراغ الذي يحيط به، تشهق منذهلة، الحجر يتحرك، دبت الحياة في تمثال البازلت الأسود، يقترب قليلا ويصيح فيها: أنا الآسي، يبعث فجأة، يخرج من ظلمة ذاكرتها، يقترب أكثر فتتعرف على وجهه واسمه، تلوح له، هل جاء ليصحبها إلى «فيراكروز»؟ من المؤكد أن «ماكس» هو الذي أرسله، تدعوه أن يقفز نحو شرفتها، لكن معدتها تتقلب فجأة، يندفع من فمها قيء حار ولاذع، تهبط ستارة من الضباب بينها وبينه، يبرز الحرس من مكان ما،

ينقضون عليه، يقيدون ذراعيه ويجرونه بعيدا، يصرخ ويشتم ويعترض، وعندما تفيق من القيء لا تجد أحدا، تجد العشب خاليا، لا أثر للتمثال الحي، اختفت الرؤيا، تظل واقفة وهي تصرخ، لا أحد يقترب منها أو يواسيها أو يلومها أو يشرح لها، تعود إلى طرقات القصر الباردة بأقدام متخلخلة، تسقط على الأرض مغشيا عليها، تفيق لتجد نفسها في مكان آخر، يتم نقلها إلى قصر آخر، قلعة يحيط بها خندق عميق، لا يوجد به إلا ماء عكر وبعض الفئران المنتفخة، تشعر بالغثيان ولا تكف عن التقيؤ، حتى بعد أن تبتعد عن الشرفة، يهاجمها الغثيان كل صباح حتى دون أن تأكل شيئا، يطلب أخوها الملك من طبيبه الخاص أن يقوم بعمل فحص لها في سرية تامة، لايقدم له تقريرا مكتوبا، ولكن شفهيا فقط، مهمة غير سهلة، ترفض وتقاوم، ولكن ليس طويلا، طاقة الحياة الواهنة تجعلها تستسلم لأصابعه، تتركه يغوص في رحمها، يطلب الطبيب لقاء الملك منفردا، الإمبراطورة حامل، يمتقع لون الملك، أسوأ خبر كان يخشاه، مرت شهور طويلة منذ غادرت المكسيك، كان يجب أن تظهر عليها أعراض الحمل في وقت أبكر، يتذكر ما قيل له عن ذلك الجندي الأسود الذي ظل ملتصقا بها، هل يمكن أن تنجب سليلة ملوك أوربا طفلا أسود؟ يجب أن نتخلص من الجنين، يقول ذلك في خفوت، لكن الطبيب يبدو مترددا، كثيرًا ما تفشل الأدوية والعقاقير في هذا الأمر، ولكنه يرى النظرة القاسية في عين الملك، يقترح عليه: ربما نستعين بخبرة عجائز حي «لا كاردي نور»، حي العاهرات في شمال المدينة، هل وصل الأمر لهذا الحد؟ يفكر الملك شاعرا بالإهانة، لكن هاتي النسوة هن الأكثر مهارة ودربة في تفريغ البطون المتورطة وغير الراغبة، لم يكن الملك مقتنعا ولكنه يترك أمر السرية للطبيب، تدخل المرأة العجوز إلى القلعة للمرة الأولى والأخيرة، تحط على

غرفة الإمبراطورة كالكابوس، أصابع أخرى تقتحم جسدها الواهن، يسيل نزيف داكن، أشد كثافة من المعتاد، تشعر «شارلوت» بالخواء مرة أخرى، يصبح جسدها في خفة الطيور البرية، تحس أنها قادرة على القفز من النافذة، لكنهم يضعون قضبانا على نوافذها، شبح حي، تعيش في عالمها الخاص، على أمل أن تأتي اللحظة ويظهر الجندي الأسود ويعيدها إلى المكسيك.

لم يكن الجندي الأسود بعيدا، كان مقيدا في قبو تحت القصر الملكي، سجن واسع ورطب ينتمي للعصور الوسطى، بدأ رحلته الطويلة من إيطاليا إلى هذا المكان، تدفعه ثقة داخلية أنها تريده، وأنهم أخذوها من بين ذراعيه رغما عنها، لم يعد يراها إمبراطورة ولا ملكة، مجرد امرأة تخصه، لا أحد يستكين في الغابة عندما تختطف امرأته، عليه أن يعبر كل الحدود التي تواجهه ليستردها، سيجعلها تختار، إما أن يعيدها إلى المكسيك، أو يأخذها للغابة إذا أرادت أن تعيش حياة حقيقية، يقفز بين أكثر من قطار وعربة، يعبر أكثر من مدينة، يبرز ورقة قديمة تسلمها من سلطات الجيش في «فيراكروز»، مكونة من بضعة سطور وعليها ختم مستدير تقول إنه جندي في الجيش الفرنسي، ورقة متهرئة لكنها كافية لعبور عوائق الطريق، يجد نفسه أخيرًا وسط بيوت «بروكسل» العتيقة، يتنفس رائحتها في المكان، كل النساء يشبهنها، يحملن درجة شحوب بشرتها، والتورد الواهن في وجنتيها، تقوده الطرقات إلى قصر الملك، الراية التي ترفرف فوق ساريته، تعني أن الملك موجود في القصر، لا يهم، المهم أن السور الممتد كان منخفضا وقليل الحراسة، لا يتردد طويلا، يقفز من مكان تطل عليه الأشجار، يختبئ بين الغصون، يشاهد فناء العشب الممتد حتى أعتاب القصر، أين يمكن أن تكون؟ ينتظر أن تطل من شرفة أو نافذة، فرصة نادرة،

ولكن صعوده إلى فراشها كان أمرا نادرا أيضًا، يظل مترقبا طوال اليوم، لا ينصرف إلا بعد أن يحل الظلام، يعود في اليوم التالي والذي يليه، لا بد أن تقوم المصادفة بفعلها العشوائي، يلمحها وهي تطل من الشرفة، رغم بعد المسافة يتأكد أنها هي، يشم رائحة جسدها، يقفز من على الشجرة ويعدو لاهثا مسرعا فوق العشب المبتل، يلوح لها بذراعيه فتنظر نحوه، تميل كأنها توشك أن تلقي بنفسها إليه، يسمع اسمه على لسانها، ولكن الحرس يظهرون، يسرعون نحوه، يظل ثابتا في مكانه أمامها، لا يريد أن تراه وهو يعدو هاربا، يجذبونه بعيدا حتى يغيب عن وجهها، يهبطون به إلى عتمة القبو، لا رفاق له إلا بضعة من الفئران، تراقبه بعيونها المستديرة وتتحرك بحرية كأنه غير موجود، هل ستتدخل هي من أجل إنقاذه كما فعلت في المرة الأولى، لا تفعل، لا يقدمون له طعاما، ولا يفتحون باب السجن، ولكن الأمل لا يخبو بداخله، لا يتصور أن تفقد قوتها لدرجة أنها لا تنقذ رجلها الوحيد، الذي رفعها إلى ذروة لن تصل إليها مع أحد، هي التي أخبرته بذلك، كيف يمكن ألا تستدعيه إلى فراشها مرة أخرى؟! تمر عليه أيام ثلاثة، يصيبه الجوع بالوهن، وعندما يفتح باب الزنزانة أخيرًا يجد نفسه عاجزا حتى عن الغضب، يدخل الجنود، يتبعهم الرجل الذي انتزعها منه في المرة الأولى، يصرخ فيه أنه ليس أكثر من ذبابة طنانة يجب دهسها، لكنهم لن يقتلوه هذه المرة أيضًا لأنه ذات يوم قد أنقذ حياة الإمبراطورة، ولكن عليه أن يبتعد دون عودة، هذه المدينة كلها محرمة عليه، يحملونه على عربة تجرها الخيول، يضعونه داخل قفص حديدي، يغلقون عليه الباب بقفل ضخم، تسير العربة طويلا، تخرج من بوابة القصر، وتعبر الشوارع، يتأمل كل مكان يمر به، يريدها أن تبقى في ذاكرته حتى يعود إليها ذات لحظة، تسير العربة إلى خارج المدينة، بجوار

نهر صغير تسبح فيه أسراب من الإوز الأبيض، يبتعد كل شيء ويغيب ضوء النهار، لا يبقى من الأصوات إلا وقع سنابك الجواد، تنمحي كل المعالم، تذوب في الظلام، تسير العربة في ممر طويل داخل غابة لا نهاية لها، لايهم إلى أين يأخذونه، لن يقتلوه هذه المرة، في استطاعته إذن أن يعود، تتزايد برودة الطريق إلى درجة التجمد، يغمر الألم كل جسده، تتراجع الغابة للوراء، ويقبل الضوء من مكان ما خلف الأفق، تبدو عدة أكواخ متجاورة خلفها سور من الأسلاك الشائكة، يدرك أنهم قد وصلوا للحدود، يجذبونه للخارج، يجرونه بعنف، يضربونه بمؤخرة البنادق في أنحاء متفرقة في جسده، ثم يدفعونه خارج السور، يشيرون له بالابتعاد، ويحاول الاندفاع متجها إليهم، لكنهم يطلقون النار تحت أقدامه، تدوي الطلقات في فراغ الصباح البارد، يعدو مبتعدا عنهم، يسير مسافة تفصل بين حاجزين، لا يأبه به أحد وهو يمر عبر الحدود إلى الجانب الآخر، مجرد زنجي يمكن أن يكون عاملا أجيرا في بعض المزارع، سيعود بنفس الطريقة، ولن يختلف وجهه عن بقية الوجوه السوداء، يسير متعبا ومترنحا إلى أول قرية، كان في حاجة إلى طعام ومأوى، سيبحث عن أحد المزارع، سيعمل طوال الوقت حتى يستعيد قوته، ثم يعود إليها من جديد، ولكنه ذات ليلة، بعد يوم مرهق في جمع التفاح، وهو يتناول طعامه القليل، يجد رئيس العمال وهو يقرا في إحدى الصحف، يرى على صفحتها العديد من الوجوه السوداء، من بينها رسم لوجه يعرفه جيدا، يشبه تمامًا «ألماس» أفندي.

عندما يسأل الصحفي الفرنسي البكباشي «محمد أفندي ألماس» كيف رأى تلك الحرب البعيدة؟ يتمهل قليلا، لا يجد جوابا محددا، يقول بخفوت: كنا مجرد بيادق صغيرة فوق رقعة واسعة من الشطرنج، لم نصل أبدا للمربع الأخير، هذا هو أول ما يتبادر إلى ذهنه، وليس بعيدا

عن الحقيقة كثيرًا، يريد أن يتحدث عن إحساس الافتقاد على الذين رحلوا من رجاله، وكان شاهدا على موتهم، شاهدا على أيام ضائعة مليئة بالعنف والدم، انتهت الحرب على ما لا يساوي كل هذا الهراء، تريد باريس أن تكرم الجنود الذين حاربوا معها، ويستعد الإمبراطور لاستقبالهم، أي سخرية مريرة، أن يتركوا خلفهم كل هذا العدد من الموتى، ويمارسون كل هذا القدر من الوحشية، وفي النهاية لا يكون في وسعهم سوى الانسحاب، ترك خلفه مائة وأربعين قبرا، غير الذين ألقي بهم إلى البحر أو أسروا أو هربوا عبر الغابة، يدرك أنهم يستيقظون كل يوم في الظلام ويشاركونه وسادته، يحفظ ملامحهم جميعا ويناديهم بأسمائهم كل ليلة، يقف اليوم أمام إمبراطور الفرنسيس، يضع على صدره وسامهم وهو يدرك أنه يودعهم بلا ثمن، هذا الوسام لا يوازي الدم ولا حسرة الافتقاد، كان رجاله هم آخر من غادروا هذه الأرض الغريبة، قاموا بحراسة الأسوار وخط السكة الحديد في دوريات لا تنتهي، على مدى شهر كامل وطوابير الجنود المنسحبة لا تكف عن التوافد للمدينة، كان عليه أن يحميهم، كانوا جميعا متعبين، ملوا من كثرة القتال، من سقوط كل المدن التي حرروها، والعودة للقتال في المكان نفسه الذي فقدوا فيه رفاقهم، حرب بلا نهاية، دون معركة حاسمة، أعداء كالتنانين برءوس كثيرة، كلما قطعت رأسا نبت أخرى.

ومع صدور أمر الانسحاب سادت حالة من الرعب، بدأ جنود الفرنسيس يعرضون خيولهم للبيع، بأثمان بخسة، تم تفجير المدافع الثقيلة، تراخت قبضتهم وانتشر اللصوص، يسرقون كل ما يجدونه، ويقتلون من يعترضهم، يصبح المتمردون أشباحا مرعبة، يختطفون اثنين من الضباط الفرنسيين، وعندما تحاول قواته تخليصهم يفقد اثنين آخرين، يخترق المتمردون شوارع المدينة ويهاجمون بخيت ومبروك

وسودان، يذبحونهم في مواقعهم، تصبح الليالي أشد ظلمة والقمر محاق وترحل النجوم من صفحة السماء، يغيب الضوء عن العالم، وتوقظ الظلمة كل كوامن العنف، تشحذ غرائز الشر، يسير «ألماس» في شوارع المدينة مذهولا، يرى جحيمًا من النهب والسرقة والتشاجر إلى حد القتل، حتى حانة «إيزابيلا» القديمة امتلأت بالأوغاد، لا يعرف من أين جاءوا ولا لأي فريق ينتمون؟ وتبدأ السفن القادمة عبر المحيط في الظهور، سبع عشرة سفينة ترفع كلها العلم الفرنسي، بينها السفينة «السين» التي نقلتهم من الإسكندرية إلى هذا الجحيم، يرتعد قلبه ويصيح رجاله في فرح، وسط هذه الفوضى يبزغ أمل في العودة، بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر من قتال لا يهدأ، حان وقت الخروج من هذا الفخ، ولكن صفوف الجنود ما زالت تتوالى، القطارات التي ترد على المدينة أصبحت صيدا سهلا لرجال العصابات، عليهم أن يوفروا لها حراسة دائمة ليلا ونهارا، لم يعد النوم ممكنا في الليل، فقط بضع ساعات من النهار بالمناوبة، عندما تغمض العيون تحدث الكوارث، أصبح الأعداء هم أهل المدينة أنفسهم، أسقطوا أقنعة الخوف وتبدت ملامحهم العدائية، لو بقيت «إيزابيلا» على قيد الحياة، هل كانت تكشف القناع عن عدائها؟ ثم يجيء قطار تحت أقصى درجة من التأمين، يصطف الجنود ويهبط منه الجنرال «بيازين»، سمع عنه كثيرًا ولكنها المرة الأولى التي يقابله فيها وجها لوجه، طوال هذه الفترة كان ينفذ أوامره دون أن يراه، يعرف فقط أنه أقوى رجل في هذه البلاد، أقوى من الإمبراطور نفسه، تسير خلفه شابة صغيرة، من أهل البلاد واضحة الجمال وبارزة النهدين، تبكي والجنرال يربت على ذراعيها العارتين حتى تهدأ، يتركها ليتوقف قليلا أمام ألماس وهو يقول: نحن مقدرون لما فعله رجالك يا سيدي، يضم ألماس قدميه لبعضهما ويرفع يده

محييا: تمام يا سيدي الجنرال، انتهى كل شيء، حانت لحظة الرحيل الذي لا مفر منه، يشير له الجنرال أن يسير بجانبه، وتتأخر الصبية قليلا، يقول فيما يشبه الهمس: ستكونون آخر من يرحلون، ستحمون ظهورنا جميعا حتى النهاية، رغم صوته الهامس كان هذا أمرا، عليه أن ينظم رجاله في خطوط للدفاع، إذا تم اختراق خط يتقدم الصف الذي يليه ليسد الثغرة، ولكن هجوم المتمردين كان صاعقا، تأهبوا كثيرًا لهذه اللحظة، يبادرون بالهجوم قبل أن يصعد الجميع إلى ظهور السفن، كأن أسوار المدينة قد انهارت فجأة ودخل منها كل أنواع المتمردين، لا يتوقف جنوده عن إطلاق النار، لا يكف المتمردون عن التقدم، يلح عليه ضباطه بركوب القارب، ولكنه لا يريد أن يتركهم وحدهم، لا يجب عليه ذلك، يشاهد أحدهم وهو يسقط ويشاهد الثاني تغمره الدماء، لا مجال للعودة وسحب الجثث، تصرخ السفينة في تململ ويخوض الجنود السود معركتهم الأخيرة، يتراجعون حتى تلامس أحذيتهم مياه البحر، ويطلقون النار وهم غارقون حتى ركبهم في الماء، يوقفون تقدم المهاجمين ومحاولتهم الاستيلاء على القوارب، تنهار آخر قطعة من الإمبراطورية، ويقتل الجندي الثالث قبل أن يتمكن من ارتقاء السلم إلى أعلى، تطلق السفينة دفقة كبيرة من دخانها وتدوي صفارتها الأخيرة،ويرى «ألماس» من فوق المركب طلائع المتمردين وهم يندفعون إلى الشاطئ مواصلين إطلاق النار، ولكن ما إن تبدأ السفن في التحرك وتصبح بعيدة عن مدى الطلقات، حتى يتغير كل شيء، يهلل جنوده وهم يقفزون في فرح، وتنتقل العدوى إلى السفن الأخرى، يهلل الجنود من كل الجنسيات، ويبدأ المتمردون على الشاطئ في التهليل أيضًا، انتهى الصراع غير المجدي، توقف الدم الذي لم يكف عن النزيف، يمكن للجميع الآن أن يلتقطوا أنفاسهم، يحتوي البحر

الجميع، ويحس «ألماس» أن الإسكندرية تقترب، فقد قطعة من قلبه ومات جزء من روحه ولكن الإسكندرية تقترب، تأتي برقية من سفينة القيادة، يصدر الجنرال «بيازين» أوامره بأن تتوجه سفينة الجنود السود إلى ميناء «طولون» أولا، سيهبطون في فرنسا حيث يتم تكريمهم، سيشرحون للإمبراطور كيف قاتلوا ببسالة وعنف حتى ينقذوا جيش فرنسا من الانهيار، تبدأ رحلة جديدة إلى هذه المدينة المبهرة، يقولون له إنها تستعد للمعرض العالمي، يسير في مقدمة جنوده في صف طويل تسبقهم الموسيقى العسكرية، ويمرون من تحت قوس حجري ضخم، يسمونه «قوس النصر»، لكن لا هم انتصروا ولا الذي بناه انتصر، يستمع الإمبراطور «نابليون» إلى تقارير قادته وهو يتأمل الرجال السود، ويعلق على صدر رجل متوسط القامة، وسام «شافلية دي لا ليجيون دونور»، هكذا يذكر الإمبراطور اسمه، ويردده «ألماس» خلفه لعله يحفظ هذا الاسم الطويل، وسام الفارس أعلى أوسمة الحرب، يشعر بالرضا أخيرًا، يقول الإمبراطور: سيكون خديوي مصر سعيدا بعودتكم، أنتم نواة جيش جيد، يمكنه أن يغزو بكم أفريقيا كلها، تعلو أصوات الموسيقى وتخف ضجة الحرب، ولكن لا تخف درجة حزنه على فقدان المرأة التي ملكت كيانه، يأخذونه في جولات هو وبقية الجنود ليشاهدوا معالم باريس، يفتن بها، ينتهز الفرصة ليتجول فيها وحيدا على قدميه، في اليوم قبل الأخير لرحيله يخرج من ثكنات الضيافة بمفرده، جو رمادي، يحمل نذر المطر، العصافير تغرد في خجل، ولكن ما إن يسير بضع خطوات حتى يعترض خطواته شخص نحيف، يجده أمامه كأن الأرض قد انشقت عنه، يلفت نظره لون بشرته السوداء، ولكن ملامحه مخفية تحت لحية كثة، وشعر يخالطه الشيب، ينظر إليه مندهشا، بينما تفتر أسنان الشخص الآخر عن ابتسامة متعبة، يقول: أنت لم تتعرف عليّ

يا سيدي القائد، يتعرف على صوته فورا، رغم أنه كان مرتعشا ومتعبا، لم يكن «العاصي» ليغيب عن باله، يقول له: ماذا حدث لك، كيف أصبحت بهذا البؤس، ألم تكن برفقة الإمبراطورة؟ يقول «العاصي» وكأنه على وشك البكاء: أخذوها مني، لا يفهم «ألماس» شيئا، كيف وصل واحد من أشجع جنوده إلى هذه الدرجة من البؤس؟!

يجلسان على أحد المقاعد الخشبية المطلة على النهر، تحلق الطيور فوقهما بتمهل، ولكن «العاصي» يتكلم في سرعة، يريد لاهثا أن ينتهي من عبء حكايته، يستمع إليه ألماس في هدوء دون أن يبدو على وجهه أي تعبير، يقول أخيرًا: من الجيد أنك ما زلت على قيد الحياة، لقد قابلتني في الوقت المناسب، احتفظ بحكايتك لنفسك، أستطيع التفاهم مع السلطات الفرنسية وأعيدك معنا إلى الإسكندرية، يحدق فيه «العاصي» بنظرات شاردة، يقول دون تردد: لا أود الرحيل، لا أريد العودة، يحدق ألماس فيه، لم يعد هناك شيء يثير الدهشة، أكثر من رجل فضل البقاء في «مكسيكا»، ولكنه يود التأكد مما سمعه: تريد أن تبقى هنا؟ يقول «العاصي»: أجل، ليس لديّ شيء هناك، غير العبودية، أنا هنا حر تمامًا، أعمل وآكل وأشرب وأنام كما أريد، وهي أيضًا موجودة هنا، قريبة من هذا المكان، يكفي فقط أن أعبر حاجزا من الأسلاك الشائكة لأصل إليها، يهتف ألماس منزعجا: لا يمكن أن تفكر بهذه الطريقة، سيقتلونك لو اقتربت منها، هل نسيت من أنت، أنت مجرد جندي أسود.

يقول «العاصي» في ثقة: أنا الرجل الوحيد الذي تحتاج إليه، يوما ما ستتمكن من الخروج من خلف أسوار القصر، ربما أستطيع الذهاب إليها، وربما تأتي هي للبحث عني، وربما نتقابل بالمصادفة، في الغابة لن أصادف سوى الثعابين والنخاسين، يفكر «ألماس» أن يقبض عليه، يدع الشرطة الفرنسية تقبض عليه وترحله للإسكندرية، ولكنه يظل

يحدق فيه، يقول محذرا: لو بقيت هنا ستقتل، يرد: مهما كان مصيري فهو الأفضل، لا يتحدث عن المهن الحقيرة التي تقلب فيها وهو يسعى نحو باريس، نزح الأوساخ، ونقل البضائع، وكنس الشوارع، قبل كل الأعمال التي عرضت عليه، لم يرفض عملا، ومع كل فرنك يكسبه كان يتقدم خطوة نحو هذه المدينة، كان يعرف أن امرأته ما إن تخرج من عزلتها القسرية حتى تأتي إلى هذه المدينة وتقابله، المصادفة وحدها هي التي جعلته يرى رسما لزملائه وهم يسيرون في طابور ممتد في «الشانزلزيه»، اهتز وارتعد وطفرت الدموع من عينيه، كانوا يرتدون ثيابهم البيضاء وقد ازدادت نظافة، وطرابيشهم الحمراء وقد أصبحت متوهجة، وقرر أن يذهب ويرابط أمام المكان الذي يقيمون فيه، لكنه الآن لا يريد أن يكمل رحلته معهم، لايوجد هناك من يفتقده، منذ أن تم أسره وقد فقد إنسانيته، لم يستعدها إلا على فراش هذه الإمبراطورة الغريبة، ينهض واقفا، يرفع يده بالتحية لقائده، ولكن ألماس يقترب منه ويحتضنه بقوة، يمسح «العاصي» دموعه ويدير ظهره ويمضي مبتعدا، لم تأت الإمبراطورة الحزينة إلى باريس، لم تغادر أبدًا قلعتها التي تحيط بها الخنادق، في لحظات وعيها القليلة كانت تؤكد للجميع أنها غدا ستعود للمكسيك، ولكن الواقع سيجرف «العاصي» ويأخذه بقوة، سيجد نفسه بين عمالها، وتتحسن لغته الفرنسية حتى يقبلونه في اتحادهم، رغم أنهم نادرًا ما يقبلون الغرباء، ستتلقى فرنسا التي تعتز بأنها تمتلك أفضل جيش في أوربا هزيمة مروعة أمام جيش بسمارك الألماني، وسيبتلع الإمبراطور العجوز هزيمته ويوافق على دخول الجيش الألماني إلى باريس، تحل عليه لعنة غزو أرض الآخرين، وتصبح مدينته مفتوحة أمام الألمان، يريدون أن يؤكدوا انتصارهم وأن تمر طوابيرهم من تحت قوس النصر، يرفض عمال باريس هذا الإذلال،

ينضم إليهم «العاصي» الذي كان يعمل وقتها في مصنع للأخشاب، أصبح أسطى متقدما، يندفع معهم، يستخدم خبرته السابقة في إقامة المتاريس، في تنظيم صفوف العمال، يهرب الإمبراطور وحكومته خارج المدينة إلى فرساي، ويستولي العمال على باريس ويعلنون قيام أول «كميونة» في التاريخ، ويصبح «العاصي» واحدا ضمن تسعين فردا في المجلس الذي تألف لإدارة المدينة، سيقاومون ويتناقشون ويترددون، يحاولون صنع المدينة الفاضلة وسط عالم من الفوضى وانعدام العدالة، ستة أشهر كاملة وهم يحاولون إقامة «اليوتوبيا»، المدينة الفاضلة كما يتصورونها، ستة أشهر كانت عمر الحلم، قبل أن يهاجمهم جنود الإمبراطور القادمين من فرساي، يقتلون المئات من العمال الذين لم يكونوا يحملون سوى أسلحة بسيطة، يسقط «العاصي» على أحد المتاريس في شارع «فولتير»، تخترقه رصاصات في الظهر من حيث لا يتوقع، يدخل جنود الإمبراطورية من الجهة الأخرى من المتاريس، تخلي لهم قوات الاحتلال الألماني التي تحاصر باريس ممرا حتى يدخلوا منه، يتجنبوا التحصينات وينقضون على قلب الكميونة، ينتهي الأمر بمذبحة مروعة وحرائق ممتدة لا تنطفئ، ويعود الإمبراطور العجوز على جثث الجميع.

وتبحر السفينة «السين» حاملة «ألماس» ورجاله الثلاثمائة من طولون للإسكندرية، يستقبلهم الخديوي إسماعيل، لم يكن هو الذي أرسلهم، كانوا قد رحلوا في عهد أخيه سعيد باشا، لكنه يقف الآن في استقبالهم جميعا، يرى وجوههم السوداء نفسها، لكنهم لم يكونوا هم، أصبحوا جنودا مدربين على خوض القتال، يتحدثون الفرنسية ويجيدون ركوب الخيول وقادرين على القيام بمناورات الحرب الحديثة، يشعر الخديوي أنهم لم يعودوا خانعين، ولكنهم كتلة من الخطر عليه أن

يتوقاها، يسارع بإبعادهم عن مركز الحكم، ينقلهم جميعا إلى مناطق السودان النائية. لم يدر أن بلاده ستصبح هي أيضًا فريسة لاحتلال الغرباء، وسينتهزون حجة إفلاس الخزينة لاحتلالها، نفس الحجة التي استخدموها من قبل وهم ينهبون «مكسيكا» ولكن بدلا من الفرنسيين سيأتي الإنجليز. أصبح «محمد بك ألماس» برتبة أميرالاي وذهب ليساعد «غوردون باشا» في حكم الخرطوم،ولكنه وجد السودان وقد أصبح كالرمال المتحركة، انتفض فقراء الأهالي بعد أن ظهر المهدي المنتظر في صورة درويش فقير، يطلب عدلا مستحيلا، يريد أن يزيح الأتراك والإنجليز والمصريين الذين كانوا يتحكمون في رقاب أهله، تعم القرى والمدن الفقيرة حالة من التذمر والرفض لكل سلطة غريبة، يقود المهدي جيشا من الدراويش ويهاجم حامية الخرطوم، يقاوم «محمد ألماس» بكل استطاعته، ولكن ظرف الحرب كان مختلفا، وظِل الإنسان على الأرض قصيرٌ، يتم حصاره وقتله بلا رحمة.

يدفع بقية الجنود السود أثمانا مماثلة وهم يسعون خلف السير «صمويل بيكر» في مجاهل أوغندا، يريدون أن يضموا أرضا جديدة لممتلكات الخديوي، الرجال الذين لم يكن الموت يحلم بالاقتراب منهم، ماتوا بسهولة بواسطة السهام والحراب البدائية الصنع، في عتمة الأدغال لم تكن هناك فائدة لخبرات القتال الحديثة، الموت كان مترصدا خلف كل شجرة، حصدتهم جميعا، لم ينجوا أحد، وماتوا ناقصي أعمار في زمن كان من النادر أن يكتمل عمر أي شيء!

في البلاد البعيدة يستقبل «علي جوفان» مولوده الأول، يرفعه عاليا في مواجهة الشلال المتدفق، يجعله يتشرب الرذاذ المشبع بالضوء، ترقد زوجته «ماريانا» على فراش من ورق الشجر الجاف، تنظر نحوهما وعلى وجهها ابتسامة مجهدة، جلد الرضيع الصغير بلون البن المحروق،

يصرخ مفزوعا من هدير الشلال، ولكن «جوفان» يضحك، يشعر أن جذوره قد امتدت في هذه الأرض، معجزة أخرى تحدث بعد أن خرج من نفق الموت، عندما تركه أنصار «خوارزم»، لم يكن إلا جسدا داميا متهرئ اللحم، لكن الوريد الذي كان يمتد مع العنق ظل ينبض، خفيضا وواهنا ولكنه ينبض، توسلت إليها أمها أن تدعه يموت في سلام، ولكن «ماريانا» لم تكن قد أتت به ليموت، تضعه على الجواد وتسير به إلى الغابة، تبتهل أن تبقى الروح بداخله لبعض الوقت، تهتدي إلى الشلال بصوته الهادر، ترى كتلة الماء وهي تنحدر إلى أسفل في عنف، بلا توقف، وبلا نقصان، أشبه بحيوان بدائي يقفز في الفراغ بلا نهاية، تسجي رجلها على الأرض قريبا منه، عليها أن تسد الفتحات التي في جسده، حتى لا تخرج منها الروح، تسرع للشلال، تتشبث بصخوره الزلقة، تجمع الطحالب التي ترقد على قمتها، أفاعٍ خضراء طرية ونقية، تزيح عن جسده الأوساخ المختلطة بالدم المتجلط، وتملأ الجروح المفتوحة بالطحالب، تبحث عن أعشاب أخرى، تحميه من الحمى وتخفف من ألمه، تنزع لحاء شجر الصفصاف، وتوقد من أجله نارا، كان رجلها، دون أن تدري ترد له دينه، لقد آمنها على نفسه وأعطاها نقوده وهو يعرف أنها يمكن أن تقتله، لم يرض أن يهان جسدها في بيت الدعارة وقتل رجلا من أجلها، تردد التعاويذ والأدعية، وتبقى الروح داخل جسده طوال اليوم وحتى تغرب الشمس، تخلع ثوبها، وتدخل تحت غطاء الأوراق وتلتصق بجسده المرتخي المستكين حتى يتسرب دفء الحياة من جسدها إلى جسده، تنظف جروحه وتعيد وضع الطحالب من جديد، تتداخل ظلمة الغابة في ضوئها، ولكن كل يوم يمر دون موت هو يوم طيب من أيام الحياة، تقبل عليهما قافلة من الغجر، تقول لها امرأة فارعة، حول رأسها عصبة حمراء إنها ربما تشفي جراح

رجلها ولكنها ستميته جوعا، تطهو له حساءً من أعشاب الغابة، وترفع رأسه وتصب في فمه قطرات منه، وقبل أن ترحل الغجرية تترك لها وصفة الأعشاب ووعاء الطهي.

وفي صباح يوم معتم تسمع صوت أنفاسه، و تحس بنبضات قلبه، ثم يفتح عينيه للحظات، ينظر إليها باستغراب كأنه قادم من عالم آخر، لن يقدر عليه الموت، بعد أيام يمتلك جسده بعضا من القوة، يسيران معا إلى حافة الشلال، تقوم بغسل جسده ببطء وحذر، يقول لها في صوت واهن: لن نعود للعالم الشرير في الخارج، لكنه لن يمتلك الغابة حقا إلا بعد أن يأتي هذا الوليد، حين يطلق صرخته الأولى بين أشجارها، يشعر أن من حقه أن يعيش في هذه البلاد، على الأرض التي تجمعه مع المرأة التي يحبها والولد الذي انحدر من صلبه، سيفعل الشيء الذي فشل فيه الملوك، ينشئ عائلة كبيرة، قادرة أن تبقى وتتواصل، يحتضن الوليد بين ذراعيه ويهبط به للماء، تنتفض عضلات الطفل وهو يحس بالبرودة، تقول له زوجته: سوف تفزع الولد، يقول: لقد نزعت منه رهبة الشلال، سيواجه الدنيا كلها بعد ذلك بلا خوف.

القاهرة ـ اتوا   يوليو ٢٠١٤

كتيبة سوداء

إنهـا رواية عن الحرب والحب والمصير الإنسـاني؛ كتيبة من الجنود السـود ترحـل إلى أرض غريبة، لا تعرف لغتها ولا أهلها ولا تضاريس أرضها، وعليها أن تخوض حربًا لا تهدأ ضد عدو مجهول، بلا تردد ولا تراجع، وإلا كان الموت مصيرهـم. إنهم جزء من لعبة لا يعرفون مداهـا، فيها أباطرة وملوك وملكات، تحركهـم جميعًـا قوى دولية لا تكف عن التناحر، ولكن وسـط هذا يسـتيقظ صوت الإنسان المفرد وهو يقاوم مصيره؛ بحثًا عن لحظة من الحب والسكينة.

إنها رواية ضد العبودية والقهر؛ تمجيدًا للشجاعة والصلادة البشرية، وهي في النهاية تلقي الضوء على منطقة مجهولة من التاريخ المصري.



محمـد المنسي قنديـل؛ روائي مصري، ولـد في المحلة الكبرى عام ١٩٤٩. تخـرج في كلية طـب المنصورة عام ١٩٧٥م، ولكنه انشـغل بإعـادة كتابة التراث فاعتزل الطب وتفرغ للكتابة. حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٨. ولقد تميزت كتاباته بشغفه بالتاريخ. صدر له العديد من الروايات ومنها: «انكسار الروح» (١٩٩٢)، و«قمر على سمرقند» (٢٠٠٤) التي فازت بجائزة «سـاويرس» للآداب (٢٠٠٦) وترجمت إلى الإنجليزية، و«يـوم غائم في البر الغربـي» (٢٠٠٦) التي وصلت إلى القائمـة القصيرة في جائزة البوكـر للروايـة العربيـة (٢٠١٠)، ورواية «أنا عشـقت» (٢٠١٢). كما صدرت له مجموعتـان قصصيتـان هما «لحظة تاريخ: قصص من الـتراث» (٢٠١٣)، و«ثلاث حكايات عن الغضب».



9 789770 933237

دار الشروق

www.shorouk.com